

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٥م

سقوط آل سعود

(القصة الكاملة لسعود هم وفساد هم وسقوطهم الوشيك)

سعيد أبو ريش

ترجمة

محمد قطمة

دار السويدان

بيروت

الإهداء

فى ذكرى صديقى سعود ابراهيم المعمر الذى عُدَّ بِحَتَّى الموت على
يدى آل سعود...

وذكرى والدتى التى حزنْتُ عليه قدر حزنى عليه...

سعيد أبو ريش

المؤلف

- * ولد سعيد أبو ريش فى الضفة الغربية فى عام ١٩٣٥.
- * التحق بالجامعة الأمريكية فى الولايات المتحدة.
- * عمل مستشارا لعدة حكومات عربية.
- * عمل مراسلا صحفيا للشرق الأوسط فى راديو أوروبا الحر وصحيفة ديلى ميل.
- * صدرت له كتب عديدة حول الشرق الأوسط.
- * يحمل الجنسية الأمريكية ويقيم فى لندن.

تنويه

هذا الكتاب صدر أصلا باللغة الإنجليزية
من دار نشر بلومزبرى بلندن فى عام ١٩٩٤

فهرست

شكر

| | |
|----------|---|
| ٩..... | الفصل الأول: نفط ودماء ومصالح..... |
| ١٧..... | الفصل الثاني: تحت ظل الخيمة..... |
| ٤٩..... | الفصل الثالث: كل شيء تعمه التفاهة..... |
| ٨٦..... | الفصل الرابع: مكن لانظير له..... |
| ١٢٦..... | الفصل الخامس: الاخوة اختيارية..... |
| ١٥٥..... | الفصل السادس: صداقة وحشية..... |
| ١٩٠..... | الفصل السابع: صفقات كبيرة ومغامرات خطيرة..... |
| ٢١٨..... | الفصل الثامن: خط الدفاع الأخير..... |
| ٢٤٠..... | الفصل التاسع: خدم العرش..... |
| ٢٧٠..... | الفصل العاشر: النفط والأوبك والمشرقيين..... |
| ٢٩٧..... | الفصل الحادي عشر: بعد فوات الأوان..... |

شكر

وافق أربعة وثلاثون شخصا من الذين أجرينا معهم أحاديث بشأن هذا الكتاب على ذلك بشرط أن تبقى أسماعهم مجهولة. وسمح آخرون بذكر أسمائهم دون أن تنسب إليهم عبارات محددة وبعض الذين شاركوا لم يتفقوا معي في النهج الذي اتبعته في هذا الكتاب أو النتائج التي استخلصتها. لكن كل الأفكار المعروضة وكذلك السليبات هي مسؤولية وحدي.

وإذا تركنا هذه الوقائع جانبا فإنني أود أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى كل من:

جميل مروة صحفي، عبد الباري عطوان رئيس تحرير، غسان زكريا رئيس تحرير، روبرت فيسك، مراسل/ جان صيا صحفي ومؤرخ، سليمان فوزلي صحفي، فريد الخطاب، صحفي، توبى أودون صحفي موارد جارت صحفية، قاسم جعفر صحفي، دافيد بودمان مخرج تلفزيوني، روزي ووترهاوس صحفية، بيير سالتجر، صحفي، محمد كياردي صحفي، ماريا كليمر، صحفية، هلجا جراهام صحفية، دافيد جاردنر صحفي، ستيفن تيمويل محرر، د. سها الصباغ باحثة، بروفيسور موسى موزاوي مؤلف د. محمد فيصل محرر، دافيد هيلير كاتب تلفزيوني، خلدون صلح ناشر، روث ماري هوليس، المعهد الملكي. ويليام كواندت، مؤسسة بروكينجز، جيمس اكينز سفير، هارولد كنتر سفير، روبرت كورمر عضو مجلس الأمن القومي الأمريكي، اريك رولو، سفير- توفيق الشيخ، عبد الأمير موسى، حمزة الحسن، سعد البزاز من الحكومة العراقية، د. غلام حسين رعد، إيراني بول باركر- مشول بينك، بوب مكارتي مسؤول بينك، زياد بيضون، جيولوجي، سوارنولد عاملة بمستشفى الرياض العسكري.

ومن الأسماء التي لم نعلنها اسم احد اعضاء عائلة سعود ودبلوماسيين بريطانيين،

و ٣ أفراد من المخابرات المركزية الأمريكية وخمسة من موظفي البنوك بعضهم من البنك الدولي وصندوق النقد العالمي وسبعة صحفيين (مازالوا يترددون على السعودية، وثلاثة من رجال الأعمال الذين لديهم مصالح فى السعودية. والباقيون من الذين عملوا من قبل فى السعودية. وكما هى العادة فى تأليف الكتب ساهم اقرباؤنا واصدقاؤنا بقدر كبير فى هذا الكتاب وأخص منهم بالذكر والذى أبوه سعيد، واهناء عمى خليل وغالب وابن أخى ناصر، وصديقاتى كيت بك، وسيدة نسيبى، ولورا ساندیس وسوتایلر وجان كوشينج واللك براير وجين ايتشيفر وهنرى ايلويل وجيمس ايكلىبى وجريقود ماكينون وسمير شوريجى.

سعيد أبو وعش

سقوط آل سعود

تترفع السعودية الآن على حافة الإفلاس - وقد كان لديها فائض قدره ١٤٠ مليار دولار في عام ١٩٨٢ وتعانى الآن من عجز قدره ٦٠ مليار يمكن أن يصل إلى ١٠٠ مليار في عام ١٩٩٥. وإسراف البيت السعودي في الاتفاق يدل على عدم مراعاة لمصالح المواطنين، وهو أمر ليس جديداً أو غريب عليه. لكن المجدد هو حجم الدين، وهو كبير بدرجة جعلت البيت السعودي غير قادر على وشرة مواطنيه لإسكاتهم أو إخراش السنة جبرانه العرب. وقد طالب صندوق النقد الدولي بضرورة إجراء تغييرات في كيفية إدارة البلد.

وبين عامي ١٩٨٢ و١٩٩٢ تناقص متوسط دخل الفرد إلى النصف وتزايدت مطالبة المواطنين للمشاركة في حكم بلادهم. وهم يلومون بيت سعود على المشاكل الراهنة وعلى سياساته وعلى سلوك أفرادها الذي أصبح غير مقبول على الصعيد العربي أو الإسلامي.

وعلى طول المنطقة العربية محتج الجماعات الإسلامية على إنفاق آل سعود لشروة البلد على احتياجاتهم الشخصية وعلى التسليح الغريب المكلف، ويحترضون على فساد أخلاقيات أعضاء الأسرة المالكة وإنفاقهم الأموال على مطاردة النساء، وممارسة القهر في الداخل لخنق حرية الأفراد واللجوء إلى سياسات بائنة كالطرد والجن وإعدام المواطنين ودعم النظم الديكتاتورية.

والنصر الهام في هذا الكوكبتيل هو احتياج الغرب إلى نفط السعودية وبجوءه إلى حماية العرش السعودي لضمان تدفق النفط بأسعار زهيدة مما يعرض مستقبل البلد للخطر. وبصبح التغيير ضرورة - واستيلاء الجماعات الإسلامية على السلطة يمكن أن يؤدي إلى ارتفاع كاسح في أسعار النفط مما قد يؤدي إلى أزمة اقتصادية عالمية أو حرب بين الغرب والإسلام أو الاثنين. وبعد دراسته للضغوط التي تهدد العرش السعودي فإن سعيد أبو ريش يركز على واحدة من أكبر المشاكل وأكثرها خطورة في هذا العصر.

الفصل الأول

دعاء.. ونقط.. ومخالف

كثيرا ماتطالعنا الصحف بمثل هذه العناوين «وكالة الفضاء البريطانية تحصل على عقد ضخ من وزارة الدفاع السعودية».

«الملك فهد يكون مجلسا للشورى، لكنه يحتفظ بسلطات مطلقة».

«السعودية تحافظ على أسعار منخفضة لبيع النفط».

«الضغوط تتزايد على أعضاء الأوبك الآخرين».

«السعودية مصممة على أن تحمل محل صدام».

العناوين أعلاه المتعلقة بتصرفات أو سوء تصرفات السعوديين ظهرت على صفحات الصحف في شهر واحد خلال عام ١٩٩٢، وهي تعبر بوضوح عن مدى السيطرة الاقتصادية والسياسية التي قارسها السعودية. وهي في نفس الوقت تشير إلى محاولات المملكة للاستجابة لرياح التغيير التي تجتاح العالم الآن. وإذا أضفنا إلى هذا خبرين آخرين غير مسجلين، تصبح الصورة أكثر وضوحا، هذان الخبران هما «الآلاف يموتون في السجون السعودية» و«زواج الملك فهد للمرة المائة».

هذه الممارسات والسلطات غير العادية التي يتمتع بها هذا البلد ليست مقبولة بالمقاييس العالمية الحالية. ومن حسن الحظ أنني لست الوحيد الذي يرى مايجرى ويراقبه بقلق. والسؤال الذي يتطلب إجابة سريعة هو ما إذا كان استمرار النظام السعودي بشكله الراهن أمرا لا يستطيع السعوديون أو المجتمع الدولي تجاهله لوقت أطول، فالنظام العالمي الجديد وديناميكيات التغيير الاجتماعي في الشرق الأوسط وفي السعودية نفسها احدثت استجابة واضحة لايعرقها الانفصال التاريخي الواقع بين

السياسة والأيدولوجية كما أن العالم لم يعد يحتمل الاسلوب المتخلف الذى تدير به السعودية شؤونها حتى وإن كان فى ظل صداقتها بالغرب، وهى صداقة مبنية على المصالح النفطية.

واستمرار البيت السعودى فى الحفاظ على بقائه واستخدامه للبترول ليعزز به نفوذه الاقليمى والدولىبقى قويا دائما. ولم تعد تجدى أساليب القهر والتعسف التى صانت هذا النظام الملكى الاقطاعى. ومع هذا فإن الإجابة النهائية التى تفرضها هذه التطورات الداخلية والاقليمية ليست بالوضوح الذى تبدو به، والإجابة الحقيقية يمكن أن تكون مؤقتة فقط وتأخذ فى اعتبارها دوائر السلطة التى تعمل السعودية من خلالها، حيث ان هذا البلد يمارس سلطانه ونفوذه من خلال حلقات ثابتة ومتماثلة، غير أن الكيفية التى تتفاعل بها هذه الحلقات متغيرة على الدوام وهو ما ساعد البيت السعودى. فى المحافظة على توازنات متقنة وناجحة للغاية بهدف إطالة عمر الحكم أو بالأصح ضمان ديمومته. وما أن نظام الحكم فى السعودية يمثل النظام الأول فى العالم الذى يقوم على حكم الفرد فإن بيت سعود دأب على إدارة البلد وكأنها ضيعة خاصة بحيث تصبح المملكة السعودية والبيت السعودى، شيئا واحدا، لذلك فإننا فى هذا الكتاب نستخدم التعبيرين بالتناوب.

وبصفة عامة فإن سياسات السعودية، بما فى ذلك سياساتها الداخلية لها تأثير متنوع ومختلف على مواطنيها وعلى العالم العربى والعالم الإسلامى والعالم ككل.. ويعتمد نفوذ السعودية على عاملين هما: موقعها كأهم منتج للنفط، بوصفها صاحبة أضخم احتياطي نفطى فى العالم، وموقعها الهام -المبالغ فى أهميته- كموطن للمقدرات الإسلامية. ففى غياب التهديد السوفيتى الشيوعى فإن موقعها الاستراتيجى الذى كان من مصادر قوتها فى الماضى يفقد أهميته.

والسياسات الباردة المتناقضة التي تنتهجها السعودية مع البلدان التي تتعامل معها توضح كيفية استغلالها للفرصة التي اعطاها إياها النفط. والغرب الذي يعتمد على شراء نفطها بأسعار متدنية بهمه أن يرى تقاسما للثروة أكثر معقلية داخليا وإقليميا. لكن البيت السعودي يقضى على رغبة الغرب هذه بجعله أكثر اعتمادا على نقطة الرخيص خصوصا مع التغير الدائم في الأحوال الاقتصادية. ولأن الغرب يخشى فقدان هذا الامتياز المريح فإنه يتفاوض عن مسألة تحقيق العدالة في اقتسام الثروة، وهكذا يستمر البيت السعودي في النظر إلى عائدات النفط بوصفها دخل شخصي لأفراد الأسرة المالكة وفي نفس الوقت يجعل الغرب يتجاهل التزامه الاخلاقي بشأن بدء الإصلاح في هذا البلد.

وهناك أمثلة أخرى على استمرار هذه السياسة: فالمعونات التي تقدمها السعودية لبلاد عربية وإسلامية تقوم على مبدأ «فرق تسد» فهي مثلا تعطي المال لسوريا لتحقيق التوازن مع القوة المتنامية لمصر، والعكس صحيح، وبهذا تدفعهما الى منافسة تنتهي بالخصومة ويصبح الجانبان أكثر ضعفا، أو تساعد الأصوليين في الأراضي المحتلة في الضفة والقطاع لكي تضعف الرئيس عرفات وفي نفس الوقت تعارض وصول الأصوليين الإسلاميين في الجزائر لسدة الحكم خوفا من قيام جزائر عسكرية مسلمة تهدد سياساتها العربية، ويبقى القاسم المشترك في كل هذه السياسات هو خلق نزاعات إقليمية تؤخر دخول الديمقراطية-التي لامناص منها- إلى المنطقة ويتركس بيت سعود لهذه الأوضاع فإنه يضمن الاستمرارية حيث أن الانسجام بين القوى الإقليمية يشكل تهديدا له. كما أن وجود نظام ديمقراطي في أي بلد مجاور يمكن أن ينقل العدوى.

وللمرة الأولى في تاريخ السعودية تواجه سياساتها لإطالة عمر الحكم تحديا حقيقيا سواء على المستوى العالمي أو الاقليمي أو المحلي. فقد بدأت بوادر تقارب وتجميع صفوف على الأصعدة الثلاثة التي ذكرناها. لكن النظام السعودي لم يتقدم بأي مبادرة

سياسية تشير إلى اتخاذه خطوات عملية وجريئة لمواجهة التطورات الاقليمية والعالمية أو المحلية وبدلا عن ذلك قامت برفع ميزانيتها وزارة الدفاع والإدارة الخاصة بالبيت الملكي-فى العائلة وحامى حماها.

وبالإضافة إلى تضاؤل الأهمية الاستراتيجية الذى أشرنا إليه من قبل فإنه توجد رغبة صريحة من جانب القائمين على النظام العالمى الجديد لتخفيف التوتر وإزالة أسباب الفرقة ونزع فتيل الانفجار فى منطقة الشرق الأوسط، وبالنسبة للسعودية فهذا يعنى تبنى سياسات جديدة تنهى سوء استغلال السلطة على المستويين الداخلى والاقليمى، وتنتهى ايضا التعسف الداخلى ليس فقط فى مجال اقتسام الثروة مع المواطن السعودى العادى وإنما بحماية حقوق الانسان واعطاء المواطنين حق إبداء الرأى فى مناقشة قضايا بلدهم، والسعودية لاتستطيع الاستمرار فى تجاهل المآزق الاقتصادية لجيرانها وإنما عليها البدء فورا فى العمل على استخدام المساعدات التى تقدمها كرشوة للحكام العرب لرفع مستوى معيشة الشعوب بدلا من وضع هذه الأموال فى جيوب الحكام لضمان ولايتهم ودعمهم للخط الرجعى والمتردى للسعودية. والسعودية كما هو معروف محاطة بجيران فقراء يصعب تجاهلهم . وليس ببعيد عن الأذهان تبريرات صدام حسين فى غزوه للكويت حين زعم بأنه يفعل ذلك من أجل توزيع عائد النفط على جميع العرب.

زادت التطورات الاقليمية الضغوط على البيت السعودى لكى يغير سياسته غير المجدية، فسوريا ومصر اصبحتا مجاهران برغبتهما فى قبض الثمن على توفيرهما الدعم العسكرى والحماية للسعودية. وشكواهما قاتل شكوى صدام فالسعودية تملك الكثير وهما لا تملكان شيئا. وأعضاء البرلمان فى الأردن بدأوا ينتقدون علنا سياسات الحكومة السعودية وينددون بإسرافها المخطير. ويطالبون بمساعدات أكثر. وترى اليمن أن استخدام السعودية للمال من أجل المحافظة على دورها كتابع ذليل لقوى أجنبية

أصبح لا يطاق. وهى تطالب السعودية بأن تسن قوانين شعبية من أجل بناء مؤسسات ديمقراطية وتحقيق الرخاء لشعبها. أما إيران المسلمة فإنها تضيق بمجرد فكرة الملكية وتشكك فى الكيفية التى يدير بها البيت السعودى شؤون البلد.

كل هذا يحتم على السردية تبنى سياسات جديدة تهدف لمواجهة هذه الضغوط. أما مصدر الضغط الثالث الذى يواجه البيت السعودى فهو يأتى من الداخل. فالسعوديون بدأوا يرفعون أصواتهم احتجاجا على احتكار اعضاء الأسرة المالكة للحكم (يتراوح عدد الذين يحكمون البلد من أسرة سعود ما بين ٣٥ إلى ٤٠ فردا) وذلك بعد أن ارتفعت اعداد المتعلمين بصورة كبيرة يصعب على السلطة الحاكمة استيعابهم كما كانت تفعل فى الماضى أو رشوتهم جميعا بوظائف جيدة وامتيازات، خاصة وأن النظام القبلى الذى كان بشكل قاعدة متينة للحكم بدأ فى التلاشى ومهد الطريق للتمدن والتحضر الذى تنطلع إليهما أغلبية أكبر من الناس ولن يمر وقت طويل حتى تتمكن من جمع صفوفها وتوحيد جهودها فى وجه الأسرة المالكة. وحتى الزعماء الدينيين أحسوا برياح التغيير وأصبحوا يخشون من أن تقتلعهم حركة إسلامية أصولية لذلك طالبوا بالتقليل من سيطرة العائلة المالكة قبل فوات الأوان. أما الجيش المزود بالعتاد الغربى والذى تصرف عليه أموال لا حدود لها فإنه يرى أن لامناص من تجميع القوى المعارضة لصفوفها فى المستقبل.

لكن ما هو رد فعل البيت السعودى بعد ثلاثين عاما من الماطلة والوعود الكاذبة؟ رده فقط هو إنشاء مجلس للشورى يقوم الملك بتعيينه. وغنى عن القول أن مثل هذا المجلس المعين لا يمكن أن يعارض الملك أو أفراد أسرته. وقد نجح الملك بالفعل فى إجهاض دور المجلس منذ البداية عندما أعلن معارضته لإدخال أى شىء شبيه بالنظام الديمقراطى فى السعودية. وبالتالي ستقتصر صلاحيات هذا المجلس على مناقشة قضايا ثانوية يوجه بها الملك. وربما كان أهم عنصر فى هذا المجلس هو فكرة إنشائه نفسها.

وإذا تركنا جانباً هذه الخطوة -ذات الغرض الإعلامى فإننا لانجد أن البيت السعودى قد أظهر أى استجابة تدل على تفهمه لرغبة العالم - بما فيه الغرب- فى التغيير وإنما نجد يختبئ كالعادة وراء الادعاء بأن وضع الاقطار الإسلامية يختلف وأنها غير قادرة على تبني الديمقراطية.

ولا يرى البيت السعودى النداء من أجل المشاركة فى اقتسام الثروة وحماية حقوق الانسان أكثر من وسيلة لتكريس التدخل فى شؤونه الداخلية- ومن المعروف أن الناس فى السعودية مازالوا يختفون من بيوتهم فى منتصف الليل ويسجنون دون محاكمات، هذا غير الجلد بالسياط وأحكام الاعدام...

وما زال البيت السعودى يرفض الاعتراف بأن اختفاء الاتحاد السوفيتى من الساحة قد غير قوانين اللعب ولم يعد أى شخص فوق النقد والضغط... ومع أن البيت السعودى لا يتمتع بأى شعبية وسط مواطنيه أو أمام زملائه فى منظمة الأوبك فإنه مازال يرى أن تزويد الغرب بنفط رخيص سيحميه ويحافظ على استمرارية حكمه.

وعلى المستوى الاقليمى يتجاهل حكام بيت سعود عدم المساواة الناجم عن الاختلافات فى مستويات المعيشة بينهم وبين جيرانهم ويعتقدون أنهم إذا ما انفقوا الأموال لرفع مستوى معيشة الأفراد فإن هذا يمكن أن يشكل خطورة عليهم، (وكأننا نقوم بتعليم الناس لكى يطالبوا بالمزيد من المال والحقوق) وهذا هو السبب فى أنهم يدعمون الأنظمة الفاسدة لمجرد أن حكامها يسيرون على النهج السعودى، كما أنهم يخدمون المحاولات الديمقراطية ويعيقون عجلة التقدم.

هذه المقدرة الزائفة فى السيطرة على الأمور تعطى أفراد البيت السعودى إحساساً بالأمان هم فى أشد الحاجة إليه، وهذا الاحتياج للأمان يجعلهم يدعمون الحركات المضادة لقيام برلمانات فى كل من الأردن والبحرين والكويت واليمن. وهم يعارضون جميع الحركات التقدمية بما فى ذلك قيام صحافة حرة فى البلاد العربية الأخرى، وهذا

ما جعلهم يحاولون اغتيال الزعيم جمال عبد الناصر أكبر مؤيد للتغيير.

والمشاكل التي تواجه البيت السعودي تبدو أوضح إذا ما نظرنا إلى الشؤون الداخلية فالشعب السعودي لم يعد سهل الانقياد كما كان وأصبحت طبقة المتعلمين والتجار والزعماء الدينيين والتحريريين والمثزمين ونفر قليل من الطامعين للسلطة وأفراد القرات المسلحة تعارض بصوت مسموع الوسائل الديكتاتورية والمستهتره التي يتبعها البيت السعودي الحاكم وعلى الصعيد المحلي أصبح تداول أشرطة الكاسيت والفيديو خاصة تلك التي تكشف عن الحياة الشخصية للملك وعدد زوجاته الحقيقي إلى جانب الكتب التي تكشف تصرفات أفراد العائلة المالكة- أصبحت تشكل أعلى المبيعات ومجد زعماء دينيين من أمثال الشيخ عبد العزيز بن باز الإمام الأكبر للمملكة، يضع اسمه في قائمة المطالبين بإجراء إصلاح سياسي بضمن مشاركة عدد أكبر من أفراد الشعب في الحكم، كما أصبحت أصوات طبقة التجار ترتفع شينا فشيناً معارضة لاشتغال اعداد متزايدة من الأسرة المالكة بالتجارة، ومايتبع ذلك من استغلال للنفوذ واحتكار لبعض السلع بحيث يصبح الآخرون تجارا من الدرجة الثانية.

وبصفة عامة استطاع البيت السعودي جلب استياء الكثيرين وإذا نظرنا إلى احصائية أجريت مؤخراً نجد أن عدد المعتقلين في جرائم سياسية بلغ ٨٠٠٠ خلال حرب الخليج وبعدها. وتزداد الفجوة اتساعاً يوماً بعد يوم ما بين مطالب المؤيدين للتغيير وسلوكيات أفراد البيت السعودي البالية والمنعمه الاحساس، ويبدو أن البيت السعودي قد توصل الى مفهوم مفاده أن القوى المعارضة أقل أهمية وشأناً من الأقطار المعتمدة على النفط وعلى الأخص أوروبا والولايات المتحدة وبدلاً من تهدئة صرخات الاحتجاج الصادرة من مواطنيه وأشقائه العرب فإنه يتمادى في مساندته للغرب والارتباط به أكثر فأكثر حتى وصل هذا الاعتماد إلى حد القبول العلن للحماية العسكرية الغربية ليس في مواجهة قوة عظمى فحسب وإنما ضد مواطنيه أنفسهم وجيرانهم الفقراء.

والجدال أدناه تقارن بين سياسات البيت السعودي وكل من صدام حسين ومعمّر القذافي - وهم أكثر الزعماء العرب الذين ترفضهم الحكومات الغربية وشعوبها وصحافتها -

| قذافي | صدام | فهد | |
|-------|------|-----|-----------------------|
| ✓ | ✓ | ✓ | قتل |
| ✓ | ✓ | ✓ | منع الحريات |
| ✓ | - | ✓ | فساد |
| - | - | ✓ | مخسوبة |
| - | - | ✓ | تأييد أنظمة استبدادية |
| ✓ | ✓ | - | اسعار نفط مرتفعة |
| ✓ | ✓ | - | معاداة الغرب |

والملك فهد ليس المقابل الاجرامى للزعيمين العراقي والليبي لكنه أكثر سوما منهما فى سلوكه الشخصى وفى تأييده للنظم الاستبدادية، والمجال الوحيد الذى يتفوق فيه على الآخرين هو علاقته بالغرب، أما إذا حكمنا عليه بطريقة الكيف فهو يقتل ويجلد المعارضين بنفس العنف الذى يقمع به صدام حسين الأكراد أو الشيعة.

وآل سعود يمارسون المحسوبية والفسق ويؤيدون النظم الاستبدادية ويقمعون الأقليات وهم بصفة عامة أكثر فسادا من أى أحد آخر. وعندما نضيف حقيقة أن المواطن العادى السعودى يهمه بيع النفط بأسعار أعلى وتحسين ظروفه المعيشية أكثر مما تهتم مصلحة الغرب تصبح الصورة لدينا أكثر وضوحا . وقد استمعنا فى هذا المجال إلى آراء عمال سعوديين وسواقين تاكسى ومدرسين ورجال أعمال وجميعهم يطالبون بأسعار أفضل لبيع النفط من فى ذلك أحمد زكى يمانى وزير البترول السابق الذى جعلته سياساته المطالبة بأسعار أفضل للنفط شخصا غير مرغوب فيه بالنسبة لبيت سعود.

يحاول الغرب تحقيق توازن مابين الاستمرار فى حصوله على أسعار زهيدة للنفط وبين التزامه الاخلاقى تجاه حقوق الانسان والاستقرار الاقليمى وحتى الان فإن كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وصحافها يضحون بالمبدأ فى سبيل المتفعة ولا يظهرون أى ميل إلى تغيير نظرتهم إلى البيت السعودى القائمة على اعتباره حجر الزاوية فى سياساتهم الشرق أوسطية لكن هذه النظرة النفعية الضيقة اثبتت فشلها فيما سبق وسرعان ما سيجدون أنفسهم عاجزين عن حماية العرش السعودى كما فشلوا من قبل فى حماية عرش شاه إيران.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو هل من المرغوب فيه استمرار البيت السعودى فى الحكم بصورته الراهنة؟ الإجابة البسيطة المباشرة هي: لا. فسلوك أعضاء الأسرة المالكة الذين يتجاوز عددهم الـ ٧٠٠٠ يمثل المستوى الأكثر انحطاطا بالنسبة للتقاليد العربية أو أسلوب الحياة فى القرن العشرين.

يبدأ هذا الكتاب كدعوى مدعومة بالوثائق ضد الست السعودى على أمل إقناع صحافة وشعوب الغرب لتحث حكوماتها على اتخاذ موقف موحد ضد هذا الاستغلال السيء للسلطة لكن أثناء البحث تفسر هذا الهدف وأصبح يأخذ شكل التماس للغرب لسارع بوضع خطط لاحتواء الضرر الذى سنجم عن الاضطرابات المرتقبة فى السعودية وحته على تدمير انقلاب داخل القصر لتفسير طسعة الحكم وتحويل هؤلاء الملوك إلى حكام صوريين. فشورة فى السعودية يمكن أن تؤدى إلى وقف تدفق النفط وهذا التوقف ولو لفترة بسيطة يمكن أن يؤدى إلى أزمة اقتصادية عالمية أو مواجهة بين المسلمين والغرب أو الاثنين. وليس هناك طريقة لتعويض انتاج ٩ مليون برميل من النفط فى اليوم من آبار السعودية دون تعريق ميكانيكية العالم الصناعى. ولا يبقى وقتها سوى احتلال حقول النفط. وهذا الاجراء وإن كان مجديا عسكريا إلا أنه يعنى احتلال الغرب لأراضى اسلامية مقدسة وهذا سوف يؤدى على الفور إلى إعلان الجهاد ضد الغرب، الكافر..

الفصل الثانى

نحت ظل الخيمة

سوف نبدأ بتقديم الصورة الشائعة عن ابن سعود وبعد ذلك أكشف معدنه الأصلي. ولكن قبل ذلك أوجه سؤالا هاما وهو: لماذا جعل الغرب معظم قرائه يعتقدون بأن ابن سعود هو أعظم قائد عربى فى القرن العشرين، وواحد من أعظم العرب فى كل العصور.

قبل أربعين عاما وصف المستشرق البريطانى - غريب الأطوار - هارى سانت جون فيليبى الملك عبد العزيز عبد الرحمن آل سعود (١٨٧٠-١٩٥٣) مؤسس المملكة العربية السعودية (الشهير بابن سعود) بأنه أعظم عربى منذ وفاة النبى (صلعم). وفى السنوات التى تلت قام عشرات الكتاب الغربيين بالتحدث عن ابن سعود بنفس الطريقة، وحاول بعضهم رفعه لمصاف كبار القواد والزعماء، واطلقوا عليه عبارات مثل «مؤسس الجزيرة العربية الحديثة» و«قائد العالم الإسلامى» و«الرجل الذى وحد الجزيرة العربية الخ...». لكن قليلا من الكتاب ألمحوا إلى بعض طباعه الرذيلة مثل قطع رؤوس أعدائه ويتر اعضائهم وجلدهم بالسياط واعتماده على مفسر الأحلام لاتخاذ القرار، وسوء معاملته للنساء، وحاول بعض هؤلاء الكتاب الأجانب القول بأن العرب أناس أجلاف ويستحقون الطريقة التى يعاملهم بها ابن سعود، ولكن هذا الزعم غير صحيح على الإطلاق، والعرب أناس لهم حضارة وتاريخ وعراقة، ومعظم الصفات الذميمة التى يوصفون بها إنما جاءتهم بسبب هؤلاء الحكام الجهلة الذين سنحت لهم الظروف بالتحكم فى رقاب العرب. وابن سعود فى حقيقة الأمر شخص جاهل ومستبد وفاسق ومتعطش للدماء وهو رجل يبدى محب للمال ومن السهل شراؤه. وهو ضيق الأفق وقصير النظر ولا يملك ثقافة بلده. وخبر مشال على جهله هو رفضه لفتح مدارس للبنات فى الوقت

الذى كانت فيه كثير من البلاد العربية المجاورة للسعودية تقوم بتعليم البنات برغم فقر إمكانياتها ولايرجد فى سجل ابن سعود مايدل على أنه كان يقوم بزيارة المدارس أو المستشفيات لتفقدّها. وفى المرة التى طلب فيها ابنه طلال بناء مستشفى انتهره وطلب منه أن يذهب لنعل شىء أفضل. وإضافة لذلك كان ابن سعود معجبا بالقرى المحاجة وسعيدا باعتماده عليها فى الوقت الذى كان مواطنو الجزيرة العربية يحلمون بالحرية والاستقلال. والمدّش فى الأمر أن ماتوصلنا إليه عن شخصية ابن سعود أخذناه من نفس الكتب الغربية التى كانت تشيد بشخصه والمجازاته بما يجعلنا نرجع وجود نوع من الانحياز الشخصى له ومحاوله إظهاره بما ليس فيه. ولم نلاحظ فى هذه الفترة أى المجازات لابن سعود وأسرته بخلاف بناء الحمامات الذهبية والتنافس على اقتناء عربات الكلاسيك والمفاضلة بين أنواع الموسيقى، ولم يتم بناء مؤسسات متخصصة أو جمعيات خيرية أو نظام طبى. وفشل ابن سعود حتى فى التعبير عن الأصالة العربية وظهر فقط بمظهر البدوى الأمى المعارض للتقدم والمدنية. وبصفة عامة نجد أن الغرب يفضل دائما الزعماء العرب المرفوضين من قبل اجماع العرب مثل ملوك ليبيا وتونس ونورى السعيد وأنور السادات.

وأؤكد أننى لست متعصبا للقومية العربية أو متطرفا إسلاميا وإنما أنا أنتهى إلى الشرق والغرب معا وأؤمن إيمانا راسخا بالتعاون العربى الغربى وأنه من خلال فهم مشترك فإن مثل هذا التعاون يمكن أن يؤدى إلى نتائج إيجابية بالنسبة للجانبين. وهذا الفهم يمكنه أن ينهى عادة إخضاع التاريخ لصورة متوهمة عن شخص صحراوى رومانسى، ويمنع مقارنة شخص مثل ابن سعود بالنبي الكريم (صلعم)، ويضع حدا للمفاهيم الغربية المغلوطة التى أفسدت وشوشت على انلاقات العربية الغربية والعلاقات الاسلامية الغربية لغير مصلحة الطرفين. وتلفت الآن لابن سعود ونحاول أن نقيمه بطريقة واقعية فقد حان الوقت لفحص ميزات ابن سعود كما قدمت من قبل

مؤيديه من كتاب الغرب وتتلخص هذه المميزات فى حقه الأسرى فى زعامة الجزيرة العربية الحديثة وشهرته كقائد حرسى فذ وحدّ العرب. والواقع أنه عندما أصبح ابن سعود زعيما فى مطلع القرن كان البيت السعودى موجودا منذ فترة وكذلك بيوت أخرى، لكن هذا الرجل كان بمثابة الشوكة فى الجسد السياسى للجزيرة العربية منذ القرن الثامن عشر، ومهما كانت إنجازاته فإنها لم تكن تخضع لأى مؤسسة كما أنه على الصعيد الشخصى لم يكن مقبولا أو معترفا به ولم يؤمن قط بفكرة الدولة. ويمكن مقارنة نجاح ابن سعود بنجاح الأكراد المرحلى فى نيل الاستقلال. وبرغم نجاحه مرتين فى السيطرة على مناطق كاملة من الجزيرة العربية فإنه قبل الاعتراف بتركيا كإمبراطورية، وقبل أن يعمل من داخلها كتب للسلطان العثمانى يقول: «إننا دائما خدما للتاج». وآل سعود ينتمون وسوف ينتمون دائما إلى الطائفة الوهابية المتزمتة. وقد حالت المعتقدات الدينية التى تبناها بينهم وبين السلطة فى مكان كالجزيرة العربية يضع دائما أهمية كبرى للنسب الدينى وعددية القبيلة وأهمية اتباعها. ومع أنهم حكموا نجد والرياض لفترات متقطعة إلا أنهم لم يلاقوا القبول أبدا من معظم القبائل ومن عموم المسلمين ويعزى هذا إلى خاصيتهم الحربية التى اعتمدت على تفسيرهم الخاص للدين، وليس على الشعبية أو شرعية المطالبة بالحكم أو الإدارة الجيدة، التى اشتهروا بجهلهم لأصولها، واعتمدوا على وسائل إرهابية فى فرض سلطتهم وكانت النزاعات تنشب بينهم وبين أفراد عشيرتهم نفسها. وتؤكد عدة مصادر أن وفاة اثنين من أخوال ابن سعود وعددا من أقاربه كان بسبب نزاعات أسرية، ويقول أحد أخوالهم «أن لهم هذه المصلحة السيئة وهى قتل كل من هو ليس بوهابى».

ومن عام ١٩٠٢ وحتى عام ١٩٢٥ شن ابن سعود هجمات هزم فيها ثلاثة من الأسر العربية التى كانت تحكم مساحات شاسعة من مايعرف الآن بالسعودية. ونصب نفسه ملكا وفى خلال الثلاثينيات أخذ يبحث عن اعطاء شرعية لحكمه، ولكى يجد القبول

من الآخرين فإنه لجأ إلى استخدام النزعة الدينية عند الناس فاستأجر شيخاً مصرياً يسمى محمد تيمى قام بتلفيق شجرة عائلة له أوصلته مباشرة إلى النبي الكريم «صلم» وقد أزعج هذا القبائل التى تنحدر من صلب النبي (صلم) حقيقة - وقد فعل الملك فاروق فيما بعد نفس الشيء واستأجر نفس الشخص ليصنع له نسباً دينياً - وكان ابن سعود صديقاً للملك فاروق الذى اشتهر بفساده وفسقه وكان يحتاج نسباً أكثر من أى حاكم آخر. وقد خدم الشيخ الملكيين ومات ثرياً بعد أن قبض ثمن عمله. لكن ما قام به تيمى لم يكن كافياً لسدّ النقص الذى كان يشعر به ابن سعود. وفى الأربعينات قامت شركة ارامكو - شركة البترول العربية الأمريكية - بتمويل دراسة شاملة لتاريخ البيت السعودى وأضافت إلى تلفيقات تيمى بعداً تاريخياً.. ويرفض آل البيت الهاشمى - الذين يتحدرون بالفعل من البيت النبوى - حتى اليوم الزواج مع البيت السعودى رغم فقرهم وبرغم الاغراعات المادية السعودية وهم أهل الملك حسين عاهل الأردن.

بعد أن انتهينا من موضوع صحة النسب ننتقل إلى زعم ثان ساقه الكتاب الغربيون عن ابن سعود وهو أنه قائد فذ وزعيم لا يبارى والقصة كلها تلفيق واختلاق وقيلبي نفسه يقول أن انتصارات ابن سعود لم تكن ممكنة دون الدعم والنصح والمساعدات التى تلقاها من الجيش البريطانى. وكون أنه بارع في الفوز فهذا حقيقى فقد ساندته القوى الدينية المتعصبة فى الطائفة الوهابية وهم أناس كانوا يبعثون عن الشهادة والدخول إلى الجنة أكثر من أى شيء آخر. وإذا ما غضضنا البصر عن أتباعه لنهج استغلالي وطريقة معينة فى إدارة آلته الحربية يصبح الادعاء بحسن قيادته مقبولا. ولم يكن ابن سعود يكثر لتقاليد الحرب التى كانت موجودة آنذاك وكانت القبائل المحترمة الكبيرة تلتزم بها وكان أهل تلك القبائل يعملون بالزراعة وتربية الأغنام وكانوا يميلون إلى الاعتدال فى تنافسهم وفى احترامهم لما يملكه الآخرون. وكان معظم شيوخ القبائل يبعثون فى المدن. أما ابن سعود فإنه كان يغير على أراضى تلك القبائل وينهب منها الجمال

والماعز ومخزون الحبوب. وكان يوجد نظام صارم يمنع قتل الناس الذين تنتم للإغاثة عليهم لكن ابن سعود لم يكن يأخذ أى أسرى أو مساجين وإنما يقتل كل من يتف أمامه وحسب رأيه لكى يتمتع من البحث عن الثأر مستقبلا.

وبدأ ظهور ابن سعود فى عام ١٩٠٢ عندما طالب بمدينة الرياض وكانت أسرته من ضمن شيوخها. وأول عمل قام به كان قطع رؤوس خصومه وتعليقها على أبواب المدينة وقام أتبائمه بحرق ١٢٠٠ شخصا حتى الموت. وبعد ذلك خضعوا الفتيات لتحويلهم إلى جوارى لهم أو لإرسالهم كهدايا لاصدقائهم. وعندما لجأ ابن سعود إلى الكويت هربا من أمراء الجزء الشرقى من الجزيرة العربية الذين كانوا وراءه، أخبره زعماء الكويت- وهم أفراد من نفس عائلة الصباح الحالية- عن ضيقهم من أساليبه المتبعة ضد اعدائه وافتوا نظره إلى أن هذه التصرفات غير مقبولة وخالية من الشرف، وهذا عكس ماذهب إليه المؤرخون من أن كل شىء كان مباحا فى تلك المنطقة آنذاك. وقد أدى خلاقه مع زعماء الكويت حول هذه النقطة إلى تهديدهم له بالطرد اذا لم يتوقف عن تلك الأعمال. والمعروف أن بعض التقاليد العربية كانت موجودة فى المنطقة قبل مجيء النبى «صعلم» مثل إكرام الضيف وتسامح الاقوياء تجاه الضعفاء الخ.. أما الصفة الثالثة التى ينسبها الغربيون إلى ابن سعود هى الحكمة. والمعروف أن ابن سعود كان شبه أمدى وقد حاول الكتاب الغربيون أن ينسبوا إليه شكلا من التعليم الصحراوى الغامض معتمدين على حلفه لنصوص من القرآن والشعر والأمثال البدوية وهو أمر كان شائعا فى أوساط كثير من شيوخ وزعماء البدو حتى أصغروهم مقاما. وليس واضحا اذا كان ابن سعود يعرف القراءة أم لا ومعظم الوثائق بين أيدينا يوجد بها اختتام. والمخطوطات البدوية التى رأيناها لاتدل على أى موهبة والرجل حتى موته كان مصمما على أن الأرض مسطحة ولم يعرف أبدا الفرق بين الكاثوليك والبروتستانت. ورغم أننا لاتنزهأ من تعليم البدو إلا انه لا يوجد مايدل على أى حكمة من جانب الرجل بل أنه على العكس

فشل فى إقامة أى نظام قضائى أو تشريعى فى المناطق التى كانت تحت سيطرته وقام بتدمير البنية الحكومية التى كانت موجودة آنذاك. وجمع كل السلطات فى يديه وشجع الرق، وامتلك مئات العبيد والجوارى لخدمته وأباط نفسه بمجموعة من الرجال من ذوى الموهبة المتوسطة الذين لا يعارضونه، وهو شئ مناقض للثقافة العربية التى كانت تحتفى بالمستشارين الحكماء.

كان لافتقار ابن سعود إلى التعليم الرسمى انعكاسا خطيرا على مركز أسرته والتطور الاجتماعى فى البلد وإدارة شئونها. وكان التعليم وقتها مرغوبا من البدر وزعمائهم وكان كثير من أعضاء الأسر المنافسة للبيت السعودى - متعلمين - أما هو فقد رفض إرسال ابنائه للتعليم. ومن المؤكد أن حفظ أى شخص لعدد من الأمثال السائرة أمر شائع وسط العرب جميعا حتى الآن ولادخل له بالتعليم، وكان جدى رحمه الله يردد بعض الأمثال من نوعية «الحكيم هو من يتحدث قليلا وينصت كثيرا» أو «اليد التى لاتستطيع عضها قبلها».

وقد نسب المؤرخون الغربيون هذه الأقوال لابن سعود بوصفه مؤلفها.

عند انفجار الحرب العالمية الأولى كانت توجد فى الجزيرة العربية ٣ عائلات حاكمة تحاول كل منها أن تحتل محل الامبراطورية العثمانية. وهم الهاشميون فى الجزء الغربى، والحجاز ويضم الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة. وأبناء رشيد الذين كانوا يطالبون بنجد بالقرب من الرياض وأبناء الإدريسى فى عسير وهى المناطق الجبلية المتاخمة لليمن وفيها مناطق عالية الخصوبة وتتمتع بمستوى معيشة عال. أما الجزء الشرقى على طول الخليج الذى يحتوى على حقول النفط فقد كان يسيطر عليه الأتراك حتى مايو من عام ١٩١٤ ومعظم أهل هذه المنطقة كانوا من الشيعة والمناوئين للوهابية أما الهاشميون فقد كانوا أكثر هذه الأسر سلطة نسبة لأهميتهم التاريخية المعروفة لأنهم كانوا حراس الأماكن المقدسة لمئات السنين، ولاخلاف حول انحدارهم من

صلب النبي الكريم. وكانوا أناسا يتمتعون بتعليم عال ويتحدثون اللغات ويتميزون بالوقرة والكرم ويسمحون لنسائهم بالتعليم كيفما شاؤوا. وفي الستينات كانوا يشتغلون بالنشاط الاجتماعي، ويتحدثون لغة عربية رفيعة إلى جانب إجادتهم للتركية والفرنسية والانجليزية. ويشاركون في شئون الحكم. وحل المشاكل الاجتماعية، ولاحمد هاشميا يلجأ إلى عقوبة الإعدام بسهولة. بينما قام ابن سعود بنفسه بقتل ١٨ من زعماء إحدى القبائل المتمردة ويحكى بفخر كيف أنه كان يقبل السيف وهو يقطر دما بعد أن قتل عدوه: ابن الرشيد. وكان أبناء رشيد ينتمون إلى قبيلة شر العريقة وهم أناس ذو نسب عريق يمتد إلى عدة قرون وكانوا يهزمون من فكرة الغزو وينظرون إلى آل سعود على أنهم أقل شأنا منهم. «وأبناء رشيد مصقولون ومتعلمون ولهم كبرياء لا يسمح لهم بعقد معاهدة صداقة مع السلطان التركي مثلاً. وتوجد أدلة على أنهم كانوا يديرون شؤون الحكم بصورة متحضرة. ولكن يتضح لنا الفرق بينهم وبين آل سعود فيكفي تأمل الصور التي التقطت لكل منهم فأبناء رشيد يبدوون في ثياب لائقة ومظهر محترم بينما يبدو ابن سعود مشعثاً قلداً يتبعه أبنائه وهم حفاة، بمن فيهم فهد الذي أصبح ملكاً الآن. أما أبناء الأدرسي ومع عراقية نسبهم فإن مظهرهم أكثر بساطة من الهاشميين أو أبناء رشيد. وهم أناس متعلمون يعيشون وفقاً للتعاليم الإسلامية التي تدعو إلى المساواة والرحمة وحكم القانون وهم يفيضون طيبة وكرماً وسماحة ويعارضون الأمية والعنف وليس لديهم ميل إلى أن يحكموا أحداً. لذلك يعتبر ابن سعود من أكثر هؤلاء الناس جهلاً وتخلفاً ودموية وربما ذلك هو الذي جعله زعيماً.

كانت بريطانيا ترغب عشية الحرب العالمية الأولى في إيجاد حليف من السكان المحليين ليساعدها في التغلب على الأتراك والسيطرة على الجزيرة العربية ولم يتقدم أحد من الزعماء العرب للمساعدة. وبمعنى آخر فإن ظهور ابن سعود كان متزامناً مع رغبة بريطانيا المتزايدة في منطقة الخليج. وكانت علاقة الهاشميين مع بريطانيا مشروطة

وتستند على مطالبتهم التاريخية بحكم الجزيرة العربية وأرادوا من بريطانيا أن تنجز لهم هذا الأمر كحق. وكان أبناء رشيد أصدقاء لتركيا وبالتالي اعداء لبريطانيا- وهي صداقة فيها ندية وليس تبعية. ولم يكن لابناء ادريس رغبة في أي شيء. وكان ابن سعود موجودا ومتوفرا بسبب احتياجه الشديد للمساعدة الخارجية. وعندما قدم خدماته للسلطان التركي كما ذكرنا وافقه الأخير لفترة بسيطة ثم رفض التعامل معه واعتبره شخصا مزعجا.

بدأ أول اتصال بين بريطانيا وآل سعود في عام ١٨٦٥ في عصر جد ابن سعود وكانت توجد معاهدة -فرضت بالقوة بين بريطانيا و فيصل آل سعود وكان يمثل بريطانيا كولونيل لويس بلي، وقد درجت بريطانيا على إقامة مثل هذه المعاهدات مع زعماء القبائل لمصلحة مؤقتة ثم تتجاهلها بعد ذلك. ولاتوضح السجلات التاريخية أن كانت بريطانيا هي الكفيل الذي يدعم ابن سعود في غزواته على الرياض أو إذا كان حصوله على جمال ومعدات أخرى يشير إلى وجود داعم له ولم يتصرف ابن سعود بكبرياء كرجل دولة بطلب دعما وإنما كان يركز على الحصول على مال ومعدات لغزواته ضد القبائل الأخرى. وكانت بريطانيا تحاول التوصل إلى اتفاق مع الأتراك لتجنب الحرب لذلك احتفظت بعلاقات سرية مع ابن سعود وزودته بمبالغ بسيطة لتحتفظ بولائه لكن هذه المبالغ البسيطة لم تكن تملكها القبائل الأخرى التي لم تكن تسعى للغزو مثله. وليس معروفا حتى الآن ما إذا كان ابن سعود يتبع هاجسا فطريا أم أنه كان ينفذ أوامرا. لكن ابن سعود استخدم هذا المال في تسليح البدو وتحويلهم إلى وحوش متعطشة للدماء وكان الوهابيون هم الذين شكلوا العمود الفقري لقواته. أما بقية المسلمين من سكان الجزيرة العربية فلم ترق لهم فكرة المستعمرات أو التعصب الديني وإنما كانوا فقط يبهشون عن حريتهم الشخصية وتحقيق بعض الانجازات. وتشهد الأعوام من ١٩١١ إلى ١٩١٤ تطورا أكبر في حجم وكيفية الدعم الذي كان يقدمه

البريطانيون لابن سعود وجماعته المتعصبة ضد الأتراك وشيوخ القبائل وامرء المنطقة الشرقية.

ولمَّح ابن سعود في هزيمة أبناء رشيد وبعد ذلك أخذ الأراضي الشرقية من الأتراك، وقد اعتبر البريطانيون هذا النصر الأخير انتصاراً لهم. وكتب أحد المسؤولين البريطانيين يقول أن وجود ابن سعود في الاحساء (الساحل السعودي المطل على الخليج) هو دعم لنا. وشجع سير بيرس كوكس ابن سعود على مهاجمة أبناء رشيد لانتزاع الأرض المتبقية لهم لشغلهم عن مساعدة الأتراك. وكان ابن سعود هو الزعيم القبلي الوحيد الذي كان يعطى بالمساعدات البريطانية، ومشورة الخبراء البريطانيين من أمثال الكابتن ويليام شكسبير وسير بيرس كوكس وهاري سانت جون فيليبى والمستشرق (جرتروود بل) المتخصصة في تاريخ العراق الحديث. وتظهر بعض تصرفات هؤلاء المستشارين عمق الصداقة التي تربط بينهم وبين ابن سعود فقد كانت جرتروود مثلاً تتأذى ابن سعود باسمه الأول دون ألقاب. وقد قادت هذه الصلة إلى توقيع معاهدة صداقة بين الاثنين في عام ١٩١٥- وهي المعاهدة التي رفعت ابن سعود إلى درجة حاكم لوسط وشرق الجزيرة ولعب الحظ دوراً كبيراً في توطيد علاقة ابن سعود بالبريطانيين فمن بعد أن نصّبوه حاكماً اكتشفوا أنهم يمكنهم الاستفادة منه أكثر من ذلك. وفي هذا الوقت نشب نزاع بين الهاشميين والبريطانيين. وكان البريطانيون قد استفادوا من الهاشميين من قبل عندما تحالفوا معهم ضد الأتراك، لكن الهاشميين كانوا يريدون الاستقلال وحكم الجزيرة العربية كمقابل لخدماتهم وكانوا يعارضون بشدة إقامة وطن لليهود في فلسطين. وقد تضايقت بريطانيا من طريقة تفكير بنى هاشم واعتبرت أنهم يهددون وجودها في المنطقة بهذه الأفكار التي يحملونها، خاصة وأنها ترغب في استعمار المنطقة والسيطرة على الخليج لحماية نفط إيران وحماية الطرق المؤدية إلى شبه الجزيرة الهندية.

وتصاعدت حدة المواجهة بين بريطانيا وبنى هاشم فى عام ١٩٢٤ عندما اعلنوا قيام خلافة إسلامية وقد قام الشريف حسين ملك الحجاز بهذه الخطوة ليلفت نظر بريطانيا إلى أنه سيحصل على استقلاله بمرافقتها أو بدون موافقتها. ولم تصل المفاوضات الجارية بين ابن سعود والهاشميين إلى شىء فمما كان من ابن سعود إلا أن قام بالإغارة على المنطقة الغربية التابعة لبنى هاشم، وأمنت اتفاقية ١٩١٥ المناطق التى احتلها ابن سعود. وقام البريطانيون بقطع المساعدات عن الهاشميين واستمروا فى تقديم الدعم لابن سعود. ومن المؤكد أن ابن سعود ماكان ليستطيع الحصول على معدات عسكرية يستخدمها ضد بنى هاشم دون مساعدة بريطانيا. ويقول سير ارثر هيرتزل وأنه قد تنامى لدينا الإحساس بضرورة مساعدة ابن سعود لتوطيد نفسه فى مكة وبذلك اعطى البريطانيون ابن سعود كافة الضمانات ليفعل مايجلو له

وفى عام ١٩٢٥ سقط الحجاز فى قبضته وبذلك سقطت معظم الجزيرة العربية فى يد قطع من البدو، ومثل ما هو متوقع قام الإخوان الوهابيون بقتل مئات من الذكور بمن فيهم الأطفال ونهبوا عددا لا يحصى من المنازل والممتلكات، كما قاموا بقتل عدد كبير من الزعماء الدينيين غير الوهابيين الذين كانوا يعارضون أساليبهم الوحشية ودمروا مدنا بأكملها وكانت إحدى اغبياتهم «هبت رياح الجنة فأين أنتم ياخوارج» وأدى السيف دوره على أكمل وجه، وبالطبع فإن المؤرخين الغربيين لايتوقعوننا أن نصديق أن ابن سعود قد قوبل بالترحاب فى الحجاز والمناطق الأخرى التى فتحها. ومافعله لایدل على أنه كان يسعى لتوحيد العرب. والتقارير التى بأيدينا توضح أن فكرة الوحدة لم تكن هدف ابن سعود بالمرة، وإنما هو طموح ومطامع شخصية التقت مع مطامع بريطانيا. ويقول وزيره وسفيره فى لندن حافظ واهب أن الرجل كان دائما ينتظر موافقة البريطانيين قبل قيامه بأى خطوة.

كانت أولى انتصارات ابن سعود بعد فتح الرياض هى احتلاله لمنطقة الاحساء وهى

المنطقة الشرقية التي تم اكتشاف حقول النفط فيها فيما بعد. وكانت أهميتها آنذاك هي موقعها الاستراتيجي بسبب قربها من بعض مناطق النفوذ البريطاني، وكان أهلها من الشيعة وكان الرومانيون يخشونهم لأنهم لم يظهروا أى ترحيب بهم. إذن كانت حرب ابن سعود مع أبناء رشيد مجرد صراع قبلى وما أنهم حلفاء لتركيا فهذا معناه أنهم أعداء لبريطانيا وبالتالي أعداء لابن سعود. وكان سبب غزوه لأراضى الهاشميين هو خوفه من مطالبتهم الأساسية بحق الزعامة العربية وهو شئ. كان البريطانيون أيضا يخشونه ويقول اللورد كروو بوقاحة «ما نريده ليس وحدة عربية وإنما إمارات متفرقة ومنفصلة تحت سيادة واحدة». وبالطبع وجود سلطة عربية موحدة ومستقلة تحت شرعية واحدة كانت ستدفع بابن سعود الى مركز ثانوى.. وفى الواقع فإن الهاشميين كانوا يتعاملون معه كلاعب ثانوى يجب عليه معرفة مكانتهم وتفرقهم. وكان ابن سعود لا يعرف الكثير عن العرب فى البلاد العربية الأخرى وليس له صلة بهم ولا يحترم تنظيماتهم السياسية أو الاجتماعية. وأسلوب الحياة المتقدم نوعا ما فى الحجاز لم يكن يعجبه. وانتماءه إلى طائفة كانت تعتبر من الأقليات جعله ينظر إلى أغلبية سكان الجزيرة العربية على أنهم منشقون ويجب معاقبتهم على ردتهم أما بقية العرب خارج الجزيرة العربية كالعراقيين والسوريين فكان يراهم من أهل المدن الذين يجب أخذ الحذر منهم وعدم الوثوق بهم، وصفة عامة كانت الوحدة العربية أمرا غير مفهوما والإيمان بوحدة عربية يتطلب القبول ببدأ دولة، وابن سعود لم ينظر إلى مملكته ولم يحكمها إلا بوصفها قبيلة أكبر. وبالتالي يمكننا أن نستخلص أن فتوحاته لم تكن سوى غزوات اتخذت شكل الاستمرارية بسبب المساعدات البريطانية. وهناك تلميح خفى من جانب بعض المؤرخين الغربيين على أن الزعماء العرب وقتها لم يكونوا يهتمون بتحقيق وحدة عربية. وهذا بالطبع غير صحيح فالهاشميون لم يحدوا أبدا عن رغبتهم فى جمع العرب فى قطر واحد كبير وقوى. وهذه الرغبة بالذات هى التى جلبت لهم المشاكل مع

بريطانيا، حلينتهم السابقة، ومن هذا المنطلق أوضحوا موقفهم بشأن فلسطين في حين أن ابن سعود لم يهتم إطلاقاً بهذه المسألة، مما أساء إلى مشاعر العرب والمسلمين الذين كانوا قلقين علي فلسطين وبالأخص القدس. وكانت فكرة الهاشميين حول الوحدة العربية تتجاوز فلسطين وتشمل العراق والأردن وسوريا.

والقصة الحقيقية لفتح ابن سعود للبلد الذي ساء باسمه تعتمد علي فكرة في منتهى البساطة فقد أتى مجموعة من المحاربين المتعصبين من أقبليات تفتقر إلى الشعبية ولا تحجد قبولاً من جيرانها، وبدأ في الإغارة علي الآخرين وخرج ابتغاءاً "للسيطرة علي المنطقة، وعندما احتاج إلى المساعدة طلبها من أناس أجنب عن المنطقة والمعروف أن الحكم البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط كان يعتمد علي تطبيق سياسة «فرق تسد» لفرض هيمنته. وقد استخدم هذا الأسلوب مع الدروز في سوريا ومع الأكراد في العراق.

وكي يكافئ ابن سعود البريطانيين علي مساعداتهم له وقع معهم معاهدة صداقة وتعاون في عام ١٩٢٧ وهي نفس المعاهدة التي رفض الشريف حسين توقيعها. ويرى جورج أنطونياس أن الشريف حسين كان سيحافظ علي عرشه لو كان وقع المعاهدة. ويتوقعه علي المعاهدة أصبح ابن سعود معتمدا علي بريطانيا وتخلى لها عن توجيه السياسة الخارجية لبلده، وهذا يفسر عدم قيام بريطانيا بتعيين سفير للسعودية لزمّن طويلا واكتفائها بمندوب سامي يمثل جلالة الملكة. وقد نصت المعاهدة علي أن لا يقوم أتباع ابن سعود بممارسة أي سلبيات منحرفة أوخارجة عن الإطار الذي رسمته لهم بريطانيا.

والخروج على الإطار الذي ترسمه بريطانيا هو الذي حطم الهاشميين الذين تجرأوا على تهديد مصالح بريطانيا ويمكن القول أن أهداف ابن سعود كانت انعكاسا للاستراتيجية البريطانية ويقول دافيد هاوورث مؤلف كتاب «ملك الصحراء» - وهو أحد

الكتب المتزنة التي كتبت عن الموضوع - «حتى ابن سعود نفسه لا يعلم أين كان سيكون بدون المساعدات والحماية والنصح البريطاني» وتوجد لدينا سجلات للسند العسكرى البريطانى لابن سعد لكل من يريد رؤية ذلك. وفى عام ١٩١٥ وقبل أن يستخدم لقب ملك، أعطاه البريطانيون لقب «سير» وهو لقب لم يثابره على أحد فى المنطقة سوى شيخ مبارك فى الكويت.

يدعى المسؤولون البريطانيون أنهم لم يستطيعوا منع ابن سعود من مهاجمة الهاشميين، وقد خرجت الصحف وهى تستنكر دعم الحكومة البريطانية للعرب ليقاتلوا بعضهم البعض. وبعد أن نسى العالم المزاغم القائلة بأن البريطانيين هم الذين أضعفوا موقف الهاشميين العربى فإن الحكومة البريطانية استمرت فى معاولتها نفى هذا الزعم، ومنع البريطانيون ابن سعود قبل وبعد فتح الحجاز من السير إلى العراق والأردن ويقول جورج انطونيوس «لقد كانوا يكبحونه فى الماضى» أي أنهم كانوا يكبحون ابن سعود عندما يتمشى ذلك مع مصالحهم. وتوحيد العرب حتى تحت قائد تابع لهم كان يتعارض مع مصالحهم، والادعاء الكاذب بأن ابن سعود موحد للعرب. تعطى الانتطباع بأن الناس الذين اخضعهم يوافقون على الوحدة تحت إمرته، وهو مالم يحدث. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن فكرة التسامح هى ضد تعاليم الوهابيين تصبح الهوة أكثر وضوحا. وتصرفات الوهابيين مع الآخرين وبالأخص الشيعة يوضح بجللاء أن مزاغم المؤرخين الغربيين حول ابن سعود والوحدة العربية هى مجرد أضغاث أحلام. وقد قام الوهابيون المتعصبون بارتكاب مجازر بشعة فى الطائف وبوريدة والهدى وأماكن أخرى لتدعيم سلطانهم، وعندما لم يعترض أحد على فظائعهم قنادوا أكثر وحاولوا تدمير قبر النبى الكريم (صلعم) وإزاحة بعض القباب فى المساجد الرئيسية لمجرد أن الناس تفاخروا بعدم تبعيتهم لهم. ولنفس السبب قاموا بتدنيس قبور أهل السنة فى مكة وهى الفئة التى ينتمى إليها معظم الناس فى الجزيرة العربية، هذا إلى جانب ممارسة التطهير

العرقى ضد الشيعة فى الأجزاء الشرقية، فالشيعة بالذات لم يكونوا مقبولين أبداً للوهابيين وكانوا يرون ضرورة تصفيتهم وما بين عامى ١٩١٦ و١٩٢٨ تناقص عدد المتمردين على آل سعود وجب طردهم إلى ٢٦ شخصاً فقط بعد تعرضهم لعمليات إبادة جماعية قام بها الإخوان الوهابيون لم تستثنى الأطفال أو النساء. وقام عبد الله بن مسلم الجلاوى بقطع رأس ٢٥٠ فرداً من قبيلة «مختير» ونفذ عملية قطع رؤوس ١٨ متمرداً بنفسه فى الميدان العام فى مدينة «ارتاوايا» ومازالت قبائل عجمان والحجران تعاني من آثار هذه المذابح إلى يومنا هذا (توجد فجوة سكانية لجبل كامل). وفقدت قبيلة شمر ٤١٠ قتيلاً وفقدت بنو خالد ٦٤٠ شخصاً أما فى نجران فإن العدد قد وصل إلى سبعة آلاف قتيل. ونفس الشيء حدث فى المدن، وبصفة عامة كان الجو يسيطر عليه سيف الجلاذ وسمى السيف بالرقاب أى قاطع الرقاب وكان الناس تنظر إليه كما ينظرون إلى المقلعة إبان الثورة الفرنسية. والسيف يستخدم حتى الآن بدرجة كبيرة فى السعودية، ومازال مؤيدو البيت السعودى فى الغرب يشيرون إلى هذا الأمر بهرج بالغ وأحياناً يوردون الحدث دون تعليق.

ويرى الجنرال السير جون باجوت أن ابن سعود أخضع خصومه باستخدام العنف والمذابح لكنه لم يورد إحصائيات كما أنه لم يتعرض للآثار الاجتماعية الناجمة عن الحملة السعودية لإخضاع الجزيرة العربية. ويقدر عدد القتلى والجرحى بما لا يقل عن ٤٠٠.٠٠٠ وذلك لأن الإخوان الوهابيين لا يؤمنون بأخذ أسرى فيما عدا ما يحتاجونه من الرقيق. وهم عادة يقتلون المهزومين ويبلغ عدد الفارين إلى البلاد المجاورة مليون شخص. وتم طرد أفراد قبيلة شمر الضخمة إلى العراق. وكان المعارضون يعاملون كأناس خطرين ومصدر للمتعاب، وحتى الحيوانات عانت من آثار هذه الفترة، إذ اعتاد ابن سعود أخذ أتباعه فى رحلات صيد حيث يجلسون على ظهور العربات ويستخدمون مئات البنادق لقتل الحيوانات على سبيل التسلية مما أدى إلى انقراض النعام واليقر

الوحشى ونقواع نادرة من الطيور. وكأنما كانت كل هذه التصرفات غير كافية فنجد ابن سعود يحاول غزو العراق ويشتبك مع الكويت فى نزاعات حدودية ويقوم بقطع لعلاقات مع مصر بسبب خلاف بسيط ويعلم الحرب على اليمن فى محاولة لضم بعض أراضيها. ومنعها من مطالبة البريطانيين بمدينة عدن. وفى العالم الإسلامى لمجده يدخل فى نزاع مع المسلمين الهنود بشأن العقيدة ويقوم بطرد وفد منهم، وهى خطوة تعوزها الدبلوماسية وتتجنى على حق المسلمين فى البقاء فى الأماكن المقدسة. وفى نفس الوقت كان كثير من المسلمين يعترضون على بعض الممارسات السعودية مثل استخدام ألفاظ «ملك» و«جلالته وعظمته» ويعتبرونها غير إسلامية لأن الإسلام يرى أن الملك والعظمة لله وحده. والتأييد الإسلامى الوحيد الذى وجده ابن سعود كان من المستعمرات البريطانية، وحتى هذا كان فاترا وتنقصه الحماسة، وكانت سياسات ابن سعود بكل عام تتسم بالفشل وهى من النوع الذى لا يمكن أن يحقق وحدة على الإطلاق. فبريطانيا كانت تسعى طول الوقت لخدمة مصالحها بما فى ذلك حرصها على أن لاتقع المقدسات الإسلامية تحت سلطة قوى غير صديقة لها. وبدلا من أن يعمل ابن سعود كمؤيد للعرب فإنه سمح لقوة خارجية مثل بريطانيا أن تبقى العرب والمسلمين منقسمين، وتحصى مصالحها التجارية والسياسية التى تتعارض مع وحدة العرب، وابن سعود نشأ فى خيمة لكنه بدلا من أن يتكيف مع وضعه الجديد كئذ للامبراطورية البريطانية وأمير لنجد، وملك للعجاز فإنه أخذ معه الخيمة وبالتالي عقلية الخيمة التى تفترق إلى التنظيم، وبدلا من إقامة دولة فإنه كان يقوم بنزعات صحراوية ويهدد الوقت فى حصر حريمه والمزاج والثروة مع أتباعه ويعيد على مسامعهم القصص المكررة المبذلة حول انتصاراته، أخذا بقشور المدنية والتحضر، وأبعد ما يكون عن النظم الإدارية الصحيحة. وفى عام ١٩٢٥ كان الاخوان الروهابيون يقومون بحراسة قصره الذى هو أشبه بالحصن وهم مدججون بالسيف والفؤوس وأحزمة الكتف العريضة الى

تقتلى، بالرصاص ويستندون على بنادق قديمة الطراز، وكان منظرهم مشعنا ومخيفا ولم يكن يظهر عليهم العطف أو الود تجاه أى شخص ويتصرفون كأنهم يقومون بحراسة شخص سطا على ملك ليس له وكان ابن سعود يجلس فى صدر ديوانه ويبدأ بتلاوة الصلاة من أجل إشاعة جو دينى وكانت الغرفة التى يجلس فيها ضخمة ومطلبة باللونين الذهبى والبيج وتشكون من ثلاثة أقسام قسم توجد بها كراسى عادية تتوسطها وسائد من النعماش المقصب المطرز الثقيل والأرض منقطة بحصائر وسجاجيد عجمية. ويجلس ابن سعود متكئا على كوعه فى كنية ضخمة وأمامه شباك على نظام المشربية وهو شىء لا يفعله حاكم فى القرن العشرين ويبدأ مجلسه بعبارة مثل «العرب يفهمون كلمتين فقط كلمة الله، والسيف» وإن السيف هو الذى ينفذ كلمة الله. ويستعير الفاظا من القرآن الكريم يشكلها فى كل مرة لتلائم المعنى الذى يريده. ويتحدث يوميا عن أحقيته بالحكم ويكرر هذا الأمر حتى يصبح دستوراً، ولانسى أن نورد أنه عندما فتح الحجاز فى عام ١٩٢٥ كان للعجاز دستور منبثق من التعاليم الإسلامية الحنيفة. ويواصل ابن سعود غظاته التى يؤكد فيها أن السيف وما يعادله هو أساس الحكم ولم يكن له جيش نظامى وإنما اعتمد على أسرته وعلى الاخوان الوهابيين وبقي آمناً، وقسم البلد الشاسع إلى أقاليم أو إمارات تحت حكم أقاربه وأصهاره وكانت عظمتهم امتدادا لعظمته كما أنهم كانوا يستعينون بالبدو المحليين لتعزيز مراكزهم.

ولكى يعيد صياغة مدن الحجاز المتحضرة أصلا فإنه قام بإنشاء جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لتحقيق الفضيلة والبعد عن الرذائل، وكان الاخوان الوهابيون هم الذين يسيطرون على هذه الجماعة.

كانت مدينة الإحساء الشيعية الواقعة إلى الشرق تقع تحت إمرة عبد الله بن مسلم ابن جلاوى ابن عم الملك ورفيقه فى السلاح- وقد قام هذا الرجل بأعمال دموية أثناء الغزو إذ كان مسؤولا عن ذبح أفراد حامية كاملة كانت قد استسلمت، وكان معظم

سكان هذه المنطقة من الشيعة وعددا آخر من القبائل المناوئة للحكم السعودي وقد كتب فيليبس مرة يقول «أن هذه المقاطعة لن تزج الحكومة المركزية مرة أخرى» وقد جاء هذا في كتابهم اليوبيل الفضي للجزيرة العربية، ولكنه لم يذكر أنواع هذا الإزعاج. وكما ذكرنا فإن ابن جلاوي قام بإعدام آلاف المواطنين وبترو أيدي وأرجل الفقراء وصفى حسابات مع الزعماء غير السعوديين وعلى الأخص زعماء قبيلة خزاعي - الذين اختفوا عن آخرهم - وقام بخرق أحد الأعراف الرئيسية وهو قتل الخصوم الذين يجيئون للتفاوض. وكان يحكم الأقاليم والمقاطعات آل ثونيان وآل الشيخ وهم من الوهابيين وأبناء عمومتهم، وكذلك أبناء السديري، وهم من أصحابه المقربين، كما أن عددا من أبناء سعود كانوا حكاما على هذه الأقاليم، ولم يكن من ضمن هؤلاء أي حاكم خارج العائلة كما لم يكن أي منهم متعلما. وتم اختيارهم فقط بسبب ولائهم وقدرتهم على قمع الخصوم، وقد أقاموا عهدا مليئا بالرعب الدموي. وقد تم تنفيذ ٤٠.٠٠٠ حكم إعدام و ٣٥٠.٠٠٠ عملية بتر أي بنسبة ١٨ إلى ٧ من مجموع السكان الذي يبلغ ٤ ملايين نسمة.

أما جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أثارت الفزع وسط الناس فهم يحملون العصي والسياط ويجلدون الناس لمختلف التصرفات كارتداء ملابس غريبة أو ارتداء حلي ذهبية أو وضع عطر أو لبس حرير أو بسبب التدخين. وكان الشخص يجلد لعدم إطلاق لحيته أو شاربه، كما منع الغناء لأنه من أعمال الشيطان وحطمت أواني الزهور وكان الوهابيون يقذفون نوافذ الناس بالحصى تذكيرا لهم بمواعيد الصلوات. ولم يكن هناك حرمة لأي بيت وليس هناك من يحمي أحد من بطشهم، ويذكر الكاتب السعودي ناصر السيد أن هذه الجماعة تهجمت على منزل جدته عندما كان عمره ثمانى سنوات، وقاموا بجلده أمام جدته ولا يعرف السبب حتى الآن. ولم يكن أحد يجرؤ على رفض طلب زواج من أفراد الجماعة لذلك حرص الناس على إخفاء نساءهم داخل

المنازل. وقد حرص ابن سعود على أن يظهر بمظهر الحاكم العادل ويتظاهر بأن أحكام الأقالييم أو جماعات الأمر بالمعروف لا يتصرفون بدون مبرر أو بدون علمه، ولكي نبرهن على فكرته عن العدالة نورد هذه الحادثة، وهى أن مجموعة من ٥٤ سائقا من سائقيه اضربوا مطالبين برفع أجورهم - ومن المؤكد أنهم كانوا فى ضيق شديد وإلا ما لجشوا إلى هذا التصرف الخطير، فقام ابن سعود بطردهم جميعا ومصادرة رخصهم مدى الحياة، وترحيل الأجانب منهم خارج البلاد، وفى مناسبة أخرى قام كهربائيو القصر بالتوقف عن العمل احتجاجا لأن أجورهم لم تدفع منذ ثلاثة أشهر فأمر بطردهم جميعا، ومرة ثالثة وأثناء التحقيق مع ثلاثة أشخاص بممارسة اللواط قام بتنفيذ أحكام الإعدام فيهم دون تحقيق (والمعروف أن الشريعة الإسلامية التى يدعى التسلسك بها توجب شهادة شهود قبل تنفيذ الحكم، وفى حادثة رابعة يوردها فيلبى وآخرون كدليل على عدله فإنه قام بسجن لص بدلا من أن يبشر يده وقد طلب من أهل اللص -الفقراء- أن يدوا ابنهم بالطعام أثناء فترة حبسه- ولو كان أهل هذا اللص قادرين على تزويده بالطعام لما سرق.

وماعدا بعض المحاكم الإسلامية للنظر فى القضايا البسيطة بين الناس العاديين فإنه لم تكن توجد محاكم أو قوانين فى عهد ابن سعود ما عدا حكم جماعات الأمر بالمعروف. وكان قد تم تدمير النظام التشريعى الرفيع الذى كان موجودا فى الحجاز ولم يتم تعويضه. كما ألغيت المحاكم المدنية التى كانت موجودة فى القرن الثامن تحت الحكم العباسى، وحل محلها حكم الوهابيين الدينى، وحلت التعاليم الصارمة للوهابيين محل القانون القبلى فى كل أنحاء البلاد وصدر مرسوم يمنع حيازة أى كتب أو نصوص ماعدا القرآن الكريم والنصوص الدينية ووجد عرب الصحراء -أعظم مؤيديهم للشعر- فى التاريخ أن عليهم العيش بدونهم وساد التخلف وتم قهر الأغلبية وتولت فئة قليلة شؤون الرعية.

كان وزير الخزانة عبد الله آل سليمان رجلاً ضئيل الجسم غريب الأطوار ولم تكن له أواصر قبلية أو نسب لكن الشيء الذي قرره لابن سعود كان قدرته على أداء دور المهرج وهو رجل مبتذل ومقزز ومحب للنكات البذيئة كما أنه كان عاجزاً جنسياً. وكان ابن سعود لا يفوت فرصة دون أن يذكره بذلك. لكن هذا الرجل كان يتقبل الأمر بالهتامة وخنوع. وحتى عندما قام ابن سعود بقتل أخيه بالعصا فإنه لم يتوقف عن تقديم خدماته له ولأسرته، وقام ابن سليمان بتحويل وزارة الخزانة إلى خزينة عائلية وأصبح هو مجرد حارس لها، فقد كان يحرص على سداد ديون الأسرة ويضغط على أصحاب الديون لتخفيضها أو حذفها، وأحياناً يلجأ إلى تهديدهم، وكان يطلب من التجار الأغنياء دفع مبالغ لجلالته مقابل امتيازات تجارية وخدمات، وحتى بعد أن تم اكتشاف النقط فإن ابن سليمان استمر في الاهتمام بمقاومة الاحتياجات النهمة لابن سعود وعائلته أكثر من اهتمامه بمصالح البلد وهو شيء متوقع منه. وفي عام ١٩٥٠ أوقف ابن سليمان بعض المشاريع التجارية الهامة بما في ذلك بناء الجسور لكي يستخدم المال في حفل فخم أقيم لتزويج ستة من أبناء سعود. وبعد ذلك أطلق الناس عليه اسم وزير كل شيء. وفي الواقع فقد كان ابن سليمان وزيراً لكل شيء ماعداً وزارة الخزانة. ولم يكن ابن سعود يهتم بشيء سواه التشجيع على ابن سليمان ولم تحظ وزارات الخارجية والدفاع بأي تنظيم إداري وإنما وجدت لتلبية رغبات أفراد الأسرة الحاكمة وكانت وزارات الداخلية والعدل والشئون الدينية. متروكة للوهابيين الجهلاء. ولأنسى أن نذكر أن حكومة الحجاز التي قضى عليها ابن سعود كان لها مجلس شيوخ مبعجل. وكان يدور داخلها نقاش صحي وصریح، كما أنه كان يوجد مجلس وزراء. وكانت آخر وزارة في الحجاز تتكون من أفراد يمثلون مختلف الأحزاب السياسية، وهم أناس خبيرون بأمور السياسة والحكم، وكانوا يعملون دائماً على رفع مستوى المواطنين. أما ابن سعود فقد اهتم فقط بوجود مستشارين حوله، ليشيروا عليه في

أمور ليس لها علاقة بمصالح الناس، وكان فيليبي أحد أعضاء هذه الخلفة الاستشارية ومن أعضائها الآخرين: عبد الرحمن الدامولجي وحافظ واهب، وراشد فرعون، ويوسف ياسين، وفؤاد حمزة وجنسياتهم على التوالي هي: بريطاني، عراقي، مصري، سوريين وواحد لبناني، ولم يضم المجلس الاستشاري أي سعودي، وهذا بالطبع يثير التساؤل، وإذا تركنا فيليبي جانباً فإن يوسف ياسين كان متخصصاً في جلب الشقراوات من سوريا.

وفي الواقع توجد أوجه شبه بين ابن سعود وهتلر. فقد اعتمد هتلر على مجموعة من الجزائين ليفرض سياساته وبعد ذلك كان المحيطون به يتكونون من أجناب خصوصاً أهل المستعمرات وهم أناس خارج محيط الأغلبية وليس لهم علاقات مع مصادر الزعامة والسلطة التقليدية: التي تمثلها الهيئة العامة الألمانية والكنيسة. ونفس الشيء كان ينطبق على مستشاري ابن سعود فهم ليس سعوديين كما أنهم كانوا يتحدثون بلهجة غير مفهومة للسعوديين. وكما هو الحال مع هتلر وبقية الحكام المستبدين فقد كان ابن سعود يتعامل مع أفراد دائرته الداخلية على مستوى شخصي. ولم يتم تنظيم هؤلاء الأفراد أبداً في تنظيم كما أنهم لم يكونوا أبداً جسداً سياسياً يصبح مسؤولاً عن تصرفاتهم وكان ابن سعود يجلس من يريد التحدث معه إلى جانبه وكانت أمور الدولة تتم بالهمس وتعكس رأى هؤلاء الأجناب الذين كان كل همهم إرضاء ابن سعود للمحافظة على مناصبهم وامتيازاتهم. وبما يشير الاحتمام أن اثنين من هؤلاء المستشارين كانا طبيبين بشريين وهما دامولجي ورشاد فرعون (والمعروف أن الدكتور موريل وهو طبيب بشري كان أقرب الناس إلي هتلر) وهؤلاء الأطباء لهم حق الاتصال بابن سعود أكثر من أي شخص آخر. وهم الذين يعطونه الأدوية التي تزيد الفحولة والعقارات المثيرة للرجية الجنسية.. وكان والد عدنان خاشقجي تاجر السلاح المعروف من ضمن أطباء ابن سعود الشخصيين، وكذلك والد غيث فرعون سمسار الأسلحة

المطلوب لأن في قضية إفلاس بنك الاعتماد والتجارة الخارجية وما زالت عائلة الدكتور مدحت شيخ الأرض طبيب ابن سعود لها علاقات وثيقة مع العائلة السعودية، وإذا كانت إدارة بلاط ابن سعود تتسم بالغربة والعزلة فإن تعامله مع أفراد أسرته كان أشد غربة. فهو كان مزواجا وبالتالي له عدد كبير من الأبناء يجعله لا يستطيع توفير العناية الأبوية اللازمة لهم أو الحب. وهو لم يبذل أى مجهود لتعليمهم وحتى إذا صرفنا النظر عن عدم إيمانه بتعليم الفتيات فإن السجلات تشير إلى أن أيا من أولاده لم يحصل على تعليم جامعى، بمن فيهم الأربعة الذين تولوا العرش من بعده، وقد تركوا التعليم منذ سن المراهقة كما أن الاثنين وأربعين ابنا وعدد غير معروف من البنات (يقدر به ١٢٥ فتاة) تركوا تحت رعاية أمهاتهم. وكان مركز كل منهم يحدد على حسب مكانة أمه. وبعضهم كان يعرف أو ينادى باسم أمه، فالأمير طلال كانت أمه أرمينية، والأمير فهد كان مها لأن أمه من أسرة «السوديرى». أما الذين كانت أمهاتهم من الجوارى فلا أحد يأبه بهم وليس لديهم فرصة في تولي العرش. ويفخر ابن سعود بأنه لم يتناول الطعام مع امرأة قط، والمرأة بالنسبة له وأفراد أسرته من الذكور ليست أكثر من أداة للمتعة وآلة لحمل الأطفال وسلعة قابلة للمبادلة بها. وعندما انتقده البعض لوضعه حريمه في بدروم ليس به نواقد قال أن الشبابيك تسمح بدخول العشاق ومثال جيد على استخفافه بالمرأة هو ما حدث في زواجه بـ حصة السوديرى، فقد تزوجها وبعد ذلك طلقها فتزوجها أخوه لكنه أرادها زوجة مرة أخرى فأجبر أخاه على تطبيقها ليتزوجها هو مرة أخرى وقد أحببت لابن سعود سبعة أبناء منهم الملك فهد الملك الحالى. وقد تزوج ابن سعود أيضا عددا من قريباتها.

حول ابن سعود الجنس إلى أداة سياسية وربما كان يسعى إلى توحيد العرب من خلال السرير. وكان يجمع في وقت واحد بين أربع زوجات وأربع خليلات وأربع جوارى، ولكنه كان يستبدل هذه المجموعات بصفة مستمرة وقد تزوج من أكثر من ثلاثين قبيلة

واستخدم صلاته بهم ليتقرب إليهم ويكسب تأييدهم . وحتى إذا أراد بعضهم رفض مصاهرته فإنهم كانوا يخشون غضبه وانتقامه . وكانت والدة الأمير عبد الله ولي العهد من قبيلة شمر أعداؤه التقليديون . ويمكن القول أن معظم سكان الجزيرة العربية ينتصرون إلي آل سعود بالمصاهرة . ولم يكن ابن سعود فاسقا وشهوانيا فحسب فيما يخص النساء بل كان أيضا يميل إلى التباهي وعندما تضيع قبيلة ما أنه فقد فحولته فإنه كان يكرم بزيارة مفاجئة لهم ويعتدى على إحدى بناتهم ويقدها عذريتها - لكن الجنس الذي كان يسيطر علي تفكيره لم يكن كله سياسيا وإنما كان ابن سعود يحب الجنس من أجل الجنس وقد اعترف لفيلى بأنه يحتفظ بمائة فتاة عذراء وبعد أن يسلبها عذريتها يقوم باهدائها إلى أحد أصدقائه ، ويبدو أن فيلى أيضا قد حصل على مثل هذه الهدايا . ولم يردعه تعليمه في أكسفورد عن مثل هذه الأفعال ، وقد رأيت بنفسى إحدى هذه الفتيات وكانت تبدو ضائعة وهى تنتظر فيلى فى ردهة فندق سانت جورج ببيروت ، وكان هو يجلس فى البار مع مراسل صحيفة الصنداي تايمز جون سليد بيكر . ولم يتعرف ابن سعود على النشيد الوطنى عندما عزف له فى أول زيارة لمصر لأنه كان مشغولا بالنظر إلى النساء وقال «أن هذا البلد ملئ بالنساء الجميلات وأريد شراء بعضهن لأخذهن معى ، هل تكفى مائة ألف جنيه ، ثمننا للواحدة » . وقد كانت هذه أول رحلة له خارج الحدود فى ماعدا عندما كان يعيش بالمنفى فى الكويت . وهناك أمثلة أخرى كثيرة تدل على تخلفه وعدم اتزانه وفسقه وعدم قيامه بدور أب لأولاده . ودرج ابنائه على محاكاته والزواج من عشرات النساء والجري وراء البقية ويقول فيلى : «أن الأمراء كانوا يصابون بالطيش والاندفاع عند سفرهم إلى خارج البلاد وكانوا يسيئون معاملة جميع الناس ، ويستخدمون العصا مع الجميع وقد قام الأمير ميشارى بقتل نائب القنصل البريطانى لأنه لم يعطه المزيد من الوسكى وقام الأمير ناصر بوضع السم لأربعة من ضيوفه فى منزله فقتلهم وآخر كان يعتقد أن أى فتاة أوروبية ترتدى البكىنى

هى للبيع مثل اللحم فى دكان الجزار. وآخر عاد من رحلة ليخبر أباه عن أغرب شىء يمكن أن يراه المرء وهو وجود مطعم تشاهد منه فتيات يسبحن تحت الماء. وقد أرسل ابن سعود يطلب معلومات مفصلة عن هذا المطعم. وكان ابن سعود يدفع ثمن سوء سلوك ابنتائه فهل قد دفع مبلغ ٧٠.٠٠٠ جنيه استرلينا لأرملة نائب القنصل الذى قتله ابنه بسبب الويسكى والمشير فى الأمر أنه فى نفس هذا الشهر تم إعدام وسجن وجلد عشرات الناس بتهمة حيازة الخمر. ولم يقم الإعلام فى الغرب بنشر هذه الحوادث. وتفاضلت الحكومة البريطانية عن مقتل الدبلوماسى وحذرت الصحفيين الذين حاولوا إثارة الموضوع.

جعلت كثرة استخدام الأدوية المثيرة للرغبة ابن سعود غائب الذهن فى أيامه الأخيرة وكان يكرر الكلام ولكن الحديث عن الجنس كان ما يزال يشغله وأهدى ندمه على عدم إنجاب المزيد من الأبناء. على الرغم من أن أبنائه كانوا يجوبون العالم بصحبة المومسات، تاركين وراءهم الديون الباهظة وموزعين للساعات الذهبية التى تحمل صور والدهم، ومن هنا بدأ الفساد الذى استشرى وعم فيما بعد وسوف نقوم بالتحدث عن ذلك لاحقاً.

أما الإخوان الوهابيون فإن ابن سعود بعد أن وطد أركان حكمه سعى إلى التخلص منهم، وقد تم له ما أراد فى عام ١٩٢٩، وكانت السلطة قد أدارت رؤوس الإخوان الوهابيين وأصبحوا يتصرفون كدولة داخل الدولة، ومحاولوا الحكومة المركزية، وكان لهم ميثاق شرف خاص بهم وكانت لهم مستعمراتهم، مما جعلهم مصدر إزعاج لابن سعود، وكان الإخوان الوهابيون يقتلون ويجلدون بلاهدف وكانوا يقطعون أسلاك التليفونات دائماً لأنهم يرون التليفون أداة من أدوات الشيطان، واتهموا ابن سعود بالتبعية لبريطانيا والتشبه بالغرب. وطالبوه بإنهاء تبعيته لبريطانيا. وكانت بريطانيا مستمرة فى تقديم ٦٠ ألف جنيه استرلينا فى العام كدعم لحكم ابن سعود، وهو رقم يمثل ثلثى

دخل البلد فى ذلك الحين. أما فيلبى فيقال أنه اعتنق الإسلام وأصبح يلبس ملابس عربية. وكان متواجد دائماً إلى جانب ابن سعود وإذا لم يكن فى المملكة فإنه يكون فى بريطانيا يبحث مع مسؤول الشؤون الخارجية كيفية توطيد حكم سعود. وفى الواقع فإن فيلبى وبدرجة أقل تشرشل كانوا يريدون جعل ابن سعود ملكاً فى مقابل موافقته على إنشاء دولة لليهود فى فلسطين. وعندما عرض تشرشل الاقتراح على الرئيس الأمريكى روزفلت فإنه رفض ويبدو أن أمريكا لم تكن مرتاحة للقيام بدور صانعة ملك ووضع ابن سعود علاقته مع بريطانيا فوق علاقته مع الاخوان الوهابيين الذين قل احتياجه لهم.. وكما هو معتاد فى مثل هذه الأحوال فقد نشبت معركة بين الاخوان الوهابيين وأنصار ابن سعود فى قرية سبيله تبعثها معارك أخرى. وكان ابن سعود يملك -إلى جانب نصح فيلبى- معدات حربية بريطانية وحاملات مدرعة لم يستطع زعيم الوهابيين فيصل دويش الوقوف فى طريقها وقتل نتيجة لذلك خمسة آلاف من الوهابيين وفر الباقون إلى الكويت ثم العراق، وتم طردهم من العراق بعد ذلك. ويورد هـ. ر. ب. ديكسون فى كتابه «عرب الصحراء» أن دويش وهو الرجل الذى فعل كل شىء ليوصل ابن سعود للسلطة مات ميتة مريبة فى المعتقل بعد سنة ونصف وفى الفترة التى أعقبت ذلك لم يكن هناك حاجة للقتل الجماعى الذى كان يقوم به الوهابيون لكن آل سعود رأوا أنه من الأفضل إتباع سياسة ثابتة هى القمع والتصفية لإرهاب الخصوم. وعلى الصعيد السياسى كان على الشيعة دفع ضريبة خاصة لأنهم ملحدون وكفرة فى نظر آل سعود وكان هدف آل سعود الآخر هو التخلص من بقية الأعداء مثل أبناء رشيد وقد استخدموا لتحقيق هذا وسائل حقيرة وغريبة عن التقليد العربى، وفى عام ١٩٤٦ دعى عبد الله بن متعب بن رشيد للغذاء فى قصر ناصر بن سعود وقتل هناك بالسم، وفى مطلع عام ١٩٥٣ قتل محمد بن طلال بن رشيد بنفس الطريقة. وفى كلا الحالتين كان هؤلاء الخصوم عزل من السلاح. ولم يحدث أى تحقيق فى الحادثين. أما أبناء إدريس

فى عيسى فقد اختفوا قنسا، وكان ضغط ابن سعود عليهم قد جعلهم يشركون اليمن كذلك. وقتل أفراد قبيلة دوير قتلًا جماعيًا. أما الهاشميين فقد فرروا من البلد، وواجه أنصارهم الموت بطرق مفاجئة وغامضة، وبعضهم تعرض للسجن مدى الحياة وانتشر البدر بالخصوم وقتلهم بالسهم وهو أمر منافي للتقاليد العربية القاضية بحماية من يعيش تحت سقفك.. وكان ابن سعود يشجع النزاعات القبلية ويجلس هو مستفرجا حتى يأتي الوقت المناسب فيتدخل لتصفية الجانبين. ومن ناحية أخرى تم إضعاف طبقة التجار الهامة وذهبت الامتيازات إلى أجانب ليس لهم أهمية سياسية مثل أبناء علي رزاس الإيرانيين والشرباطية المصريين، وعائلة صلحة اللبنانية وأبناء محفوظ اليمنيين وفيلبي البريطانى الذى أصبح ممثلا لشركة فوردر، ومجموعة من التركمان وآخرين، وأصبح هؤلاء ذوى ثروة طامسة وغرور. وطوال هذه الفترة وحتى اكتشاف البترول بكميات تجارية فى عام ١٩٣٠ استمرت هذه الأفعال ذات الصبغة البدوية، وكذلك استمر اعتماد ابن سعود على الدعم البريطانى وعائد أموال الحج لتكريس سلطانه، ولم يتم بتقديم أى شىء للبلد.

منح أول امتياز للتنقيب عن النفط للشركة الشرقية العامة فى عام ١٩٢٣ وقد دفعت الشركة بضعة آلاف من الجنيهات لابن سعود واستمرت فى النقيب لمدة عامين وأكدت وجود النفط ولم تفعل غير ذلك، وفى الأعوام من ١٩٢٠ وحتى ١٩٣٣ حاول فيلبس إقناع شركات بريطانية أخرى بأخذ الامتياز لكن دون فائدة. وفى مطلع الثلاثينات أثرت الأزمة الاقتصادية العالمية على أعداد الحجيج مما أدى إلى انخفاض الدخل السعودى وتراكم الديون على ابن سعود، فقام بفتح باب التنافس للشركات الأجنبية للحصول على عقود امتياز للتنقيب عن النفط، ورغم كل محاولاته لى يرسى الامتياز على شركة بريطانية إلا أن شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» هى التى كسبت العقد وكان قدره ٢٥٠.٠٠٠ جنيه استرلينى. وعند توقيع الاتفاقيات المبدئية

التي قادت إلى التعاقد النهائي قدم شارلس كرين صاحب الشركة التي تزود السعودية بالحماصات المذهبة قدم هدية إلى ابن سعود وكانت الهدية عبارة عن صندوق من البلع. وهذه الهدية تعكس لنا الطريقة التي يرى بها الغربيون ابن سعود، كما أنها تظهر ضيق أفق ابن سعود الذي شاهدناه فيما بعد يقع نائماً عند توقيع الاتفاق النهائي مع لويد هاملتون رئيس شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا.

استغرق استخراج النفط بكميات كبيرة بعض الوقت رضى عام ١٩٣٥ لم تكن لشركة التنقيب فى الظهران سوى عرية واحدة. وفى عام ١٩٣٩ كانت الشركة العربية الأمريكية (أرامكو) وثلاث شركات أخرى يستخدمون العمال لتقوم بمعظم الشغل وهو الوقت الذى بدأت فيه الشركة ترى الإمكانيات الهائلة لهذا الاتفاق. إذ كان نفط المنطقة الشرقية موجودا بكميات مائلة وعلى ارتفاعات ضحلة وكانت الأرض منبسطة وليس بها زرع وقريبة جدا من الماء والمواصلات. وهذا الموقع سيبقى دائما أفضل الأماكن لاستخراج أرخص أنواع النفط. وفى خلال الحرب العالمية الثانية اتضحت قيمة وأهمية النفط السعودى وقد اعتبر هارولد ايكرز سكرتير الشؤون الداخلية أن نفط السعودية هو الحل الأمثل لمشكلة اعتماد أمريكا على نفط أجنبى. ولأسباب استراتيجية تتعلق بصعوبة الترحيل فإنه جرى وضع سقف إنتاج للنفط السعودى لكن خشية الولايات المتحدة من تعريض البلد للفقـر - وهو بلد يملك مفاتيح مستقبل أمريكا- جعلها تقدم لابن سعود مساعدات جوهرية مباشرة وأخرى بواسطة البريطانيين. وقد ذهبت جميع هذه الأموال لجيب ابن سعود. وإذا اعتبرنا أن توقيع اتفاقية النفط فى عام ١٩٣٣ هى بداية الفوز الأمريكى لهذا البلد، فإن المبالغ التي كانت تدفعها أمريكا لابن سعود هى الخطوة الأولى فى الانتقال الحقيقى للسعودية من الهيمنة البريطانية إلى النفوذ الأمريكى. ولكى نفهم أهمية هذه الخطوة فيجدر بنا أن نذكر أن أمريكا أجلت اعترافها بالسعودية حتى عام ١٩٣٤ أى بعد هدية (كرين) الشهيرة لابن سعود.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت السعودية تنتج ٣٠٠.٠٠٠ برميل فى اليوم. وبذلك لم تعد بحاجة إلى الدعم المالى المباشر من أمريكا. وكانت أمريكا قد ساعدت ابن سعود فى أوقات كانت حرجة بالنسبة له. ومنذ ذلك الوقت التزم الأمريكيون بدعوه وتأكّد هذا بدعوته فى عام ١٩٤٥ إلى القاهرة لمقابلة الرئيس الأمريكى روزفلت (وهو الحاكم العربى الوحيد الذى نال هذا الشرف)، حيث صحب معه ٢٠٠ خروفا حيا وعشر أحد الضباط على كيس مملوء بالمفريات الجنسية ومشيرات الشهوة. وتفاوضت الولايات المتحدة عن كل عيوبه وصرح روزفلت بأن الولايات المتحدة تعتبر ابن سعود القائد العربى الرئيسى وهى ملتزمة بدعوه فى كل الظروف كما أكد حرص الولايات المتحدة على أمن الأراضى السعودية. ونفس الشيء أكدّه الرئيس ترومان بعد ذلك. والمثير للاهتمام أن روزفلت الذى اشتهر بالسهولة فى التدخين لم يفعل ذلك أمام ابن سعود، بينما لم يهتم تشرشل بذلك وواصل التدخين فى حضوره وهذا الأسلوب فى المجاملة وإظهار الاحترام أصبح تقليدا يحكم تعامل الأمريكيين مع ملوك السعودية.

وعلى الصعيد العالمى خرجت السعودية من الحرب العالمية الثانية فى شكل جديد تماما: فهى تتمتع بالاكتماء المادى لأول مرة منذ قيامها. واعطتها ظروف الحرب الباردة أهمية كبرى وكذلك المشكلة الناشئة بين العرب واليهود. وازدادت أهمية الأماكن المقدسة مع تحرك الاتحاد السوفيتى لعقد صداقات مع البلاد الإسلامية.

فى هذه المرحلة نحتاج للتوقف للإجابة على سؤالين: أولا، لماذا نجح الأمريكيون فى الاستيلاء على حق التنقيب عن النفط بدلا عن البريطانيين، ومن ثم وضع البلاد تحت نطاق الهيمنة الأمريكية، والثانى، هو ما إذا كان هذا المنعنى الذى اتخذه ابن سعود فى إدارة البلد مرتبطا بالتطور السابق. والحق أن انتقال امتياز التنقيب عن النفط إلى الشركات الأمريكية أمر يحيط به الغموض. وربما كانت لامبالاة البريطانيين هى السبب

فيه أو ربما أنهم اكتفوا بالنفط الذى يجيشهم من إيران والعراق والبحرين والكويت لاحقا. ومع ذلك فهذا ليس كل السبب. والاحتمال الثالث هو روح التحدى التى امتازت بها شركات النفط الأمريكية وقدرتها على التنبؤ بمدى الاحتياج المستقبلى لبلدهم للنفط الأجنبى مما جعلهم يقتنعون بحكومتهم بأهمية الاحتياطى من النفط السعودى وكالعادة فى مثل هذه الحالات فإن الشركات الأمريكية هى التى تبادر وتتبعها الحكومة بعد ذلك. لكن فى تلك المرحلة لم تكن بريطانيا- البطينة عادة- ولا أمريكا يعلمون حجم احتياطى النفط السعودى ولا أهميته القادمة. وعلى أى حال لم يكن هناك جديد فى الأسباب التى دعت أمريكا لبنى السعودية أو نفطها أو اهتمامها بالأوضاع الاستراتيجية للبلاد، المدة أو الأماكن المقدمة للمسلمين.

وكان ظهور أمريكا كبديل عن بريطانيا خطوة عالمية لإعادة التخطيط على مستوى العالم. فقد خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية متعبة وضعيفة وتواجهها مشاكل المستعمرات، وهكذا تقدمت الولايات المتحدة لتملأ الفراغ الناجم. ومع أنه بإمكاننا التنازل حول ما كان سيحدث لو أن السعودية بقيت تحت المظلة البريطانية إلا أنه من الواضح أن دخول أمريكا قد أحدث فرقا. وبصفة عامة لم يكن لبريطانيا سبب للتورط المباشر فى شئون السعودية الداخلية إلا إذا حدث ما يهدد مصالحها أو وجودها فى المنطقة. لذلك كان من الضرورى وجود مستشارين من نوعية فيلبى لكى يضمنوا تسيير الشئون الداخلية لبريطانيا طالما أنها تدعم ابن سعود وتبقيه بعيدا عن التهديد (انظر الفصل الثالث) والأمير يختلف داخل البلاد التى يدير فيها البريطانيون صناعة النفط فسياسة بريطانيا هى امتداد لدورها الأبرز الاستعماري فمثلا فى العراق وإيران وباقى البلاد التابعة لها أوصت باستخدام عائد النفط فى التعليم ومشاريع التنمية لتفادى أى مشاكل فى المستقبل. وهذه هى الكيفية التى تختلف فيها السياسة البريطانية عن الأمريكية فوضع أمريكا لايسمح لها بتوجيه السعودية إلى كيفية

التمسرف فى عائدات النفط، لذلك عندما طالبت بريطانيا الأمريكیین بتوجيه السعودية بالتمقل فى كیفیة صرف أموال النفط قویل ذلك بالرفض الحاد من جانب الأمريكیین. وما یهم شركات النفط الأمريكية هو توجيه السياسات الخارجية للبلاد الأخرى بما یخدم مصالحها فقط دون النظر إلى مصالح تلك البلاد وفى أمريكا الجنوبية درجت على مساندة أنظمة الحكم الديكتاتورية دون الالتفات إلى معاناة مواطنی تلك البلاد ونجحت أمريكا فى السيطرة على ابن سعود وجعلته ینظر إلى عائدات النفط كمائد شخصی له وليس للبلد وهناك أمثلة عديدة على الاختلاف فى السياسات بین بريطانيا وأمريكا. فقد كانت بريطانيا مثلاً تحرص على إرسال الطلاب العراقیین إلى الخارج للتعليم بشرط إحراز نتائج جيدة ثم یعودوا لیعملوا ویسددوا المبالغ التى تعلموا بها. أما ابن سعود فكن یرسل عددا بسیطا من الطلاب إلى الخارج ويتم اختيارهم من بین أقاربه أو یكونون أبناء زعماء قبائل ولا یوجد التزام لإحراز نتائج جيدة. أو إعادة الأموال التى انفتت علیهم، وقد أدت السیاسة التعليمية الى أنتهجتها بريطانيا فى مجال التعليم إلى وجود ٥٠.٠٠٠ طالبا بینما كان عدد الطلاب الجامعیین فى السعودية ٧٠٠ طالبا فقط. وبالطبع هذه نتیجة سیئة أدى إليها عدم اهتمام الأمريكیین بالتعليم أو كیفیة صرف عائدات النفط. وفى الفترة بین عامی ١٩٤٦ و ١٩٥٣ لم تصرف أى مبالغ من أموال النفط التى بلغت ٤٠٠ ملیون دولار على برامج تنمية وإنما ذهب كل المبلغ إلى جیبوب ابن سعود وتبع أنماؤه نفس المنهج. وقام ولى العهد بإتفاق عشرة ملايين دولار على بناء قصر ثم مل منه ونش قصرًا آخرًا تلکف ٣٠ ملیون دولار. وأحد الأمراء كان یقود كادىلاك جدیدة وعندما نفذ منها البنزین رماها واشترى أخرى بهاك ملیی. بالنزین واحتار ابن سعود وأفراد أسرته فى كیفیة التصرف فى هذه الثروة التى هبطت من السماء فأخذوا یتصرفون فیها بالمزاج الشخصی ودون وضع أى خطط، وأمر ابن سعود مرة أرامكو بأن تضاعف أجور العاملين وقد أحدث هذا تضخما

ماليا دائريا. وفي أحد المرات قام بإهداء ٣٥٠.٠٠٠ ساعة ذهبية لحمل صورته وطالب ببناء خط سكك حديدية لأن الفكرة استهترته. وعندما انشئ المطار كانت أى طائرة لا تستطيع الهبوط أو الإقلاع دون إذن خاص منه وأى طائرة لها رحلة من جدة فى أقصى الغرب إلى الظهران فى أقصى الشرق مطالبة بالتوقف فى الرياض فلربما أراد أحد أفراد الأسرة السفر عليها. وفى عام ١٩٥٠ أصبحت الظهران أكبر مدينة أمريكية بين باريس ومانيلا. وخصصت طائرتان تسيان «الجميل» و«الغزالة» لأخذ العاملين والتنفيذيين من وإلى السعودية. وقامت أمريكا ببناء قاعدة جوية ضخمة لحماية حقول النفط وانتشرت مرحلة مضغ اللبان وارتداء الجينز وكذلك لحوم الستيك والبطاطس. ومن ناحية أخرى كان ابن سعود يصرف أموالا بالغة على أمور السحر والمفاريت.

ازداد عدد مستشارى ابن سعود من الأجانب. لكن أيا منهم لم يكن يفكر إلا فى المال. وعلى رغم صداقته مع عدد من الأمريكيين، من بينهم الكولونيل وليام إدى أول سفير أمريكى للسعودية، فإن أحدا منهم لم يقم بنصحه ومن ناحية ثانية زاد اهتمام ابن سعود بصرف الأموال على النساء واللهو. وكان يتفاخر بأنه لا يرى وجوه النساء اللاتى يضاجمهن. ووصلت نسبة الأطباء الذين يراعون صحته ويحافظون على حيويته الجنسية إلى ٨٠٪ من عدد الأطباء فى البلد، واستمر ابن سعود فى مجونه، واشترى أربعين عربة ماركة باركارد وكانت من العربات الشعبية المشهورة فى الأربعينات، وبنى القصور- التى اشتمل أحدها على أعظم نظام لتكبيف الهواء فى العالم واقتنى الملابس المذهبة والعطور الفرنسية. وبدأت أرامكو تأخذ أبناء سعود فى رحلات إلى أوروبا وتعلمهم شرب الخمر والرقص والاختلاط مع النساء. أما فى باقى القطر فقد كان الناس يعانون الفقر. وحاول أحد الشحاذين مرة إيقاف موكب ابن سعود ليطلب منه نقودا فما كان من حرسه إلا أن ضربوا الرجل حتى الموت.. وبدأ أفراد عائلته فى إدارة

البلاد على حسابهم وباسمه. وكانت مرتباتهم تعتمد على كمية المبالغ الموجودة في الخزانة. وقمت رشوة زعماء القبائل لكسب ولائهم. واستمر ابن سعود في إساءة معاملة الشيعة، وتقطيب جبينه كلما تحدث أحد عن أهمية تعليم الفتيات.

وكما هو الحال مع هتلر احتاج ابن سعود إلى من يحرسه. فأنشأ الحرس الأبيض الذي سمي فيما بعد بالحرس الرضوي، وهو مكون من البدو الوهابيين، لكن وراء مظهر ابن سعود القوي كانت تنتشر أمراض الكوليرا، والرمد، والزهرى، وسط المواطنين. وعلى المستوى العربي لم يستطع التعامل مع زعيم سرى الملك فاروق، وانضم أسمياً للجامعة العربية لكنه رفض أى شكل من أشكال التعاون العربى، وكان يصرح دائماً بأن الوحدة لا تتم إلا بعد السيف. وكانت مساهمته الوحيدة فى السياسة العربية هو التفريق والعمل على إضعاف جيرانه. فكان يدفع سوريا لمقاتلة العراق ويدفع مصر للتدخل بينهما، لكى يثير غضب سوريا فيختلفان كما أنه ادعى ملكيته لمناطق غنية بالبتروöl فى الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان. وكانت السعودية هى البلد العربى الوحيد الذى لم يبعث بقوات لتحارب إسرائيل. ورغم عائدات النفط الضخمة إلا أنه مات فى عام ١٩٥٣ وهو مديون من قبل شركات النفط الأجنبية وكانت الفوضى تعم البلاد من الناحية المالية والإدارية وكان هو ووزير ماليته ابن سليمان مسؤولين عن هذه الفوضى. وكان عدد من يعملون بالدولة يبلغ خمسة آلاف فقط. ولم تنشأ حكومة طوال عهده والوحدة التي كوت كانت قبل وفاته بعدة أشهر.

ولم يكن ابن سعود بالطبع أعظم العرب منذ وفاة النبی الكريم. كما أنه ليس أعظم عربى في عصره، ولم يكن حتى عربياً محترماً، بل أن صفاته الشخصية والسياسية تضعه في أسفل قائمة رجال عصره، ومعظم تصرفاته شبيهة بتصرفات هتلر. وربما جعلته سياساته النفطية محبوباً في نظر الغرب لكنه كان وصمة في جبين العرب والتقاليد العربية وأى مقاييس معروفة لاتضعه فى خانة العروبة أو حب مواطنيه، كما

أُتسم سلوكه بحجاء مواطني العرب بالقسوة وحب الانتقام، وإذلال المستضعفين والفقراء، وعدم احترامه لعقائد الآخرين، وإساءة معاملة النساء والفسوق وتكريس الجهل واتباع أسلوب خاطيء لتربية أبنائه، والكلمة التي تعبر عنه بصدق هي كلمة «فاسد» واعتماده على قوى أجنبية ضد مصالح مواطنيه لا تقتصر أبداً . وقد أدخل أنواعاً من الفساد إلى الحكم لم يعرف لها مثيل في العالم. وباختصار فإن ابن سعود هو أكثر الناس فساداً في كل العصور وإرثه مجرد انحطاط أخلاقي وحماية للصلاصية الرسمية.

الفصل الثالث

التفاهة تعم كل شيء

يقول فيليبس « أنه يموت ابن سعود انطوت صفحة هامة في تاريخ الأمة العربية وأنه هو وآخرين سارورهم القلق حول مستقبل المملكة». وسبب هذه المخاوف هو التغيير السريع الذى طرأ على الشؤون الداخلية والأهمية المتزايدة لدور السعودية كقوة إقليمية ودولية بسبب عائدات النفط. وفى عام ١٩٥٥ وصل دخل السعودية إلى ٢ مليون دولار فى اليوم، مقارنة مع عام ١٩٣٥ أي بزيادة قدرها ١٤٠.٠٠٠٪ وأصبح هناك أموال كافية كى يتم الإنفاق منها على التعليم والبناء. وتحققت نبوءة هارولد إيكز، وزير الشؤون الداخلية فى وزارة روزفلت بأن الغرب وأمريكا سيعتمدون فى المستقبل على السعودية بوصفها صاحبة أعلى احتياطي نفطى فى العالم. لكن برغم أن عائدات النفط تتجاوز حاجة الأسرة المالكة وبرغم صرف المال على التنمية ورغم ظهور المجتمع الاستهلاكي إلا أن السعودية لم تصبح «دولة» ، فقد قضت سياسات ابن سعود ومساعديه على أى إمكانية للتطور الإجتماعى أو إنشاء جهاز حكومى مناسب. وفى الخمسينات كانت السعودية أشبه بموقع بناء ضخم وكان بيت سعود مستعدا لجعل الناس يأكلون أفضل مما كانوا يفعلون لكنه لم يكن مستعدا لأن يسمح لهم بالتفكير أفضل من ذى قبل. كما أنه لم يكن يوجد تلاحم اجتماعى. ومن أن المملكة أصبحت أكثر ثراء عن ذى قبل إلا أن هذا لم يواكبه أى اختلاف فى نظام الحكم وبقيت السعودية كما هى أهم نظام إقطاعى مطلق واستبدادى فى المنطقة. ومن السهل متابعة أسلوب الحكم فى عهود مختلف الملوك الذين تناهوا على العرش.

وتم اختيار سعود ملكا بواسطة مجلس العائلة، واستمر آل سعود فى الاعتماد على

الوهابيين المتزمتين للمساعدة، وكذلك استمروا في التنكر لهم إذا لزم الأمر. وحكم الملك سعود منذ عام ١٩٥٣ إلى أن حلَّ محله الملك فيصل في عام ١٩٦٤. ولم يقل أى أحد كلمة طيبة في حق سعود خصوصاً أفراد العائلة على الرغم من أنهم عرفوا بتحمل سوء طباع أقاربهم. وتجاهل التاريخ الرسمي للمملكة فيما بعد فترة حكمه التي استمرت ١١ عاماً. وتجدد في دواوين الحكومة صوراً ضخمة للوك السعدية السابقين ماعداً صور الملك سعود، وكأنما هناك مؤامرة لفرض هذا الأمر. وحتى وقت قريب لم يكن اسمه يطلق على شارع أو مبنى أو مؤسسة. والأسباب التي يسوقونها في هذا المجال تتصل بـ بذمته المالية و فساده الأخلاقي و المحسوبية و الجهل أمر الحكم. والطريقة التي اتبعت في تجريد الملك سعود وعزله من العرش تعكس الخوف الدائم الكامن في أفراد هذه الأسرة المالكة. وكما ذكرنا فإن الملك سعود أنهم بتبديد المال وإنفاق عشرات الملايين من الدولارات على نزواته وسخافات. فقد كان يستخدم ٢٥٠.٠٠٠ ليرة لإضاءة قصره المسمى بـ «الجنة الصغيرة». وتزوج نساء أكثر مما فعل والده. وعين الجُهلاء من أولاده في مناصب وزارية بما في ذلك وزارات هامة مثل الدفاع والشؤون الداخلية. وكانت الكلمات لاتسعه لإدارة الديوان الخاص به، ولم يستطع فرض نفسه كما فعل والده. ولم يتعامل بجدية مع مواطنيه أو العرب أو المسلمين. كما أنه قام بتعيين ابنه غير المؤهل كولي للعهد. وكان يفتقر إلى البراعة والدهاء في وقت كان فيه جميع العرب مبهورين بشخصية عبد الناصر وأفكاره القومية وكان هناك إحتياج ماس لشخص يقف معه على قدم المساواة. ولم يكن سعود بجيد حتى الإسلوب البارع الذي يستخدمه جميع المسؤولين السعوديين وهو التظاهر بالاستغراق في العمل بينما هم لا يعملون أى شيء على الإطلاق.

في هذه الأثناء كان أفراد الشعب السعودي مفتونين بمشاريع عبد الناصر الرحدوية وشخصيته. وقد أدى هذا إلى ظهور مجموعات سياسية مثل حركة نجل الفتاة وحركة

تحرير الجزيرة العربية كما كان موجودا أيضا حزب شيوعى صغير، لكن الملك سعود لم يبق على موقف واحد. وفى عهده جرت محاولة سعودية لاغتيال عبد الناصر. ومع ذلك نجده أحياناً مبهوراً بتصرفات عبد الناصر. وبالنسبة للغرب فإنه كان يتبع سياسات معتدلة تحمل فى طياتها بذور تفكير مستقل. وكانت سياساته المالية والسياسية معقولة جداً ما إلا أن سلوكه الشخصى كان باعثاً على الأسى. وكانت أسرته تعترض على تكليفه للمخابرات المركزية الأمريكية بجلب أولاد لمتعته واعتبرتها نقطة ضعف خطيرة تقطع الباب للإبتزاز. وقد كان شيناً مروعاً أن مايلز كوبلاند وعملاء آخرين من المخابرات المركزية كانوا على علم بهذا الأمر وقد كتبوا عنه دون خوف.

لم يكن الملك سعود يميل إلى العنف أو الإرهاب مع الخصوم كما أنه لم يكن يكره التجار على دفع أموال لصفها على ملذاته. كما أنه كان لا يميل إلى زرع الفرقة بين البلاد العربية وتعتقد الأسرة المالكة أن تهاونه هو الذى جعل المواطنين السعوديين يجاهدون بإعجابهم بالرئيس عبد الناصر. وكان على الأسرة التحرك لأن مثل هذا التهاون يضعف المملكة ويجردها من الأسس التى قامت عليها، وهى العنف والإرهاب، ومعنى تحركهم للتخلص من سعود هو حرصهم على استمرارية حكم البيت السعودى حتى ولو كان هذا يعنى التضحية بالملك نفسه.

وحتى يومنا هذا فإن هذه العائلة فشلت فى تقديم نفسها بطريقة منظمة وإنما هم يتكاتفون فقط عند الشدائد ويعملون كيد واحدة. وحتى الآن فإن المجموعة التى قامت بإرغام الملك سعود على الإستقالة ليست معروفة وإنما هى تتكون من ٧٢ أميراً من مجمل العدد آنذاك وهو ١٥٠٠. وكان يقودهم محمد أبو شرين أحد إخوة الملك سعود نفسه. وسوف نتحدث عنه باستفاضة فيما بعد. وقد كان مدعناً للخمر ويستخدم أساليب بدوية عنيفة مع جنوح فطرى للإستبداد. وعلى أى حال فإن سيناريو عزل الملك سعود يتلخص فى شىء واحد وهو أن العائلة مصممة على استمرارية حكمها.

حلّ الملك فيصل مكان الملك سعود بوصفه الأخ الأصغر منه مباشرة، وشغل بنفسه منصب وزير الخارجية . وقد كان فيصل يسير على نهج أبيه، ومنح العائلة الاحترام ويقول المؤرخ السعودى أنور عبد الله أن فيصل قد (قضى على الفساد الظاهر وواصل سياساته الباردة. وكان حكمه قائما على عبارة أشتهر بترديدها تقول: «ماذا يريد الإنسان حقا؟. إذا كان يريد الخير فهو موجود فى الشريعة الإسلامية، وإذا كان يريد الأمان فهو موجود أيضا وإذا كان يريد نشر العلم فهو أيضا موجود، وإذا كان يريد الحرية فإنها موجودة هناك». لكن الخير والعدل والحرية ونشر العلم لا نجد أى شىء منها فى السعودية وإنما هناك مساعى دائمة لوضع كل شىء فى خدمة مصالح آل سعود حتى وإن اضطروا لتحريف الإسلام فى سبيل ذلك. وهذا الأساس الذى وصعه فيصل لحكمه هو مجرد إدعاء وهو أشبه باستخدام هتلر لفكرة ال فوكر. وكان فيصل استغلاليا بارعا وله مهارة فى إخفاء التصرفات السيئة وإظهار عكسها برغم شناعتها وإنحطاطها. وهو قادر على وضع قناع من الإستقامة المزيفة تستندها قدرة على اللعب بالألفاظ اكتسبها أيام عمله كوزير للخارجية. وعلى عكس إخوته الذين يقاربونه فى العمر فقد كان يكثر من السفر للخارج مما أعطاه نوعا من إتساع الأفق وقد كان ماهرا فى إجراء التسيويات والإستعانة بالحلول الوسط مما جعله يبدو مقتنرا فى نظر العالم. وقد حكم فيصل لمدة ١١ عاما حتى اغتيل على يد أحد أبناء عمومته لأسباب غير سياسية، ويقال أن فيصل قد قام بإعدام أحد إخوة هذا الرجل الذى كان يعارض بعض الممارسات التى يعتبرها غير إسلامية. وقد تم إعدام القاتل فيما بعد أمام الجماهير. ومن الواضح أن دعائم حكم البيت السعودى قد أرسيت منذ أيام ابن سعود.

كان فيصل قد ظل متزوجا من امرأة واحدة معظم سنين حياته وهى عفت وقد كانت زوجته الرابعة والأخيرة وكانت من أقاربه وتلقت تعليمها فى تركيا. وكان فيصل منغمسا مثل باقى إخوته فى الملذات لكن عزوفه عن النساء فيما بعد لم يكن يرغبه

وإنما بسبب شخصية زوجته الطاغية. وقد كان اكتفاؤه بالزواج من أربعه يعتبر ميزة كبرى مقارنة بباقي أخوته إذ تورد بعض الإحصائيات أن أبناء سعود الـ ٤٢ تزوجوا حتى الآن من ١٤٠٠ امرأة. والميزة الثانية التي حسبت لصالحه هو تنفيذ سياسة عتق العبيد أو تحريرهم في عام ١٩٦٢ عند توليه للحكم. والمثير في هذا الأمر هو أن فيصل تسبب في أزمة دبلوماسية في عام ١٩٣٢ عندما كان وزيرا للخارجية إذ قام بإبعاد السفير البريطاني للمملكة سير اندرو ريان لأنه اشترك في تحرير عدد من عبيد والده استنادا لاتفاقية عام ١٩٢٧ بين البلدين، وهو الذي أعاد التفاوض حول بنود هذه الاتفاقية في عام ١٩٣٦ ووقع على أخرى تعترض على إلغاء الرق في السعودية.

في ذلك الوقت كانت لجان حقوق الإنسان وخطابات عبد الناصر ونداءات الرئيس الأمريكي كينيدي كلها تطالب بإنهاء الرق. وكان راديو القاهرة يذيع رسائل خاصة حول هذا الأمر لاقت القبول من الشعب السعودي. وهذا يدل على أن تفكير المواطنين في السعودية كان سابقا لتفكير البيت الحاكم. والمهم أن هذه الضغوط هي التي اضطرت فيصل إلى إنهاء الرق. والمعروف أن معظم العبيد الذين اعتقوا لم يستطيعوا أن يعيشوا حياة طبيعية وعادية فعادوا لكنهم عوملوا دائما كعبيد. أي أن قانون تحرير العبيد منع وجود عبيد فقط في العلن. كما أن هذا القانون لم يمنع استعباد العمالة الخارجية أو شراء النساء. فهناك فتيات لاعمل لهن سوى متعة الأمراء. ومع هذا فقد استغل فيصل هذا الأمر استغلالا سياسيا ناجحا ودفع ملايين الدولارات لصحفيين لبنانيين وغيرهم ليتخذوا الخطوات الإعلامية اللازمة لنشر هذا الإنجاز لأبعد مدى ممكن، وتجاوز هؤلاء بالطبع عن سجله السابق في هذا الأمر وعجز والده عن إصدار قرار بهذا الخصوص. أما العمل الثاني المنسوب إلى فيصل فهو السيطرة على المحفظة الملكية، وهو أمر غير صحيح وكل الذي فعله بهذا الخصوص هو أنه أوجد أسلوبا آخر لأفراد أسرته للحصول على المال دون الاتجاه إلى الخزينة العامة وهو الأمر الذي كان مكشوفاً

للجميع، واتجه إلى طريقة أخرى تتسم بالمرابحة وهي استخدام الأراضي للتعويض على أفراد الأسرة . وقبل حكم فيصل لم يتعرض أى أحد للملكية الأرضى العامة. وهى تبلغ حوالى ٩٢٪ إلى ٩٥٪ من مساحة أراضى البلاد. وربما كان الإقتراض الثانى هو ظنه بأن هذه الأراضى محتوى على نفط لذلك أرادها أن تكون تحت ملكية أسرته. وكانت هذه الأراضى تستخدم من قبل لبناء القصور أو المزارع. فقام فيصل بتخصص ٨٠٪ من هذه الأراضى للأمرء وأفراد الحاشية وكانت هذه الأراضى تسمى بأسماء أعضاء الأسرة مثل الفيصلية والحالدية والسلطانية. أما باقى الأراضى فكان يستخدمها لإرضاء بعض الناس. وكانت عائدات النفط قد تزايدت بصورة يصعب على البيت السعودى استيعابها، وازدهرت التجارة والأعمال لدرجة أن البلد أصبح يعانى من التضخم المالى. وقد تأثرت أسعار الأراضى بهذا أكثر من أى شىء آخر. وبدأ فيصل فى توزيع أجزاء ضخمة من هذه الأراضى كهدايا وكان أكثر المستفيدين هى زوجته عفت التى أعطيت مساحات شاسعة حول مدينة جدة تتجاوز الملبارى دولار وتبلغ قيمتها الحالية ٥ مليار دولار. أما السعودى الوحيد غير الملكى الذى حصل على هذا الإمتياز هو وزير النفط السابق أحمد زكى يمانى- الذى اعترف لكاتب سيرته الذاتية بأنه يملك ما يساوى ٣٠٠ مليون دولار من الأراضى كان قد وهبها إياه الملك فيصل. ونتيجة لهذا القرار بدأ البدو يستقرون ويبنون منازل ضخمة. وقد قادت العائلة المالكة فى موضوع الحصول على الأراضى كما تفعل دائما وأصبح الأمير إذا أعجبه قطعة أرض معينة فإنه يطلب من أمير المنطقة التى توجد بها القطعة اتخاذ التدابير اللازمة لإنتزاعها من الذين يملكونها وتحويل ملكيتها لهذا الأمير. وكان انتزاع القطعة يتم من أجل الاستخدام العام ثم بعد ذلك تحول لسموه. ومع أنه من الصعب تحديد القيمة الحقيقية لهذه الأراضى فإن الأرقام التقريبية تتراوح ما بين ٣٥ مليار إلى ٥٠ مليار (وهى قيمة الأراضى التى وزعها فيصل بنفسه)، وقد استمر الملوك الذين جاؤا

من بعده فى تنفيذ نفس السياسة وذلك أصبحت معظم الأراضى ملكا للعائلة المالكة. وما لاشك فيه أن عددا من أفراد الأسرة المالكة. بمن فيهم الملك سعود استمروا فى الحصول على أموال من الخزينة العامة. وأنفق الملك سعود ١٠ ملايين دولار فى شهر واحد أثناء نفيه فى أثينا، وكان فيصل يرسل له المال باستمرار. ليس هذا فقط بل أن فيصل شجع أفراد الأسرة المالكة على الاتجاه إلى الأعمال الحرة لكى يستفيدوا من الفرص الهائلة التى توفرها أموال النفط. وقد تبلور هذا الموضوع فى الوقت الحالى. وتقول موسوعة (من هو) العالمية بأن أعضاء الأسرة المالكة وأصحابهم وأقاربهم يتراأسون مجالس إدارات ٥٢٠ شركة. وفى معظم الحالات فإن استخدام الألقاب يعنى أنهم يعيرون أسماهم لمؤسسات تملها وتديرها الحكومة السعودية كما أنهم يستغلون أسماهم لتنفيذهم الملكى كى يحصلوا على عقود حكومية. وإضافة إلى العدد الضخم من رؤساء مجالس الإدارات فإن معظم أمراء البيت السعودى شركاء صامتون فى شركات محلية وعالمية. فهم حتى إذا شجعوا الشركات والأعمال الفردية (ولو دون مساهمة فعلية) يتسلمون مبالغ ضخمة كمقابل. وأصبح قيام تجارة أو أعمال فى السعودية دون وجود شريك من البيت الملكى أمرا نادرا للغاية.

أما الإنجاز الرابع لفصل الذى واكبته دعاية ضخمة فهو تشجيعه على تعليم النساء. وقد توج بطلا لهذا العمل. ومع أن فيصل هو الذى أنشأ أول مدرسة لتعليم البنات فى المملكة إلا أن هذه الخطوة لم تواكبها خطوة أخرى من أجل رفع قدر المرأة. وهناك اعتقاد جازم بأن زوجته عفت وراء مسألة تعليم المرأة. ويبدو أن فيصل نفسه تخلى عن موضوع تحرير المرأة أو بالأصح لم يرد أن يقدم للمرأة شيئا أكثر من هذا القدر اليسير من التعليم، فبعد مرور سنوات على إنشائه مدرسة البنات سئل عن بقية حقوق المرأة ومتى ستعطى هذه الحقوق فرد بسخرية: عندما نعطى الرجل حقوقه. ومعنى هذا القول أن ذلك لن يحدث أبدا. وبالفعل لم يتحرك فيصل فى اتجاه إعطاء

حقوق لأى من الإثنيين، على الرغم من الوعود التى أطلقها عندما كان يعمل على عزل سعود (أنظر الفصل السادس).

كانت أول خطوة يتخذها فيصل فى سبيل حكمه هو قيامه بحل مجلس الوزراء، الواعد الذى كونه سعود لتحقيق الإصلاح، وكان متوسط سن الأعضاء فى هذا المجلس ٣٩ عاما وعند وفاة فيصل كان أفراد الأسرة المالكة يحتلون نصف مقاعد الوزارة وبعضهم كانوا حكاما للأقاليم ومنهم ١١ نائباً للوزير. ومنهم عدد من الجنرالات فى الجيش أو القوات الجوية وتتراوح أعمار هؤلاء ما بين العشرين والثلاثين و٣٢ منهم كانوا يحتلون مناصب رئيسية مثل منصب مدير المخابرات أو مناصب السفراء أو رؤساء المراسم. وبصفة عامة كان فيصل يستعين بأفراد الأسرة المالكة للإشراف على الشؤون العامة والخاصة، ويشمل ذلك الجهاز الذى أنشأه بنفسه وهو جهاز الأمن الداخلى الذى عهد به إلى صهره كمال أدهم. ويقول عبد الأمير موسى أحد أعضاء المعارضة: «إن الشيء الوحيد الذى تذكره له (لفيصل) هو إرتفاع عدد السجناء فى فترة حكمه وإدخاله لنظام التعذيب فى السجون. وهو فى هذا أسوأهم جميعاً».

فى الستينات بدأ فيصل فى استغلال إنجازاته ليعطى الملكة صورة جديدة جيدة، مما كان له أثر فى علاقاته بالعرب والمسلمين. وحتى علاقته بالغرب. وسمحت له ثروات النفط بمواجهة الأخطار الخارجية التى يمثلها عبد الناصر والقوى العربية التقدمية وفى النهاية حاول انتزاع زعامة العالم العربى منه. وقام بدعم الملكية فى اليمن بالمال والسلاح، وأوقع عبد الناصر فى فخ الحرب الأهلية فى اليمن التى أوهنت الحكومة المصرية وأضعفت محاولاتها المعروفة لتحقيق الوحدة العربية. واستمر فى التقليد السعودى القديم فى دعم الأنظمة العربية الرجعية دون أن يطلب منها علانية السير فى الخط السعودى.. ويرجع له الفضل فى إفساد الصحافة العربية بشرائه للأقلام وقبل أن يبدأ سياسة إفساد الصحافة هذه كانت معظم الصحف والمجلات العربية خاصة فى

بيروت لها تأثير كبير كما أنها كانت تتمتع بالحرية (راجع الفصل الثامن)..
 وبما أن المسلمين كانوا أهل خضرا له من الصحوة العربية. والصحوة الداخلية فإنه
 دفع بلاده إلى إتخاذ هوية إسلامية على حساب الهوية العربية. وقد ساعدته سيطرته
 على المقدرات الإسلامية على فعل ذلك. وشجع الاتجاهات الإسلامية المحافظة في كل
 مكان على إيجاد توازن في مقابل التهديدات القومية العربية. ومثال ذلك فإنه دعم
 الجيش الباكستاني تحت إمرة الجنرال ضياء الحق ضد الرئيس المنتخب على بوتو وهو ما
 أدى فيما بعد إلى الإطاحة بعلى بوتو وإعدامه. والغريب في الأمر أن بوتو كان رجلا
 منذ البداية إلا أنه كان مشغولا بتحديث باكستان. ولم يكن فيصّل يحتاج لمثل هذه
 الأفكار وإنما كان يهجمه أن تصبح الباكستان المسلمة تابعة له. وعندما كان رئيسا
 للوزراء في عام ١٩٥٩ كشفت جريدة المصور القاهرة عن قيام مجموعة من أفراد
 المخابرات المركزية الأمريكية تحت قيادة جيمس راسل باراكس بالتعاون مع السعودية
 بإنشاء مجموعات سياسية إسلامية محافظة لمواجهة حركة عبد الناصر المؤيدة للوحدة
 العربية.

وكان فيصّل يغير اتجاهاته على الدوام لتلائم مصالحه وقد أمتد ذلك حتى إلى
 علاقاته بالغرب، فقد استخدم موقفه ضد عبد الناصر والتقدميين العرب ليحصل على
 المزيد من الدعم العربي يساعده على إنشاء معسكر سعودي إسلامي محافظ تقوده
 السعودية. ولما زاد الضغط العربي عليه لاستخدام النفط لمنع تأييد الغرب لإسرائيل،
 انتهج سياسة غير معقولة تهدف إلى إرضاء الطرفين، وأعلن أن الشيوعية والصهيونية
 تسمتان لأن في الشر، وبهذه الطريقة أرض العرب وأرضي أمريكا. وفي عام ١٩٧٣
 وعند اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية سارع بوقف إمدادات النفط إلى الغرب في
 خطوة تبدو في ظاهرها مؤيدة للعرب على حساب الغرب. وسوف نتعرض بالتفصيل
 لاحقا لهذه الخطوة التي ساعدت كثيرا على تحسين صورته. وبرغم هذه الخطوة

التكثيكية العالية إلا أن فيصل كان يحس دائما بإرتباط قدره وقدر بلده مع أمريكا بصورة نهائية. وأكد هذا الأمر مرة أخرى فى سنة ١٩٧٥ حينما اعترف ل ويلتون وين بأن العلاقة مع الولايات المتحدة هى ركيزة السياسة السعودية»، وقد تمادى فى هذا الاتجاه بدرجة مدمرة جعلته يدعم السياسات الخارجية الأمريكية بالمال السعودى. ويظهر هذا بوضوح فى القرن الأقرىقى حيث قام بدعم القوى المحافظة على حساب القوى التقدمية. وتولي اخوته مد هذه السياسات حتى أفغانستان وقاموا بتقديم لوردات الحرب المتخلفين للعالم على أنهم محاربين من أجل الحرية. وتبع ذلك مواقف أخرى (راجع الفصلين الخامس والسادس).

والذى لاشك فيه أن فيصل كان محنكا لكن وضع الرجال البارعين فى خدمة أهداف سيئة، يجعلهم أكثر خطرا من الأغبياء. وفى المقابلات التى تمت مع سعوديين من أجل هذا الكتاب، أجمعوا على أن ممارسات فيصل هى التى صفت أفراد المعارضة الداخلية كما أدت إلى تدمير الحركة القومية العربية بحيث لم تقم لها قائمة من بعد. وقد قبلت الولايات المتحدة بدور السعودية كنائب لها فى المنطقة. وحتى فى ذلك الوقت واصل فيصل اعتماده على المقولة الشهيرة التى ابتكرها وهى أن بإمكان العائلة المالكة أن تفعل كل ماتريد بشرط واحد هو أن تفعل ذلك ببراعة، وأن الوهابية ووسائلها الصارمة هما الطريق إلى الخلاص، وأهم من كل هذا أن المواطن السعودى العادى لم يكن بإمكانه التمتع بخيرات النفط. وأوضحت بعض الإحصائيات فى عام ١٩٦٢ أن عدم التكافؤ فى توزيع الثروة جعل الفرد السعودى ناقص التغذية. وكانت عدد السعرات للفرد تبلغ ٨٣٪ وهى أقل بكثير من الكمية المطلوبة للشخص ليقبى على قيد الحياة مقارنة مع ١٥٥٪ للفرد اللبنانى و٩٢٪ للفرد الأردنى. ونستطيع القول أن فيصل كان مثالا للحاكم الاستبدادى الذى كان يحرص على أن تبقى السعودية ملكية خاصة لآل سعود. وكل محاولاته لتصحيح صورة المملكة لم تتضمن إعطاء امتيازات للمواطنين

السعودي العادي.

أما خالد الذي تولى العرش بعد فيصل فإنه لم يكن راغبا في المنصب، لكنه كان مجبرا على قبوله منعا لإتساع الخلافات داخل الأسرة المالكة مما يمكن أن يحدث عودة إلى الخصومات الدامية. وبالرغم من انصرافه لصيد الصقور إلا أن سنوات حكمه من ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٢ تميزت بتمنية لم يسبق لها مثيل في التاريخ السعودي.

أهم تطور داخل أسرة سعود هو ظهور عائلة قوية داخل عائلة سعود هي عائلة السديري. وتتكون من سبعة إخوة اشقاء هم أبناء حصة السديري من ابن سعود وقد ذكرنا سابقا أن ابن سعود تزوجها وطلقها فتزوجت من أخيه لكنه طلقها من أخيه ليعيدها إليه ثانية. ثلاثة من هؤلاء الأبناء هم فهد وسلطان ونايف شغلوا مناصب وزارية والبقية كانوا حكام أقاليم أو نواب وزراء. وسواء تم هذا عن طريق الخداع أم بسبب صلتهم بعائلة سديري ذات النفوذ فقد استطاع فهد أن يصبح وليا للعهد بعد خالد واستمر سلطان في شغل منصب وزير الدفاع، وحصل نايف على منصب وزير الداخلية. بينما حصل سلطان على منصب هام بوصفه حاكما لمدينة الرياض.

أصبح السديريون السبعة وعلى رأسهم فهد أقوى سلطة وراء العرش واتخذوا خطوات لكي يحدوا من سلطة الآخرين. وفي محاولتهم هذه قاموا بتقويض نظام (الأقدمية) المعمول به عن طريق فرض رأيهم على أخوتهم الأكبر سنا مما أضعف فرص بعض هؤلاء في الصعود إلى المراكز العليا. وقوضوا الأساس الذي يقوم عليه مجلس الأسرة ومنعوا أبناء سعود (أبناء أخيه) من الحصول على مناصب حكومية ووضعت العراقيل في طريقهم لنيل أي مراكز هامة. ومع أن أبناء فيصل سمح لهم بأخذ مناصب رسمية بما في ذلك وزارة الخارجية إلا أن السودريين تأكدوا من عدم السماح لهم بنيل أي نفوذ حقيقي. ويبدو أنهم قد نجحوا في ذلك، وقد اشتكى سعود الفيصل وزير الخارجية للملك حسين ملك الأردن بأنه «ليس أكثر من مجرد موظف».

وقد أصبح أبناء فهد وأبناء سلطان ربيعة السديريين تجارا وحكام أقاليم وسفراء، وأصبحوا يشغلون ٦٣ وظيفة من الوظائف الحكومية الهامة إلا أن هذا الانقلاب العائلي واجه معوقات غير مترنمة جعلته غير كاملا. فالجماعة التي عينت فهد من قبل وليا للعهد وضعت نضاما لمن يعتلى العرش من بعده، وقد سند ذلك كل من محمد أبو شرين والأمير عبد الله. وكانت أساليب محمد أبو شرين العنيفة تثير إعجاب كثير من القبائل لذلك خاف (السديريون) أن يتم تأليب باقى العائلة والقبائل ضدهم اذا ما حاولوا المساس بذلك النظام.

أحد التطورات الرئيسية التي تأثر بها الملك خالد كانت وصول الإسلاميين المسلحين للسلطة فى إيران المجاورة، وأصبح وجود أية الله الخمينى على رأس السلطة مشكلة هامة بالنسبة للسعودية، ولا أحد ينكر أن سياسات فيصل الإسلامية كانت هى القاعدة التى قامت عليها ثورة الخمينى الإسلامية (ويشكل الشيعة فى السعودية ١٪ من الشعب السعودى) كما شجعت الثورة الإسلامية فى إيران مجموعات إسلامية أخرى لتبنى نهجها أو ما يسمى بتصدير الثورة. وكإجراء وقائى قام الملك خالد بدعمه العائلة المالكة بسجن عشرات الشيعة. ولما كانت السعودية غير قادرة على مواجهة إيران فإنها قررت القيام بخطوة ما لإضعاف نفوذها، وشجعت العراق على بدء الهجوم على إيران، وقامت بدعمه بعد ذلك وهو ما سنتعرض له لاحقا، وكانت مجلستا التضامن والدستور العربيتان وعدد كبير من الصحف الأجنبية والإعلام السعودى قد أبرزوا هنا الأمر دون الدخول فى تفاصيل. والواقع أن السعودية قد دعمت العراق بما يساوى ٣٠ مليار دولار. ووصل تصميم بيت سعود على تنفيذ سياسة (فرق تسد) إلى آفاق جديدة غير مسبوقة.

أما التطور الثالث خلال حكم الملك خالد فإنه يمكن تلخيصه على ضوء كلام القائم بالأعمال السابق فى سفارة أمريكا بالسعودية «نحن نحتاج نفطهم وهم يحتاجون

حمايتنا». فاعتماد أمريكا على نفط السعودية جعلها تنجاهل كافة الاعتبارات بما فيها تعهد جيمى كارتر بضمان حقوق الإنسان. وداخلها بدأ ضغط الأصوليين الإسلاميين وبدأوا يجمعون الصفوف. وبما أن السعودية غير قادرة على حماية نفسها فإنها اضطرت للبحث عن الحماية العسكرية الأمريكية: وهذه المرة أكثر مما فى أي مرة سابقة.

وبرغم سياسات البيت السعودي وأساليبه المعروفة فإن إنتقاله إلى إظهار حقيقة أمره فى عهد الملك فهد ملئء بالندى السيئة للمستقبل، فقد أدى نجاحه فى التغلب على التحديات التى واجهته فى المسارين العربى والإسلامى والاعتماد المتزايد للغرب على نفطه وبالتالى الاستمرار فى مساندته- أدى إلى شعوره بالعجرفة لقد أحس البيت السعودى- أخيراً- بالأمان وهذا الأمان الزائف يقوم على تجاهله لمن يحيط به، وهو وضع سيء وفى غاية العيشية، وتحت حكم فهد أصبح بيت سعود غير خائف ولا يحتاج إلى التظاهر: لقد خرجوا إلى العلن. وهذه الخطوة سفهت كل شىء حتى الفساد. وأصبح بإمكان فهد لعب دور سعود دون خوف من إثارة غضب العائلة، كما أنه لم يعد بحاجة إلى استخدام أقتعة فيصل، كما أصبح إجبار العرب على الطاعة والخضوع مقابل الدعم المالى لهم أصبح يتم بسماجة، واستطاع فهد الاستعاضة عن الاعتماد على الغرب بواسطة تحركات داخلية وإقليمية زائفة ومجملية. وبهذه الطريقة العيشية أصبح هذا الرجل يمثل لاشىء أو بالأصح كل شىء. وربما احتجنا إلى إبتكار كلمة جديدة لوصفه وتقول مارجرىت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة أن هذا الرجل ليس لديه مايقوله لنفسه، ويقول الصحفى نهاد غدبرى (وهو صحفى سورى كان يلاحظه عن قرب منذ ستين طويلاً) إنه ضخم وفارغ مثل سفينة غير صالحة للعمل وجبل من اللاشئ. وحتى أعماله الرضيعة لاتعبر عن حقيقته-لقد حقق المستحيل بأن جعل الناس لاينتظرون إليه أو لأسرته نظرة جادة. ولم يعد الناس يتحدثون عن الفساد فى السعودية فقد أصبح أمراً

مسلماً به».

وبالطبع فإن تعليقات تاتشر والغديري تعنى الكثير لكنها غير كافية لوصف فهد وهو مازال يحكم السعودية وهو الوحيد الذى يضع السياسات للدولة باللغة الأهيمية وحتى إذا تسبب فى كارثة لبلده أو أصبح آخر ملك للسعودية فإنه بالتأكيد يستحق وقفة لتقييمه تتجاوز تعليقات تاتشر والغديري المثيرة ويقول أحد المحررين بصحيفة عربية تصدر فى لندن -وتدعمها السعودية- «لقد كنت واحداً من أقرب المؤيدين له قبل أن يعتلى العرش، والآن لا أدري ما أقول عنه فهو أكبر خيبة أمل فى تاريخ هذا البلد». ويعتبر هذا الرأى مقارب لما أظنه لكن درجة تعقيد هذا الرجل أو بالأصح سداخته تجعل رأى شخص واحد مسألة فى غاية الخطورة. ومن الأفضل أن نعود لبداياته لنرى بوضوح أين يقف الآن.

لم يكن فهد أحد الأبناء المفضلين لدى والده، ولا يوجد فى طفولته ما يميزه عن الآخرين. فقد تلقى تعليمه فى المدرسة الإبتدائية المخصصة للأمرأ فى الرياض ولكنه لم يفعل أى شىء لتوسيع مداركه. وحتى إنجليزته التى تعلمها فى سراير الشقراوات بقيت مجرد بدايات، على الرغم من السنين التى قضاها متجولاً فى أنحاء أوروبا يطارد الحساوات. وليس لديه هواية رفيعة أو ولع بشىء (فقد كان الملك سعود مفرماً بالتصوير الفوتوغرافى وكان فيصل مفرماً بتعليم أطفاله وكان خالد مفرماً بصيد الصقور) والشىء الوحيد الذى اتفق عليه السعوديون ورجال النفط والأمرأ والدبلوماسيون والمسؤولون الغربيون هو كسله، وأى كتاب يصدر عن التاريخ الحديث للمملكة يشير إلى كسله الفذ، فقد كان تلميذاً كسولاً وعاشقاً غير مبال. ووزير صحة غير منكرث وكذلك وزيراً للتعليم والداخلية. وعندما كان ولياً للعهد كان يترك بلاده شهوراً كى يلها ويغيث والآن وبعد أن صار ملكاً فإنه لا يستطيع إرغام نفسه على قراءة الوثائق الهامة، أو الإطلاع على التقارير «والوثائق الهامة ترقد لأسابيع فى

أدراجه قيل أن يطلب من أحد مساعديه إزاحتها عن وجهه دون اتخاذ قرار فيها وباختصار فهو فاقد الرغبة في كل شيء. والكلام الأخير صدر من أحد البنائين الذين عملوا في بناء قصره بجدة- الذي تكلف ثلاثة منبار دولار وسمى «السالم» وقد كان هذا البناء يراقبه عن كثب لمدة ضحلة. وبالإضافة إلى الكسل توجد أربع صفات بغضه تتميز بها شخصيته وهي معرفة علي نطاق واسع فهو زير نساء لكنه لا يحاول تغليف دعارته ببعض الوقار. وقد شاهدنا له صوراً مع نساء رخيصات بأنف أي بدوى عن التعامل معهن. وكان كثير التردد على ملهى «ريجين» الباريسى لالتقاط النساء، هذا إضافة إلى قصص أخرى كثيرة ومستهلكة تضيف إلى شهرته كشخص لعوب. وقد كان مغرماً بزوجته أحد معارفه اللبنانيين فأنشأ معها علاقة استمرت لمدة خمس سنوات كان ينعم خلالها على زوجها بعقود عمل وعقود تجارية. وقد أصبح الرجل وزوجته من أصحاب الملايين. وهناك قصص أخرى كثيرة من هذا النوع. وبرغم أن فسوقه هذا لا يختلف عن فسوق أخيه سعود أو والده، إلا أن ولعه بالقمار لا يماثله شيء. وقد اعتاد منذ سنوات إنفاق مئات الألوف من الدولارات في كازينو لبنان وقد تأسست شهرته في هذا المضمار منذ أوائل الستينات في مونت كارلو. وتقول صحيفة (شترن) الألمانية وصحف أوروبية أخرى أنه خسر ٢٠ مليون مارك في ليلة واحدة، واستدعى حينذاك، إلى السعودية ووينغ من جانب أخيه الملك فيصل آنذاك. ولكنه لم يقلع عن العادة. وحتى الآن لمجده دائم البحث عن رفقاء للعب في بيته وبالطبع يمكن لهؤلاء الأصدقاء الإطلاع على أسرار الدولة الموجودة في الملفات المكونة على تربيته ولا يريد الإطلاع عليها وبإمكان أى تاجر طموح أو رجل أعمال في جدة الوصول إلي جلالته عن طريق الإنضمام إلى دائرة القمار الخاصة به، أو حزب القمار كما يطلق عليه شاهد عيان لبناني اعتاد خدمته وحمل شط السامرنات المكتظة بالأوراق المالية لدفع خسائره، وفي كل مرة يصبح ماتبقى من نصيب الخدم.

والملك فهد يعانى من إدمان الخمر (والمعروف أن عددا من إخوته مات بهذا السبب) وأشارت إلى المشكلة صحيفة «نيويورك تايمز» وصحف أخرى عديدة. وحتى بعد أن صار ملكا فإن هذه العادة جعلته يتجاهل كثيرا من أمور الدولة الهامة إلى جانب إهماله لصحته كما أنه مصاب بمرض السكر وهو مرض لا يتطلب من صاحبه شرب الخمر. وفي بعض الأحيان عندما يوقف الشرب فإن وزنه ينقص ويعتدل منظره ويبدو يقظا مما يمكنه من التركيز فى لعب البوكر من جديد. فهو لا يعمل على الإطلاق.

والخصلة الرابعة التي تميز بها الملك فهد هي حبه للمال وقدرته على صرفه وقد بدد في شبابه الملايين. ٥٠ هـ. حتى الآن من أثري أثرياء العالم بعد سلطان (بروني) فهو يملك سبعة قصور ضخمة في السعودية، تقدر بإحدى عشر مليار. وله قصر في مارابلا بمائة غرفة. وقصر كان لأحد الملوك الفرنسيين في القرن الثامن عشر، وقصر في جنيف له ١٥٠٠ خط تلفوني، ومزول ضخم قرب لندن بلغت تكاليف تجديده ٣٠ مليون جنيه. هذا إلى جانب قصره الطائر: طائرة بوينج ٧٤٧ مزودة بساونا ومصعد وحمامات مذهبة. إلى جانب اليخت الملكي الذي يبلغ ثمنه خمسين مليون دولار. وله فرش أسنان من الذهب الخالص ويستخدم للبلاج رولزرويس تم تحويلها إلى عربة تجرها الجياد، قامت بصنعها شركة «وود وباريت». وتبلغ ثروته دون القصور ٢٨ مليار دولار. وكل ما يفعله ليس فيه جديد ويقاؤه يعني بقاء البيت السعودي متماسكا وتبدو هذه التصرفات كامتداد طبيعي لسيطرتهم على عائدات نفط البلد. وما أن فهد لم يعد يكثر إخفاء إنفاقه للمال فهذا يعني أنه ابتكر أساليب جديدة لإنفاقه. وقبل التعرض لبعض النقاط العامة التي برزت من كيفية إنفاق فهد للثروة، فإننا نشرح تأثير عائلته ومواطنيه والشؤون الداخلية بهذا الصرف. وستعرض لاحقا وبشكل منفصل لعلاقاته مع الغرب والعرب والمسلمين وتأثرهم بذلك.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف يصبح شخصا كهذا ملكا؟ خاصة وأنه

ليس الأكبر سناً، وإنما يكبره ناصر وسعد. والسؤال الثاني المحير هو كيف تم إعداده للحكم منذ أيام فيصل اخواني التتكر والدعاء وارتداء الأتعة. وتولى فهد للعرش هو الذى أخرج إلى الضوء الوسيلة المنبعة فى البيت السمردي للمحافظة على الاستمرار وفشل المجهودات الغربية لحديثه وإعطائه مؤسسات شرعية دائمة تكفل له الديمومة.

والسبب الرئيسى وراء اعتلاء فهد للعرش بسيط للغاية وهو أن أسس اعتلاء العرش لم تحسم بعد. فالعرش انتقل لسعود بعد وفاة أمية ثم إلى فيصل بعد ذلك بناء على نظام «الأقدمية» لكن بسبب الضغوط أصبح العرش يذهب لمن هو اكفاً. لذلك تم تجاوز محمد أبو شرين لعيوبه المعروفة وذهب العرش إلى شقيقه خالد. ومن خالد ذهب العرش إلى فهد الذى يفترض فيه أن يكون مؤهلاً وموهوباً، متجاوزاً لناصر وسعد كما أسبقنا. وبينما يبدو الأمر فى الظاهر معتمداً على الكفاءة والقدرة فإن بواطن الأمور تشير إلى أن السن أو الموهبة لاتهم وإنما المهم هو من يحظى وحدة العائلة؛ ففهد يتمتع بوضع غير متاح للأميرين ناصر وسعد، فهد أحد أبناء حصّة السديري أو الذين يسمون بالأشقاء السبعة وهم يمثلون عشيرة لوحدهم. فالسديري لهم نفوذ ووضعهم متميز كقبيلة ولهم مكانة وأتباع. ولا يمكن أن تحتفظ بوحدة العائلة السعودية إذا حرمت أبناء السديري من العرش. وأى محاولة لتجاوزهم يمكن أن تشير للقلق. وهم متماسكون ومتلاحمون داخل العائلة، ربما أكثر من أبناء سعود. وهذا هو الذى أضعف موقف كل من ناصر وسعد.

وكما ذكرنا أنفاً فإن اعتلاء السديريين للعرش يعتبر انقلاباً، لكنهم كانوا يعملون لهذا الهدف منذ زمن بعيد. وفى سبيل ذلك أعطوا فهداً صفات ليست فيه. وبمرور الوقت صدقت القوى الخارجية ووسائل الإعلام الأجنبية والمحلية هذا الزعم أو ربما كانت على استعداد لتصديقه، وقد سبب هذا خيبة أمل لكثير من السعوديين، وقد درج بعض الصحفيين الأجانب على الثناء عليه فيقول عنه مراسل ويلون اى «أنه موهوب

وأنيس» وتدعى مجلة نيوزريك أنه محب للعمل، ويصفه آخرون منهم بالتحضر والتفكير المتحرر» وفي واقع الأمر فإن حملة دعائية ناجحة وكاذبة رفعت رجل متوسط في كل شيء إلى العرش. وهذا يفسر لنا الربكة التي حدثت فيما بعد لمن صدقوا الكذبة.

ونكتفي بهذا القدر الآن، وننتقل للتعرف على الآثار الناجمة عن سوء إدارته لشئون الحكم في هذه الفترة المخرجة من تاريخ آل سعود.

غربة السلوك وانعدام الشخصية لدى فهد يتجاوزان كل مآثرنا من حب للنساء والمال والقمار والخمر، ويصل إلى أسلوب حكمه. وقد بدأ فهد بمحاولة لكسب عطف الأصوليين الإسلاميين بأن أطلق على نفسه اسم «خادم الحرمين الشريفين» ومخففا في نفس الوقت من لقب ملك غير المقبول إسلاميا. ولكنه استخدم إلى جانب هذا للقب ألقابا لاتناسب مقام بشر عادي فهو حامي المقدمات الإسلامية وهو المعظم والمقدى، ومولانا، وسيدنا، وولي الأمر. وليس هناك نهاية للارتجال والتنوع، وهو لا يبذل جهدا لوقف سيل هذه الألقاب. وإذا كان محتما على الفرد السعودي العادي والمسؤولين في الدولة استخدام كل مفردات القاموس للتملق والرياء فإن الرؤساء الأجانب أيضا وجدوا أنفسهم متورطين في هذا الأمر. ففي عام ١٩٨٧ تأخر فهد عن مواعده مع ملكة بريطانيا لمدة خمسة وأربعين دقيقة. وتأخر عن مواعيد ماثلة مع الرئيس التونسي والملك حسين، ورئيس وزراء اليابان. وفي حادثة شهيرة قطع الرئيس المكسيكي ساليناس زيارته إلى السعودية وغادر خلال يومين قبل نهاية الزيارة، وذلك بسبب تخلف الأمير فهد عن موعد.

وفي عام ١٩٩٢ وفي أعقاب حرب الخليج جعل أمير الكويت ينتظره في المطار لمدة ساعة بينما كان يأخذ غفوة في طائرته الخاصة. والملك فهد لا يبذل مجهودا لتغيير سلوكه المتعالي. وقد أصدر عدة توجيهات تختص بنشر صورته في الصحف وكان

بخشى أن تبدو عيناه كسولتين فى الصورة. وتكررت احتجاجاته لوزير الإعلام حول موضوع الصور.

سلوكه المتغطرس يظهر بوضوح فى طريقة فصله لكبار المسؤولين، فمثلا سمع أحمد زكى يماني وزير البترول السابق - وهو من أشهر الشخصيات- سمع نبأ فصله فى أخبار التليفزيون (انظر الفصل التاسع) وفصل بنفس هذه الطريقة كل من غازى القصيبي، وزير الصحة، وعبد الله الجزائري، وزير صحة آخر، وأحمد على عبد الوهاب رئيس الديوان الملكى، وعبد المنير العتيبي، وعبد الهادى طائر رئيس شركة بترولين وبعضهم كان يسمع بخبر فصله من اخرين. أما أبناء أخوته الذين تركوا مناصبهم فجأة واعتبروا مفصولين فهم: الجنرال خالد بن سلطان قائد القوات الجوية لعمودية وقائد القوات العربية فى حرب الخليج، والأمير فهد بن سلطان نائب أمير المنطقة الشرقية.

وفى أوائل ديسمبر من عام ١٩٩٢ قام بفصل سبعة من أعضاء مجلس العلماء وهو مجلس يحظى بمكانة كبيرة- ذلك لأنهم لم يتخذوا قرارا متعصفا ضد الذين انتقدوا الحكومة وطالبوها بإصلاحات سياسية واجتماعية. ومن المهم أن نوضح أن هذه المعاملة غير الكريمة التى تتسم بانعدام الإحساس، التى ينتهجها مع الوزراء والأمراء والشخصيات الدينية هى متأصلة فى الملك فهد، فالملك سعود مثلا كان يفصل المسؤولين بطريقة أكثر رقة لأنه ربما احتاجهم مرة ثانية.

وتتراوح أسباب الفصل هذه ما بين سياسية وشخصية فمثلا غازى القصيبي- وهو رجل موهوب- فصل لأنه كتب قصيدة يشكو فيها من أن الملك لا يستقبله، وفصل آخرون لأسباب أخرى تافهة ونورد حادثتين تتعلقان بما يتوقعه فهد من وزرائه وكيف أن سببا بسيطاً للغاية يمكن أن يتسبب فى فصلهم والثانية تتعلق بعدم اكترائه ولامبالاته بصفة عامة.

كان أحد الصحفيين اللبنانيين اللامعين يزور وزير الإعلام السعودي على الشاعر في مكتبته في الساعة العاشرة ليلاً. فندى الجرس في الخط التليفونى الخاص لوزير الإعلام. نورد هنا الحديث كما سمعه الصحفي اللبناني:

- نعم سيدى

- أنا فى غاية الأسف ياسيدى فليس لى علم بالأمر.

- سأوقفه فوراً وفى الحال ياسيدى.

اغلق الشاعر الخط وأدار رقماً آخر وهو يقول:

اسمع، لقد اخبرتك من قبل وأنا أخبرك الآن وللمرة المليون بأن جلالتك لا يحب الأفلام الهندية.

- لا يهمنى إذا كان الفيلم فى منتصفه - أوقفه على الفور وضع مكانه فيلماً أمريكياً وقد أوضح وزير الإعلام للصحفى فيما بعد أن فهد اتصل به وأبلغه أن إحدى القنوات التليفزيونية تعرض فيلماً هندياً فى برنامج «فيلم اليوم» وأنه لا يحب ذلك لذا أمره وزيره بإيقاف عرض الفيلم فى الحال. وهو ما أمر به الوزير رئيس المحطة التليفزيونية أما باقى المشاهدين فلا يهم وأبهم أو رد فعلهم على قطع الفيلم واستبداله بآخر. وقد حافظ وزير الإعلام على وظيفته بسلوكه اللطيف مع جلالتك.

وفى حادثة أخرى اتصل فهد بالعاملين فى بناء قصره المسمى «السالم» بجده وأخبرهم برغبته فى زيارة الموقع، وكما هو متبع فى هذه الحالة فقد تم ذبح ألف خروف وأقيمت الاستعدادات لكن الملك لم يظهر وإنما اتصل فيما بعد ليقول أنه أجل الزيارة إلى اليوم التالى. وفى اليوم التالى قاموا بذبح الشياخ مرة أخرى ولم يظهر أى أثر للملك، ووعد بأن يأتى فى اليوم الثالث ولم يفعل. والنتيجة أنه قد تم ذبح ٣٠٠٠ خروف للشىء.

أما سلوك باقى العائلة فإنه كثيراً ما يشبه سلوك الملك، ففهد أشبه فى سلوكه

بسعود أكثر من فيصل أو خالد. ومعظم أولاده لم يتعلموا وأكثرهم يعمل مع الحكومة. فالأمير محمد هو حاكم المنطقة الشرقية الغنية بالنفط وهو يشتغل بشدة في التجارة كما أنه أحد الشركاء في شركة (البلاد) الضخمة المعروفة، وبالطبع يشارك في بيع النفط في السوق الحرة (أنظر الفصل العاشر) وتقول بعض الشائعات أن إحدى شركاته كسبت عقدا بمبلغ ١٠ مليار دولار كي تشيد خطوط تليفون لحساب شركة (هل) الكندية وشركة فيليبس الهولندية في المملكة. ويشغل الأمير فيصل أكبر أبنائه رئاسة منظمة خدمات الشباب. وهي وظيفة بدرجة وزير. واتهم كثير من الكتاب أحد أبنائه بأنه مدمن مخدرات ويقال أنه قتل عشيقه الذكر لأنه هجره. أما ابنه سعود فيعمل نائبا لرئيس جهاز المخابرات. وابنه عبد العزيز هو الأثير لديه - ويروى أن أحد العرافين عندما لاحظ ولعه بهذا الإبن نصحه بأن يأخذه معه إلى كل مكان يذهب إليه والا أنه - أي فهد - سيلقى حتفه. فما كان منه إلا أن أصطحبه في زيارة رسمية له لبريطانيا في عام ١٩٨٧. ولم تفهم الصحافة البريطانية سبب وجود طفل ضعيف في الرابعة عشر من عمره في صحبة الملك. وقرب نهاية الرحلة وأمام اثنين من الصحفيين العرب قال فهد (إن عزوزي يتفق بكثرة لذا اضطرت لتحويل ٣٠٠ مليون دولار لحسابه لسد احتياجاته. لقد وهبنا الله ثروة طائلة فلماذا لا نتقاسمها مع أبنائنا) وتبادل الصحفيان النظرات ولم يقلوا شيئا. والصحفيان هما حاج أحمد الهوني وغانم زكريا. وحتى اليوم تتسع عيننا زكريا كلما سرد القصة. وفي نفس هذه الرحلة كان يصطحب معه الإبن إلى كل مكان، حتى ولو لم يكن مدعوا بما سبب مشاكله في قواعد البروتوكول. أما فهد نفسه فإن وزنه ثقيل للغاية لدرجة أن سلام العربة الملكية تتم تقويتها في كل مرة حتى لا تتحطم تحت وزنه. وقد صحبته في هذه الرحلة طائرة بوينج أخرى فقط لحمل الحاشية وثلاث طائرات بوينج ٧٠٧ لحمل الأمتعة هذا إلى جانب طائرته الوينج الخاصة ٧٤٧ التي يسافر على متنها.

وهذا النهج المتحرر تجاه الأطفال يشمل باقى أطفال الأسرة. فعندما بلغه أن أبناء سعد فى حاجة إلى المال قام بإعطاء كل واحد منهم مبلغ ١٥ مليون دولار، لكى يبنى منزلاً. ولم يعترض فهد على اشتغال أفراد العائلة بالتجارة وأصبح التنافس بينهم علنياً. وكانوا يجلسون معاً للإتفاق على تقسيم الكمكة وقد تشدد المنافسة بينهم حتى تصير عداًء علنياً. وفى كل الأحوال فإن أموال التجارة هذه ضخمة للغاية، ويرى غسان زكريا أن خمسين فرداً على الأقل أصبحوا مليارديرات (انظر الفصل العاشر) وقد اتجه أصحاب فهد وأصدقائه أيضاً إلى العمل بالتجارة. وهو نفسه شريك فى عدة مؤسسات، ولكن العقود التسجيلية التجارية السعودية الخاصة به يتم الحرص عليها حتى يسهل تغيير اسم المالك وتاريخ العقد. ويعمل أصحابه المفضلون آل الإبراهيمى فى أعمال تجارية ضخمة ويشرفون بأنفسهم على إدارة نصيب الأمير عبد العزيز- عزروزي- ابن اختهم، وقد تم فرض عبد العزيز كشريك فى بيوتات تجارية كبرى. وحتى النفط وهو مصدر الثروة الرئيسى فى البلاد لم ينج من لهُوالعائلة المالكة ويستعين فهد بشركة تخص أحد أصدقائه اليونانيين لتبيع له النفط فى السوق الحرة (انظر الفصل العاشر).

وهذه الليونة التى يتبعها مع أفراد أسرته وأصدقائه أدت إلى حادثة غريبة فى عام ١٩٨٦ تكشف عن مدى الفساد فى السجل الملكى، كما أنها تظهر كيف أن قصة صغيرة يمكن أن تتحول لقصة كبيرة تكشف عن الإسلوب المستهتر فى إدارة أمور البلد، فقد نشرت صحف أمريكية هى: واشنطن بوست وواشنطن ستار، ونيويورك تايمز وفيلادلفيا إنكويرر، وسان فرانسيسكو كرونكل وشبكة ا ب س أن المدعو سام باميه المقيم بمقاطعة سان ماتيو بكاليفورنيا رفع دعوى تهجير وقذف ضد رئيس الديوان الملكى السعودى آنذاك محمد سليمان وخليفته محمد عمران يطالب فيها بتعويض قدره ٥٠ مليون دولار. وذلك أمام محكمة شمال كاليفورنيا. ويروى الشاكى أن هذين

الرجلين- وهما من مساعدي الملك- قد حبسوا في جدة لمدة ١٣٣ يوما في الفترة من مارس ١٩٨٦ وحتى اغسطس من نفس العام وأن الشاكى وهو رئيس شركة تجارية صغيرة ذهب إلى السعودية لتسلم عمولة تخصه فقامت السلطات السعودية بحسب جواز سفره وجسه إلى أن اتصل بحاميه في كاليفورنيا وقد أطلق سراحه بعد أن دفع مبلغ ٤٠٠.٠٠٠ دولار . ويصر بامي على أن الملك فهد على علم بكل شىء.

تطورت قضية (هاميه) ولاقت ضجة إعلامية ضخمة مما أدى إلى تدخل السفارة السعودية وبعض لجان الكونجرس، والخارجية الأمريكية. والسؤال المطروح وقتها هو ما إذا كانت السفارة السعودية ستقبل الدعوى القضائية ضد المتهمين وعما إذا كانت تتصرف بناء على توجيهات الملك فهد. وأرسل الكونجرس خطابات احتجاج للسعودية وعقد جلسات استماع إلى (هاميه) على أساس انتهاك السعودية لحقوق مواطن أمريكي. وتقدمت الصحافة الأمريكية بوثائق عن حوادث أخرى، وقعت لمواطنين أمريكيين في السعودية، وقضايا أخرى حول أمهات أمريكيات حرم من حضانه أولادهن الذين أحجبوهن من سعوديين وكيف أن بعض هؤلاء الأطفال تم اختطافهم وأخذوا عنوة إلى السعودية بمعرفة السلطات السعودية، وقضايا عن مسئولين أمريكيين تعرضوا للخداع من قبل شخصيات سعودية هامة فضاعت حقوقهم وسجنوا في السعودية دون محاكمات. وقد أنكرت الحكومة السعودية الاتهامات واتهمت (هاميه) بحب الدعاية والطمع وعندما استمر في الإصرار على صحة دعواه تلقى تهديدات تليفونية. وصورت السفارة السعودية الأمر على أنه خلاف شخصى يمكن تسريته في السعودية وعلى أساس القانون السعودى. وفى هذه الأثناء وسع بامي دائرة هجموه زاعما أن جزء من الأموال الخاصة به دفعها محمد بن فهد للمتهمين وهى قيمة صفقة مع شركة (بشتل) كما أن عدنان خاشقجى وهو صديق للملك- دفع أموالا أيضا للمتهمين ثم أقحم بامي بعد ذلك (جون لاتيس) وهو رجل أغريقى صديق للملك فهد

وتاجر نفط أيضا. وقد تضمنت وثيقة (هاميه) الطويلة قائمة بأسماء أشخاص سعوديين من ضمنهم كمال أدهم رئيس المخابرات السعودية السابق، وعبد العزيز ابراهيم صهر الملك فهد و٤٤ شخصية سعودية أخرى. وقد ساعد بطل الإجراءات (هاميه) الغاضب على تنظيم محرك مضاد للسعودية. وفي سبيل ذلك قدم وثائق تفصيلية تكشف الدعم السعودي المالي للكونتريا في نيكاراجوا وأنجولا. ولات هذه الأخبار راجا كبيرا وتبعها (هاميه) بمعلومات عن دعم السعودية لحركات مضادة للشيوعية في أفغانستان والصومال والسودان.

واصل (هاميه) حملته القاسية ضد السعوديين وساعدته في ذلك قدرته على مباشرة القضايا القانونية المعقدة مما أثار اهتمام الصحافة والكونجرس. وانتهى الأمر بتسوية خارج المحكمة أرضته تماما. لكن الأثر السيء الذي تركته هذه القضية على سمعة السعودية بقي ثابتا.

وتدل هذه القضية على أن أعضاء الأسرة المالكة وأصدقاؤهم يلجأون إلى أساليب فاسدة وقذرة في تسبير أعمالهم التجارية. كما أن جهات مختلفة تتعاون سوا . من أجل تحقيق أرباح مالية بطرق ملتوية غاية في التعقيد يصعب على الأجني فهمها.

وفي النهاية يتكاتفون سوا لحماية أنفسهم. وحادثة سجن (هاميه) توضح مدى استخفاف أصدقاء الملك فهد ورجال بلاطه بالآخرين، وتدل على الفطسة والتعالى في معاملتهم للناس. وحتى عندما كشف الأمر فإن السعودية كانت على استعداد لحماية المتهمين. وقد ثبت أيضا تورط شركات سعودية وأمريكية في دعم النشاط المناوىء للشيوعية في كل أنحاء العالم. ومن الوثائق التى قدمها (هاميه) للمحكمة وثيقة توضح أن تاجر السلاح المشهور عدنان خاشقجي يتعامل مع مسئولين أمريكيين رفيعي المستوى في الحزب الجمهورى والإدارة الأمريكية مثل روبرت مكفرلاند رئيس العاملين في البيت الأبيض وقد احتج أعضاء الكونجرس على تفاضى أمريكا عن انتهاكات

السعودية لحقوق الإنسان وتوضع قضية (هاميه) عدم اكتراث السعوديين لآراء الآخرين. والدليل على ذلك هو استمرارهم المتزايد فى فضائح دولية والتزامهم بحماية المتورطين. وخلال حكم فهد تورطت السعودية فى بعض فضائح العصر الشهيرة (انظر الفصل السابع) ويقول الصحفى اللبناني سليمان الفيروزى: (كل ما كانت القضية كبيرة وهائلة فعليك البحث فى الحال عن أبادى سعودية).

بطل كل هذا بفضيحة لوكهيد وذلك عندما تم دفع مبالغ كبيرة لعدنان خاشقجى صديق الملك فهد، وتلت ذلك صفقة طائرات «أواكس» التى تمت عن طريق المقايضة بالنفط، وتسببت بالتالى فى إضعاف نظام أسعار البترول الذى اختطته الأولك، وقد دفعت عمليات باهظة لتلك العملية، واشتركت السعودية بدور كبير فى فضيحة إيران- كوترا حيث قامت بتحويل أنشطة سرية فى نكاراجوا مما ساعد الحكومة الأمريكية فى التحايل على الكونجرس لتقديم مساعدات لقوى أجنبية، وهى تعد سابقة خطيرة من نوعها.

وقام كمال أدهم رئيس المخابرات السعودية السابق بدور كبير فى فضيحة بنك الاعتماد والتجارة (BCCI) وحصل كل من غيث فرعون وحمد بن محفوظ على مئات الملايين من الدولارات فى صفقات مشبوهة (ومع أن أحمد بن محفوظ قد أنكر أى صلة له بالموضوع إلا أنه رفض المشول أمام القضاء فى الغرب. وجميع هؤلاء من الأصدقاء المقربين للملك فهد. وقام كمال أدهم بإرجاع مبلغ ١١٥ مليون دولار للبنك لتسوية الموضوع بينما منع غيث فرعون حماية سعودية رسمية بالرغم من أنه مطلوب للتحقيق فى فضيحة بنك الاعتماد والتجارة. أما المتورطين غير السعوديين فى قضية بنك الاعتماد والتجارة فمنهم نائب وزير الخارجية الأمريكى السابق كلارك كليفورد واشترك السعوديون أيضا فى فضيحة الفضة- وهى شبه منسية- وفى هذه المرة حاول الإخوة «هنت» السيطرة على سوق الفضة وقد استعانوا بآل (فستق) أصحاب الملك

فهد، وهناك معلومات عن فضيحة أخرى في شراء طائرات هليكوبتر من طراز ويستلاند . حيث استخدمت شركة (يونابتد تكنولوجي) أحد العملاء البريطانيين لكي يدفع رشاوى لشخصيات سعودية هامة لإتمام الصفقة والتغلب على القوانين السعودية المضادة للفساد، (انظر الفصل السابع).

وهذه التصرفات توضح أن الفساد يمكن أن يكون معدبا كما أنه يتم على أرفع المستويات إلي جانب أنه يشير الشكوك حول القوانين الأمريكية وبعض ممارسات الكونغرس. ويظهر هشاشة سوق السلع العالمي. كما يظهر أن سوق النفط العالمي الذي تسيطر عليه السعودية لا يمكن الوثوق به. ومن الواضح أن شركات بريطانية ومسئولين رفيعي المستوي يحتضنون الفساد.

وخلال حكم فهد فإن الأمراء إذا لم يشتركوا في فضيحة ما فإننا نجد أصدقاؤهم مشتركين. وعلى الرغم من صعوبة القول بأن الفساد موجود بصورة منظمة ودائمة لدرجة أن نشأته خلقت جوا من الشك حول الموجودين في السلطة. وفي عام ١٩٧٩ وقبل تولي فهد للعرش تم اختطاف الكاتب السعودي ناصر السيد وأخذ إلى السعودية . وتمت العملية بمساعدة أحد معاوني الرئيس عرفات الذي قبض مبلغ ٢ مليون دولار لتسهيل العملية. ويعتبر الاختطاف انتهاكا صريحا للقانون اللبناني. وسبب الاختطاف أن ناصر اعتاد الكشف بصورة دائمة عن جرائم البيت السعودي ضد مواطنيه، ولا يعرف مصير ناصر حتى الآن. وفي عام ١٩٨٤ أوردت صحف الأوزرلر والصنادي تايمر والواشنطن بوست ومجلة سورايا العربية التي تصدر في لندن أن سلطات مطار جوتييك قد ألقت القبض على شخص يدعى دافيد مارتيندل يعمل مسدسا من طراز (أوووزي) وقد جاء إلى لندن لاغتيال شمس الدين القاسي زعيم طائفة الصوفييين السعودي. واعترف مارتيندل بأنه تسلم مبالغ مالية مقابل تنفيذ المهمة. وقد رحل الرجل إلى أمريكا لقضاء عقوبة قدرها ٢١ عاما في السجن.

وفى عام ١٩٩١ اختطف محمد الفاسى لمجل شمس الدين الفاسى فى الأردن وسلم للسعودية. وقد اعترضت منظمات حقوق الإنسان على العملية دون فائدة (انظر الفصل الثامن).

وبدا استخدام أساليب الخطف والاعتقال هذه فى حكم فهد. بما اضطر كثيرا من المفكرين والكتاب والمعارضين للنظام السعودى إلى ترك البلاد العربية التى كانوا يلوذون بها والرحيل إلى بريطانيا أو أمريكا، وتجدهم يحتاطون فى تصرفاتهم حتى فى لندن ولا يعطون أرقام تليفوناتهم لأحد. ويقول عبد الرحمن منيف الكاتب المعروف ومؤلف رواية «مدن الملح» أن المنفى نفسه لا يضمن سلامتك.

ومع هذا فقد ارتفعت الأصوات فى كل أنحاء العالم احتجاجا على استفحال الفساد السعودى بهذه الصورة، وكتب جيمس كينز سفير الولايات المتحدة السابق فى السعودية عن الأمر وكذلك السفير سيرجيمس كريج الذى ألف كتابا فى مائتى صفحة عن الموضوع. وعلى الصعيد الداخلى حذر وزير الخارجية السعودى الأمير سعود الفيصل من مقبة عدم الشروع فى الإصلاحات داخل السعودية.

بصفة عامة أدى تساهل الملك فهد إلى إنقسامات داخل البيت السعودى وعدم استقرار الامتثال له، كما أن تحيزه الفاضح لأبنائه على حساب باقى أفراد العائلة أدى إلى قيام تحيزات داخل البيت السعودى. وتوجد مؤشرات خطيرة على نية فهد لتعيين ابنه محمد وليا للعرش بدل من الأمير عبد الله بن عبد العزيز - وهو أحد أخوته. وقد أصبح دستور مجلس الشورى الجديد يعطى الملك الحق فى تعيين وإقالة ولي العهد وهذه المحاولة لم تفت بالطبع على أخوته عبد الله وسلطان (أبناء عائلة السديري) اللذين يأتى دورهما من بعده فى اعتلاء العرش. فقام الأمير عبد الله ولي العهد بتدعيم الحرس الوطنى لصالحه وأنشأ مجموعات داخل العائلة موالية له أما الأمير سلطان فقد استخدم موقعه كوزير للدفاع وحصّن نفسه. وأبناء فيصل وهم أخوة الأمير سعود

الفصل وزير الخارجية غير راضين عن وضعه في الرف. وأبناء سعود يحفظون لفهد أنه صوت إلى جانب عزل أبيهم. وهذه الانقسامات تؤثر على مركز البيت السعودي ككل، وفي نفس الوقت تقوى نفوذ طبقة المتعلمين الذين يعارضون الحكم الاستبدادي لعائلة سعود، ومعهم الجماعات الإسلامية الأصولية وعدد كبير من ضباط الجيش. ومع وجود كل أنواع الفساد والتجاوزات توجد حقائق أخرى هامة نوردتها فيما يلي:

* أولاً: على الرغم من عائدات النفط الضخمة فإنه يوجد عجز في الميزانية يمكن أن يستمر لمدة ١٢ عاماً. وقد بدأت آثاره تظهر بالفعل في شكل تخلف عن إيفاء قيمة عقود بعض الشركات مثل شركة بن لادن وبلانوت الأمريكية وما ساعد في تفاقم الوضع هو مطالبة الأقطار التي ساندت السعودية في حرب الخليج بأموال طائلة.

(*) أصبح الإنفاق على الدفاع يستهلك ٣٦٪ من دخل البلد، والعقود التي تم توقيعها بالفعل ستحافظ على هذه النسبة أو قد ترفعها في المستقبل القريب.

* جميع حكام الأقاليم والمناطق هم من بيت سعود أو أصهارهم من أفراد عائلة السديري.

* تزايدت الأموال التي تدفعها الخزينة العامة لآل سعود بسبب التزايد الكبير في عدديتهم وشهراتهم التي لا تحدها حدود. كما أن أنفعاسهم في الأعمال التجارية ومساندة الحكومة لهم في هذه الأعمال أعطاهم امتيازات كبيرة مما أثر بشكل سلبي على طبقة التجار.

* ما زال ٣٠٪ من السكان يعانون من الأمية مما شكل عبثاً إضافياً على وزارتي التعليم والصحة وفي نفس الوقت استمر الارتفاع في مصروفات وزارتي الدفاع وشئون الأسرة المالكة.

* لم تتخذ إجراءات لحل مشكلة نقص المياه التي من المتوقع أن تتضاعف مع مطلع القرن القادم. وقد حثت خطورة الأمر إلى قيام الأمير طلال بن عبد العزيز بالكتابة إلى

أخيه الملك محللرا من حدوث كارثة.

✽ إحساس رجال الدين بعدم رضا المواطنين جعلهم يعترضون على السلوك الملكي واحتكاك السلطة والتجارة من قبل الأسرة المالكة. كما أنهم طالبوا بالتغيير فى خطاب شديد اللهجة وعليه إمضائهم.

✽ ومحسبا لقيام حركة عسكرية ضد الملك فإنه قام بتجريد الطائرات العسكرية من السلاح وضاعف أعداد رجال الأمن فى جميع أقسام القوات المسلحة.

من هذا الملخص يتضح لنا الاختلاف فى أسس الحكم فى البيت السعوى بمرور السنين. وحتى اليوم فإن الملك فهد الحاكم هو الذى يهيمن على كل الأمور. والاختلاف الوحيد عن أيام حكم ابن سعود هو أن الأسرة أصبحت جاهزة الآن بشكل دائم للتدخل لحمايته. فالملك فى السعودية يشغل هذه الوظائف: رئيس عائلة سعود، ورئيس الوزراء ورئيس الحكومة المركزية، وقائد القوات المسلحة وقاضى القضاة، ومع استيلائه على كل هذه السلطات دون رقيب أو حسيب فهو الوحيد الذى له حرية التصرف فى عائدات البلد من أموال النفط. وماعدا احتياجه التقليدى لإرضاء الزعماء الدينيين فإنه ليس هناك سلطة تنفيذية أو تشريعية أو قضائية تعترض على قراراته. ونسبة لأنه المتحكم الوحيد فى عائدات النفط وهو رئيس العائلة فإن الوصف الذى يطلق على السعودية على أنها: أعظم عائلة تجارية فى العالم يصبح بديهيا.

فى عام ١٩٨٤ كان كل أمير يتسلم راتباً شهرياً قدره ٢٠٠,٠٠٠ دولار ويستحق راتباً إضافياً إذا كان يرأس مؤسسة تجارية أو مؤسسات تجارية. وهذا المبلغ ينطبق فقط على الأمير العادى وليس الأمير المتميز. والأمير العادى الذى له ١٠ أطفال وزوجتين يتسلم ٢٦٠,٠٠٠ دولار فى الشهر. وأولئك الذين فى القمة أو تحت الأضواء - وسواء كانوا يقومون بمهام حقيقية أو خيالية فإنهم يتسلمون ١٠٠ مليون دولار فى السنة.

وبرغم الوجود الأساسية التي تعطى منذ عهد ابن سعود من أجل إصلاحات فإنه لم يحدث أى شيء بهذا الخصوص. وبإمكان الملك أن يعزل القضاة أو الجنرالات والزعماء الدينيين دون ما تبرير لقراره. ويذكر أن الملك سعود عندما ووجه محاولات لتقليص سلطاته رد قائلا: «أنا لست ملكة بريطانيا بل أنا ملك العربية السعودية».

وإذا قمنا بفحص مؤهلات الملوك السعوديين ذوى السلطات المطلقة هذه فإننا نجد الحقائق التالية: لم يدرب أى منهم على القيام بدور الإمام وهى وظيفة تحتاج إلى مستوى تعليمى عالى وذكاء.

يتناول اثنان منها الخمر بكثرة وهو أمر محرم على المسلم العادى فما بالك بهولى الأمر.

ولم يتلق أيا من هؤلاء الملوك تدريبا عسكريا يؤهله للقيام بدور القائد الأعلى للقوات المسلحة، كما أن ثلاثة منهم تزيد أوزانهم على المعتاد وجميعهم مرضى. ومعرفتهم بالشريعة الإسلامية والقضاء سطحية للغاية مما يجعلهم غير قادرين على ترأس السلك القضائى أو تعيين القضاة.

إذن فكل ما فعله سعود وفيصل وخالد وفهد أنهم ادخلوا إلى هذه الوظيفة أنماطا من السلوك ورثوها عن أبيهم ويقومون في كل مرة بتعديلها لتقابل الاحتياجات المتزايدة لأفراد الأسرة. إلى جانب سلوكيات أخرى فرضها الأخوة الرهابيون المتعصبون. وأدت ممارسة السلطة بهذه الكيفية البالية إلى امتداد حكم الفرد، وحكم العائلة، وحكم القبيلة، وفى واقع الأمر أصبح حكم العائلة وحكم القبيلة شيئا واحدا خاصة بعد الزيادة الواضحة لأعداد سكان البيت السعودى مما جعلهم يبدون كالقبيلة.

لكن هذه الأساليب الاستبدادية البالية التى تتبعها هذه الأسرة فى الحكم حشة للغاية وعرضة للتغيير ، لأنها غير ملائمة للهيمنة على عواقب ثروات النفط كما أنها غير مناسبة لقطر فى طور النمو. فمئثرات الآلاف من السعوديين تلقوا تعليما جامعيا

ويوجد ثلاثة ونصف مليون أجنبي يعملون بالقطر ولديهم كل أنواع الأفكار التي يمكن أن تعدى. وبإمكان أى مواطن شراء طبق فضائي لالتقاط البث من كل صوب. هذا بالطبع غير التطورات الأيديولوجية فى البلدان المجاورة والبعث الأصولي الإسلامي وانتشار الأفكار الاشتراكية التي تجد تقبلا طبيعيا من قبل المواطن السعودي إضافة إلى أن بعض البلدان المجاورة تعتمد تصدير الأفكار إلى المملكة. وإلى جانب هذا فإن الدوافع الداخلية والخارجية للتغيير وصلت حدا من الصعب رده أو مقاومته. ورغم اعتراض الأسرة المالكة على أى تقليل لسلطانها فإنها اضطرت لقبول بعض التغيير السطحي بهدف التظاهر بالتغيير مع المحافظة على نفس النهج القديم.

أما على الصعيد الخارجى فإن الضغوط والخوف يجعلهم يساعدون بعض الأقطار العربية لكن تاريخ هذه المساعدات يبرهن على أنهم لا يقدمون إلا مساعدات مشروطة تصل أحيانا إلى حد التدخل فى الشئون الداخلية والسياسات الخارجية. وكثيرا ما أوقفت المساعدات عن اللبنانيين والفلسطينيين بتهمة عصيان الأوامر أو لعدم تقديم الدعاية المطلوبة منهم. أما إنشاء مجلس الشورى فيقع تحت بند التظاهر بإحداث تغييرات، وكذلك السماح لآلاف المسلمين بأداء فريضة الحج فى كل عام. ويمكن فهم موضوع الحج هذا إذا كان الملك أو آل سعود يقومون به من مالهم الخاص وليس من الخزينة العامة. والأمر فى نهاية الأمر ليس سوى دعاية. وعلى نفس هذا الخط يقوم البيت السعودي بإنشاء مساجد فخمة فى الأقطار العربية والإسلامية وأيضاً فى عواصم عالمية مثل لندن بروكسل وواشنطن وروما. وبالطبع فإن إنشاء المساجد يحتوى على دعاية ضخمة وفى نفس الوقت لا يشكل خطرا مثل بناء مدرسة. وفيما يختص ببناء مدارس فإن السعودية تحبب فى أسفل القائمة مقارنة مع بلاد نفطية أخرى. ودائما ما تصرف الأموال لتحقيق أغراض سياسية ضيقة فمثلا تعطى الأموال للفلسطينيين حتى لا يميلوا إلى اليسار. وتعطى للبنانيين المسيحيين لمساعدتهم فى

القضاء على الأصوليين الإسلاميين الذين يرفضون المظهر المخادع للإسلام الذى تريده السعودية. وفى نهاية الأمر فإن كل ما تفعله السعودية يصب فى مجرى واحد معروف هو المحافظة على حكم آل سعود ، بأي شكل وعلى حساب الجميع. وبيت سعود لديه دائما ردود مؤقته وانفعالية تجاه الضغوط الداخلية والعربية والإسلامية والدولية مما يجعل من الصعب علينا تفهم بعض السياسات المرجحة التى يبلجأ إليها. فمثلا أي تغيير فى حكومة عربية مجاورة يؤدي إلى تغيير كبير فى تعامل السعودية مع جميع العرب وكذلك المنطقة كلها. فإذا قام حكم أصولى إسلامى فى مصر مثلا فإن السعودية سوف تسارع بالصلح مع صدام حسين- الذى تكن له الآن كل الكراهية- واغتيال أو وفاة ولي العهد السعودى يمكن أن يفتح بابا للصراع على السلطة قد يؤدي إلى حرب أهلية. والطريقة الوحيدة لتفهم الآلية التى يؤدي بها هذا البلد وظائفه تكمن في افتراض أن البيت السعودى قد أوقف عجلة التقدم والتطور من أجل حماية ذاته. كما يجب علينا تأمل نوعية الناس الذين يديرون هذا البلد والكيفية التى يديرون بها. وبمعنى آخر أن نقوم بفحص الكيفية التى حاول بها الملوك السابقون منذ ابن سعود تحقيق نفس هذا الغرض وهو المحافظة على استمرار هذه الإقطاعية العائلية. ويمكن للقارىء أن يفكر فى مختلف الأشياء المخطرة التى يمكن أن تحدث داخل وخارج السعودية وتؤثر عليها مثل حدوث انقلاب فى بلد مجاور يحل أناسا خطرين إلى السلطة أو أن ينضم أمير ما إلى الجيش لمحاربة الفساد أو أن تنشأ حركة إسلامية مناوئة للسلوك غير الإسلامى لأفراد الأسرة المالكة (بعض هذه النبوءات لمجدها فى الفصل الخامس).

وماعدا وجود النفط والمقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة فإن السعودية ملائمة تماما للإسم الرومانى: الصحراء العربية. وعلى خريطة العالم لمجد أن السعودية عبارة عن امتداد شاسع لأرض جافة قاحلة تبدو فى الخريطة على شكل فضاء أو فراغ تغطي

ظلال بنية اللون تعبر عن القحط. وتاريخيا هي أرض شهبية غامضة لكن الكيفية التي استخدمت بها ثرواتها الهامة. خلقت لها نوعا من الأهمية. وتزداد أهمية النفط والمقدسات الإسلامية يوما عن يوم. وقد انقضى الزمن الذي كانت فيه السعودية تُرى كمكان صغير وبعيد أو كما وصفها الأميرة أثلون وذلك المكان البعيد الذي ينتشر فيه فتيان صغار بضمون فوطا على رؤوسهم» وحتى الذين دأبوا على النظر إلى السعودية أو إلى العرب كأناس بسطاء وسذج فإنهم يجدون في السعودية مايجيز القاء نظرة ناقدة وفاحصة . فعظم العالم الآن لا يرى من السعودية سوى مجموعة من الناس الأثرياء . الفاسدين الذين ينفقون الأموال الطائلة على موائد القمار ومطاردة النساء . وقد أدى إلى هذا الفهم السلوك اليومي لأفراد الأسرة المالكة. كما أن المستفيدين من أموال النفط أيضا أخذوا يسلكون نفس هذا السلوك السيء لدرجة أن كثير من الناس العاديين لا يعرفون شيئا عن هذا البلد أو عدد سكانه أو اهتمامات مواطنيه.

ويمكن القول أنه توجد مؤامرة صامتة ضد المواطنين السعوديين تشارك فيها الحكومة السعودية نفسها. والإحصاء السكاني الوحيد طوال تاريخ المملكة أجرى في عام ١٩٧٦ لكن نتائجه أخفيت أو حُرقت. وقد تكلف هذا الإحصاء مائة مليون دولار، بسبب ضخامة البلد. واستخدمت فيه أحدث الأساليب التكنولوجية مثل استخدام نظام التصوير الهوائي لملاحقة البدو الرحل. وقد أخفيت نتيجة الإحصاء لأنها قلت كثيرا عن الرقم المتوقع، وأحد التقديرات تشير إلى أنه ٧ مليون نسمة وهو رقم ضعيف وضعف البلد يمكن أن يشجع الطامعين في الداخل والخارج. إضافة إلى أن كشف الأرقام الحقيقية سيوضح قلة عدد الوهابيين والسعوديين مقارنة مع عدد أفراد الشيعة المضطهدين والذين مازالوا يُعاملون كمنشقين. كما أن الغرب نفسه لا يريد إظهار بيت سعود بمظهر الضعيف خاصة وأنهم هم الذين يسيطرون على النفط ويدونه به ونفس هذه الأسباب دفعت بيت سعود طوال تاريخه إلى إخفاء محاولات الانقلاب العسكري

ومحاولات الاغتيال التى تتم ضد اعضائه ولم يكن يتم نشر خبر إلا بعد ذبوعه
وحينذاك تجرى له عمليات تجملية لأن السعودية تريد أن تظهر فى ثوب البلد السعيد
المستقر كما أن الميزانية الضخمة لأفراد العائلة المالكة يتم إخفاها وبصفة عامة يسود
عدم الأمان لدى الأسرة المالكة لهذا تجدها تبالغ فى ردود فعلها تجاه معارضتها. فإذا
اعترض مواطن على مخالفة مرور فإنه ينتمى إلى حزب تخريبى وإذا قرأ كتابا فرنسيا
فهو يهدد السلطات. وباختصار فإن هذه العائلة موسوسة ولا تحس بالأمان وينعكس هذا
على سلوكها كله. فهم يرفضون أي شكل من أشكال التغيير. ولا يسمحون بحرية الرأى
ولا يقبلون بأى نقد لهم. وهم يحجبون الأخبار الهامة التى تمسهم عن المواطنين ومثال
لذلك فإنهم لم ينشروا أخبار الغزو العراقى للكويت إلا بعد يومين. أما المرأة السعودية
فحقوقها مهضومة وغير مسموح لها بقيادة سيارة أو السفر بمفردها، وزوجها مسؤول
عن كل تصرفاتها بما فى ذلك ديونها حتى لو انفصلت عنه وفى عام ١٩٩١ قامت
مجموعة من النساء المتعلمات وبعضهن استاذات فى الجامعة بتنظيم مظاهرة احتجاج
على القوانين المقيدة لحرياتهن وكانت النتيجة أن معظمهن قد فقدن وظائفهن والبعض
الآخر أدخل السجن. وقد هُدد بعض الأزواج بتلقى العقوبات إذا لم يسيطروا على
تصرفات زوجاتهم.

فى السعودية تحظر التجمعات من أي نوع. وكذلك قيام أحزاب سياسية وكانت
جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر السعودية تهاجم أي حفلة عشاء تضم أكثر
من ثلاثة أشخاص للتأكد من أنهم لا يعقدون اجتماعا سياسيا. والناس يتلفتون حولهم
إذا ما تحدثوا عن أفراد الأسرة المالكة، وإذا اضطروا لسرد حكاية ما عن هؤلاء فإنه
يفعلون ذلك هسما. والتحدث عن الملك دون ذكر الألقاب قد يؤدي إلى عقوبة بالسجن.
وتعتبر ممارسة أى طقوس غير إسلامية عملا ضد القانون، وتوقع عقوبات صارمة ضد
العمال الباكستانيين واليمنيين الذين يتهمون فى جرائم بسيطة. ولا توجد حرية

أكاديمية ومنع عقد حلقات دراسية بين الأساتذة والطلاب، وعلى الرغم من أن القرآن هو دستور البلاد، لكنه يخضع للتفسير الوهابي، وقد توفيت امرأة تدعى زهراء الناصر وهي في الأربعين من عمرها في المعتقل وكانت قد اتهمت بهيابة كتاب صلوات شيعي. وتم سجن مواطن بدعى على سلمان العمار لنفس السبب. ونفذ حكم الإعدام في طالب شيعي بتهمة الإلحاد. وتم حظر كتاب بعنوان (تطور بنية الأسرة العربية) وحظرت صحف تايم ونيوزويك والاندبندنت ولويوان ولوموند و١٢ صحيفة ومجلة عربية إبان حرب الخليج وبعض هذه الصحف مملوكة لأفراد من بيت سعود وبعضهما تصدر في بلاد إسلامية. وحقوق العرب في السعودية مهضومة مثل حقوق الأجانب ولا تتم مساواتهم بالمواطنين السعوديين. ويمكن لموظف إبعاد شخص إذا لم تعجبه ملابسه، وتضرب النساء بالصصى إذا لم يرتدين ملابس لائقة، وبعض العمال العرب يفقد وظيفته وإقامته. ويرحل إذا طلب من مخدمه زيادة في الأجر. وتعارض السعودية قيام نظام برلمان في البلاد العربية. وقد ما رست ضغوطا على الكويت والبحرين لمنعهما من ذلك. ولا يشجع العرب الذين يعملون في السعودية على اصطحاب زوجاتهم خوفا من أن تتعلم منهن السعوديات بعض الأفكار الجديدة. وتعارض السعودية ضغوطا على خطوط الطيران العربية لمنع تقديم الكحول. وهم يحاولون باستمرار تصدير سياساتهم هذه إلى البلاد العربية في مقابل المساعدات المالية التي يدفعونها لهذه البلاد.

ومعاملة السعودية للبلاد الإسلامية تشابه معاملتها للبلاد العربية، وقد مارست السعودية مؤخرا شتى الضغوط على البلاد الإسلامية لحظر شرب الخمر. مع العلم أن معظم أفراد البيت السعودي بمن فيهم الملك فهد يتناولون الكحول. وحاولت السعودية حث البلاد الإسلامية على تحديد مناهج التعليم للمرأة. والسعودية تقوم بكل هذه التصرفات بفرض النفاق والادعاء وهي لا تريد حدوث أى تغيرات في البلاد العربية والإسلامية خوفا من تقليد المواطنين السعوديين لها خاصة وأن تذمر هؤلاء المواطنين

أصبح يزداد يوما بعد يوم.

أما على الصعيد الدولي وبالأخص فيما يتعلق بالعلاقة الخاصة مع أمريكا وبريطانيا فإن سياسة البيت السعودي تبقى كما هي، أي دون أي تغيير وهذا يعنى المحافظة على التأييد الأعمى من ناحيتهم، وبالطبع فإن التحرر من الضغوط العربية والإسلامية يزيد تلقائيا من اعتمادها على الغرب. ومرة أخرى يستخدم السعوديون ثرواتهم لإطالة عمر التجاهل الغربى لمراساتهم الخاطئة، ولو بطريق غير مباشر- فبيت سعود على استعداد لد العالم بنفط رخيص فى مقابل عدم تقدمه، وإضافة إلى هذا فهو مستعد أيضا لإعطاء عقود عسكرية بمبالغ ضخمة للغرب لنفس السبب(انظر الفصل السابع). ويعنى آخر فهم يمارسون سياسة ابتزاز مع الغرب إذ يحمون اقتصاده من ارتفاع أسعار النفط ويشترون منه أسلحة مقابل سكوته. (ونستطيع الجزم بأنه لم يصدر احتجاج من أى رئيس غربي حول سجل الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان فى السعودية. والوحيد الذى اعترض كان الرئيس كنيدي فى مطلع الستينيات وإن كان فعل ذلك فى سرية. وفيما يختص بالسلوك الداخلى وعلاقاته مع القوى الخارجية. فإن البيت السعودي يمارس سياسات تتسم بالسلبية وتصب فى محاولته الدائمة لحماية أملاكه. وأعمار النفط المتدنية وعقود السلاح الضخمة تتم على حساب الاحتياجات الأساسية للمواطن (ففى السعودية توجد أعلى نسبة لأمراض الرمد والعمى) وهنا نورد معالة بسيطة لكنها هامة لتفسير موقف المواطن السعودي المؤيد لرفع أسعار النفط. فلو كان لسعر الحالى لبرميل النفط مثلا عشرين دولارا(وكانت مصروفات آل سعود الشخصية ٧ مليار) وتكاليف وزارة الدفاع نصف هذا المبلغ فإن زيادة ٥ دولارات فى سعر برميل النفط تزيد كمية ما تبقى لاستخدام المواطن السعودي بنسبة ٥٠٪ فى السنت الواحد (وليس بالحسبة الحسابية وهى ٢٥٪) لكن البيت السعودي لا يهيمه رأي المواطن السعودي. وفى مقابل الحفاظ على أسعار منخفضة للنفط فإن

أمريكا قامت بتزويد السعودية بمقاتلات F15 وطائرات ١٣٠-٢، وطائرات أ-واكس، وصواريخ هارون وستينجر وباتريوت ودبابات من ماركة ابرامز إضافة إلى معدات حربية أخرى (انظر الفصل العاشر).

ولمكافحة المشاكل الداخلية فإنه تم تزويد السعودية بأجهزة مراقبة إلكترونية لمراقبة المكالمات الهاتفية في البلد. كما تم انتداب عملاء من المخابرات المركزية الأمريكية للحراسة الدائمة ومراقبة تطورات الأحداث الداخلية. وهذه الخطوات تغلف في شكل تصريحات من الرؤساء الأمريكيين لإظهار حرصهم على تماسك الجبهة الداخلية. وهذا يعني أن علاقة الائتال المتبادل ارتفعت إلى مستوى جديد وهو هذه المرة تحالف مفتوح وغير مشروط أجيئ بضمان الرؤساء الأمريكيين، وأى محاولة داخلية أو خارجية لتغيير نظام الحكم في السعودية سوف تقابل بالقوة العسكرية الأمريكية. وبهذا يصبح بيت سعود آمناً وبإمكانه مواصلة تصرفاته.

والآن وبعد ١١ عاماً من حكم فهد بن عبد العزيز، فإن تحول هذا البلد قد أصبح كاملاً. والعائلة متعددة الوظائف أصبحت مسيطرة على كل شىء داخل البلد، وأمريكا موجودة لمواجهة الأخطار الخارجية، وهى تستطيع استخدام مراهبها وعضلاتها فى المواقف التى لا يستطيع آل سعود مواجهتها، والتغييرات التى طرأت بعد ابن سعود لم تؤثر على المصير السياسى لسكان هذا البلد وأساليب ابن سعود تمتد لتغطى قضايا مستحدثة كالعالة المهاجرة. فالسيف الجديد فى يد آل سعود من صنع الولايات المتحدة الأمريكية.

الفصل الرابع مكان لانظيو له

تطلق بريطانيا على أفراد الأسرة المالكة السعودية لقب «لوردات» ويطلق عليهم الفرنسيون والبلجيكيون لقب كونتات (جمع كونت) ويسميهن الأسبان والبولنديون (الدوقات) ويسميهن العرب الشيوخ أما الأتراك والإيرانيون فيسمونهم الباشوات والأغاخانات والبهكوات الخ.. والسعودية تلقب أحد أمرائها به محمد أبو شرين. وهو الإبن السادس لإبن سعود وقد توفي في عام ١٩٨٨. وقد كان اللقب ملائماً له لدرجة أن أفراد الأسرة أنفسهم اعتادوا مناداته به. والشركان اللذان جلبا له الاسم هما الحمر والعنف والرجل مدمن كحول. وقد تنازل لأخيه الأصغر خالد عن العرش أثناء أحد صحواته. وكان حاداً وعنيفاً لدرجة أنه كان يدخل الخوف إلى قلوب جميع أفراد الأسرة المالكة بمن فيهم إخوته الملوك. وأول الأفعال التي استحق عليها اللقب كانت في عام ١٩٢٩ عندما قام بإطلاق الرصاص من بندقية آلية على بعض المتمردين من الإخوان الدهابيين وقتلهم جميعاً وذلك بعد أن سلموا أنفسهم. وبعدها استمرت أفعاله العدوانية الفردية دون توقف. وفي عام ١٩٣٦ وعندما كان يحضر تنصيب الملك جورج السادس على العرش في لندن قام بصفع فتاة في البار حتى طارت أسنانها (بالطبع تم التستر على الحادثة). وفي عام ١٩٥٤ صعب أباه والوزير الأمريكي وليام إدي على ظهر الباخرة الأمريكية (ميرفي) للقاء الرئيس روزفلت. وعندما سمع بوجود أفلام مغامرات في السفينة صمم على مشاهدتها وعندما اعترض الوزير الأمريكي على ذلك خيره بين أمرين أن يقتل مباشرة أو يقطع إلي قطع صغيرة. فابتسم إدي وسمح له بمشاهدة الأفلام.

وفى السنوات التالية كانت الأسرة تغض الطرف عن أساليبه الدموية وبعد وفاة أخوته الكبار أصبح هذا السفاح من كبار رجال الدولة. وهو الذى طالب أخاه الملك سعود بالتخلى عن العرش وقام برمى المرسوم فى وجهه. وأخيرا وضع نفسه فى قائمة من سيعتلون العرش عن طريق التهديد والوعيد. وكان أبو شرين فوق القانون وكثيرا ما كان يطالب بثبات الألوف من براميل النفط لبيعها فى الأسواق الحرة وكان يحصل على ذلك. وكان يطبق مقولة (الطيور على أشكالها تقع) إذ كان يستعين ببعض الجهلاء ليحملوا عروضه لبيع النفط إلى الأسواق العالمية دون أن يفتن إلى دلالة ذلك (انظر الفصل العاشر) وبينما كان يحدث كل هذا فإن الصحافة المحلية لم تكن تستطيع فعل شئ.، والصحافة العربية كانت تخشى أن يؤثر نقدها لأحد من العائلة المالكة على علاقات بلادها بالسعودية. أما المراسلون الأجانب والمؤرخون فقد واصلوا سياساتهم المتأمرة وهل السكوت على ما يحدث..

كشف فيلم «موت أميرة» عن فساد البيت السعودى أكثر مما فعلت أى مقالة أو دعاية سيالية أو كتاب أوفيلم تسجيلى. والفيلم يصور قصة حب حقيقية حدثت بين الأميرة مشعل، حفيدة أبو شرين وشاب من أصل لبنانى يسمى محمد الشاعر (على الشاعر وزير الإعلام السعودى الحالى يمت له بصلة القرابة). والحكاية بدأت بتزويج الأميرة وهى فى السابعة عشر من عمرها لأحد أبناء عمومتها. لكن هذا الزوج كان يتجاهلها (كمعادة آل سعود مع الزوجات) لذلك طلبت الطلاق. وقد تم ذلك بالفعل. وفى إحدى رحلاتها إلى أوروبا التقت بالشاب اللبناى ووقعت فى غرامه. والأميرة مشعل تلقت تعليمها فى بيروت حيث اعتادت على أسلوب الحياة العصرى وعندما رفضت العائلة تزويجها من محمد الشاعر حاولت الهرب متنكرة لكن السلطات السعودية القت القبض عليها هى وحبيبها، وقد طالب جدها أبو شرين الملك خالد بقتلها لكن خالد اعترض. فذهب أبو شرين إلى الإمام الأكبر لكنه طالب بالتحقيق فى

الأمر أولاً. وهنا نفذ صبر أبو شرين وأصدر أمراً خاصاً منه بإعدام حفيده. وعندما تردد الجلادون وطالبوا بأمر قضائي أمر حرسه الخاص بتنفيذ المهمة.

وفي يولييه من عام ١٩٧٧ وبينما كان الضباب يلف جده وكان الحر والغبار يملآن الصحراء. قيدت الأميرة وسيقت إلى إحدى الميادين في أطراف المدينة حيث أعدمت رمياً بالرصاص أمام حبيبها الذي قطعت رأسه بعد ذلك وتم التمثيل بجسده وبالطبع لم يكن أحد يعرف من هذان الشخصان. وبعد مرور يومين على ذلك أعلن القصر الملكي وفاة الأميرة الشابة «مشعل» في حادث غرق.

علمت روزماري بياكو مربية الأميرة الألمانية بالأمر فصممت على فعل شيء وتعاطفت معها زوجة أحد الأمراء. وهي امرأة لبنانية شابة ذات صلات واسعة. وفي مطلع عام ١٩٨٠ بدأت بوادر أزمة غامضة بين بريطانيا والسعودية لم يعلم أحد بسرّها ولكن التليفزيون البريطاني أعلن عن عرض فيلم بعنوان (موت أميرة) وهنا تفجر الموقف. وبالرغم من أن اسم الأميرة لم يكن معروفاً إلا أن السعودية حاولت إيقاف عرض الفيلم بشتى الوسائل. وأعلن مكتب الشئون الخارجية البريطاني أن الحكومة لا تستطيع التدخل في حرية الإعلام. وعرض السعوديون مبلغاً كبيراً من المال على أنتوني توماس منتج الفيلم من أجل عدم عرضه لكن الرجل رفض ولم يعلن عن الأمر إلا بعد انفجار الموقف. وقام السعوديون بالتصرف بانفعال وجهل واستدعوا سفيرهم في بريطانيا. وطالبوا بسحب السفير البريطاني في المملكة سير جيمس كريج وهددوا بعقوبات اقتصادية ضد بريطانيا بما في ذلك وقف التعاقدات مع وزارة الدفاع ومقاطعة الشركات البريطانية وعندما وصل الأمر إلى الصحافة البريطانية قام بيت سعود بإنفاق عشرات الملايين من الدولارات على الصحافة العربية والإسلامية لتهاجم بريطانيا، وبالفعل خرجت بعض الصحف البريطانية بعناوين مثيرة مثل «هجوم عنصري على العرب» و«حملة مفرضة ضد الإسلام» و«ثعبان يدعى بريطانيا» الخ.. ووصل مستوى

الشتائم والسباب إلى الحضيض ووصفت إحدى الصحف البريطانية بأنها أمة من اللصوص وإن كل محتويات المتحف البريطاني مسروقة، وأشارت صحيفة أخرى إلى أن نساء العائلة البريطانية المالكة هن حنة من المومسات. وتواصلت ضغوط السعودية الدبلوماسية على بريطانيا وطالبوا السفراء العرب بالانضمام اليهم. وبالفعل قام السكرتير العام للمؤتمر الإسلامي ومعه منظمات إسلامية أخرى بالاحتجاج بسبب أن الفيلم فيه إساءة للإسلام وهدد مخرج باكستاني بصنع فيلم مماثل عن حياة الأميرة ماجريث (أخت ملكة بريطانيا) وقل عدد السائحين السعوديين في بريطانيا بنسبة ٧٠٪.

وعرض الفيلم في القناة البريطانية ATV. وهددت السعودية بوقف شحنات النفط إلى روتردام وأمريكا.. ونشرت شركة موبيل أول، إعلاناً من ٦ صفحات في الصحف البريطانية بتقيد الفيلم ونتائج الضارة على العلاقات الأمريكية السعودية. وقد تحفظت بعض الشبكات في أمريكا على عرض الفيلم خوفاً من الغضب السعودي وما قد يسببه من رفع لأسعار النفط. إلا أن السعودية خسرت معركة هذا الفيلم.

ومن المهم أن نلقى نظرة فاحصة على نتائج إعدام الإميرة وآثار المعركة التي نشبت حول الفيلم. فالسعوديون برهنوا على أنهم قادرون على شراء المساندة العربية والإسلامية. وكذلك الصحافة العربية. وحاولوا أيضاً مد نفوذهم إلى الصحافة الغربية مستخدمين وسائل الابتزاز المادي وقدرتهم على التأثير على شركات النفط العالمية وتعتبر هذه المعركة أغلى فشل في تاريخ المملكة. وقد قدر أحد الصحفيين اللبنانيين مدفوعات السعودية في المعركة بحوالي ٥٠ مليون دولار، وقدرها آخرون بنحو ٣٠٠ مليون دولار. وقد كلفها قطع العلاقات التجارية مع بريطانيا أكثر، وكذلك تكاليف إرسال الوفود لاستقطاب المؤيدين. وقبض المتجولون العرب والمسلمون أموالاً طائلة ولم يقوموا بالرد على الفيلم. وعند انتهاء الضجة حول الفيلم كانت السعودية قد خسرت ما

يقرب من الـ ٥٠٠ مليون دولار.

وفى نفس الوقت ظهرت للعالم بشاعة أعمالها.

الطريقة التى عالج بها بيت سعود وفيلم موت أميرة» تدل على أن هؤلاء الناس لا يتعلمون من أخطائهم. فبعد مرور ثمانية أشهر فقط من هذه الحادثة تقدم أمير آخر بطلب للملك مطالبا بإصدار حكم إعدام على إبنته الزانية. لكن الملك اقترح عليه أن يعالج الأمر بمفرده. وقام الرجل فعلا- وهو أحد إخوة الملك بإغراق إبنته فى حمام السباحة. وزعم البيت السعودى مرة أخرى أن الحادث كان قضاء وقدرًا. وهنا الرجل الذى طالب بإعدام ابنه كان يتزوج للمرة السادسة والثلاثين. وعندما حاول ملحق فى السفارة الأمريكية إثارة الأمر أخرس على الفور.

فى صباح شهر يونيه عام ١٩٩٢- وفى حادثة مالية- أعلنت غرفة الأغذية التابعة لشركة ستى كورب المعروفة عزمها على وقف نشاطها بالسعودية بسبب عدم الاستقرار المالى فى البلد. وأصيب الجميع بالدهشة. والقصة كان وراءها الأمير وليد بن طلال الذى يساهم فى الشركة بنسبة ٨٥ ٪ من قيمة أسهم الشركة التى كان قد اشتراها بمبلغ ٥٨٥ مليون دولار. والأمير الذى عين ممثلا للشركة رفض دفع مشتروات تمت فى السعودية بمبلغ ٣٠ مليون دولار. وإذا تابعنا ما فعله الأمير فإن هذا يعطينا فكرة ممتازة عن طريقة تفكير أفراد آل سعود. فقد قام سموه بتوزيع كروت الشركة الانتمائية على أفراد الأسرة كنوع من الدعاية فما كان منهم إلا أن اشتروا بهذه الكروت كميات كبيرة من السلع دون أن يدفعوا أثمانها. وبناءً على الطريقة التى ترمى بها هذا الأمير فإنه لا يرى سببا يجعله يرد المبالغ إلى الشركة نيابة عن أفراد الأسرة. وتصمم الشركة على أن الأمير مسؤول عن هذه المشتروات وبالتالي عليه رد المبلغ. وما أن الشركة لا تستطيع أن تقاضى الأمير فى السعودية لأن القانون السعودى هو الذى يجيز الاتفاقية فقد رأت أن الشيء الوحيد الذى يمكن عمله هو إيقاف نشاطها فى

السعودية. وهناك أمثلة أخرى متعددة حول حصانة أفراد الأسرة المالكة. وهناك وثائق أخرى بحوزتنا تكشف عن منحى جديد فى أساليب اللعب القديمة. وقد اقترض الأمير محمد بن سعود أكثر من ٤ مليون دولار من شركة فرنسية لكى يبنى فندق الناصرية فى الرياض. وقد قام بعد ذلك ببيع الفندق وكسب منه مبلغا كبيرا لكنه قرر عدم رد القرض وجارل محامى الشركة شتى الوسائل لاسترداد المبلغ دون فائدة وقد قدم التماسات لشخصيات سعودية هامة فى العائلة دون جدوى. وما زال الأمير محمد موجودا وعلى أحسن حال. وتظهر وثائق أخرى بحوزتنا انتقال هذه الحصانة إلى اصداقاء العائلة أيضا وقام الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية باستخدام نفوذ مكتبه لحل صديقه محمد الحايك من تبعة اقترض مبلغ ٤ مليون دولار من بنك لويد فى لندن كان قد أخذها عن طريق الاحتيال. وقد قام هذا الصديق بعملية احتيال أخرى على بنك فرنسى. وهذه الحوادث ليست فردية وإنما يتكرر حدوثها كثيرا. وقد قامت إحدى شقيقات زوجة الملك فهد بشراء كمية كبيرة من الملابس الداخلية يبلغ سعرها ٤٠.٠٠٠ جنيه اسرليني من محلات نابيتسبريدج فى لندن، وأمرت بإرسال المشتريات إلى جناحها فى الفندق. لكنها تهربت من الدفع. وقام المحل بتقديم شكوى للسفارة السعودية التى قامت برفع الأمر إلى الملك. وقد وافق جلالته على دفع المبلغ. وفى عام ١٩٨٦ قامت الأميرة نوف ابنة الملك السابق خالد وحاشيتها بالتسبب فى خسائر بلغت عدة ملايين لفندق سبانت ريجيز وقامت الحكومة السعودية بدفع المبلغ. وأوردت صحيفة الواشنطن بوست أن الأمير بندر أمير السعودية لدى الولايات المتحدة أقام حفلا تكلف ٥٠٠.٠٠٠ دولار. وفى حادثة أخرى طلب أمير إحدى المناطق مبلغ ٣ مليون دولار من ممثلى شركة سويدية كانت تعمل فى السعودية بنجاح وعندما رفضت الشركة الطلب قام الأمير بترحيل المندوبين. واليوم نجد أن أفراد الأسرة المالكة السعوديين الذين يتمتعون بسمعة طيبة قليلون للغاية. وكثيرا ما تصل إلى مسامعنا عبارات مثل (أنه

أمير سعودي لكنه مؤدب للغاية) (وهو أمير سعودي لكنه لا يلعب القمار). وقد علق أحد رجال الأعمال السعوديين بقوله (إذا نفذنا حكم الإعدام على كل زان فإننا سنخلص منهم جميعا).

وتوجد براهين أخرى كثيرة على لامبالاة الأسرة المالكة، وإن كانت غير هامة الآن إلا أنها تحمل نذر كثيرة للمستقبل. فمثلا مستشفى الملك فيصل للولادة بالرياض رفض استلام كثير من الحالات الطارئة والخطيرة لمواطنات عاديّات لأنه يعطى الأولوية لنساء العائلة المالكة حتى وإن كانت حالتهن ليست عاجلة. كما أن معظم الأمراض التي تصيب نساء الأسرة المالكة هي أمراض جديّة نفسية (سايكوسوماتية) يسببها الكبت الجنسي. ويقول الدكتور سيمور جراي الذي عمل لعدة سنوات في السعودية أن أسباب هذه الحالات هو الإحساس بالملل وعدم الأمان لتكرار زواج الأزواج كما أن طبيعة المجتمع المغلق تساعد على تفاقم هذه الحالات. فالنساء يعانين من الفراغ ولا يستطعن العمل في أمور اجتماعية برغم حصولهن على تعليم وشهادات عالية وكما ورد في فيلم «موت أميرة» فإن عددا كبيرا من الأميرات يقمن علاقات جنسية مع خدمهن وأخريات يستأجرن الرجال بالفلوس وعددا آخر يمارس الشذوذ الجنسي وكلهن يعشن على القهوة والمهدنات. وللتعليم دور هام في حياة الأمراء والأميرات فالآباء يستعينون بمدرسين ومدرسات أجنبيّات لتعليم هؤلاء الأبناء لكنه في نفس الوقت لا يستطيع فرض نظام مدرسي عليهم أو مطالبتهم باستذكار الدروس أو أداء الواجبات المدرسية. أو كما يقول أحد هؤلاء المدرسين ساخرا (كيف نحافظ على عملك أو سلامتك الجسدية إذا طلبت منهم الاستذكار؟) وبالطبع فإن نتائج عدم النظام وعدم الانضباط معروفة. فمستوى تعليمهم جميعا منخفض إلا في حالات نادرة.

وترفض كثير من الجامعات قبولهم على أساس عدم التأهل (وتقول الإحصائيات أن مستوى تعليمهم يقل كثيرا عن مستوى تعليم الناس العاديين في السعودية. والسلوك

الشخصي هؤلاء الناس هو انعكاس لعدم الكفاءة المستشرى في النظام السعودي الذي يترأسه الملك فهد. ويعانى السلوك الرسمى أيضا من نفس المشكلة.

لكل أمير منطقة أو وزير في الأسرة مجلسا أو ديوانا أسبوعيا لحل مشاكل المواطنين وإقامة العدل. ويعتبر الديوان الملكي أعلاها لكن الآخرين اتبعوا هذا التقليد لتقوية وتلقيم مراكزهم. والطريقة المتبعة في إدارة هذه المجالس تكشف عن الكثير. ومعظم هذه الدواوين تتشابه في شكلها ووظائفها. ومساحة الديوان تبلغ ٣٠ قدم في العرض و ٦٠ قدم في الطول، وهي مزودة بالنجف (أشبه بديوان ابن سعود) ومتوسط عدد الأفراد الذين يؤمّن هذه المجالس ١٥٠ شخصا. وهم يأتون إلى هذا المكان ليعرضوا نزاعاتهم على الأمير ويعصلوا على الأنصاف وفيما عدا بعض النزاعات التجارية الروتينية التي تذهب إلى المحاكم فإن الأمير يستطيع أن يفتى في كل شيء. وبعض هؤلاء الأمراء الذين يملكون صلاحية البت في أمور قضائية في العشرين أو الثلاثين من العمر، وتنقصهم الخبرة والحكمة وفي بعض الأحيان ينقصهم التعليم. وأحد أمراء المناطق كان زميلا لى في المدرسة لبعض الوقت وقد أمضى أربع سنوات في فصل دراسي واحد. ولم يستطع إكمال المرحلة الثانوية أبدا. وآخر لم يذهب إلى مدرسة في حياته. ولكن أوجه القصور هذه ليس لها أهمية والمهم هو أنه أحد أفراد الأسرة المالكة.

ذهب مدير فرع أحد الفنادق العالمية بالسعودية في عام ١٩٨٦ إلى أمير المنطقة يخبره عن أحد العاملين عنده وهو شاب فلبيني اعتقلته جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجلس المدير في الديوان ينتظر دوره في الحديث، وبعث إلى الأمير بورقة مكتوب عليها اسمه ومهنته وملخص الشكوى. وطلب منه الأمير أن يقف ويتكلم فقال الرجل يا طويل العمر أن أحد العاملين عندي وهو شاب فلبيني في السابعة عشرة من عمره قد اعتقل قبل ثلاثة أشهر بتهمة ارتداء زي غير لائق وأنا لا أعترض على شيء.

لكنهم وعدوني بإخلاء سبيله بعد شهر ولم يتم هذا كما أننى أؤغب فى معرفة مصيره. وأقسم بشرفى أن لا يتكرر منه هذا التصرف وأن يلتزم بالتعاليم الإسلامية مستقبلاً. وبقي الرجل واقفاً ليسمع رد الأمير، فسأله الأمير مانوع الجريمة التى ارتكبها ومانوع الملابس التى كان يرتديها. أجاب المدير: (أنه ياطويل العمر كان يرتدى قميصاً غير محتشم مفتوح الصدر ويلبس سلاسل ذهبية حول عنقه قال الأمير: هل هو وسيم.

قال المدير: إن شكله لبس سيئاً ياسيدى..

قال الأمير: إذن لن تراه بعد اليوم.

وضعت القاعة بالضحك. وقال الأمير: لاداعى لانزعاجك، فهم سيجدونه آن عاجلاً أو آجلاً وسيبرحل إلى وطنه ولن يعود إلى هنا مرة ثانية لأننا لانسمح لمثل هؤلاء الشباب المستهترين من أمثاله بنقل هذه التصرفات إلى بلدنا.

شكر المدير سمو الأمير وانصرف وهو لا يعلم حتى اليوم مصير هذا الشاب. ونفس هذا الأمير تجده عندما يسافر إلى الغرب يرتدى ملابس أجنبية ويشرب الكحول ويطارد الشقراوات فى الملاهى الليلية. أما داخل المملكة فهو يشرب فى السر ويكثر من الزواج وبعد هذه الحادثة بعامين حضر صحفى لبنانى - من الذين تدفع لهم السعودية رواتبهم - مجلس الأمير سلمان فى الرياض، والأمير سلمان هو رئيس مجلس العائلة أيضاً. وقد جلس الصحفى بالقرب من الأمير لكنه كان يفسح المكان كلما جاءت شخصية هامة حتى أصبح فى آخر الديوان. وكان هناك حارس أسود ضخم يقف خلف الأمير سلمان ويحمل سيفاً وبنادق. وسرد الصحفى ما حدث بعد ذلك قائلاً: وإن كل الأمور الهامة وغير الهامة تناقش فى هذا المجلس وكان يوجد رجل أعشى يطلب من الأمير السماح له بالحصول على رخصة قيادة سيارة وقد تم استجوابه بطريقة مرحة وانصرف. وكان بعض البدو يتحدثون مع الأمير ويخاطبونه باسمه دون ألقاب، وهى طريقة البدو فى مخاطبة الحكام منذ زمن طويل. ويعتقد أفراد الأسرة المالكة أن

المجلس هو الوسيلة المناسبة للالتقاء بالناس وخدمتهم. ونحن نرى أن الأمير سلمان بن عبد العزيز من أفضل أفراد الأسرة المالكة لكن الأمر هنا كان يتم بهارجمال وبعض المسائل تناقش بطريقة سخيفة ومثال على هذا فإنه كان يوجد رجل في السبعين من عمره من منطقة الرياض كان قد تزوج من فتاة مصرية في الخامسة عشرة من عمرها في القاهرة وهو يريد إذنًا من الأمير لإحضارها إلى السعودية لأن الزواج بأجنبى يحتاج إلى إذن خاص وقد دار حوار مجمع بين الأمير والرجل قال الأمير : هل تستطيع الإنفاق على زوجك الشابة هذه.

أجاب الرجل: طبعاً لا، لكن أخبرتها أن لدينا أميراً كريماً معطاءً ولن نحتاج لشيء طالما هو موجود وحى.

ضحك الأمير وقال: كم مرة تزوجت.

أجاب الرجل: إحدى عشر مرة، لكن هذه هي الأخيرة.

قال الأمير: لكنك وعدت من قبل أن تكون الأخيرة.

قال الرجل: نعم أذكر، حفظك الله لكنى لا أستطيع ترك هذه المخلوقة الجميلة

وضحك الجميع ووافق الأمير على إعطائه إذنًا للزواج وخصص له مالا لإحضار زوجته.

لكن المسائل ليست دائماً سهلة فقد جاء عمال كوريون وفلبينيون يشكون للأمير من

أن مخدبيهم لم يدفع أجورهم لمدة شهرين وهم لا يجدون فلوساً يأكلون منها. وقد تضايق

الأمير وسألهم هل صحيح أنكم تظاهروا ضدّه. فأجاب أحدهم بالإيجاب فما كان من

الأمير إلا أن طلب ترحيلهم إلى بلادهم. وهذا يعنى أن الأمير رفض المظاهرة واعتبرها

ماسة بالأمن. وفى قصة أخرى جاء رجل بنوك أمريكى متهم بقتل رجل سعودى فى

حادثة سيارة إلى مجلس الأمير. واشتكى من أن المتوفى لم يكن يعرف القيادة وليس

لديه رخصة. لكن الأمير قاطعه وطلب منه دفع دية كبيرة لأهل المتوفى. ويتضح لنا من

هذه القصة أن الأمير لاتهمة التفاصيل وإنما المهم أن رجلاً أجنبياً مجبراً وصدم مواطناً

سعودى. والمجلس كما هو واضح يحتاج إلى قوانين لتنظم عمله كما يحتاج إلى خبرة قاضى».

والجدير بالذكر أن اصدقاء العائلة وكبار المسئولين يعاملون معاملة خاصة من جانب المجلس. وكلما كان الشخص قريباً من الأسرة كلما جاز له أن يصبح فوق القانون. لذلك فإن المواطن العادى لا يدرى لمن يشكو. ومعنى آخر فإن انعدام العدالة شئ أصيل فى هذا المجلس. وهذا بالطبع يتناسب من سلوكيات أفراد أغنى ملكية فى العالم. ويعتبر كتاب ثيوكس «عاصفة الصحراء» من أهم الوثائق على تجاوزات البيت السعودى. وهذا يؤكد ماذهب إليه الصحفى اللبنانى عندما قال: «هؤلاء الناس فى المجلس يتنازلون للأمبر عن كل حقوقهم، وهى نظرة تنتمى إلى العصور الوسطى أو نوع من المحسوبية المرتبطة بالمصالح».

بدأ قيام هذه الدولة الاستبدادية فى نهاية الخمسينات وقد بدأ فى هذه الفترة وصول مدرسين مصريين وأطباء لبنانيين وسوريين ورجال أعمال فلسطينيين وأصحاب تجارة ومغنيين. وكل هؤلاء جاوا بحثاً عن الثروة. وكانوا قليلي العدد وترك معظمهم أسرهم خلفهم. وربما سبب لهم وجودهم فى بلد أكثر تخلفاً عن بلادهم صدمة واضطراباً اجتماعياً. وكانوا يأخذون أجازات سنوية من هذا البلد الصحراوى الذى توجد فيه «الشمس على بضع ياردات من دماغك». وعندما جاء هؤلاء إلى هذا البلد فى أوائل الستينات كانت تنتشر أمراض الرمد والسيفليس وضعف العظام إلى جانب نقص المظهرات وانعدام الاعتناء بالصحة العامة. كما أن هؤلاء الناس كانوا يعانون من الإحساس بالوحدة. وكان الذين يشربون الكحول يعانون من عدم تواجد ما اضطر الأمريكيين العاملين بأرامكو إلى تفتير نوع من الكحول أسموه «صديقي» كانوا يضيقون اليه النعناع أو نكهة الفواكه ليصبح مذاقه مستساغاً.

وكان هؤلاء المغتربون الأوائل يعانون من سوء معاملة السعوديين لهم ونظرتهم

المتعالية إليهم واتهامهم لهم بالجشع والاحتيال ووصفهم أيامهم بأنهم يأكلون بفكين مطبقين كالنماج.

وبرغم كل الصعوبات التي واجهت هؤلاء المغتربين إلا أن العلاقة بينهم وبين السعوديين كانت حتمية أو كما وصفها تقرير دبلوماسي بريطاني صدر في عام ١٩٥٥- بأنها علاقة عرض وطلب وأن الجانبين يتحدثان لغة واحدة مشتركة كانت تقوم بينهما كمشاق وتؤكد رغبتهما في تقليل الخسائر.

وفي عام ١٩٦٠ ازدادت حاجة السعودية إلى موارد بشرية وعلى الأخص من المحاسبين والكتبة والميكانيكيين وبدأ وصول الحرفيين وهم خليط من العرب والمسلمين القادمين من إيران والهند وباكستان. وعلى عكس المدرسين والأطباء فإن هؤلاء استخدمتهم شركات سعودية وأفراد سعوديين ، لذلك فإن سلوكهم ونشاطهم مرتبطان بنزوة المخدم، وهذا يعني وجود مطالب كثيرة مقابل وظائف غير جيدة مع أجازات قصيرة وساعات عمل طويلة. ويخلص أحد المحاسبين تجربته مع مخدمه السعودي قائلاً: «أنه لا يستطيع أن يفهم لماذا على أن أعمل ١٦ ساعة بين الدقات أنا بالنسبة له ليس موجوداً لكي أعيش وإنما لكي أعمل». ويقول أحد الأكراد اللبنانيين- وكان قد أمضى خمس سنوات من العمل الشاق مع أحد هؤلاء- «كل ما ارتفعوا لفوق أصبحوا غير محتملين، والواحد منهم يريد استرجاع سيارته من عند الميكانيكي بأسرع فرصة ممكنة بصرف النظر عن نوع الصيانة التي تحتاجها بعد سوء استخدامه لها، وبالنسبة لهم فإن الميكانيكي مطالب بإصلاح العربة في دقائق، ويعترف أحد رجال الأعمال السعوديين المتعاطفين مع العمال الأجانب فيقول: «إننا نعامل الواحد منهم كإنسان آلى وهذا وضع غير سليم».

وصل عدد المغتربين في السعودية خلال الستينات إلى ٣٠٠.٠٠٠ شخص لكن وجودهم في السعودية منذ ذلك الوقت المبكر لم يعطهم أي امتيازات كما يحدث في

كل أنحاء العالم. وتساعد الشد والجذب بينهم وبين السعوديين وأصبحوا يطلقون على السعوديين لفظة «وحوش» وكانت ردود فعل السعوديين سيئة أيضا فقد رفضوا مناداة هؤلاء بلفظ أخ أو على حسب مهنته. وأصبح هؤلاء المقتربون يعيشون في غرف صغيرة غير مريحة. ليس بها جهاز تلفزيون. ومجمل القول أن نظام الرق الذي كان قد انتهى في السعودية قد عاد بشكل جديد. وهناك عاملان ساعدا في تعاسة العمال الأجانب وهو أن القانون السعودي أعطى المخدم حق استيراد العمال والتوصيف الوظيفي فكان المخدمون يجلبون آلاف العمال ثم يقومون بعد ذلك ببيعهم بنظام التجزئة لمخدم آخر. ولا يستطيع الواحد من هؤلاء تغبير وظيفته إلا بإذن من المخدم الذي استورده في البداية. وهذا يعني أن بإمكان المخدم بيع هذا العامل بعد ادائه للعمل الذي أراده منه. لكنه في النهاية يعود إلى مخدمه الأصلي أو بالأصح مالكه. وفي كثير من الأحيان ترتفع قيمة التأمين التي يدفعها تاجر التجزئة في كل صفقة. فيقوم هذا التاجر بخصمها من أجر العامل، بهذا نجد أن العامل يتقاضى مبالغ أقل بعد قضائه ستة أو سبعة أعوام في المملكة. وإذا أضفنا إلى هذا حقيقة أن هؤلاء العمال يأتون أصلا من بلاد فقيرة فإن الصورة تصبح أكثر بشاعة. وفي نفس الوقت فهم يأخذون مرتبات أقل بكثير من تلك التي يتقاضاها السعودي الذي يؤدي نفس العمل. وإذا وضعنا كل هذه العوامل في الاعتبار فإننا سنجد أنفسنا أمام نوع جديد من الرق الرسمي. وتوجد قصص فردية كثيرة حدثت لكثير من هؤلاء الناس. ولكننا نتركها جانبا ونحدث عن الأحداث اليومية التي تقع لمعظمهم فالتساءل الباكستانيات يتم التعاقد معهن في بلادهن على وظائف معينة بمرتبات جيدة تساوي أضعاف ما يحصلن عليه في وطنهن مع توصيف وظيفي محدد مثل العمل كخياطة لكن عند وصولها إلى السعودية تكتشف أنها ستعمل كخادمة وثالث المبلغ المتفق عليه. وأحيانا تعطى سكنا وأكلا على جانب كبير من الرداءة بحيث لا يصلح حتى للحيوانات. ولا يستطيع سفارات بلادهم

مساعدتهم- فهذه البلاد تعتمد على المعونات السعودية- ولا يعرفون لمن يلجأ، والذي يتقدم بشكوى سواء رجل أو امرأة فإنه يصنف كمثير للشغب، وبعض النساء يتعرضن للاستغلال من قبل الشرطة السعودية، ولا يستطيعن الرجوع إلى بلادهن بدون الحصول على تأشيرة الخروج من المخدم. وفي نفس الوقت لا يستطيعن الالتحاق بعمل آخر. وأحيانا لا يكفى الطعام المخصص للواحدة منهن على مساعدتها للعمل لمدة ١٨ ساعة يوميا كما هو مفروض عليها. وبعضهن يتعرضن للضرب والانتهاك الجسدي واللاتي لا يتحدثن اللغة العربية يقضين شهورا دون التحدث لأحد لأنهن ممنوعات من الخروج لزيارة رقيقاتهن. وقد أدى هذا إلى ارتفاع نسبة الانتحار وسط هؤلاء النسوة. كما أن الصحف السعودية تتولى بالإعلانات عن اختفاء الخادومات.

منذ أواخر الستينات لم يكن يأتي إلى السعودية سوى اللبنانيين وبعض التجار الفلسطينيين (راجع الفصل السابع) أما البقية فمعظمهم من اليمينيين وغير العرب. وكان البنيون أناس عزيزي النفس وجيدون عملهم وكان معظمهم يعملون في المحلات أو المقاهي. إضافة إلى المريات الفلبينيات والجرسونات الفلبينيات وعمال البناء الكوريون وعدد من الصوماليين والأثيوبيين وهنود وعمال من سيريلانكا وآخرين من جنسيات مختلفة يؤدون الأعمال الوضيعة. وبدأ حجم هذه العمال يتزايد ويتضاعف حتى وصل إلى المليون في عام ١٩٧٣. وهو عام ازدهار سوق النفط. وفي نفس الوقت ازداد التوتر الذي ظهر بين السعوديين والعمال الأجانب منذ وصول الدفعة الأولى للمغتربين وازدادت مشاكل التواصل بينهما بسبب اختلاف الثقافة واللغة. فمثلا السعوديون لا يفهمون لماذا يصطف عمال البناء الكوريين كل صباح لتحية علم بلادهم قبل بدء عملهم. كما لم يفهموا رغبة المريات التايلانديات في أخذ عطلة لزيارة رقيقاتهن. وبدأ السعوديون يفسمون طاعة بعض الأجناس الآسيوية وخنوعهم على أنه تصريح لهم بإذلالهم واستعبادهم وحصول السعوديين المفاجيء على الثروة تسبب في ازدياد ظاهرة

الخوف من الأجنبي وعدم الثقة فيه وبالتالي التعامل عليه والتعامل معه بعجرفة. والبدو الذين كانوا يعيشون في خيام لم يستطيعوا التعامل مع الناس الذين اتوا للمساعدة وكسب العيش بل نظروا اليهم كرقيق. وارتفع عدد المفترين إلى ثلاثة ملايين شخص وهو رقم يشكل ٣/١ (ثلث) عدد السكان السعوديين. وسبب الرق الجديد هو أن هؤلاء الناس الأجلاف قد منحوا قوانين تمكنهم من السيطرة على الناس فاستخدموها للمتاجرة بمصائر هذه الشعوب. والقوانين الجديدة التي فرضتها السعودية للتعامل مع هؤلاء الناس لم يكن الغرض منها حماية العمالة الأجنبية- كما يزعمون- وإنما لحماية السعوديين أنفسهم. وقد وصل الأمر لدرجة أن الحكومة السعودية كانت تقوم بالتوقيع على اتفاقيات ثنائية مع بعض الدول لاستيراد العمالة لكن بالشروط السعودية. وتبقى حكاية العمالة الأجنبية من أسوأ وأقسى الصفحات في تاريخ المملكة العربية السعودية. والحالات التي ذكرناها تنطبق أيضا على أفراد الأسرة المالكة. وتوجد تفاصيل في سجلات حقوق الإنسان ومنظمة العفو عن هذه التجاوزات سواء من مواطنين سعوديين أو من أفراد الأسرة المالكة وتذكر هذه السجلات أن الأمير سعد آل سعود كان يرغب خادمته على العمل لمدة ١٨ ساعة وكان يضربها بنفسه ضربا مبرحا إذا رفضت ذلك وبالطبع لم يكن بإمكانها الرفض.

وأحوال الرجال ليست بأفضل عن أحوال النساء، ففي أغلب الأحيان يطالبهم بحجار التجزئة بدفع جزء من مرتباتهم قد يصل إلى ٥٠٪ بغرض تجديد الإقامة هذا إلى جانب دفع التأمين المالى. ومعظمهم يوعدون بسكن ولكن ينتهى بهم الحال إلى النوم فى حاويات قديمة صدئة. وحتى الذين يجلبون العمال بأنفسهم فأنهم يجبرون العامل على إعادة النظر فى العقد وإذا رفض فأنهم يهددونه بالترحيل أو تبليغ السلطات عنه بتهمة اعتناق المسيحية أو الإلحاد ولاينطبق هذا على العمال فقط وإنما نجد أن البائعين فى المحلات ورجال الأعمال الأجانب مطالبون بأن يكون لهم ضامن سعودى حتى يستطيعوا

بدأ أي عمل. وبالطبع يتقاضى الضامن أو الكافل مبالغ باهظة على هذا.

وعندما كنت في الظهران في عام ١٩٧٩ تظاهر عمال كوريون احتجاجا علي ظروف العمل السيئة. فوصلت في اليوم التالي وحدات من الجيش قامت بصفهم في طابور. واختارت ثلاثة منهم بطريقة عشوائية ونفذت فيهم حكم الإعدام أمام زملائهم، وعندما تحدثت مع أمير يعمل طيارا في القوات الجوية السعودية عن الأمر أجاب بقوله: إنهم مجرد عمال كوريون فلماذا تشغل نفسك بهم. وعندما ذكرت له بأنهم قد يكونون أهرباء من أي فعل خاطئ، هز كتفيه قائلا: « المهم أن الشغب لن يتكرر، وهذا هو المهم ». وفي ديسمبر من عام ١٩٨٤ حدث شيء مماثل لعمال باكستانيين وقامت القوات السعودية بإطلاق النار عليهم وقتل عدد منهم. ولم تحتج الحكومة الباكستانية فقد كانت تتلقى مساعدات من النظام السعودي. وتم ترحيل عمال أترك من القاعدة الجوية في تبوك إلي بلادهم لنفس السبب، وكذلك عمال سودانيين. وتم ترحيل عمال أثيوبيين بسبب تعبدهم في منازلهم يوم الأحد، وعوقب بعض العمال المسلمين لاتهامهم بأنهم من الشيعة.

وفي فبراير من عام ١٩٩١ وأثناء أزمة الخليج تم القبض على مئات العمال وتم تعذيبهم لأن مجموعة مسلحة أطلقت النار على أتوبيس يقل جنودا أمريكيين وجرحت اثنين منهم. وقد اتضح فيما بعد أن المسئولين عن الحادث كانوا جماعة من السعوديين يحتجون على سياسة حكومتهم المؤيدة لأمريكا وخلال حرب الخليج لم يسمح للعمال الذين يعملون في المنطقة الشرقية المتاخمة للحدود مع العراق بترك أماكن عملهم بل أمروا فقط بإحضار جوازاتهم معهم.

تجاهلت الحكومة السعودية الاحتجاجات التي تقدمت بها منظمة حقوق الإنسان حول معاملة العمالة الأجنبية ورفضت السماح لهم بالدخول للتحقيق في الأمر، كما رفضت الالتزام بالنظم العالمية لاستخدام تلك العمالة، وقامت بخطرة غاية في الخطورة عندما

ألفت في عام ١٩٨٧ قانوناً يتيح لهم الحصول على بوليصة تأمين اجتماعي والقضية ليست قضية قوانين أو اتفاقيات وإنما السعودي يكره الأجانب ويكره اعتماده عليهم ويتحنى لو أن باستطاعته الاستغناء عنهم إضافة إلى أن أفراد هذا المجتمع الثرى يحسون بمتعة في استعباد الآخرين. وهذا النوع من المجتمعات حديثة الشراء تهمها نفسها وراحتها ولا تكثر للأخرين. كما ستبين لنا الحادثتان التاليتان: في الأولي تشاجر صاحب محل يمني مع سائق تاكسي سعودي حول الأجرة فأخبر سائق التاكسي الشرطة بأن اليمني رجل جاحد وأنه يسب السعودية التي آوته. فقامت الشرطة بترحيل الرجل اليمني دون أن تسمع روايته. وفي حادثة أخرى مشابهة اشترك سعودي وأجنبي في حادث مرور. فقال السعودي للشرطة بأن الحادث ما كان سيقع لولا أن الرجل الأجنبي ترك بلده وجاء للعمل في السعودية. فقبلت الشرطة بمنطق الرجل السعودي.

وعلى الرغم من أن الحادثتين مشيرتين للمضحك فإنهما أخف شأنًا مقارنة بما توقعه الحكومة السعودية بمواطني الدول التي تتبع سياسات معارضة لها. وبالنسبة للحكومة السعودية فإن الأفراد مسئولون عن تصرفات حكوماتهم وبالتالي عليهم دفع الثمن ولهذا تم اتخاذ إجراءات صارمة ضد الحجاج الإيرانيين بسبب مواقف حكومتهم. وفي عام ١٩٨٨ قام أعضاء جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإيعاز من الحكومة السعودية بمضايقة الحجاج الإيرانيين والتحرش بهم. مما أدى إلى غضبهم ولجؤهم إلى أعمال الشغب وهنا قامت الشرطة السعودية بفتح النار عليهم مما أسفر عن مقتل ٤٠٠ حاج وجرح ٦٠٠ آخرين. ولم تجرى أي تحقيقات جادة في الأمر. واكتفوا بأن عبر الملك فهد عن أسفه للحادث. وفي العام التالي أدى إهمال السلطات السعودية إلى حادث النفق الشهير في موسم الحج والذي أدى إلى مقتل ٤٠٢٦ حاجاً معظمهم من الإيرانيين. ولم يجرى تحقيق جاد في الأمر كذلك. وعندما أيدت اليمن والأردن ومنظمة التحرير صدام حسين في حرب الخليج. قامت السعودية بترحيل مواطني هذه البلاد.

وكان الأمر شاقا على الفلسطينيين والأردنيين ومعظمهم يعيشون في السعودية منذ وقت طويل. لكن الذي حدث للبنيين كان أفظع فقد عمدت السعودية إلى ترحيل ٨٠٠.٠٠٠ منهم وبعضهم مولود هناك وقد رحل أغلبهم دون أخذ ممتلكاته معه. وتقول صحيفة ميدل إيست ووتش أن ٣٢ شخصا على الأقل توفوا لانعدام الرعاية الصحية أثناء عملية الترحيل الجماعية.. ولم تكن القضية قضية مواطنين يدفعون ثمن تصرف حكومتهم بل إن الحياة توقفت تقريبا في السعودية لأن البنيين يملكون البقالات والمحال كما أن معظم تجار التجزئة منهم إضافة إلى أنهم مسؤولون عن الخدمات الحيوية في البلاد.

أما المواطنون الأمريكيين والبريطانيين وباقي البلدان الأوروبية فإن معاملتهم أفضل بعض الشيء بسبب وجود صحافة حرة في هذه البلاد لا يخفى عليها شيء. ورغم هذا فإن إحساس السعودى بالخوف من الأجانب وعدم الثقة فيهم تسبب كثيرا من المشاكل. وظروف عمل الدبلوماسيين الأجانب باللغة الصعوبة وهم لا يستطيعون التحرك إلا في مدن معينة ولايسمح لهم بالعبادة في العلن. ويبدو أن الحكومات الغربية لا تريد إثارة المشاكل مع السعودية لذلك لمجدهم يصدرن نشرات إلى مواطنيهم يلومونهم على عدم معرفتهم بأساليب التعامل مع السعوديين ويحذرونهم من اللجوء إلى السفارة إلا في أحوال طارئة جدا. ولكي نوضح ما نرمي إليه فإننا نروي هذه القصة:-

لعبت مرضة بريطانية تسمى هيلين سميث ورجل هولندي يدعى جوهان أوتن مصرعهما في حفل كانت تقيمه مجموعة من الغربيين في جده. وأشارت التحقيقات التي أجرتها السلطات السعودية أن سبب وفاة هيلين سميث هو السقوط من شقة في الطابق الخامس من علو ٧٠ قدما. وقد قبلت السفارة البريطانية نتائج التحقيق وهي في غاية المرح لأنها حذرت مواطنيها من الاشتراك في الحفلات التي تقدم مشروبات روجية والحفلات المختلطة واكتفت السفارة البريطانية بالقول «أن المرضة ما كان يجب

أن تذهب إلى تلك الحفلة».

جاء وون سميث والد هيلين وهو مخبر سابق في ليدز إلى جده لتسلم جثمان ابنته ، وقد فوجئ . بوجود دلائل تشير إلى أن الفتاة قد اغتصبت وضربت ضربا مبرحا قبل وفاتها. وذلك قبل أن تسقط أو ترمى من الطابق الخامس. وفي حقيقة الأمر فإن نوعية الجروح لا تشير إلى سقوط على الإطلاق ورفض سميث تسلم الجثة وبدأ بإجراء تحقيقاته الخاصة. وفي مستشفى باكش الذى كانت تعمل به هيلين أخبره بعض العاملين أنهم يشكون فى أنها قد قتلت ، لكن المشاركين فى الحفل جاءت أقوالهم متناقضة على الرغم من إصرارهم على أنها ماتت نتيجة حادث. وذكرت مضيعة الحفل أن هيلين كانت تمارس الجنس مع أحد الرجال.

والمعروف أن عقوبة الزنا هى الرجم بالحجارة حتى الموت. ورجع سميث إلى بريطانيا واتصل بمكتب الشئون الخارجية لجمع معلومات لكن هذا المكتب كان يريد إسدال الستار على الحادث حتى لا يؤثر على علاقاته مع الحكومة السعودية. أما الصحافة فقد صدقت رواية سميث ووقفت معه، وتحول الأمر إلى قضية قومية إذ يقف رجل وحيد فى مواجهة الحكومة البريطانية التى تضع مصالحها مع السعودية فوق إقامة العدل.

وعاد سميث مرة أخرى إلى جده لكن رحلته لم تسفر عن شئ. وخاف بعض المفكرين من التحدث معه ولم تقدم له السفارة البريطانية أى مساعدة، وحاولت السلطات السعودية تعويقه، ومن ناحية ثانية قضى بعقوبة السجن على صاحب الحفل وسجن لمدة عام وتم جلد الآخرين لأن شرب الكحول يعتبر خرقا للقوانين السعودية لكن بمرور الوقت ظهرت بعض الأدلة الهامة منها أن أحدا حاول العبث بملابس جوهان أوتن- وهو الرجل الذى قتل فى الحادث مع هيلين- وظهر شخص سعودى غامض فى مسرح الجريمة بعد ساعات قليلة من اكتشاف الجثة. وقد كللت مساعي سميث بالنجاح وقام بإحضار جثة

ابته إلى بريطانيا بعد أن وافقت السلطات في ليدز على إجراء تحقيق لمعرفة الأسباب الحقيقية للوفا ويبدو أن ذلك الشخص السعودي الغامض هو مفتاح القضية، والمعروف أن السعوديين لا يعمدون إلى التستر والاختفاء إلا إذا كان المشتبه فيه أحد أفراد الأسرة المالكة.

وتوجد أمثلة كثيرة أخرى على أن مصائر المفترين تشوك لنزوات ومزاج منفذى القانون السعودى. وقد سجن المهندس البريطانى نيفيل نورتون لمدة ثلاثة أعوام بسبب نزاع حول عقد ما. وبالطبع فإن جرمته لا تسحق السجن لثلاثة أعوام لكن الحقيقة هي أنه طلب من أحد أفراد الأسرة المالكة رد مبالغ كبيرة من المال إليه لأنها تخصه. وقد تجاهلت السفارة البريطانية الأمر برمته. ويبدو أن تلك الحكومات الغربية فى التدخل لحماية مواطنيها. شجع السعوديين على التحدى فى تصرفاتهم وفي نوفمبر فى عام ١٩٨٧ أصدر فرع شركة AT&A الأمريكية منشورا للأمريكيين العاملين بالشركة توضح فيه أنها لا تستطيع التدخل لحمايتهم ضد إجراءات جماعات الأمر بالمعروف. ولا توجد محاولات جادة من قبل البعثات الدبلوماسية الغربية لحماية مواطنيها، والجهة الوحيدة التى تحاول فعل شئ. هي لجان حقوق الإنسان أما المجموعة الأوروبية فقد اكتفت بالتعبير عن قلقها، ونتيجة لذلك استمرت أحوال العمال الأجانب فى السعودية فى التدهور. ومن الضروري أن نقوم بالقاء نظرة فاحصة على الطريقة التى تدار بها الأمور فى السعودية ولا تكفى المقارنات السطحية بين الكادىلاك والجمل لشرح المتناقضات المريعة الموجودة وكل ما نستطيع قوله أن دولة الرق الجديدة قد ظهرت والحقيقة الوحيدة الثابتة هي الكيفية التى تنظر بها الأسرة المالكة إلى نفسها والوسائل التى تستخدمها للتعبير عن هذه النظرة. وقد تغيرت الخلفية التى ينطلق منها سلوك هؤلاء الناس بشكل جذرى. لكن تصميم هذه العائلة على الاستبداد السياسى بقى متماسكا وقويا لدرجة أنه من العبث تخيل أى اهتزاز فى قبضتهم الدائمة. ويقول أحد

الصحفيين اللبنانيين «لقد كان لديهم تسعين عاما ليتغيروا لكنهم لم يفعلوا، وسلوكهم يمثل جزءا لا يتجزأ منهم، وحتى المتعلمين والمستنيرين منهم يعتقدون أن مايفعلونه هو الصواب، وأنهم فوق النقد». وهذا النوع من التفكير يزيد دائما الأمور سوءا. ومن المعروف أن التحول في السعودية قد بدأ منذ مطلع الستينات لكن التغيير انصب على طريقة المعيشة وليس على طريقة التفكير وعندما زادت أمورال النفط عن حاجة الأسرة المالكة واحتياجات الجيش انتقلت إلى المواطنين العاديين محققة ازدهارا ورفاءً اقتصاديا لم يسبق له مثيل في التاريخ. انفجار اقتصادى مهول عززته الحاجة إلى الانطلاق بالمملكة من أبواب اسمرن السابع عشر الى القرن العشرين. ولكى تتضح الصورة فيكفى أن نعلم أن ١٪ من المنازل فقط كانت تحوى غرف حمام حديثه أما الآن فإن أكثر من ٥٠٪ منها تملك ذلك. وهى أنواع غالية للغاية ومليئة بالزخرف. وتقول هيلين مانثل فى روايتها المتميزة عن الحياة فى السعودية «لقد شاهدنا أضخم عملية نقل لألواح الصلب الجاهزة فى تاريخ الجنس البشرى».

وكما هو الحال مع كل الطفرات الاقتصادية نشأت طبقة من التجار بالغى الثراء. وقد نشرت مجلتا فوربز وقورشن قائمة بأسماء بعض المليارديرات الذين ينحدرون من أسر تجارية من الأسر القديمة والحديثة. وهم أسرة عليان ومحفوظ بن لادن وكامل وعائلة الرزاز والزامل والقصبى، وجميل. وقد عملت هذه الأسر فى مجالات استيراد الأطعمة والسيارات وبناء المدن والمدارس والمستشفيات والقصور وثكنات الجيش. وتقوم هذه الأسر بتوفير كافة الخدمات التى تحتاجها البلد مثل أعمال النظافة والصيانة التى تستوعب ألوف العاملين ، وتدر مليارات الدولار، ويستخدم هؤلاء الفائض المالى للمتاجرة به على مستوى العالم. ويملكون أسهم أساسية فى بنوك هامة مثل وشيس مانهاتن وستى كورب وفى فنادق مثل سلسلة هيات وريكر وشركات مثل موبيل أويل، ويشاركون شركات نفط كبيرة فى التنقيب عن النفط فى أقطار أخرى ويملكون

عقارات ضخمة فى خمسة دول . ولكنهم جميعا ومهما علا شأنهم لا يستطيعون فعل شىء دون مباركة ومساندة أسرة سعود .

والناتج الثانى لشروات النفط هو نشوء طبقة متعلمة جديدة وتورود إحصائية صدرت فى عام ١٩٨٠ أن عدد خريجي الجامعات أصبح يتراوح ما بين ١٥ ألف إلى ٢٠ ألف شخص كل عام ويعتبر هذا نهجا جديدا عند السعودية وفى الماضى كانت الأسرة المالكة لا تهتم لزيادة فرص تعليم المواطنين إلا عند حدوث فائض مالى ضخم، وكانت امتيازات التعليم حكرا على الطبقة العليا التى تملك نفوذ يمكنها من الحصول على منح حكومية لأبنائها . وبصفة عامة لم تنضم السعودية إلى حركة التعليم الضخمة التى انتظمت بلدان الشرق الأوسط منذ خمسين عاما لذلك نجد أن نسبة المتعلمين فيها يبلغ ٥٥ ٪ وهى نسبة أقل من الهند المدممة وتأتى بعد الأردن . وتختلف طبقة المتعلمين فى السعودية قليلا عن البلدان الأخرى ويوجد مهندسو الكترولنيات ومهندسو بترول وأطباء وأخصائيو صحة ومخططو مدن ومهندسو ديكور، إلى جانب أعداد كبيرة من المتخصصين فى العلوم الإنسانية . ومع كل هذا الإرتفاع فى نسب التعليم بقى القانون السعودى متخلفا عن الركب . وفى الفترة ما بين عامى ١٩٦٥ و ١٩٨٥ تضاعفت أعداد الخريجين العاملين المقيمين فى السعودية واستطاعت الحكومة استيعابهم جميعا أو بالأصح رشوتهم . لكن اتساع التجارة والبناء البيروقراطى وصلا حد التشيع ولم تعد الحكومة قادرة على الاستمرار فى دفع مبالغ ضخمة لهؤلاء العاملين كما لم يعد بإمكانها استيعاب المزيد منهم . وأصبحت البيوتات التجارية تعاني أيضا من الركود . وللمرة الأولى خلال هذا القرن بدأ الخريجون السعوديون يقبلون وظائف أقل من قدراتهم . وقد حدث هذا نتيجة لسوء إدارة فائضات النفط الضخمة والمصروفات الباهظة على حرب الخليج . وفى الأنظمة الملكية الديكتاتورية يجلب الصرف على القوات المسلحة والحرس الملكى كثيرا من المشاكل بسبب صرف المال على مجموعة من

الناس المدللين. غير المنتجين. ويبلغ العدد الكلى لأفراد القوات المسلحة حوالى ١٠٠.٠٠٠ شخص وبلغت التكلفة السنوية للجندى الواحد فى عام ١٩٨٢ ٤٧.٠٠٠ دولار مقارنة مع ١٠٣.٠٠٠ دولار للجندى فى الولايات المتحدة، وأقل من النصف بالنسبة لبريطانيا وألمانيا وفرنسا، وكانت ميزانية الدفاع فى عام ١٩٨٢ أيضا ٣٠١٤ دولار للفرد مقابل ٧٨٢ دولار فى أمريكا و٤١٧ دولار فى ألمانيا. أى أن الأهمية التاريخية لدور القوات المسلحة كان مبالغ فيها وبحكمها المزاج المحلى بدل أن تخضع للتخطيط المعقول والحدود المادية المعينة. فالضابط عندما ترفع رتبته يتم أيضا تزويده بسكن جديد غير السكن السابق الشديد البذخ أصلا. ويتم رفع رواتب أفراد القوات المسلحة دون أسباب وجيهة ويمنحون علاوات ومكافآت فى كل مرة تتعرض فيها البلد لأزمة. كما أن الغرب أيضا يقوم بتزويد البلد بالأسلحة المتطورة ذات الأسعار المرتفعة عند حدوث أى أزمة ومهما كانت ثانوية وفى حرب الخليج منح الضباط مكافآت مالية ضخمة. وفى الأزمات الداخلية أيضا مثل مظاهرات الشيعة الشهيرة فى الشوارع فى عام ١٩٧٩ نال أفراد القوات المسلحة مكافآت كبيرة أيضا. وأصبح التجار والبيروقراطيون. والمدرسون والأطباء وأفراد القوات المسلحة يشكلون طبقة جديدة مؤثرة. وهذه الطبقة هى نتاج لطفرة النفط الاقتصادية وقد أكدت دراسة لجامعة هارفرد بأن أعداد هذه الطبقة تزايدت من ٢٪ إلى ١١٪ من مجموع السكان فى الثمانينات. وإذا أضفنا ممارسات وأسلوب حياة أهل هذه الطبقة إلى أسلوب حياة الأسرة المالكة تنشأ لدينا الشخصية التى يسميها بعض الكتاب اليوم بالشخصية البترولية. وبسبب الإسراف والبذخ والترف الذى تمارسه هذه الطبقة تحول القطر إلى مزار للتجار والبايعين والوسطاء العالين. وأصبح البلد موطناً لأكثر من ثلاثة ملايين عامل أجنبى. استخدمت العائلة المالكة السعودية مظاهر الرخاء والتقدم الاقتصادى هذا لإعطاء صورة ممتازة للوضع السياسى والاجتماعى فى البلد، ورغم أن صورة الثراء هذا مبالغ

فيها إلا أنها حقيقية لكن نتائجها ليست كذلك. فالأثر الذي أحدثته الثروة وما تبعه من إسراع نحو التحديث دمر القيم الاجتماعية الأساسية للمجتمع المسلم بشكل يصعب إصلاحه كما أدى إلى ازدياد الضغوط التي أضاعت ماتبقى من التماسك الاجتماعي . ونتج عن هذا مظاهر اجتماعية سلبية مثل ارتفاع معدلات الجريمة بنسب عالية . فعدد الجرائم الذي كان يبلغ ١٧٧٥ حادثة في عام ١٩٦٦ ارتفع إلى ٢١.٨٢٦ حالة في عام ١٩٨٥ ، وهى نسبة أعلى بكثير مما هو حاصل في البلدان المجاورة. كما أنها تعتبر واحدة من أعلى الزيادات على مستوى العالم.

وبرغم الامتيازات الاقتصادية التى تتمتع بها طبقة التجار والموظفين والقوات المسلحة إلا أنها لم تمنعهم من الاشتراك فى مؤامرات لقلب نظام الحكم. وهذه المحاولات تدل على مدى استياء الناس من ممارسات النظام السعودى الاستبدادى وتكشف عمق الهوة التى تفصل بين الحكومة وعامة الناس. فبرغم قيام بيت سعود بإغراق هؤلاء الناس بالامتيازات إلا أنه لم يستطع خنق رغبتهم فى الحصول على المزيد من الحريات الشخصية والسياسية. وسواء كان هذا النوع الجديد من التفكير انعكاس لطموح شخصى أو نتاج للتعليم أو رغبة طبيعية كامنة للحرية إلا أنه يظهر بوضوح ميل هؤلاء الناس للتغيير.

ويتميز السلوك اليومى للسعودية بكل أنواع التناقض فتجد الكبار يؤدون صلواتهم الخمسة بانتظام بينما الشباب مشغول بالاستماع إلى أغاني الروك. ويأكل العجائز لحم الخراف بينما يستورد الشباب ٢٠.٠٠٠ رطل من الكعك الأمريكى. ويحرم الاختلاط بين النساء والرجال وفى نفس الوقت ينتشر التلفون الأهاجى، وتعلن عقوبات الجرائم أمام الملا دون ذكر الجريمة. ويذكر الكاتب الأمريكى بيبتر ثروكس الذى قضى ثلاث أعوام كمدرس بالسعودية أن عددا من النساء كن يتصلن به بطلبين ممارسة الجنس معه. وعندما تذهب النساء للتسوق فإنهن يحملن أوراقا عليها أرقام تليفوناتهن وإذا رأتهن

الراحدة شامبا وسبما أعجبها فإنها تعطيها له فى السر. ويقول الكاتب السعودى أنور عبد الله «إن علاقات الغزل البترولية هذه كثيرا ما تزدى إلى علاقات غرامية عنيفة عندما يلتقى الأطراف خارج القطر» ومعظم نساء المدن يقضين ساعات فى التزين ووضع المكياج والتعطر بعطور غالية وارتداء..آخر موضة شانيل وإيف سان لوران لكنهن يغطين كل هذا تحت العباءة النسائية ومعظمهن معجبات بالأميرة ديانا وهن يقلدنهن فى اللبس ويطلقن اسمها على بناتهن. وتقوم هؤلاء النسوة بكتابة رسائل دون إمضاءات للصحف يشتكين فيها من سوء أوضاعهن الاجتماعية وعدم نيل حقوقهن. وعندما يغادرن المنازل لا يتم ذلك إلا بصحبة رجل. أما الشباب فإنهم يغازلون الفتيات بعبارات أمريكية ويلبسون ملابس غريبة ويتعاطون المخدرات ويعقدون صفقات بملابن الدولارات ولكنهم أحيانا يجلسون على الأرض بطريقة بدوية ويعبشون بأصابع أرجلهم. ويقومون بشراء زجاجة ويسكى بـ ١٠٠ دولار ويحتسونها على بعد خطوات من المسجد. وفى شهر رمضان عندما تتوقف كل أوجه الحياة فى المملكة فإنهم يطربون إلى لندن وأسبانيا ليواصلوا اللهو ومطاردة النساء. ويفعلون نفس الشيء مرة أخرى فى موسم الكريسماس ونهاية العام. وقد قام أحد نواب مدير شركة بترولين باستئجار طائرة لتقله هو وأصدقائه لقضاء رأس السنة فى باريس. وعنهما ذكر الصحفى سليم اللوزى هذه الحادثة أمام الملك فهد كان تعليقه الوحيد «أنه أمر مؤسف». وأفراد الأسرة المالكة هم المسؤولون عن إدخال عادة التهرب من الشعائر الإسلامية إلى السعودية. وهذا الذى يحدث يؤكد مدى عبثية الحياة فى هذا المكان. وفى إحدى المرات أقامت امرأة أمريكية معرضا يحتوى على الهدايا الثمينة التى أعطائها لها أمراء سعوديون تقديرا لجمالها، وقد اشتمل المعرض على سجاد عجمى وأقراط وقلادات من الماس وخواتم من الزمرد بالإضافة إلى سرير أثري فخم. ولم تعرض أى من هذه الأشياء للبيع. وما لاشك فيه إن هذه التصرفات العبثية لها عواقب وخيمة فمثلا ازدادت

حوادث المرور من ٤٠٤٧ حادثة فى سنة ١٩٧١ إلى ٢٤.٩٤٥ حادثة فى عام ١٩٨٣. يقول أحد أصدقائى «أنه من الصعب فهم كيفية وقوع هذه الحوادث فالتناس تقود سياراتها كالمجانين دون اهتمام بقوانين المرور وبعد وقوع الحادث لا يهتم أحد بتنظيف الشارع».

أثناء تعطل طائرتى فى الظهران فى أحد المرات رأيت رجلا أسودا بتسريحة شعر أفريقية ويتحدث الإنجليزية بلهجة الزوج الأمريكيين فحاولت التحدث معه لعله يستطيع حجز مقعد لى. فسألته عن الولاية التى ينتمى إليها فأجاب بأنه سعودى الجنسية وأنه لم يغادر المملكة فى حياته، وأنه تعلم اللغة الانجليزية بالاستماع إلى محطة أرامكو. والمعروف أن ٣٠٠.٠٠٠ من الأمريكيين فى أرامكو يستمعون إلى راديو وتلفزيون يقدم برامج أمريكية فقط.

والسعودية مع كل هذا المظهر الغربى هى موطن المقدمات الإسلامية وتحكمها طائفة الوهابيين المتزمتة ويوجد ٣٠٠.٠٠٠ مسجد أى بمعدل مسجد واحد لكل ٣٠٠ شخص والإسلام فى السعودية مثله مثل النفط تسيطر عليه الأسرة المالكة وهو مصدر نفوذ وسلطان لها وسط العرب والمسلمين. وهذا المكان الممعن فى إسلاميته تأثر أيضا بشروات النفط الهائلة. والممارسات الغربية التى فرضتها ثروة النفط تتناقض فى جوهرها مع لب الثقافة والقوانين الإسلامية ولا يوجد أمير مهما علا شأنه يستطيع إظهار أى شىء تجاه الإسلام غير الاحترام والولاء الأكيد لكن المفارقة العجيبة هى أن هذا البلد يصبح مظهره يوما بعد يوم أقرب إلى البلد الأوروبى. وكى يعبر الشخص الفجوة بين الاثنين فلا مناص من النفاق والرياء. لدرجة أن النفاق أصبح علما له قواعده. ولا يوجد شىء يسمى باسمه الحقيقى فى هذا البلد، فالربا يسمى رسوم خدمات ومدبرو البنوك الجشعون الذين أثروا من نظام الربا يتركون كل شىء ويهرعون إلى المساجد فى أوقات الصلاة.

وقد أصبحت التناقضات هي إحدى السمات الأساسية للحياة اليومية في السعودية فهي لا تتم على مستوى السلوك الشخصي فقط وإنما على المستوى السياسى. فالسعودية تدين سياسات أمريكا وتطالب بقدس مسلمة لإرضاء العرب وفى نفس الإسيوع تطلب شراء المزيد من الصواريخ المتطورة لحماية نفسها من نفس هؤلاء العرب، وفى الوقت الذى يتعامل فيه البيت السعودى بصرامة وعدم تسامح مع المعارضين لحكمه، يرسل أبناءه إلى مدارس أجنبية وجامعات تدرسه الديمقراطية والحرية والمساواة. وأصبح من الأمور العادية فى السعودية أن يكرن الشخص معارضا للغرب ومواليا للعرب ومعارضاً للعرب ومواليا للغرب فى نفس اللحظة. والمعركة التى تنشب بين شاب ذر تعليم غربي متأثر بـ«روسو» و«هوز» وبين أمير يطالب باعتباطاً بنصيبه فى أرباح الشركات الحكومية تعكس نوعية تركيبة هذا البلد. فالشخص السعودى فى النهاية يسمح للأمير بفعل مايريد ولكنه يمسبه فى السر. وهذه التناقضات فى المحيط الاجتماعى والحكومى تستمر على حسب الزخم الموجود. ولم يتم اتخاذ أى إجراءات لمواجهة نتائج هذه الممارسات المتناقضة والمزدوجة لأن القائمين على الأمر لا يعلمون بمدى الخراب الذى يمكن أن تتسبب فيه. والتناقض فى المواقف بين أن تكون مؤيدا للعرب ومعارضاً للغرب. وبين الوسائل القديمة والحديثة وبين أساليب الحكومة ورغبة الناس فى الحرية يزداد يوما بعد يوم (سنتعرض لاحقا لتحليل السياسات العربية والخارجية للمملكة). أما على الصعيد الداخلى فإن الحكومة تصدق الدعايات التى تطلقها وتقبل بحصول بعض المواطنين على الثروة وعلى مستويات تعليمية عالية، من أجل إرضائهم. وبما أن الحكومة لا تشعر بأي تهديد فقد ازدادات سلوكيات أفراد البيت السعودى سوءا على سوء، وأصبحت أكثر صغبا.

وفى الواقع فإن الإزدواجية والثنائية تغفلت فى هذا البلد لدرجة أن سوء سلوك أفراد الأسرة المالكة أصبح كاملا ولا مثيل له. وأصبحت حفلات الكوكتيل التى تقدم

فيها الكحول وجلسات تناول الحشيش أمرا يوميا في أوساط الأسرة المالكة والطبقة المتوسطة، وإن كان سلوك الطبقة المتوسطة يشوبه انحرص خوفا من أن تنتهم السلطات بانتهاك القانون.

كانت تصرفات السعوديين من أفراد الطبقة الموسرة تميل إلى تقليد العائلة الملكية لكنهم كانوا يخشون غضبها فالعائلة المالكة بالطبع ترى أنها فوق القانون ولا يجوز لأى شخص تقليدها. وقد قام أحد كبار التجار مرة بالصرف بهذخ ومغالة على حفل زفاف ابنته. فتضايق الملك خالد وزجره. فكان تعليق بعض الناس هو أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يجارهم أحد في الإسراف.

ويرغم ما وفرته الثروة من تدليل لأعضاء الطبقة الجديدة فإنهم مازالوا يتضايقون من احتكار الأسرة المالكة للسلطة، وتحويلهم هم إلى مجرد أدوات سياسية تخدم السلطة. والتجار مرغمون حتى الآن على إنزال إعلانات في الصحف تتمنى أجازة سعيدة للملك أو تهنته بالأعياد والمناسبات الملكية. وأعضاء جماعة الأمر بالمعروف ما تزال تحمل العصا كما كانت تفعل منذ خمسين عاما إلا أن نوعية المعارضين قد تغيرت الآن، وأصبحت تضم إلى جانب أفراد الطبقة المتوسطة والقوات المسلحة الأصوليين الإسلاميين.

ومنذ بدء تنفيذ «نظرية إيزنهاور» لضمان أمن المملكة فإن أمريكا ضمنت سلامة القطر كله من التهديدات الداخلية والخارجية. إضافة إلى أن ازدياد عدد أفراد الأسرة وأقاربهم، وجغرافية البلد نفسها تعمل كلها لصالح آل سعود. وكانت أمريكا مستعدة للتدخل لإنهاء الأزمات التي تعرضت لها المملكة في الأعوام ١٩٦٩ و ١٩٧٢ و ١٩٧٩ إلا أن البيت السعودي كان قادرا على مواجهتها بدون مساعدة خارجية وبدون محاكمات. وهناك أدلة على أن الملك فيصل أمر الضباط المشبه فيهم من القوات المسلحة بالقفز من الطائرة دون مظلات، وقد أكد جميع الرؤساء الأمريكيين من بعد

إيزنهاور ضمان سلامة حكم البيت السعودي. وهو الأمر الذي يعيق المعارضين للنظام ويجعلهم يحسبون خطواتهم جيدا.

إضافة إلى ما ذكرنا فإن عدبة أفراد الأسرة المالكة تشكل عائقا آخرأ أمام المعارضة. فآل سعود كثيروا المدبرين. يشرون فى جميع أنحاء القطر وهم يشغلون الوظائف القيادية وسيطرون على الجهاز الحكومى. وقد سمح لهم كبر عددهم يشغل جميع الوظائف الهامة فى القوات الجوية وفى وزارات الداخلية والدفاع. وإضافة لذلك يوجد الحرس الملكى شبه النظامى وهو كما ذكرنا مؤلف من البدو الوهابيين- ويملك طائرات هليكوبتر عسكرية ودبابات وأسلحة أخرى متطورة وهو الآن تحت إمرة ولى العهد. كما يوجد جهاز الأمن الداخلى المرعب ويرأسه فهد بن فيصل. وأفضل طريقة لفهم أهمية عدبة أفراد الأسرة المالكة تتضح لنا إذا علمنا أنه فى حالة قتل الملك وخمسين أومئة من أقربائه فإنه يمكن أن يحل محلهم نفس هذا العدد. وبالطبع يصعب جمع هذه الآلاف من الأمراء فى مكان واحد للتخلص منهم جميعا. كما أن أمريكا قادرة دائما على إيجاد شخص منهم تصنع منه ملكا.

لكن المسألة ليست كلها مسألة سياسات أمريكية وإنما هناك عامل جغرافى هام يعمل لصالح هؤلاء الناس. فالبلد ليس فقط شاسعا وإنما ضخما للغاية، ومتعدد المراكز، إذ توجد جده ومكة والمدينة فى الغرب، والرياض فى الوسط والظهران فى الشرق. وبذلك يصبح تنظيم حركة واحدة ضد هذه المراكز فى وقت واحد أمر غير ممكن لأنه عند بدء أى تحرك فى جهة من هذه الجهات سوف يسمع به الآخرون.. وقد نطن أن هذه العوائق تخيف المعارضين وتجعلهم لا يقومون بفعل شىء لكن هذا غير صحيح فرغم كل هذه المشبطات فإن مؤيدى التغيير يحاولون لأن الظلم والقهر الذى يمارسه أفراد بيت سعود يحدث ردة فعل إنسانية لا تكثرث للعواقب. ولم تكن السعودية فى يوم من الأيام بحر هادى. ولم يكن السعوديون جراب محشو قارغ كما يحاول آل سعود

ومؤيديهم تصوريهم. ونسبة لكثرة المحاولات التي جرت لمناهضة البيت السعودي منذ وفاة مؤسسه فإننا نكتفى بمرء بعضها والكيفية التي تمت بها مواجهتها. وقد كان أول من بدأ الاحتجاجات هو اتحاد نقابات العمل في الظهران-مركز النفط- في فترة الخمسينات والستينات وقد تظاهر هؤلاء وأضرخوا عن العمل مطالبين بساعات عمل معقولة وأجور أفضل ووقف لسياسات التمييز التي يمارسها المسزولون الأمريكيون ضدهم، إضافة إلى المطالبة بالحقوق السياسية، وقد أحرزت هذه الجماعة بعض التقدم في بداية حكم الملك سعود لكن السلطات قامت بسحقها بعد ذلك. وفي فترة حكم الملك فيصل اخفى إثناعشر من قادة العمال ولم يرهأ أحد بعد ذلك.

وفي الفترة من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٤ غادر البلد عدد من أفراد العائلة المالكة على رأسهم الأمير طلال وقاموا بإنشاء تجمع باسم الأمراء الأحرار وطالبوا بإجراء تغييرات ثم انضموا إلى حركة الناصريين العرب القومية. وعلى الرغم من أن هذه الحركة كانت جادة وهامة وأضعفت وحدة العائلة إلا أنها فشلت في النهاية وإن لم يوقع عليها عقاب. ولم يشفى الأمير طلال ومن معه تماما من هذه الميول لكن تم إشراكهم في الحكومة لما لسكوتهم كما منحوا أموالا طائلة جعلتهم من الأثرياء. وكانت هذه هي نهاية إحدى محاولات الإصلاح الجادة. والخلافات العائلية الموجودة الآن هي مجرد تطلعات من بعض الأفراد للحكم أو المنافسة على ترأس وزارات هامة مثل الدفاع أو التنافس على حصول عقود تجارية ضخمة.

وفي عام ١٩٥٥ جرت حركة تمرد مؤيدة لعبد الناصر في مدينة الطائف وفي عام ١٩٦٩ حدث تمرد في قاعدة الظهران العسكرية وأيضاً في عام ١٩٦٩ قام مواطنون في مناصب رفيعة ومعهم ضباط من القوات الجوية بمحاولة شجاعة لقلب نظام الحكم وفي عام ١٩٧٥ القى القبض على الجنرال محمد الشاميرى وأعدم بتهمة التآمر ضد العرش. وكانت المرة الأولى التي يقتل فيها فرد من الأسرة في محاولة انقلاب هي

عندما قتل الأمير فيصل بن سعود بن محمد بن عبد العزيز في قاعدة الظهران العسكرية، وقد نفذت أحكام الإعدام في حق جميع المتمردين بمن فيهم الكولونيل داود الرومي وسيد العمري اللذين أعدما في عام ١٩٦٩. وحدث تغيير في طريقة تعيين أفراد القوات الجوية وأصبح اختيارهم يتم من وسط العائلة المالكة والأسر المقربة منها. أما المشاركون في أحداث الظهران فلا يعرف مصير الكثيرين منهم.

وكان التمرد العسكري المدني الذي كانت له أهمية كبيرة هو الذي قادَه يوسف الطويل في عام ١٩٦٩ وكان والده محمد الطويل قد قام بحركة في الثلاثينيات للإطاحة بالبن سعود ولم يقتل يوسف الطويل - الذي كان زميلا لي في كلية بيروت العالمية - خوفا من ردة فعل أنصاره، وتوفي الكولونيل سعود إبراهيم العمر في السجن من جراء التعذيب - وكان زميلا لي كذلك. واختفى ٢٣ من المشاركين في المحاولة..

أحد أهم الحركات المناوئة للحكومة السعودية تمت في عام ١٩٧٩ عندما قامت مجموعة من المتعصبين الدينيين باحتلال المسجد الكبير في مكة المكرمة لمدة أسبوع إذا قام رجل يدعى جوهيمان محمد عتيبي ومعه ٣٠٠ رجل مسلح باحتلال المسجد الكبير ويقوا معتصمين به حتى أخرجتهم قوات المظلات الفرنسية ، وكانت هذه القوات قد أعطيت إذنا خاصا لدخول مكة - المحرم دخولها على غير المسلمين - وقامت بإغراق المكان بالماء وكهرته مما أدى إلى مقتل عدد كبير من المتمردين. وكانت حصيلة الحادث ٢٢٧ قتيلا و ٤٠٠ جريحا . وقد قتل «جوهيمان» في الهجوم الفرنسي إلا أن ٦٣ من أعرانه اعتقلوا ووزعوا على أنحاء المملكة حيث قطعت رؤوسهم أمام الجماهير المعتشدة - دون محاكمات. وعرض التلفزيون السعودي إجراءات تنفيذ الإعدام على الهواء مباشرة. وبعد مرور يومين على هذا الحادث قامت مجموعات من الشيعة بأعمال شغب في المنطقة الشرقية الغنية بالنفط لكن تم إخمادها على الفور. ولا توجد

إحصائيات بأعداد القتلى والجرحى لكن التقديرات تشير إلى مقتل أكثر من مائتي شخص.

ومؤخراً وأثناء أزمة الخليج ألقى القبض على عشرات الطلاب والمدرسين والصحفيين والزعماء الدينين بتهمة تهديد النظام وقد تم سجنهم وتعريضوا للتعذيب ومنهم الزعيم الصوفي محمد الفاسي ومحمد المسيرى -الذى اشتهر بالوقوف مع حقوق الإنسان- ورغم المحاولات العديدة التى قامت بها لجان حقوق الإنسان إلا أن أسرهم لم تستطع زيارتهم كما أن أماكن وجودهم غير معروفة. وكما ذكرنا فإن عديدة أفراد الأسرة المالكة وتوزيعهم الجغرافى ساعد دائما فى إحباط الحركات المناوئة للنظام وإن كان لم يمنع المعارضين من المحاولة ولم يشهد العقد الأخير محاولات جادة ومع ذلك نسمع عن عمليات فصل منظمة فى الجيش. ولم تجدى الرشاوى والمكافآت التى تقدمها السعودية فى القضاء تماما على محاولات التمرد. وأصبحت هذه المحاولات تتبع أساليب جديدة. فقد قامت المعارضة بانتزاع أحد الركائز التى يعتمد عليها البيت السعودى وهى الإسلام وأعلنت قبولها للإسلام كهيكل عام واعترضت على التعاون مع الغرب واتهمت آل سعود بتحريف المفاهيم الإسلامية وطالبت بتمشيل إسلامى فى الحكومة. ومن الواضح أن هذا الأسلوب قد سبب ضيقا لآل سعود وإن كان مقبولا من قاعدة عريضة من الناس. ويقول الكاتب دافيد هيوارث «من الواضح أن المملكة من أخصب وأثرى الأماكن لبذور ثورة». ويقول الكاتب السعودى المنفى محمد صديق «أن الأضواء مطفأة فى بلدنا مؤقتا».

وبدا عامة الناس فى السعودية يستغيرون من عدم حدوث أى إصلاحات على كافة مستويات الشعب. وصلت كثير من الرسائل المذيلة بتوقيع أشخاص يطالبون بحريات أكثر وقد وقع على هذه الرسائل أساتذة جامعات ورجال أعمال ومسؤولون حكوميون سابقون بمن فيهم وزير الإعلام السابق محمد عبده يمانى - وهو لا ينتمى بالقرابة إلى

وزير النفط السابق أحمد زكي يمانى- وفى الغرب لم يلتفت أحد إلى هذه التطورات الهامة واعتبرت مجرد حكايات عابرة، وفى ١٦ أكتوبر من عام ١٩٨٨ ذكرت صحف نيويورك تايمز وواشنطن بوست وول ستريت جرنال. أن مجلس العلماء السعودى أصدر فتوى تدين تنفيذ أحكام الإعدام بحق المعارضين السياسيين . والمعروف أن مجلس العلماء يتكون من أفراد الطائفة الوهابية وينتخبه البيت السعودى. وهو أعلى سلطة دينية فى البلد وقد نفذت أحكام الإعدام فى عام ١٩٨٨ أيضا بحق ١٦ كويتيا اتهموا بإثارة الشغب أثناء موسم الحج ولم تجدى وساطة منظمات حقوق الإنسان أو الحكومة الكويتية.

وفى الفترة الأخيرة قام السعوديون بقتل وجرح عدد من العراقيين لجأوا إلى السعودية هربا من صدام حسين. وقد كن ٢٠.٠٠٠ من هؤلاء اللاجئين محتجزين فى صحراء رفعا حيث تبلغ درجات الحرارة ١٢٠ درجة فهرنهايت فى الظل. وعندما تظاهروا مطالبين بظروف معيشة أفضل وطعام جيد فتحت عليهم قوات الأمن السعودية النار دون تمييز وقد قامت الحكومات الغربية فى أعقاب هذا الحادث بمنع ٣٠٠٠ منهم تأشيرات للولايات المتحدة، و ٧٠٠ منهم تأشيرات للسويد. ولم تندد أى حكومة من الحكومات الغربية بالحادث. وأعرب مواطنون سعوديون عن استيائهم للحادث وإحساسهم بالمرارة من تصرفات الغرب ولا مبالاة الصحافة الغربية إزاء ما يحدث من السلطات السعودية (انظر الفصل الثامن).

ومنذ قيام الثورة الإسلامية الإيرانية بدأت إجراءات صارمة ضد الشيعة فى المملكة. وصدرت الفتاوى بتكفيرهم ومنعوا من ممارسة أى عمل وحرموا من الفرص الاقتصادية.. وفى سبتمبر من عام ١٩٩١ حملت الصحف السعودية تصريحاً لعبد الله ابن جبرين- أحد المشايخ الوهابيين - يصف فيه الشيعة بأنهم وثنيون يستحقون القتل، وبعد قليل تحول التصريح إلى فتوى رسمية كأنما قصد بها تحريض الناس ضدهم.

وقامت السلطات باعتقال ٢٦ من زعمائهم واختفى عدد كبير منهم من سكان «أم القرى» ونفذ حكم الإعدام علنا في محمد الفراش لأنه تجرأ في القول ودافع عن الشيعة. وقامت قوات الأمن بتدمير ٤ مساجد للشيعة تدميرا تاما- والمعروف أن عدد مساجد الشيعة قليل أصلا. ورفضت الحكومة التصريح لهم ببناء مساجد جديدة. واتخذت إجراءات صارمة لمنع الشيعة من الاحتفال بمناسباتهم الدينية الهامة. وفي عام ١٩٨٨ تم فصل ٣٤٠ عاملا شيعيا من مصفاة جبيل في المنطقة الشرقية دون سبب واضح، كما أن الشيعة بصفة عامة لا يسمح لهم بشغل وظائف حكومية أو الالتحاق بالقوات المسلحة.

تواصل سجن الناس وتعذيبهم دون محاكمات ودون تعيين محامين لهم وفي عام ١٩٩٢ تم القبض على طالبين شيعيين يدرسون اللاهوت وحكم عليهم بالإعدام وهما تركي آل تركي وعبد الخالق جناهي ، لأنهم كانوا يقرأون الانجيل كجزء من المنهج الدراسي. وتدخلت لجان حقوق الإنسان لوقف تنفيذ الحكم عليهما بالإعدام.

ونسبة لعدم إحساس آل سعود بالأمان فإن الناس أحيانا يتم اعتقالهم بسبب أنهم تصرفوا بطريقة مريبة دون تفسير أو شرح ما يقصد بالارتباب. ويمنع موظفو الدولة من كتابة خطابات للصحف ولايسمح لأحد بالتحدث مع الصحفيين والمراسلين الأجانب. وتذهب الأمور إلى أبعد من ذلك فمثلا لا يستطيع الاستاذ الجامعي أو الطبيب العمل إذا كان ولاؤه مشكوك فيه. وقد تم سجن ٥٢ من رجال الدين غير الشيعيين لاحتجاجهم على ممارسات السلطات السعودية ضد المواطنين العزل. أما تعذيب المسجونين فهو معروف على مستوى العالم وقد نقلته دفاتر منظمات العفو الدولية وسجلته كل من «ميدل إيست ووتش» ومنظمة حقوق الإنسان العربية واللجنة العالمية لحقوق الإنسان. وأكثر المساجين يوضعون في زنانات مظلمة رطبة تبلغ مساحة الواحدة منها ١٢×٤ قدم ويتم خلع أطراف الأيدي والأرجل لإرغام الشخص على

الاعتراف بالجريمة المنسوبة إليه وعلاء السجناء الذكور بالماء حتى يتفجرون ،ويرمى السجناء فى أحواض ملينة بالمياه يحيط بها حرس مزودون بالعصا لمنعهم من الخروج، فيغرق أكثرهم، فتزعم السلطات أن سبب الوفاة طبيعى. ويتم سجن النساء أيضا وتعذيبهن. وقد كتبت عالية مكى كتابا مرعبا عن تجربتها فى الحبس الانفرادى، ووصفت فيه إجبارها على العيش مع أنواع ضخمة من النمل والصراصير والبق. وقد فقدت أحيانا التمييز بين الليل والنهار. وأطلق سراحها بعد ستة أشهر دون توجيه أى تهمة لها وطالب ضابط الأمن أبها بالتوقيع على شهادة بأنه تسلمها وهى فى صحة جسمانية جيدة، برغم الآثار الواضحة للجروح والحروق والكدمات. وقبل منعى من زيارة السعودية كنت أصاب بالدهشة من ارتفاع عدد المتعلمين والمتدينين الذين يقضون عقوبات بالسجن لجرائم سياسية. ولا يوجد أحد محصن ضد السجن أو الاعتقال، وهذا يجعلنا نحجم عن ذكر أسماء كثير من السجناء خوفا من أن يتعرضوا للانتقام وأغلب هؤلاء من ذوى المناصب الرفيعة أو ضباط بالقوات المسلحة، وتورد الكاتبة لينا بلاتفورد فى كتابها شيوخ النفط حديثا مع عبد العزيز المعمر سفير السعودية السابق فى سويسرا- وهو شقيق للكولونيل سعود المعمر الذى نفذ فيه حكم الإعدام- وقد تسبب تعرض عبد العزيز المعمر للحبس فى زنزانية مظلمة لمدة طويلة، تسبب فى فقد بصره وحتى بعد خروجه من السجن بفترة فإنه كان لا يستطيع التحكم فى بعض وظائفه الجسدية. وعندما سألت الكاتبة عن سبب وضعه فى زنزانية انفرادية لمدة ١٢ سنة كان رده بسيطا للغاية وهو أنه لا يعلم. والرجل كان معروفا بعدة ذكائه وتحضره. وبقيت أسرته لمدة سبعة أعوام لاتعرف إن كان حيا أو ميتا. واضطرت زوجته لتقبيل قدم الملك فيصل والتوسل له لمعرفة مكان حجزه، والمعروف أن المعمر ينحدر من أسرة عريقة وكانت قبيلته من القبائل التى نافست ابن سعود على الحكم، وكانوا يحكمون لمجد. وبسبب شدة الرقابة والخوف الذى يصيب الناس فإنه أصبح من الصعب معرفة عدد

المساجين السياسيين أو مصائرهم. وتعتبر القوانين التي يعتقلون بموجبها من أسرار الدولة العليا. كما أن الاعتقالات لا يتم نشرها. وفي هذه الأثناء ازدادت أعداد جماعة الأمر بالمعروف ووصل عدد مراكز الاعتقال إلى ١٥٠ مركزاً. وحتى الآن فإن الرعود بالإصلاح التي أعلنت لم ينفذ أى شيء منها. وخصوصاً تلك التي تحتاج إلى تمثيل قانوني وتعمل على حماية الناس من التعذيب والاعتقال العشوائي. ولاستطيع أى جهات خارجية التحقيق في حوادث التعذيب على الفور. كما أن المعلومات التي يحصل عليها مسؤولون في وزارة الخارجية الأمريكية تأتى متأخرة.

إذن فالأموال مهما كثرت لا تستطيع جلب السعادة والرضا. وإذا وضعنا في الاعتبار المحاولات التي تمت للإطاحة بالحكومة يتضح لنا جلياً أن الفلوس لا تضمن شيئاً. والآن بعد أربعين عاماً من التمتع بثروات النفط أصبحت الطبقات الجديدة لا تنتظر إلى امتيازاتها كهبة أو هدية من الأسرة المالكة وإنما تعتبرها حق ومعنى هذا أنهم لا يحسون بالولاء تجاه الأسرة المالكة مما يفتح الباب أمام توقع اضطرابات. ويتضح هذا عندما نلاحظ ازدياد عدد أفراد الطبقة الجديدة وقدرتهم على تنظيم الأمور أكثر مما في الماضي. إضافة إلى الضغوط والإحباطات التي يحس بها المزيد من الناس في أعقاب حرب الخليج. والأحزاب السياسية ما زالت تنمو برغم الإجراءات القمعية التي قارستها السلطات ومنها الحزب السعودي الديمقراطي، وحزب العمل الاشتراكي لنجد الحرة، والحزب القومي العربي، إلى جانب كثير من المنظمات والجمعيات الأخذة في الازدهار. وجميع هذه الأحزاب تطالب بإنهاء القمع الحكومي كما أن الزعماء الدينيين الذين يمثلون مختلف طبقات الشعب يعبرون عن احتجاجهم طول الوقت بمن فيهم أعضاء مجلس العلماء الوهابي. وإذا تركنا جانباً بعض الشيوخ المتعصبين مثل ابن جبرين فإن الصدع القائم بين الزعماء الوهابيين والحكومة يشكل الآن عنصر تناقض رئيسي في القطر فالحكومة تعتمد على مساندة رجال الدين لأنها تحكم باسم الإسلام. وتدعى أن

القرآن هو دستورهما. وسبب التناقض هو استخدام الحكومة للإسلام كفضاء درن التمسك بشعاره الحقيقية. والتمسك الظاهري بالإسلام يمكن أن يقنع الجهلاء ولكنه لا يقنع الشخص المتبحر في أمور الدين. والزعماء الدينيون على علم بنشاط أفراد الأسرة المالكة وانغماسهم في المحرمات كشرب الخمر والقمار ومطاردة النساء وهم يرفضون كل هذا لأن الحاكم يجب أن يكون قدوة لغيره. كما أن الطوائف الإسلامية الأخرى تعترض على فكرة الملكية والتسلسل الأسري في الصعود للعرش وقد قال الرسول الكريم وخلفاؤه وأبيهم في الموضوع. والحاكم يتم اختياره عن طريق البيعة. وهو مطالب بإقامة العدل وإتباع الشرع الديني في سلوكه والحكم بأفضل كيفية ممكنة. والأهم من هذا أن الإسلام واضح فيما يخص استخدام العنف ضد الرعية أو تعذيبها.

وحتى وقت قريب تجاهل مجلس العلماء الذى يديره الوهابيون سوء سلوك أفراد البيت السعوى لأنهم حلفاءهم. لكن الولاء الوهابى تلاشى فى الآونة الأخيرة، وأصبح رجال الدين الشبان من الوهابيين صلبين فى معارضتهم لسلوك أفراد الأسرة المالكة، مما أحدث تغييرا فى موقف كبارهم المتزمتين. وقد بدأت نتائج هذا التغيير تظهر ومثال لذلك موافقتهم على رسالة تنتقد بعض قرارات الملك فهد، ولم يشنهم قيام الملك فهد بفصل سبعة منهم فى سابقة تعتبر الأولى من نوعها، وهؤلاء العلماء يعترضون على التبعية للغرب الكافر وهو أمر كان قد رفضه أجدادهم فى العشرينات. وربما كان قبول كبار الوهابيين لمواقف الشباب ناتج عن خوفهم من حدوث انقسامات داخل مجلس العلماء، أو بسبب تقديرهم للقوة المتنامية للطبقة الجديدة وإمكانية تأثيرها. وهو ما يعطيهم الإحساس بأنهم ليسوا الوحيدين المعارضين لممارسات آل سعود. ويخشى رجال الدين الوهابيون أيضا أن يدفع سلوك أسرة سعود السعوديين المتسكين بالدين إلى الانضمام إلى الجماعات الإسلامية التى تتزايد شعبيتها. وفى محاولة لتأكيد مصداقيتهم قام رئيسهم الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس مجلس العلماء - أعلى سلطة

دينية في المملكة- برقع التماس للملك فهد يطالب فيه بالإصلاحات وقد وقع على الالتماس ٥٠٠ من الشيوخ. وطالب الالتماس بقيام مجلس شورى مستقل يتم انتخابه ويوكل إليه صلاحية سن القوانين لمكافحة الإسراف وتبديد أموال الدولة وقد أدان الالتماس أيضا الفساد وانعدام الحريات. وقد كان هذا الالتماس بمثابة صفعة شديدة للملك لأنها تجيء من تنظيم مفترض فيه أنه اليد اليمنى للأسرة السعودية.

وإذا كان مجلس العلماء قد استطاع أن يصل لهذا الحد ويستخدم عبارات حادة في التماسه فإِنَّ الزعماء الدينيين غير الرحابيين ذهبوا إلى حد أبعد، فالمعارضة الشيعية أدانت النظام ككل وكذلك حزب الله المحظور وحزب الإخوان الجدد وحزب الثورة الإسلامية والإخوان المسلمين وآخرين وقد طالبوا جميعهم بالعودة إلى الإسلام الحقيقي. وهذا معناه استحالة استمرار حكم بيت سعود. ورغم أن معظم هذه المجموعات تعمل في لمر فإنه لن يمر وقت حتى ترتفع أصواتهم.

ويتزايد سخط المواطنين يوما بعد يوم وإن كان في شكل محاولات صغيرة إلا أنها تعنى الكثير إذا ما أخذناها على أنها محاولات لكسر حاجز الخوف وقد وزعت إحدى الجماعات الإسلامية شريط كاسيت عن ممارسات النظام لاقى شعبية كبيرة مما جعل الحكومة ترصد مبلغ ٥٠٠.٠٠٠ دولار لمن يدلي بمعلومات عن مروجيه، وكذلك وزع شريط آخر يحمل اسم البندقية العظمى وهي سلاح كان صدام قد هدد باستخدامه ضد السعوديين ويقول الصحفي السوري نهاد الغديري الذي كان يعمل مستشارا للملك فيصل أن «الأصوليين الإسلاميين يختلفون عن الأصوليين المسيحيين أو اليهود، فهم ليسوا مجرد طائفة تتخذ اتجاهها مختلفا وإنما هي موقف يعنى أن جميع الطوائف الإسلامية تريد العودة إلى كلمة القرآن» وهذا التعليق من أذكى التعليقات لأنه يعنى أن البيت السعودي لا يقف ضد طائفة أو اثنين وإنما يواجه كل هذه الأحزاب والطوائف. وأصبح انتشار أشرطة الكاسيت والكتيبات والمعارض المضادة أمرا يوميا وجميعها

تسير في طريق ثورة إسلامية تصحيحية وتتنافس جميعها على المركز الأول، ويزداد عدد مؤيديها يوماً بعد يوم. وأصبحت المعارضة في المساجد ممارسة عادية تتميز بالشجاعة والصراحة. ودعا بعض الخطباء في صلاة الجمعة إلى تغيير الحكم. وتتواصل هذه الخطب المعارضة رغم اعتقال المتحدثين وتمريضهم للخطر. وفي ٣٠ يونيو من عام ١٩٩٢ أوقفت الحكومة مظاهرة للأصوليين الإسلاميين. وقام الملك فهد وبعض أبناء أخوته بمقعد مؤتمر صحفي هاجموا فيه هذه الجماعة.

وإذا كان مثل هذا التقارب بين فئات المعارضة هذه غير ممكن الحدوث قبل شهرين فإنه أصبح ممكناً الآن. وتم رفع عريضة إلى الملك فهد تطالبه بإيقاف بناء القصور وقمع عليها نفر من رجال الدين وأساتذة الجامعات ومحاربين وآخرين وكانت العريضة حادة وغاضبة. وحدث توتر في عام ١٩٨٢ بسبب تساؤلات بعض الناس حول اختفاء فائض مالي قدره ١٤٠ مليار دولار ومن ناحية أخرى شعر بعض الناس بالمرارة تجاه الغرب وإصرار الحكومة السعودية على الاستمرار في صداقتها به رغم مواقفه في فلسطين وفي البوسنة. وظهر عجز الحكومة السعودية في التصدي لمختلف المشاكل ويقول الصحفي اللبناني جورج كرم «إن هذا المجتمع المريض بالنفط يدفع بالمزيد والمزيد من الناس إلى صفوف المعارضة. وقد استعان السفير الأمريكي السابق في السعودية، جيمس أكينس بمعظم العناصر التي ذكرناها آنفاً ليصوغ سيناريو شديد الشبه بالموقف في إيران قبل وقت قصير من سقوط الشاه، وذلك عندما تحالف رجال الدين والتجار للإطاحة بحكمه».

قدرة المواطنين السعوديين على تنظيم صفوفهم في الوقت الحاضر غير ممكنة لكن الخبراء يشكون في قدرة العائلة المالكة على الاستمرار في قهر التحديات التي تواجهها، ويعتبرون محاولاتها لبناء جيش قوى هي بمثابة رفسة المذبذب. وعلى الرغم من تأييد الغرب والإدارة الأمريكية لفكرة قيام مجلس استشاري تحت إمرة الملك إلا

أنهم رصفوه بأنه بلا أسنان، ولكنهم ينظرون إليه بمسقة عامة على أنه خطوة إلى الأمام. والسؤال الذي لا يجد له إجابة من قبل بيل كلينتون وجون ميجور وفرانسوا ميتران هو ماذا سيفعل هؤلاء الناس عند نشوب حركة تمرد داخلية جادة؟ بمعنى آخر ماذا سيفعل الغرب لو امتلأت الشوارع في السعودية بمواطنين يطالبون بحكم ديمقراطي؟ وماذا سيفعلون لو أعلن في مكة قيام جمهورية متناوئة للبيت السعودي؟ هل سيضربون مكة بالقنابل أيضا ويعلنون الحرب على أكثر من مليار مسلم؟ على كل حال يبدو أن الوقت قد حان لوقف مسيرة البيت السعودي نحو الهاوية وأصبح الوضع يتطلب فرض تغييرات كبيرة على الملك فهد والعائلة المالكة.

الفصل الخامس الاخوة اختيارية

للسعودية هويتان، هوية عربية وهوية إسلامية، والدين الإسلامي مهيمن على جميع البلاد العربية ماعدا لبنان. وهذه الهوية المزوجة لديها ميل متساوى للاثنتين. والبلاد العربية كانت تتعامل بمسر مع الهوية الإسلامية بل إنها في كثير من الأحيان كانت تضع الهوية القومية قبل الدين لكن بعد النجاحات الأخيرة للأصوليين الإسلاميين وفوزهم في بعض الانتخابات ونزوعهم إلى أحداث تغييرات سياسية واجتماعية لصالح الدين أصبح الناس في البلاد العربية يتعاملون مع مسألة الهوية الإسلامية بحرص. لكن وضع السعودية بوصفها مكان ميلاد النبي الكريم وموطن المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة حيث يأتي إليها المسلمون في كل عام لأداء فريضة الحج، فرض عليها دورا إسلاميا أكبر، لذلك جعلت الدين أساس الدولة. ولأن الإسلام لا يفصل بين السياسة والدين فإن الوضع الديني للبلد هو سياسى بالضرورة. والتزام السعودية بتبنى النهج الإسلامى ورطها في السياسة الإسلامية، كما أن مغالاة ملوك السعودية المختلفين في تبنى الإسلام لتعويض ضعفهم المتأصل وسط العرب سبب لهم المشاكل فيما بعد. وبينما نجد أن العرب لا يواجهون مشكلة في التوفيق بين الهويتين نجد أن بيت سعود يتعمد خلق انقسام بين الاثنتين ويستخدم روابطه مع العالم الإسلامى للتغلب على الدعاوى التاريخية واللغوية والجغرافية التى يسوقها العرب.

والهوية الثنائية عند السعودية حقيقية وفى نفس الوقت مريحة وتظهر نفسها بشتى الأشكال بما في ذلك الاستشهاد الدائم «بالإخوة الإسلامية» في جميع نصوص الاتفاقيات التى توقعها مع البلاد العربية والإسلامية. ونلاحظ ذلك بوضوح في تبنى

الملك فهد للقب «حامي الحرمين الشريفين» وهو اللقب الذي أطلق فيما مضى على السلطان التركي سليم. هنا الوضع الدينى المتميز وهذه السلطة عززتها سيطرة السعودية على ٢٥٪ من احتياطي نفط العالم.

وكان بإمكان ثروة النفط والضعف النسبى للعرب والمسلمين أن يضع السعودية فى موضع القيادة للعالمين. لكن هذا لم يحدث- لسوء حظ الغرب- والدور القيادى للسعودية على الاثنى اصطناعى، وهى تتظاهر به، وهو غير مقبول لدى معظم العرب والمسلمين. وبالنسبة لآخرين هو مقبول فقط بشكل مؤقت وبسبب احتياجات مادية معينة.

توجد أسباب تقليدية معروفة لعجز السعودية عن الزعامة منها قلة عدد السكان ، وتبنى البلاد للنهج البدوى المتخلف والتصاق البيت السعودى بالوهابية إضافة إلى أسباب أخرى صنعتها الأسرة السعودية المالكة نفسها مثل ميلها لتقسيم العرب وفشلها فى تطوير سياسة بناء طويلة الأمد، وفساد البيت الحاكم وميله للإستبداد برأيه، وفقدان المهارة عند معظم ملوكه. وليس واردا أن تقوم السعودية بتغيير كل أو بعض الأسباب التقليدية الراسخة. فما صنعتها العائلة بدأ منذ وقت طويل مع فتح الجزيرة العربية وإعلان الدولة السعودية . والنفط- الذى جاء لاحقا- وكان من المفترض أن يهيىء لها مكانة عربية وإسلامية مرموقة فعل العكس. إذ أوجد مسافة بين السعوديين والآخرين واستخدم مؤخرا ليثير العرب والمسلمين ضد بعضهم البعض. وابن سعود لم تكن تهمه العروبة أو الإسلام، لكنه لم يستطع إنكارهما فهو عربى وهو مسلم، لذلك حاول جهده أن يجمع الاثنى من الوقوف فى طريقه أثناء سعيه لنيل مكاسب شخصية. وفى العشرينات وبعد أن أصبحت السعودية دولة دخلت على الفور فى نزاع حدودى مع جيرانها: العراق والأردن وقطر والكويت والإمارات العربية(الحالية). وعندما تدخلت بريطانيا قبلت بحلها. وفى ذلك الوقت كانت معظم البلاد العربية

مستعمرات ضعيفة محارب من أجل استقلالها ولم يكن بإمكانها فرض التزام عربى أقوى تجاه ابن سعود أو أن تحت مواطنيها على الوقوف ضده، فماذا قدم لها ابن سعود؟، صحيح أنه وقع اتفاقية صداقة مع جيرانه بناء على رغبة بريطانيا لكنها كانت اتفاقيات خالية من المضمون. ومن ناحية ثانية لم يكن بإمكانه تجاهل الإسلام بعد أن احتل المدينتين المقدستين فى مكة والمدينة - وبالطبع وقفت بريطانيا الكافرة بعيدا. فالإسلام والوحدة الإسلامية لم تكن تهددها ومن الممكن أن تكون سيطرة ابن سعود على المدن المقدسة عمل مفيد. والمسلمون بصفة عامة يرون أن مكة والمدينة تهمهم ويطالبون بأخذ رأيهم فى كيفية حكمهما، وقد أصدروا نداءات آنذاك تطالب بإقامة حكومة ديمقراطية فى مكة والمدينة ولامانع من أن يرأسها ابن سعود

ولعلم ابن سعود برفض الناس للوهابية حاول تهدئة المسلمين بأن أعلن أن سيطرته على مكة والمدينة وضع مؤقت وأنه سيحل محلها هيئة دينية مقبولة للجميع وتحت رئاسته. لكن هذا لم يكن كافيا لطمأنة بعض المتشككين وازدادت الاحتجاجات ضد التصرفات الخشنة للوهابيين. وكانت المجموعات المناوئة للوهابيين تتعاطف مع الأجانب لذلك رأى ابن سعود أن هذا الأمر ينطوى على مخاطرة فدعا فى عام ١٩٢٦ إلى مؤتمر إسلامى «لكي يعرفنا الناس على حقيقتنا وليس كما يصورنا الأعداء» كما قال حضر المؤتمر ملوك ورؤساء ومثّلوا أربعين دولة لكن غياب جهة إسلامية مقبولة عالميا تصلح للبت فى أمور الدين قلل من فعالية هذا المؤتمر، ونوقشت الأمور بحدة ودعا البعض للتسامح الدينى ووقف التنازلات التجارية للأجانب ومعارضة إجراء تفسيرات فى طبيعة الأماكن المقدسة، واعترض كثيرون على استخدام لقب «ملك» الذي يطلقه ابن سعود على نفسه (وهو لقب غير مقبول إسلاميا). وبعد تبادل التهديدات لم يتوصل المؤتمر إلى أي نتائج مشمرة ماعدا إنشاء لجنة برئاسة الأمير فيصل للنظر فى شتى المسائل. وعلى الرغم من عدم رضا هذه الأقطار عن كثير من الأمور إلا أنه لم يكن

يرجع بلد في وضع قري يسمح له بفرض التغيير وانفض المؤقر بعد أن أكد ابن سعود عوده بخصوص قدسية المدن الإسلامية وأعلن أهمية الحج بوصفه المصدر الوحيد لدخل البلد لذلك يريده تحت إشرافه ورعايته ليضمن له الأمان وعلى الرغم من أن ابن سعود لم يفي بكثير من الوعود الهامة مثل عدم التنازل للأجانب إلا أن سيطرته استمرت على مكة والمدينة، وإن كانت نزاعات الحدود والأسئلة العقائدية قد شكلت هداية غير طيبة للعرب والمسلمين. وماعدا ترقيته للحج لحماية الدخل القومي فإنه ركز جهوده على تدعيم وجوده الداخلي، ولم تكن شؤونه الداخلية تهم المسلمين لذلك ماعادوا ينظرون اليه كزعيم ديني.

وحتى عام ١٩٣٢ لم تثر السعودية اهتمام أحد غير المستشرقين والعملاء البريطانيين وقد حاولت العراق التعاون مع ابن سعود لكن بريطانيا رفضت ذلك لأنها ترفض فكرة التقارب والتعاون بين العرب. لكن إذا كان الفرد يسيطر على معظم الجزيرة العربية والأماكن الإسلامية المقدسة فإنه من المستحيل أن يبقى بمنأى عن الشؤون العربية والإسلامية. وسرعان ما نشأت ثلاثة مشاكل رئيسية هي حدوث خلاف ديني مع الحجاج المصريين، وخلاف حدودي مع اليمن وصراع في فلسطين. وكلها لم تترك لابن سعود أى فرصة غير توضيح موقفه الصريح بالنسبة للعرب وبالنسبة للمسلمين.

وأدى الخلاف مع الحجاج المصريين إلى مقتل ثلاثين حاجا مصريا وقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وقد كان هذا الحادث بمثابة تحذير لكل المسلمين خصوصا الشيعة الإيرانيين. فإذا كان سبب الخلاف المصرى مع السعوديين سببه الاحتفالية التي مارسها الحجاج المصريون في كسوة الكعبة فإن الشيعة أيضا لهم مظاهر احتفالية وربما أكثر بهرجاء من المصريين لذلك يمكن أن يصطدموا هم أيضا بالوهابيين. وللمرة الأولى منذ قرون تتم شعائر الحج تحت إجراءات صارمة. وقد وسع هذا الفجوة بين حاكم مكة

وباقى المسلمين.

أما النزاع الحدودى مع اليمن حول بعض الأراضى فقد كان بداية لعداء طويل بين البلدين الوحيدين المستقلين فى شبه الجزيرة العربية. فقد نالت اليمن استقلالها منذ عام ١٩١٨ واجيزت حدودها. بناء على معاهدة « خط البنفسج » التى ضمنتها تركيا فى عام ١٩١٤ لكن طبيعة اليمن نفسها كانت تشكل تحديا للسعودية لأن هذا البلد كان مكتظا بالسكان ويقدر عددهم بأكثر من نصف سكان شبه الجزيرة العربية، كما أن لهذا البلد تاريخ حضارى عريق وهو أكثر قدنا من جاراته الجديدة. كما كانت اليمن تشكل أيضا شوكة فى جنب الاستعمار البريطانى لأنها تمثل نقطة انطلاق ضد هيمنتهم على السعودية وبقية الأراضى المجاورة وقد كانت اليمن تمثل بالأخص تهديدا للاستعمار البريطانى فى عدن. وهى تعتبر نفسها جزا لايتجزأ من يمن عظمى قام الاستعمار بتقسيمها. ونسبة للعلاقة الخاصة بين بريطانيا والسعودية ، شرع ابن سعود فى تنفيذ السياسات البريطانية وبدأ بإثارة القلاقل لليمن وحكامه. وكانت المشاكل بينهما قد بدأت قبل أربعة أعوام من سيطرة ابن سعود على المدن المقدسة فى عام ١٩٢١. وذلك عندما ذبح ٣٠٠٠ حاجا يمينا كانوا يعبرون الأراضى السعودية إلى مكة. وكان تحرير السعوديين للحادثة واحيا إذ ذكروا أنهم ظنوا أن هؤلاء الحجاج طلائع جيش غازى. وكانت الحادثة بمثابة إرهاب للمستقبل لكن اليمن تعقلت وبذلت جهدا لتفادى مواجهة مع السعودية وحلفائها البريطانيين وقبلت بالدية.

وفى عام ١٩٣٢، وهو العام الذى أطلق فيه ابن سعود اسمه على الأرض التى فتحها، كانت المنافسة شديدة بين البلدين للسيطرة على منطقة عسير وهى المنطقة الواقعة فى جنوب المملكة وكان السعوديون يعينون لحكمها أناسا متوحشين وقساء من أمراء البيت السعودى. وأهل عسير شيعة من بنى زيد، وهم الشيوخ الدينيون لليمن وحمايتها التاريخيون. وبالرغم من أن هذه الأرض لاقتل أهمية استراتيجية للسعوديين

وبالرغم اعتقادهم بأن أهلها كفار إلا أنهم أصرروا على ضمها بغرض إضعاف اليمن. وقد سوى أخلاف حول هذه المنطقة الجبلية الجميلة. ووقع الجانبان على معاهدة صداقة. لكن ابن سعود والبريطانيين لم يكونوا راضين عن هذه المعاهدة لأن اليمن مازال يحتفظ بقوته لذلك تجاهل ابن سعود المعاهدة وأخذ يدعم الحركات اليمنية المعارضة للحكومة مما أدى إلى نشوب حرب بين الجانبين انتهت بانتصار ابن سعود الذي تدعّمه الأموال والمعدات العسكرية البريطانية، وأجبرت اليمن على توقيع اتفاقية تؤجر بموجبها عسير لابن سعود لمدة عشرين عاما يتم بعدها التفاوض مرة أخرى . وقد كان اليمنيون يحسون أنهم لن يستعيدوا هذه الأرض مرة ثانية. وكان الاتفاق بالنسبة لهم يشكل إذلالا لا ينسى

وأظهرت نتائج لحرب مع اليمن شيتين أولهما أن السعودية لا تقبل بوجود قوة غيرها في شبه الجزيرة العربية وثانيهما أن السعودية برهنت على أنها تضع علاقتها مع القوى الخارجية فوق علاقات الأخوة التي تربطها بالبلاد العربية.

أما المشكلة الثالثة فهي مشكلة فلسطين، ومن المعروف أن رغبة بريطانيا في أن تطلق يدها في تقرير مستقبل فلسطين كان أحد أسباب دعمها لابن سعود الذي اعطاها موافقة ضمنية على إقامة الدولة اليهودية. وقد كانت الضغوط الإقليمية والداخلية تجبر ابن سعود في بعض المناسبات على الوقوف إلى جانب الحق العربي في فلسطين وحقوق المسلمين في القدس، مما جعل تصريحاته تبدو متناقضة في كثير من الأحيان، إلا أنه بصفة عامة استمر في تبعيته لبريطانيا. ولمدة عقد كامل كانت سياساته الخاصة بفلسطين تبدو مزدوجة فهو ينافس على الزعامة العربية بإطلاقه تصريحات تخدم هذا الغرض ولكنه في نفس الوقت يبيع الحق العربي كعقاييل للحصول على الدعم البريطاني. وكان يعارض مطالبة الملك الهاشمي عبد الله بفلسطين ويساعد عدوه حاج الأمير الحسيني مفتي القدس. لكن دعمه للحسيني لم يكن خالصا. وفي النهاية نصحه

بالتناوض مع البعثيين البريطانيين بخصوص النسر. وفي عام ١٩٣٦ خدع الحسيني وجعله ينهى ١٨٢ يوما من الإضراب الفلسطيني الناجح الذي كان قد أحدث أثرا على حكومة الانتداب البريطانية مقابل وعد منه بالتوسط للفلسطينيين لدى الجانب البريطاني ولكنه لم ينفذ وعده أبدا ولا توجد أى سجلات على أنه قام بالتوسط لصالح هذه القضية. وفي واقع الأمر كان يعمل على إضعاف الحسيني عن طريق دعم بيوت فلسطينية منافرة له مثل آل النشاشيبي وآل الشؤك. واستخدم فيلبس كمبعوث خاص له إلى كل من تشرشل والمكتب البريطاني للشئون الخارجية ليعطى موافقته على الوجود اليهودي في فلسطين مقابل رفع بريطانيا الدعم عن منافسيه الهاشميين الذين كانوا يحكمون الأردن والعراق. وفي ١٧ سبتمبر قابل فيلبس أيضا حاييم وايزمان- الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لإسرائيل) ليناقدش معه موافقة ابن سعود على إقامة دولة يهودية مقابل ٢٠ مليون جنيه استرليني. والمعروف أن ابن سعود كان محتاجا دائما إلى المال وعلى استعداد لأن يضعه فوق المبادئ أو الإخوة. ويدل موقفه مع الملك عبد الله والحسيني على قيامه بتنفيذ سياسة (فرق تسد) وسط العرب. وقبله للسياسة البريطانية دليل على خضوعه وتبعيته. ومحاولته أخذ فلوس من وايزمان مقابل بيعه فلسطين تصرف متعاشي تماما مع شخصيته. وقد نجح دائما في شراء ولاء البدو لأنه واحد منهم لكن تجاهله للعرب والمسلمين الذي كان يتم بسهولة في العشرينات والثلاثينات أصبح أمرا غير سهل على الإطلاق في الإربعينات عندما تعقدت المشكلة الفلسطينية.

انضمت السعودية في عام ١٩٤٥ إلى جامعة الدول العربية التي تبنت تدعيم التعاون بين الدول العربية. وقد قام ابن سعود بهذه الخطوة لإرضاء العرب وإرضاء مواطنيه لكنه في داخله كان يريد وضعها تحت يده. وكان العرب في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ ينظرون إلى المنظمة كالمُنقذ لفلسطين وكانت الجامعة هي التي تحدد مستوى

وطبيعة دور العرب في القضية. وظاهرياً كانت السعودية تدافع عن مواقف العرب في الأمم المتحدة وانحازت الدولية وتعطى صوتها لصالح إرسال قوات عربية إلى فلسطين. لكن دعم السعودية لفلسطين لم يتجاوز حدود الدعم المعنوي، وفي منتصف الثلاثينات تجاهل ابن سعود نداءات الملك غازي ملك العراق لإنشاء جبهة عربية للدفاع عن فلسطين. وفي عام ١٩٤٨ وقف على الحياد ورفض إرسال قوات سعودية للمشاركة في حرب فلسطين (وقد اعترف فيليب في كتابه بذلك). كما أنه وضع العراقيل في وجه السعوديين الذين تطرّعوا للانضمام للقوات العربية هناك. واستمر في دعم الموقف العربي بلسانه فقط، حتى أنه وجه ابنه فيصل وزير الخارجية بأن يهاجم علناً دعم الولايات المتحدة لإسرائيل بينما كان يتفاوض سرا في ذلك الوقت مع الأمريكيين لإنشاء قاعدة عسكرية في الظهران. ويبدو أن تبعيته السابقة لبريطانيا استبدلت بتبعية جديدة للأمريكيين على الرغم من أن أمريكا كانت المؤيدة الرئيسية لإسرائيل.

وعندما انتهت حرب ١٩٤٨ بهزيمة العرب لم يساوره أي إحساس بالذنب وكان ما يهمه فقط هو كيفية تأثير ذلك على حكمه، وأوقف المساعدات المادية عن القوات المصرية والأردنية التي مازالت موجودة في بعض أجزاء فلسطين. وفي نفس الوقت دفع مبلغاً كبيراً من المال لسوريا ليؤكد من عدم اتحادها مع العراق مما يمكن أن يهدد إسرائيل. واستناداً إلى «جلوب باشا» فإن ابن سعود كان دائماً يخشى الوحدة العربية لأنها قد تشير مشاعر الشعب السعودي وتجعله يطالب بمثلها. وبدأ المتطوعون السعوديون الذين انضموا للقوات العربية في فلسطين يتعرضون للسجن والأذى من قبل قوات الأمن السعودية. كما رفضت السلطات السعودية السماح للفلسطينيين بالعمل بالسعودية رغم تأهل بعضهم. وظهر لأول مرة قانون يمنع السعوديين من الزواج بحرب دون إذن حكومي. وصدرت الأوامر للصحافة السعودية بالتخفيف من لهجتها المؤيدة للقضية الفلسطينية، والتقليل من نشر الأخبار والتقارير عن البؤس والظلم الواقع

بالشعب الفلسطيني. ورفض ابن سعود مجرد التفكير في اقتراح باستخدام النفط للضغط على أمريكا من أجل سياسة معتدلة تجاه الفلسطينيين، ويقول جمال طوقان أحد أفراد الوفد الفلسطيني الذين زاروا ابن سعود طلباً للمساعدة بأنه كان مشغولاً بموضوع آخر وهو التأكد من إحراق الطعام المتبقى بعد الرليمة التي أقامها لهم خشية من أن يقع هذا الطعام في أيدي الفقراء فيعتادون على أكل اللحم، وكانت ردة الفعل المباشرة لمأساة فلسطين هو محاولته جعل المواطنين السعوديين يركزون على أحوالهم الداخلية وشؤونهم وينسون ما حدث في فلسطين على الرغم من تعاطف الشعب السعودي مع الفلسطينيين وقيامهم بكتابة الأشعار والنصوص حول الفجيعة. ويبدو أنه قد نجح في ذلك لحد ما وبدأ تدفق النفط وارتفاع أسعاره يشغل الجميع إلى أن وصل عبد الناصر إلى السلطة في عام ١٩٥٢. وكان جمال عبد الناصر هو الكولونيل السابق في الجيش الذي خاض معركة فلسطين والرجل الذي آمن بالقومية العربية وأصبح أكبر نصير لها في القرن العشرين. ويرى الكثيرون أن وصوله للسلطة كان أحد نتائج حرب ١٩٤٨. وقد اهتم عبد الناصر في بداية الأمر بالعائلات المالكة المصرية وامتلاك الباشوات للأراضي وبعد فراغه من ذلك انتقل إلى الاهتمام بالزعامة في العالم العربي والإسلامي والأفريقي.

كان نشاط عبد الناصر في المجال العربي والإسلامي امتداداً لسعي البيت الهاشمي إلى زعامة كل العرب- على الرغم من أن عبد الناصر قد لا يتفق مع هذا الرأي- والمعروف أن ابن سعود قد وصل للحكم عن طريق معارضة الحركة الهاشمية أما عبد الناصر فقد استعان بالأزهر الشريف أقدم جامعة إسلامية في سبيل تحقيق هدفه الإسلامي، والواقع أن الأزهر الشريف كان هو الوعاء الإسلامي الصحيح فقد كان له دور إسلامي مرموق وقام علماءه بتبني قضية القدس الشريف. وفي هذا الوقت لم تكن السعودية تسمح بأي دعاوى واجتهادات دينية سوى دعاوى الوهابيين.

ولقيت دعوة عبد الناصر القومية قبولا لدى السعوديين ومست وترا حساسا فيهم كان البيت السعودي يحاول إبطاله، فند كان السعوديون في أمس الحاجة للتعبير عن هويتهم العربية الإسلامية. وظهرت في السنوات السياسية مؤيدة لعبد الناصر في السعودية وفتحت مكاتب لها في القاهرة ولجأ عبد الناصر إلى أنواع جديدة من الدعاية وافتتحت إذاعة صوت العرب واتخذت المعركة شكل مواجهة بين القديم والحديث. وعقد الإعلام المصري إلى فضح ممارسات البيت السعودي. وامتألت صفحات الصحف والمجلات بمواد تتحدث عن قصور الملك وعدد زوجاته ومطاردة الأمراء للنساء وجههم للقمار. وأوضح عبد الناصر أنه لا يريد أن تبدد أموال النفط على رغبات الملوك وإنما يريد أن تصرف على فقراء العرب وظهرت لأول مرة الدعوة القائلة بتخصيص نفط العرب لخدمة العرب» وقد فوجئت السعودية بتهديد جديد وهي التي اعتادت على ضعف أعدائها وعدم استجابة مواطنيها للمؤثرات الخارجية- أو هذا على الأقل ماظنته. ولم يعد أمام السعودية سوى التحرك لاستعادة هويتها المفقودة ويقول ويليام كوندت من مؤسسة بروكينغز في واشنطن «أن الذي يدفع السعودية للاهتمام بالسياسة العربية ليس الماطفة». في إشارة إلى أنها لا تتحرك إلا عندما يحدث ما يهدد أمنها. وأمام تحدى عبد الناصر كان أمام السعودية أحد خياران أن تواجهه أو أن ترضيه.

كان الملك سعود قد صعد إلى العرش في هذه الفترة ووجد حوله مستشارين سوريين وفلسطينيين ولبنانيين ولكن هؤلاء لم يستطيعوا إعطاء النصح لأنهم لم يكونوا من المتخصصين وإنما كانوا يعينون لمختلف الأغراض وكما نعرف فإن بعضهم كان مجرد أطباء لبيبه. واتسمت سياسات سعود إزاء مواجهة الخطر الناصري بالتخبط كما أن سعود نفسه لم يكن حاكما متحررا وكانت شخصيته متقلبة فكان أحيانا يعجب بعبد الناصر وأحيانا يعترض على اعتناقه للاشتراكية.

وقام عبد الناصر بتأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦ وأعقب ذلك العدوان الثلاثي

على مصر وتزايدت شعبيته واضطرت السعودية لمساندته لتفادى غضب العرب وغضب مرخصيها وقامت بإيواء الطائرات الحربية المصرية وأمرت بوقف شحنات النفط إلى بهمانيا وفرنسا ودفعت لمصر مساعدات مالية ضخمة. وعززت حرب السويس مكانة عبد الناصر العربية. وبدل من أن تفكر أمريكا في خطة للسيطرة على الزحف الناصري قامت بدعوة الملك سعود إلى زيارة واشنطن في عام ١٩٥٧ ومقابلة إيزنهاور وقام الاثنان بإجراء مفاوضات أعقبها إعلان إيزنهاور الشهير القاضي بدعم السعودية وحمايتها ضد أى محاولات تهدد نظام الحكم فيها (انظر الفصل السادس) أي أن الولايات المتحدة قامت باتخاذ القرار نيابة عن سعود.

وكما سئى لاحقا فإن إعلان إيزنهاور كان بمثابة الإعلان عن حلول الهيمنة الأمريكية بدلا عن السيطرة البريطانية. وفيما عدا ذلك لم يحدد أمريكا للسعودية دورها العربي أو الإسلامى المقبل.

قام الملك حسين ملك الأردن في عام ١٩٥٧ بمساندة المخابرات المركزية بالإطاحة بمجلس وزرائه المنتخب المؤيد لعبد الناصر. ورددت الشائعات بأن المجلس كان يخطط للتخلص من الملك حسين والحقيقة أن المخابرات المركزية هي التي كانت تخطط للإطاحة بحسين. وقد تم وضع الخطة في بيروت. وأدت هذه المحاولات إلى حدوث مواجهات بين مؤيدي ومعارضى عبد الناصر في المنطقة. وفرضت أمريكا على الملك سعود أن يترك عداؤه التاريخى للملك الهاشمى ويقف معه لمواجهة عبد الناصر. واستخدمت السعودية أموالها لإرسال قوات سعودية إلى الأردن لتحافظ على الاستقرار. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشارك فيها القوات السعودية في نزاع خارج حدودها. وأقيمت في عام ١٩٥٨ الوحدة بين مصر وسوريا مما أثار الذعر السعوى. ولم تنفع تطمينات أمريكا في التهديد من روع الملكة السعودية وقامت في مارس ١٩٥٨ محاولة صيبانية لاغتيال عبد الناصر وذلك بضرب طائرته عند هبوطها في دمشق. وكانت المحاولة ترمى

أيضا إلى التخلص من سورين آخرين مؤيدين لعبد الناصر مثل شكرى القوتلى وقد أشرف على المخططة يوسف ياسين وهو أحد مستشارى سعود السورين ووافق عليها الملك سعود شخصيا. وقد خرج عبد الناصر سالما وازدادت شعبيته ونشرت الصحافة صورة لشيك بمبلغ ٢ مليون جنيه استرليني عرضه السردية كرشوة لرئيس المخابرات السورى ليقوم باغتيال عبد الناصر. وأعلن عبد الناصر أن المؤامرة غريبة وأن سعود ليس سوى تابع ذليل للغرب. وزعم اخرون أن المؤامرة تمت بتخطيط بين أمريكا والمخابرات المركزية الأمريكية لكنهم لم يوردوا دليلا على ذلك. ووضعت هذه الأحداث نهاية لحكم سعود إذ أوعز أخوه فيصل لأفراد من الأسرة بالقيام بحركة لعزله نسبة لأن ضعفه قد يشكل خطرا على حكم البيت السعودى.

أولى المشاكل التى واجهت الملك فيصل بعد توليه العرش هو المحاولات الانقلابية ضده والميدة لعبد الناصر ونهاية الحكم الهاشمى فى العراق. وكانت الإطاحة بالنظام الملكى القوى فى العراق. أحد أهداف السعودية إلا أنها لم تكن تريد استبدال ذلك بحكم ثورى. وقد انتظر فيصل أياما قبل الاعتراف بالنظام العراقى الجديد.

وبعد انهيار الوحدة المصرية السورية فى عام ١٩٦١ قام فيصل بتقديم مساعدات لسوريا بما أعاد توازن القوى لما كان عليه وواصلت السعودية دورها المعروف فى إبقاء العرب متقسمين.

كان البيت السعودى قد استعاد قوته ووحدته بعد عزل سعود، وكان فيصل سياسيا بارعا وأحسن البيت السعودى بالاطمئنان بعض الشئ. إلى أن انهارت الملكية فى اليمن فى عام ١٩٦٢- ولا يعرف إذا كان لعبد الناصر دور فى ذلك أم لا- وكان للملك فيصل تجربة بالعمل كرئيس وزراء ووزير للخارجية وولى للعهد وقد ساعده كل ذلك فى الإلمام بتضاريس الجزيرة العربية وبناسها أفضل من عبد الناصر. لذلك قرر القيام بمواجهة التحديات وحصل على دعم الرئيس كنيدي وقامت أمريكا بتقديم مناورات

مشاركة مع الجيش السعودي. واستقبل فيصل ملوك اليمن الفارين ودعمهم بالمال والعتاد ليبدؤا حرباً أهلية ضد النظام الجمهوري الموالي لعبد الناصر. وقام فيصل بشراء البدو اليمنيين ودفع لهم أموالاً كثيرة. وكان يعلم أن فشل عبد الناصر في اليمن يعني نهايته. واضطر عبد الناصر لإرسال قواته لليمن رغم أنه كان يحتاجها بشدة لمواجهته مع إسرائيل. وكان فيصل مطمئناً لخوض معركة لا يمكن أن يهزم فيها، فأمريكا كانت على استعداد للتدخل لصالحه. وبالرغم من أن كينيدي لم يكن معجباً بالملكية اليمنية وكان يبيل للنظام الجمهوري ويعتبره أكثر تحمضاً إلا أنه لم يكن له خيار سوى الوقوف مع السعودية حتى النهاية. وقد كانت حرباً بالوكالة فقد تحرك كينيدي لأن الاتحاد السوفيتي كان يدعم عبد الناصر.

وقد أحرز فيصل نجاحات شجعت على الاستمرار لكنه كان يعلم أن أمه ضعيف في مواجهة شعبية عبد الناصر العربية لذلك قرر أن يلعب بالورقة الإسلامية فقام بزيارات إلى إيران وشمال أفريقيا ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامي بمكة. وقد نتج عن المؤتمر إنشاء تجمع إسلامي تدعمه السعودية. وكان على رأس هذا التجمع الإخوان المسلمون الذين كانوا يعارضون عبد الناصر. وكان هذا المؤتمر يهدف إلى إحراج دعوة القومية العربية إذ كان يشير إلى أن هؤلاء «الذين يضعون دعاوى الإسلام تحت قناع القومية هم ألد أعداء العرب وأن مجدهم يتعارض مع مجد الإسلام» إذن استطاع بيت سعود دق أسفين بين العروبة والإسلام. ووافقت السعودية على هذا التوجه الإسلامي. وخرجت حملات علنية تتهم عبد الناصر بمعاداة الإسلام وتهاجم الاتحاد السوفيتي وقامت السعودية بتقديم مساعدات سخية للأردن لكسبه وتحرك فيصل لتوطيد صلاته بباكستان ووقع على اتفاقية عسكرية معها بإيعاز من أمريكا. وأخذ فيصل يبحث عن وسائل دعائية للوقوف في وجه أعلام عبد الناصر فوجد بغيته في بيروت التي كانت تشكل مركزاً عربياً هاماً. ويعتبر فيصل أول زعيم عربي يسعى لشراء الصحافة (انظر الفصل

وعلى الصعيد الداخلى قام فيصل بمساعدة أرامكو بتشجيع قيام مجموعات إسلامية مضادة للاشتراكية التى يتبناها عبد الناصر. وقد تركزت هذه المجموعات حول مركز النفط فى الظهران (و يوجد لدينا وثائق تؤكد أن الجماعات الإسلامية الموجودة الآن هى امتداد لنفس تلك المجموعات). ومن الواضح أن تحرك فيصل كان يهدف إلى إعطاء بلده وكذلك منطقة الشرق الأوسط مظهرا إسلاميا على حساب العروبة. وقد لجأ إلى المخابرات المركزية لتساعده فى وضع المخطط لإتمام ذلك وقد اعترف بذلك سيد قطب زعيم طائفة الإخوان المسلمين . وهو نفسه كان على اتصال بالملك فيصل الذى قدم له دعما ماليا للوقوف معه ضد عبد الناصر. إذن أمريكا كانت هى التى صنعت الإسلام فى المنطقة وأوجدت الجماعات الإسلامية فيها.

وفى أثناء ذلك تواصلت حرب اليمن وفشل الجيش المصرى فى التعمد على القتال فى مناطق جبلية وعرة كما لم يستطع مطاردة الأعداء إلى حدود السعودية. وقامت بريطانيا بدعم النظام العراقى الراديكالى لوقف المد العربى الناصرى حتى أن السير مايكل رايت سفير بريطانيا فى بغداد طلب من حكومته غض البصر عن قيام السلطات العراقية باعتقال بعض المواطنين البريطانيين. وبدأ عبد الناصر يواجه المتاعب ووجه فيصل نفعه وماله لحرب اليمن. بينما شتت عبد الناصر جهوده بالدخول فى معارك مع الأنظمة فى العراق والأردن والسودان إلى جانب مساعدة دول شمال أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسى. ولم يستطع الاتحاد السوفيتى مقابلة احتياجات عبد الناصر المادية ، كما أنه لم يكن يريد الدخول فى مواجهة مع أمريكا. وتزايدت الضغوط المادية والمعنوية على عبد الناصر واتهمه خصومه بأنه غر من ورق مما دفعه إلى الاستجابة لعقدة شحشون واللعب بالورقة العربية الأخيرة واتجه إلى مواجهة إسرائيل. فلما أن يكسب المواجهة وبالتالي رأى العام العربى وأما أن يهدم البيت على نفسه وعلى

جميع من حوله. ولم يكن عبد الناصر مستعدا للحرب، فمائة ألف جندي من جنوده ماصوا في مستنقع اليمن، وكان قد أسرَّ إلى الأمم المتحدة أنه لا يرغب في مواجهة علنية مع إسرائيل وكان العرب في كل مكان يطالبون بوقف الحرب في اليمن ليتفرغ عبد الناصر لإسرائيل وعرفت إسرائيل أن الوقت ليس في صالحها وأن تورط عبد الناصر في اليمن يتيح لها فرصة قد لا تتكرر فقامت في برنيه من عام ١٩٦٧ بمهاجمة مصر وسوريا والأردن، وهزمت الجيوش العربية في ستة أيام، واحتلت سيناء ومرتفعات الجولان والصفه الغربية من الأردن وقطاع غزة. وانهارت أعلام العرب وأصبح انتصار إسرائيل كاملا وكذلك انتصار فيصل. والتقى الزعماء العرب في مؤتمر الخرطوم وكان واضحا للغاية من هو المنتصر؟ وترك عبد الناصر اليمن وأمر الملك السابق سعود والمعارضة السعودية بترك القاهرة- كان الملك سعود قد انضم لعبد الناصر على أمل استعادة عرشه- وقام الملك فيصل بدفع مساعدات مالية لمصر. وأصبح الاستسلام كاملا.

ولم يعد الحال كما كان في عام ١٩٥٦ فأمرىكا وهى الوحيدة القادرة على الضغط على إسرائيل للتصاحب من الأراضي العربية المحتلة لم تكن بها رغبة لفعل ذلك، فعبد الناصر هو الذى طالب بتأميم النفط وهدد بذلك وضعها الاستراتيجى فى المنطقة. ولم يستطع عبد الناصر ادعاء النصر فى هذه المرة. وكانت هذه هى بداية النهاية لعصره. وابتسم الحظ لفيصل وقام رجل استرالى متعصب بإشعال النار فى المسجد الأقصى فى القدس فى عام ١٩٦٩ فاشتعلت مشاعر المسلمين والعرب وطرح السؤال عن نوعية الرد، وهل يكون عربيا أم إسلاميا فما كان من فيصل إلا أن دعا إلى أول مؤتمر للرؤساء المسلمين فى الرباط. وكانت الاستجابة عارمة وجاء الجميع إلى المؤتمر ماعدا سوريا والعراق. وخرج المؤتمر بتوصيات تدعو إلى التعاون السياسى والاقتصادى والتمسك بالحق الإسلامى فى القدس. وبدأت هيمنة فيصل الإسلامية وأعلن عن رغبته

فى أن يصل إلى قمة القادة فى القدس، وتحدث باستمرار عن حقوق المسلمين فى القدس ولم يقل الكثير عن حقوق العرب. ولكن يرضى الأمريكيين ويفهم منافسيه الموالين للاتحاد السوفيتى سارى الخطر الصهيونى بخطر الشيوعية ولعن الاثنين.

وجاءت الفرصة مرة أخرى لفصل ليعطى العالم الإسلامى أهمية على حساب العالم العربى، وذلك عندما اندلعت الحرب الأهلية فى الأردن بين الراديكاليين الفلسطينيين والجيش الملكى الأردنى فى عام ١٩٧٠. واستناداً إلى وثائق مؤكدة - حصلنا عليها من أحد أعوان الملك فيصل - فإنه قام ومباركة أمريكية بدعم الملك حسين وطلب من باكستان إرسال وحدات جوية لضرب الفلسطينيين والسوريين الذين يساعدونهم وانتصر حسين وطردت المقاومة الفلسطينية إلى لبنان وقضت السعودية بذلك على خطر ثورى آخر. فقمع عبد الناصر ومنظمة التحرير الفلسطينية جرد القضية من زخمها السياسى ووضع السعودية فى مركز الصدارة فى العالمين العربى والإسلامى، وأصبحت هى التى تملأ الأوامر. وتسببت وفاة عبد الناصر فى عام ١٩٧٢ فى فراغ سياسى لم تتحرك السعودية لملئه. فالسعودية لم يكن همها بعد زوال الخطر ملء أى منصب. فالزعامة تضع على كاهلها أعباء جديدة تفرض عليها تبنى التحديث والتطور وهو ما لم تكن تريده. واكتفت بالتظاهر بالزعامة بقدر ما يمنع الآخرين عن القيام بالدور. وبعد استخدامها الاختيارى للمال توصلت إلى قبول زعامة اختيارية لا تترب عليها مسئوليات وإذا قمنا بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على الموقف نجد أن السعودية ما زالت تظاهر حتى اليوم بالزعامة العربية الإسلامية. وينطبق هذا على سياساتها فى فلسطين ولبنان والجزائر والمغرب كما ينطبق على سياساتها إزاء الصراعات العراقية السورية. وبطريقة بالغة التعقيد ينطبق على قرار توقيع اتفاقيات كامب دافيد فى عام ١٩٧٨. وعلى نفس المبدأ جرى تطبيق ذلك فى المجال الإسلامى. ويمكن أن نلاحظه فى أفغانستان ودرجة أقل فى يوغندا والفلبين والسودان والقرن الأفريقى وبيافرا. وفى

كل الأحوال لم تكن السعودية تبحث عن سلطة وإنما تهدف إلى منع الآخرين من الوصول إليها. فقد كانت تعطى منظمة التحرير مبلغ ١٠٠ مليون دولار في العام لكي لا تلجأ إلى أحد غيرها. وفي نفس الوقت تتعامل مع الإرهابي أبو نضال لحفظ التوازن مع الرئيس عرفات. ولم تكتفِ لسبعة أهر نضال السنة. وفي لبنان أدعت القيام بوساطة للسلام بينما كانت تدعم الكتائب المسيحية. وتوسّطت لحل مشكلة المغرب والجزائر فقامت بدعم الملك الحسن. وتوسّطت بين العراق وسوريا وكانت تدعم سوريا. وأحست بخطر العتيد القذافي فدعمت معارضيهِ الإسلاميين. وهذه المحاولات السعودية المستمرة لتحقيق التوازن جعلها تتجاهل حقوق الأغلبية المسلمة في لبنان.

وعلى الصعيد الإسلامي فعلت نفس الشيء. فهي تدعم باكستان طالما أنها تسير في الخط السعودي. وعندما اعترض ذو الفقار على بروتو على هذا النهج حاولت الإطاحة به. ودعمت المتمردين المسلمين في الفلبين دون أن تعرف على ماذا أو على من يتمردون. ودعمت المجاهدين الأفغان لتظهر وقوفها مع الغرب ضد الاتحاد السوفيتي وحاولت تصوير الحرب الأهلية في أفغانستان على أنها معركة من أجل الإسلام. وفي القرن الاخرى دعمت سياد برى ضد أثيوبيا المسيحية بالرغم من التحذير العالمى بأن هذا الصراع قد يؤدى إلى اضطرابات وفوضى ومجاعة.

ومجمل القول أن السعودية دعمت تظاهرها بالزعامة بالمال، فالمال يطيل أمد المشكلة ولا يوجد سلطة بديلة كما أنه لا يجلب حلولاً نهائية. إذن السعودية تقوم باستئجار المشاكل أحياناً لصالحها وأحياناً لصالح الغرب أو الاثنين. فهي والغرب مثلاً يريدون كبح جماح عرفات دون أكتراث بما يمكن أن يحدث في حالة القضاء عليه وهم لا يعرفون كيف يستبدلون التفوق المسيحى في لبنان دون انشاء نظام معارض لهم وتأبيدهم لسوريا للوقوف في وجه العراق هو حل مؤجر قصير النفس لكنهم يبقونه. ولا يعرفون كيف يبقون الأقطار منقسمة دون خلق عدم استقرار يمكن أن يهددهم ويهدد.

إسرائيل والغرب. وأفغانستان تقف كدليل تقليدى كلاسيكى على صرف فلوس السعودية لحمة سياسات الغرب للحد من حركة الاتحاد السوفيتى واعطائها هى دور مسلم.

وتعتمد سياسة تأجير المشاكل على طول مدة العقد، وارتفاع أسعار الإيجار ورغبة الطرف المعنى في قبول العرض السعودى. والطبيعة المتغيرة للشرق الأوسط قد تجعل الإيجار يستمر لفترة قصيرة. كما أن معظم الذين تدفع لهم خصوصا اللبنانيين يطالبون بالمزيد من المال طول الوقت. لكن كل هذه الصعوبات لا تقارن بمشاكل رئيسية ثلاثة حدثت لها وهى قرار مصر بتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، وقيام الثورة الإسلامية الإيرانية والحرب العراقية الإيرانية إلى جانب هذه المشاكل فإن بعض المجموعات الإسلامية كانت تأخذ أموال السعودية ثم تنقلب عليها.

وقبل زيارة السادات إلى القدس كانت علاقته طيبة مع السعودية، وعلى عكس فاروق وعبد الناصر كان السادات سعيدا بالتنازل لها عن الدور القيادى والاكتفاء بعلاقة مسالمة معها. للدرجة أنه نسق مع الملك فيصل لحرب أكتوبر وأقنعه بإيقاف النفط عن الغرب (انظر الفصل السادس).

أحست كل من مصر والسعودية برغبة فى عمل شىء بخصوص هزيمة يونيو ١٩٦٧ لأن الجمالير كانت تغلى وتطالب بالانتقام لذلك اشتركتا فى التخطيط لحرب أكتوبر كمتنفس وكوسيلة لحث الغرب على حل المشكلة العربية الإسرائيلية المعلقة التى على وشك الانفجار. وقد نجح التعاون بين الاثنين كما أن حظر البترول وما أدى إليه من نقص فى البنزين وأنواع الوقود الأخرى أرسل قشعريرة فى الجسد السياسى للغرب مما دفعه للبحث عن حل للمشكلة الفلسطينية الدائمة.

كان السادات مصمما على المضى فى طريقه حتى النهاية بينما كانت السعودية تتحرك ببطء كعادتها. ولما ووجه بغضب السعودية لقراره بزيارة إسرائيل واصل الطريق

وحده لكن بعد أن استخدم رجل المخابرات السعودي كمال أدهم لينقل قراره تدريجياً إلى ولي العهد الأمير فهد. وكانت السعودية تريد أن تبدأ عملية سلام لكن دون تحميل عواقب. وقد اتسمت ردود فعل الحكومات والشعوب العربية بالغضب الشديد تجاه قرار السادات بزيارة إسرائيل وطالبوا بمعاينة مصر الخائنة، وبذلك ضيق الخناق على السعودية. فتأييدها للسادات سيفرح أمريكا لكنه قد يعنى قيام زعامة راديكالية فى المنطقة. ودارت مناقشات ساخنة فى البيت السعودي أعقبها سفر ولي العهد - المؤيد للسادات - إلى أسبانيا فى منفى اختياري قرر بعده معارضة السادات. وفى أثناء ذلك أعرب السعوديون عن رأيهم الشخصى للرئيس كارتر وتحركوا لاحتواء الموقف العربى القاضى بمعاينة مصر ورئيسها (فى هذا الوقت حاولوا رشوة والذى الصحفى لكى يكتب عن استمرارهم فى تأييد الغرب) وقد جاءت مقاطعة العرب لمصر بسيرة بعض الشئ. لكن قرار السعودية باتباعها يدل على وجود موافقة ضمنية بأن الوضع لم يعد كما كان فى الماضى، وأن هناك ضغوط داخلية وخارجية تقف فى طريق الانقياد الأعمى للغرب.

وعدم القدرة على التصرف هنا يظهر الحد الذى وصلت إليه سياسات استئجار الحلول. وأعقبت هذه المشكلة مشكلة أخرى أكثر خطورة جعلت البيت السعودى عاجزاً عن النفاق. فقد كانت إيران الشعبية قوية ومستقلة ومزودة للغرب تحت حكم الشاه. ولم يكن للسعودية أي نفوذ عليها ولما تفجرت الأحداث فى ١٩٧٩ ضد نظام الشاه قامت السعودية بمساندته ولكن عندما ظهر لهم مدى قوة حركة الخميني أخذوا يصنفون الحركة بأنها غير إسلامية. وحتى بعد الإطاحة بالشاه وقيام النظام الثورى الإسلامى بقيادة الخميني استمرت السعودية فى التحدث عن «الحكومة الشرعية فى إيران». كما أنها مولت محاولة هزيلة لخلع الخميني على غلط محاولة اغتيال عبد الناصر. ودفعت مبلغ عشرة مليون دولار كرشوة للكولونيل راند روكسى لتدبير انقلاب فى إيران. لكن

اتضح لها فيما بعد أن الثورة دائمة وأنها تقف بصلابة ضد الغرب والموالين له، وضد سياسة السعودية في خفض أسعار النفط وضد النظم الملكية في كل مكان. والأهم من ذلك أن السعودية تعطي اهتماما بالغا للأقلية الشيعية في السعودية.

وتشير جميع الدلائل إلى أن موقف إيران المسلمة موقف ثابت وأنها ترى الغرب واصدقاته كاعداء للإسلام وأنه لابد من وضع حد لسيطرتهم على الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. وهذا النداء الثوري يقف كهديل صحيح لموقف الملك فيصل تجاه الإسلام واستخدامه له كموازي تقليدي محافظ ومزيد للغرب ضد الأفكار الثورية المدنية. إذن فقد بدأت سياسات السعودية في الترنح. ولما لم يكن يوسعها التراجع أخذت تتنافس في إطار إسلامي مما أوجد صراعا دائما بين إسلام ثوري وإسلام تقليدي وكما فعل عبد الناصر في السابق محاول إيران الآن استخدام الشعب السعودي ضد الحكم السعودي، وتعاطف المسلمون غير الشيعة الذين تدعمهم السعودية- مع إيران ولم تكن انتفاضة مكة في عام ١٩٧٩ سوى استجابة لنجاح آيات الله في إيران ومحفيزهم للشعب السعودي.

لكن ضعف السعودية العسكرية وقيادتها للعالم الإسلامي منعها من القيام بعمل عسكري ضد بلد مسلم، لذلك اضطرت لتغيير اتجاهها لبعض الوقت والاختباء خلف هوية عربية.

يوجد عداة تاريخي معلن في القدم بين إيران والعراق وقد شجع الغرب هذا العداة في العصور الحديثة ليستطيع السيطرة على الشرق الأوسط عن طريق إضعاف الطرفين. وحرص على إبقاء الصراع مشتتلا بينهما لشغلها عن العمل ضد المصالح الاستراتيجية للعرب خصوصا البلاد المنتجة للنفط. وعند تسلم الخميني للسلطة كانت توجد بين العراق وإيران نزاعات حول الحدود والملاحاة تزايدت بسبب تركيز الخميني على الدين على حساب الهوية القومية. والمعروف أن العراق يحكمه حزب البعث

العربى الاشتراكى. ويرغم من أن الجانبين قد ضللا فإن المواجهة بينهما التى تحولت إلى حرب فيما بعد كانت حربا بين حكم دينى وحكم مدنى.

ساندت السعودية ومن ورائها أمريكا العراق وأغرته على خوض الحرب. ولما كانت غير قادرة على التورط العسكرى مع إيران فإزاء قامت بتشجيع وتحويل صدام حسين ليخوض الحرب نيابة عنها. وكانت المفاوضات بين السعودية وصدام لإيجاد وسيلة لمواجهة الخطر الإيرانى قد استمرت لمدة طويلة من الزمن حتى وقع الطرفان اتفاقية سرية فى عام ١٩٨٠ وافقت السعودية بموجبها على تمويل العراق بكل ما يريد ليتخذ الخطوات اللازمة لحماية شرفها القومى. ويقول بيير سالينجر كبير مراسلى شبكة ABC الأمريكية «أن السعودية وأمريكا أرادتا من صدام أن يهاجم إيران» وفى واقع الأمر فإنه قبل التوصل إلى الاتفاق العراقى السعودى فى عام ١٩٨٠ هدد زبيجنيو برزنييسكى مستشار كارتر للأمن القومى باستخدام القوة ضد إيران. ومع أن الولايات المتحدة قد حصلت على صور بالقمر الصناعى للاستعدادات العراقية الجارية لمهاجمة إيران إلا أنها لم تفعل شيئا لوقف انفجار الوضع. وكان الحل العراقى قد حظى منذ البداية بمباركة الولايات المتحدة وقد أكدّه أحد السفراء السابقين لأمريكا فى العراق ووزير خارجية سابق إلى جانب سعد الهازز- أحد مستشارى صدام ومؤلف كتاب «حرب العراق والحرب التالية» بقوله ولقد أخبرناهم بعزمنا على مهاجمة إيران، نعم إنهم يعلمون» وفى الشهر التالى قامت القوات والعربات المدرعة العراقية بالهجوم على إيران وهى تظن خطأ- أن هجومها على إيران سوف يفتتها، والذى حدث هو أنها توحدت خلف الحمينى ودفعت السعودية مبدئيا مبلغ ٤ مليار دولار وهذه هى حرب أخرى بالكافة، وهى مثال جيد لسياسة السعودية الاستشجارية، وتصدها لمواجهة إيران لصالح الغرب.

أدت المواجهة بين ثانى وثالث أكبر مصدرين للبترول إلى حدوث هجمات جوية على

معدات إنتاج النفط مما أدى إلى تدهور إنتاجه. وهذا يؤدي عادة إلى ارتفاع أسعاره. وذعرت أمريكا وهرعت لإنهاء الصراع لإبقاء أسعار النفط كما هي لكنها لم تتجعب وقامت السعودية على الفور بمضاعفة انتاجها للإبقاء على أسعار منخفضة للنفط لكي لا يؤدي ارتفاعه إلى إيقاف الحرب. وقد علق كينسجر على الوضع قائلاً: «من المؤسف أن أياً من الجانبين لا يمكنه أن يخسر» وهو نفس شعور السعوديين وفي عام ١٩٨٤ كان هناك خطر حقيقى من أن تنهار الخطوط العراقية تحت العنينة الهائلة للإيرانيين لدرجة أن صدام حسين أصيب بالذعر والتمس من السعودية تخفيض ضخ النفط لحد العالم على إنهاء الحرب. ورفض السعوديون ذلك ويقول سعد البزاز ولقد اتضح لنا أنهم يريدون استمرار الحرب، بأى شكل لكننا كنا نعتمد عليهم كثيراً فى المعونات المادية لدرجة لم تمكننا من الصراخ أو الشكوى. إنهم يتبعون سياسة أمريكية تهدف إلى إضعاف الجانبين».

وبالطبع فإن وضع العربى فى مواجهة المسلم وتحويل حرب وحشية لم يكن هو الحل المثالى للخلاص من الاثنين وأخذت السعودية تحس بالتورط كلما طال أمد الحرب. وفى عام ١٩٨١ قامت باتخاذ خطوة تحميها من عواقب هذه الحرب فى المستقبل فدعت إلى قيام مجلس للتعاون الخليجى يضم كل من الكويت وعمان وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة وكان المجلس يبدو فى الظاهر مجرد تجمع ضعيف لبلاد غنية لكنه كان يركز على شئون الأمن والدفاع وأدى قيامه إلى إضعاف الجامعة العربية الضعيفة أصلاً- ومنذ اللحظة الأولى لقيام المجلس ارتفعت أصوات سعودية خانقة تمحذ من الانتصار النهائي لأحد البلدين. وكان خوفهم من لجوء أحد الطرفين إلى أعمال دمار وتخريب فى دول مجلس التعاون أكثر من خوفهما من غزو عسكري مباشر وأنشأ المجلس قوات مكونة من ١٠٠.٠٠٠ شخص- وهو رقم كبير إذا علمنا أن مجموع أفراد القوات المسلحة فى هذه الدول مجتمعة يبلغ ١٣٧.٠٠٠ شخص إذن فالسعودية

مجلس التعاون الخليجي- ومع عدم رغبتها الدائمة فى الوحدة العربية- وجدت أنها مراجعة بأحد أمرين أما مساندة صبغة حكم فدرالى (وما يتبعها من أشكال أخرى للتعاون أقل من الفدرالية) أو اللجوء إلى سياسات تدعم الانقسام الدائم. وعلى الصعيد السياسى لم تكن سياستها تتميز بالصمم لقد قامت فى أعقاب الغزو الإسرائيلى لبيروت فى عام ١٩٨٢ بالتنسيق مع رونالد ريغان وليس مع ياسر عرفات المحاصر. ولم يهمها تهديد المدفعية والمدركات الإسرائيلية بتدمير بيروت والقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية. ومع نهاية حصار بيروت انتهت حقبة كانت العلاقات السعودية الأمريكية خلالها تزج تحت اعباء القومية العربية. كما أن رفض السعودية تقديم مساعدات للجامعة العربية فى بعض المناسبات كرس السياسة الانقسامية. وأصبحت السعودية تخلق الانقسامات وتشجعها وتحافظ عليها بطريقة متعددة بحيث تمس أكثر أنواع التعاون العربى براة. ومثال على ذلك رفضت السعودية المساهمة فى شراء قطع الغيار وأعمال الصيانة لمنظمة النقل الجوى العربية وكان بإمكان هذه المساهمة توفير قدر كبير من المال عليها وعلى البلاد المشتركة، وهذا بالطبع موقوف سياسى متعمد ضد ارتباطات اقتصادية عربية إلى جانب رغبة أفراد البيت السعودى فى تقاضى عمولات على مثل هذه الأعمال. وعلى الرغم من أن السعودية هى العضو المؤسس لعريسات وتلك ٢٦٪ من قيمة أسهمه الضخمة إلا أنها أمسكت عن تمويله عندما اتضح لها أنها لا تستطيع التحكم فى البرامج المراد بشها. ورفضت اقتراح للجامعة العربية لإنشاء محكمة عربية عليا لمعالجة المشاكل القانونية على ضوء الشريعة الإسلامية، كما أنها رفضت تبني تفسير عربى أشمل للشريعة يحل محل التفسير الوهابى الذى يقوم عليه القانون السعودى. ورفضت إعادة تشغيل خط الحجاز للسكك الحديدية الذى كان موجودا أيام لورانس العرب حتى لا يربطها اقتصاديا مع الأردن.

وهذه الأعمال السلبية بالطبع قصد منها تكريس الانقسام العربى مع إيقاف للتقدم السياسى. فقد عرقلت محاولات الكويت لتبنى نظام ديمقراطى وإقامة برلمان. ورفضت مرة الاشتراك فى مناقشات مجلس التعاون الخليجى إلا إذا قامت الكويت بتأجيل الانتخابات. وأجلت اشتراكها فى إنشاء الاتحاد الجمركى العربى حتى تستجيب الكويت لمطالبها. وهددت البحرين بإغلاق شريان الحياة الرئيسى فيها- وهو الطريق المعبد الذى يربط ما بين السعودية والبحرين- ومنع مئات الألوف من السعوديين من زيارة البحرين وذلك إذا ما عقدت انتخابات برلمانية. ووجه تحذير مائل للأردن لمنعها من إجراء الانتخابات. وعندما لم تستجب الأردن سعت السعودية الى تمويل ترشيح أعضاء يملكونها فى البرلمان الأردنى لكن الأموال لا تستطيع شراء كل شئ. وما هو البرلمان الأردنى يقع فى قبضة الأصوليين الإسلاميين المناوئين للسعودية، وفى السودان- التى تعتبر البوابة الافريقية للسعودية تعاني الحكومة الحالية من محاولات السعودية لخنقها اقتصاديا وإشاعة عدم الاستقرار فيها لأنها رفضت لعبه دور التابع ودعت إلى إسلام عسكري. ولم تكفى السعودية بقطع المساعدات الحبيوة عن السودان وإنما قامت بتزويد المتمردين بـ ٤٠٠ صاروخ من ماركة تاو وأسلحة أخرى . كما أنها تقوم بدعم حركات انفصالية أخرى وقامت بعدة محاولات لاغتيال الزعيم الدينى السودانى، حسن الترابى. وقد ساعدت سياسات السعودية فى السودان على إطالة أمد الحرب الأهلية وتعريض البلد للمجاعة أما اليمن ذو الكثافة السكانية العالية فإنه يمثل للسعودية البلد الوحيد الذى يمكنه منعها من السيطرة على شبه الجزيرة العربية لذلك فإنها دائما ماتقوم بإثارة القلاقل داخله، وتقوم السعودية برشوة القبائل اليمنية لعرقله الانتخابات ومنع وحدة اليمن. كما أنها تقوم بدعم حركة حضرموت الانفصالية وتستخدم وسائل إرهابية متطورة مثل إرسال القنابل بالبريد. وذهبت السعودية إلى أبعد من ذلك وأحييت النزاعات الحدودية القديمة مدعية أن اكتشافات اليمن البترولية قد قت

فى أراضى تابعة لها. وهددت علنا شركات النفط الأربعين العاملة فى اليمن بإجراءات اقتصادية ضد مصالحها فى السعودية. وفى عام ١٩٨٧ قامت بغارات جوية تسببت فى مقتل ٥٠٠ من اليمنيين والسعوديين وقد تقدمت اليمن بشكاوى ضد أعمال السعودية الإرهابية دون طائل.

فالولايات المتحدة وبريطانيا لاتريدان أن تسعنا عن أعمال إرهاب تدعمها السعودية ويقول الرئيس اليمنى على عبد الله صالح أن الهجمات الوحشية فى بلده كلها تتم بمعرفة العائلة المالكة. وإلى جانب إعاقة السعودية للتعاون العربى وإشاعة عدم الاستقرار فى البلاد التى تنهج نهجا ديمقراطيا فإنها تزيد من مساعداتها للدول ذات الأنظمة الاستبدادية. ففى السودان كانت تدعم نظام جعفر النميرى الفاسد وهى على علم بإدمانه للخمر والمخدرات. وقامت بتأييد السياسة السورية التقسيمية فى لبنان لكى تمنع قيام لبنان قد لا يكون مواليا لها وأصلحت من موقفها تجاه المعاهدة المصرية الاسرائيلية لكى تصنع ثقلا مضادا للعراق. وكلمة السر عند السعودية فهى ضد الديمقراطية وضد الحكومات التى تتمتع بالتأييد الشعبى وضد قيام سلطة إقليمية مؤثرة. وفى الواقع فإن سياسات السعودية الجديدة فى المنطقة ليست جديدة على الإطلاق وإنما هى تتبنى أساليب جديدة لمواقف ابن سعود القديمة المضادة للوحدة والتعاون والتقدم. ويدل الواقع على أن البيت السعودى عاجز عن اتباع أفكار إيجابية. وعلى الصعيد الإسلامى فإن هذه السلبية الفعالة تشكل خروجاً عن الخط القديم. وعيوب فهد فى القيادة تأتى مع ظهور إيران العسكرية وازدياد خطر الجماعات الإسلامية فى كل من مصر، ولبنان والجزائر والسودان وأفغانستان وهذا يعنى اختفاء السياسات السابقة التى تطلبت تأييد الإسلام على حساب القومية العربية. وسلوك فهد الشخصى وولاؤه الصريح لأمريكا جعله غير مقبول كزعيم إسلامى. ولأول مرة منذ قرون توجد حركة إسلامية ملتهبة تواجه الأنظمة الإسلامية التقليدية وتواجه الغرب فى

نفس الرتة. والسعودية الآن لاتدعم إلا الحركات الإسلامية الثانية التي لاتشكل تهديدا لأملها، لكنها تخشى الحركات القريبة التي دعمتها فيما مضى لتواجه بها أخطارا معينة. فهي تدعم حماس لتواجه بها الرئيس عرفات. وتدعم الحركات الإسلامية في تركيا لكي تخيف النظام وتدعم الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق وكذلك البرصة ركزاختسان. ومرة أخرى تؤكد سياسات استئجار لمشاكل فشلها فجبهة الانقاذ الجزائرية التي دعمت لمواجهة حكومة الجزائر الاشتراكية المعتدلة أصبحت تشكل قوة عسكرية هامة، وتعلن معارضتها الصريحة للسعودية، وتعتبر الأفكار السياسية السعودية أفكارا فاسدة. وفي مصر هدوت الجماعات الإسلامية الاستقرار وأضعفت السياحة. والسودان أصبحت خارج السيطرة السعودية والجماعات الإسلامية الباكستانية التي دعمتها السعودية من قبل تنمرد الآن عليها والجماعات الإسلامية عامة تؤيد حزب الله في الحجاز. وحركة حماس تعارض السعودية وتعارض محادثات السلام في الشرق الأوسط، وتلقى المساعدات من إيران. وأصبحت الأنظمة الإسلامية التقليدية قليلة العدد. والحركات الإسلامية التي أنشأتها أمريكا في السعودية في السابق تحولت إلى مجموعات عسكرية تعارض الحكم السعودي. وعلى عكس التحليلات الزائفة فإن الشعوب العربية التي أيدت فيما مضى عبد الناصر والقذافي وصادام حسين لم تنتهي وإنما مازالت موجودة وتعارض البيت السعودي بشدة وربما انتهجت منهجا إسلاميا لتحقيق أهدافها القديمة. والهوية الإسلامية التي طورها فيصل لمواجهة بها عبد الناصر ارتدت على أخيه. وأصبح التهديد الإسلامي الجديد أقوى خطرا من القومية العربية وأسر الإسلام خيال الناس داخل وخارج السعودية بشكل حاد تصعب مقاومته ولم يعد بإمكان حراس المقدسات الإسلامية ارتداء الهوية الإسلامية أو تحمل المسئوليات المرتبطة بها. والقومية العربية لاتستطيع الآن مواجهة المد الإسلامي. إذن أصبحت السعودية التي كانت تتظاهر

بالزعامة الإسلامية أسيرة لدى الإسلام، وإن كانت مستمرة في الظاهر عن طريق تصرفات صغيرة وهزيلة وعديمة الأثر. فهي تشجع المسلمين في الفلبين والصومال وكشمير وروسيا والصين على زيارة مكة وتبني المساجد في عواصم بعيدة، وتتبرع بالمال لصيانة قبة الصخرة في القدس، وتنضم إلى المسلمين في سب سلمان رشدي، لكنها لاتنقود. فقيادة المسلمين معناها زعامة مصر والباكستان واندونيسا وشمال أفريقيا. أى الانضمام إلى الإسلام الجديد، ومن ثم إضعاف علاقات السعودية بالغرب. والواهبيون المسلمون يتهمون البيت السعودي وشككون في قدرته على قيادة المسلمين.

والآن وفي أواخر عام ١٩٩٢ تبدو علاقات السعودية العربية والإسلامية فاشلة تماما. وبعارضها الأردن واليمن والعراق والسودان والجزائر وليبيا، ومصر وسوريا غير راضيتين وتطالبان بالمزيد من الدعم والمزيد من فرص العمل لمواطنيهما (انظر الفصل السادس) والكويت والبحرين لا يطبقان تدخل السعودية في شؤونهما والعلاقات بينهما يشوبها الفتور، وقطر لديها نزاعات حدودية مع السعودية. والشعوب العربية تظن أن حكم آل سعود فاسق وفساد، وليس للسعودية علاقة جيدة إلا مع الملك الحسن في المغرب- الذى لا يتمتع بأى جماهيرية- وبدأت عمان والإمارات العربية المتحدة في إظهار ضيقهما من تدخلات السعودية في شؤونهما وإملاء أوامرهما عليها ويقول أحد سفراء أمريكا السابقين «لا أحد من جيرانهم يحبهم» فليران تعارضهم وتركيا الديمقراطية تسخر منهم وأندونيسيا غاضبة على سياساتهم النفطية التى تقف مع المستهلك بدلا عن المنتج والمجاهدون الأفغان يضيئون من محاولاتهم المستمرة لشرائهم، وقد حدث هجوم مسلح على سفارتها في كابول في أكتوبر من عام ١٩٩٢.

وكما رأينا فإن عهد لايميل إلى السياسات طويلة الأمد وحتى إن كان كذلك فإن كسله يمنعه من متابعتها أو تطويرها. وإضافة إلى فشلها في السياسات الاستثنائية فإن السعودية تعاني الفشل في اتباع سياسات سلبية فعالة. وهذا الفشل المتكرر فى احتواء المخاطر الآتية من العالم العربى والإسلامى يدفعها أكثر فأكثر إلى الغرب مما يجعلنا نعيد النظر فى الزعم القائل بأن السعودية لم تستعمر فى يوم من الأيام.

الفصل السادس

صداقة وحشية

لم يكن قيام بيت سعود ممكناً بدون مساندة الغرب. ولولا هذه المساندة لاستطاع السعوديون أو الجيران أو الاثنان معا الإطاحة به. والغرب كان لديه دائما أسبابا للمحافظة على العرش السعودي.. واحتياج الغرب الدائم للنفط سوف يحافظ على استمرار تأييده للبيت السعودي خلال المستقبل القريب، ومع هذا فإن فشل أمريكا في المحافظة على عرش الشاه من قبل يشكك في إمكانية ضمانها لاستمرار البيت السعودي مع كل الأخطار المحدقة به. وأمريكا لم تأت بابتكار يعوضها عن سياسة «العزيت الذي تعرفه، أفضل». أي بدبل يضمن تدفق النفط وينتج نهجا ديمقراطيا.. وفى هذه الأثناء تغدو كل التهديدات أكثر قوة لأن بيت سعود استمرأ مساندة أمريكا له وواصل تجاهله لحقوق مواطنيه وانصرفه عن الإنصات لمطالب مواطنيه ألْب معارضيه ضد أمريكا، وشكك فى قدرة أمريكا على إدامة هذا الوجود والتحالف القائم بين أمريكا وبين بيت سعود جعلها تبدو وكأنها توافق على الأنشطة الفاسدة لسكان هذا البيت.

كانت بريطانيا هي التي صنعت ابن سعود فى الماضى وجاءت أمريكا فى الأربعينيات لتحل محلها وركزت على حماية هذا البلد الغنى من التهديدات الداخلية والخارجية وكانت النتيجة واحدة: وهى حماية بيت سعود، طول الوقت وبأى شكل.

بريطانيا تعاملت مع المسألة بحدة أقل واستندت إلى مبدأ استعماري قديم يعتمد على استغلال بلدان الشرق الأوسط من خلال زعماتهم، وخططت لتصبح السعودية وإيران والعراق هي محاور السلطة الرئيسية الثلاثة فى شبه الجزيرة العربية ومنطقة

الخليج، وجعلت عروشها معتمدة على الدعم البريطاني، وهى إذا شئت جعلتهم ضعفاء ومتفرقين وإذا شئت وجهتهم إلى اتخاذ سياسات داخلية مناسبة من أجل حمايتهم ضد حركات التمرد الداخلية أما أمريكا فقد تصادف وصولها إلى المنطقة مع ظهور بعض المشاكل واكتشاف النفط والتوقعات بالاعتماد المتزايد عليه معناه أنها جاءت إلى الشرق الأوسط لتبقى .. لكن توجهها التجارى أعاق تدخلها فى إدارة المنطقة بطريقة أكثر عمقا مثلما كانت تفعل بريطانيا. وارتباط أمريكا المبنى على وجود النفط لا يسمح لها بالاستماع إلى شكاوى المواطنين الذين بدأوا يتضايقون من سلوك حكامهم ، وهى لم تكن تتوقع حدوث الحرب الباردة وتهديداتها أو غو المشكلة الفلسطينية وتعقيداتها. كل هذه العوامل تفاعلت وانتجت مشاكل رئيسية تطورت فيما بعد وسببت حالة من عدم الاستقرار فى المنطقة. فعبد الناصر مثلا صعد للسلطة بباركة أمريكا، إن لم يكن بدعنها المباشر لكنه حاول تصدير ثورته وبالتالي هدد مصالح أمريكا النفطية وانتهى تعاونهما القصير بعد أن وقفت أمريكا ضد طموحاته فى القومية العربية وأيدت إسرائيل. واتجه هو إلى طلب المساعدة من الاتحاد السوفيتى. وفى نفس الوقت تسببت أموال النفط فى ارتفاع المستوى التعليمى للفرد فى السعودية مما أدى إلى رفض الناس للسياسات الاستبدادية لآل سعود وحليفهم الرئيسية أمريكا. ولكن أمريكا بسبب تاريخها غير الاستعماري وعدم رغبتها فى التصدى للمشاكل الداخلية للسعودية تسببت فى حدوث مواجهة بين آل سعود وحركة عبد الناصر القومية. وكانت أمريكا وقتها لاتنصح البيت السعودى فيما يختص بالشؤون الداخلية، كما أن انشغالها بحماية المصالح النفطية جعلها تصاند السعودية دون أن تنقدها أو توجهها. ورفض أمريكا البدئى حينئذ لتبنى شؤون السعودية بشكل مباشر جعلها تعتمد إلى حد كبير على من فى السلطة وهم آل سعود. وأدى تعقد الموقف فى الشرق الأوسط إلى تخوف أمريكا من التورط المباشر مما جعلها تلجأ إلى إدارة المنطقة عن طريق النواب.

وكان هؤلاء النواب يكلفون بمعالجة مشاكل معينها أو الاهتمام بمناطق جغرافية معينها وكانت إسرائيل الديمقراطية تفرض أحيانا لتحقيق توازن ضد البلاد العربية الموالية لروسيا. وفي أحيان أخرى تفرض إيران الملكية للء فراغ إقليمي ما، خاصة وإن انسحاب بريطانيا من منطقة الخليج جعل المشيخات الصغيرة فى حاجة للحماية والآن وفى العصر الحالى تم تفويض السعودية على قطاع عربى وإسلامى عريض.

وجد الناس فى الشرق الأوسط أن السعودية غير مناسبة للزعامة الإقليمية كما أن وزيها العسكرية لا يؤهلها للدور بتاتا. لكن بيت سعود استخدم أموال النفط للظهور بالقيام بدور الزعيم أو «الشريف الأمريكى» وحول هذا الدور إلى أداة لإبقاء العائلة والمحافظة عليها. وبذلك أصبحت المصلحة متبادلة فأمريكا ترغب فى حماية النفط وآل سعود يرغبون فى إطالة حكمهم وبالتالي أصبح الهدفان هدفا واحدا. غير أن هناك مشكلة أخرى وهى أن إسرائيل التى كانت مناسبة لمواجهة الخطر السوفيتى إبان فترة الحرب الباردة أصبحت غير مقبولة الآن لأن وجودها قد يعزل العرب ويفسد المحاولات لحل المشكلة الفلسطينية. ويرى الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون أن السعودية وإيران هما العمودان الأساسيان للحفاظ على استقرار الخليج، لكن إيران أصبحت الآن أصولية ومضادة لأمريكا والعراق عصبى وخطر، ومصر فقيرة ولا تستطيع القيادة. إذن فالسعودية هى المفوض الوحيد بسبب عدم أهلية الآخرين. وإذا أخذنا فى الاعتبار الهواجس التى تساور أمريكا فى بعض الأحيان حول تخلف الوسائل السعودية ورجعية تفكير أفراد الأسرة المالكة يتبين لنا أن الوحش الذى تبتته بريطانيا فى الماضى أصبح مصدر إخراج لأمريكا الآن.

وتستمر السعودية فى سياساتها البالية لشراء ولاء أمريكا سواء بطريق مباشر أو غير مباشر. والوسيلة المباشرة هى إبقاء الأسعار متدنية أما غير المباشرة فهى دفع مساعدات مشروطة لبلاد عربية وإسلامية لمنعها من معاداة أمريكا. وقد تضاعف الدفع لأمريكا.

بدرجة أثرت على سياساتها الخارجية. ومحت إدارة الرئيس ريجان قامت السعودية بتحويل نشاطات سرية وغير قانونية للإدارة الأمريكية ودفعت معونات للكونتريا في أمريكا الوسطى وحركة يونيتا في إيجولا وقدمت دعماً عسكرياً غير مباشر لسياد برى وأرسلت نفطاً لجنوب أفريقيا. وهذه المواقف بالطبع ليس لها تأثير على المصالح القومية للسعودية وإنما هي مجرد رشاش. إذن فإن نائب الشريف قد أفسد الشريف، وتواصلت العلاقات الوحشية بين أمريكا وبيت سعود دون عوائق لعدم وجود تعهدات جادة ومعارضة داخل السعودية. كما أن الكونغرس وباقي بلدان أوروبا لم تعترض على شيء، ومن ناحية ثانية قماي أفراد البيت السعودي في النشاطات المريبة ومثال على ذلك فضائح لوكهيد وبنك الاعتماد والتجارة الخارجية. وأثر كل ذلك على صورة العرب في الغرب. أي أن هذه الصداقة التي اعتمدت على تجاهل الغرب للفساد الرسمي السعودي شجعت السعوديين على التماهي في تصرفاتهم على حساب سمعة العرب. ورغم حدوث تغييرات اجتماعية وتحديث سياسي في السعودية وفي باقي المنطقة إلا أن بريطانيا وأمريكا استمرت في حماية مصالحهما دون الالتفات لشيء. وقد خدم هذا الوضع بيت سعود وأكد على استمراره في بعض السياسات الثابتة ومنها:-

* إنه لن يشارك في تكريس حقوق العرب أو المسلمين على حساب مصالح الغرب خشية أن يضعف اعتماد الغرب غير العادي عليه.

* لجوؤه إلى سياسات قمعية وتقسيمية في المحيط العربي والإسلامي في حالة حدوث ضغوط داخلية وإقليمية عليه.

* الاستمرار في تقديم الخدمات السرية للإدارة الأمريكية لحشها على تجاهل سياساته القمعية والتقسيمية.

كان ابن سعود يبحث عن دعم خارجي قبل أن تتبناه بريطانيا في عام ١٩٠١، لذلك كتب إلى السلطان التركي يخبره بأنه «يقبل أي شروط تفرض عليه من قبل السلطان»

وعندما رفضه الأتراك قدم نفسه لبريطانيا ليصبح تابعاً لها وكتب إليها يقول «نحن مستعدون أن نصبح تحت رعايتكم، ونرجو فقط أن تنظروا إلينا بعين العطف» وقد قدم هذا الالتئاس إلى س. أ. كسبول المسؤول البريطاني في الخليج في الفترة من عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٠٤، وكان جاكوب جريندبيرج أحد المسؤولين البريطانيين يؤمن بأهمية دور الزعماء المحليين ويقول «أن هؤلاء الناس لهم دور سياسي وديني واستراتيجي بالغ الأهمية». وإذا أردنا التأكد من التعاون بين ابن سعود والبريطانيين فيمكننا تأمل الصورة الفوتوغرافية التي تضم ابن سعود وسير بيرس كوكس عند توقيع اتفاقية داوياً في عام ١٩١٥. وقد اعتبر ابن سعود وقتها مجرد وصى على محمية وفي الصورة يقف الاثنان أمام خيمة في الصحراء ويرتدي سير بيرس كوكس قبعة وملابس بريطانية مخصصة للمناسبات الرسمية. ويجلس كلاهما على كرسي ولا يبدو الارتياح على ابن سعود. وفي الواقع فإن البريطانيين برغم دعمهم المستمر له إلا أنهم جعلوه يحس بعدم الارتياح بشتى الوسائل. منها الضغط الذي كانوا يفرضونه عليه لوقف الغزو. ورغبتهم في إنهاء الرق ومطالبته بالانتقال من شرع الوهابيين إلى وضع قوانين للدولة، وهم بصفة عامة كانوا يحسون بأنه يحتاجهم أكثر مما هم يحتاجونه، وهم لديهم بدائل وهو ليس لديه شيء. أما الصور التي تجمع بين ابن سعود والأمريكيين فتظهر الفرق بينهم وبين البريطانيين كما تظهر ارتياح ابن سعود في صحبتهم. وفي الصور التي أخذت في عام ١٩٤٢ يظهر رجال النفط الأمريكيين وهم يرتدون ملابس عربية كاملة (على طريقة هوليدو) وبيتسمون كالنجوم. وربما كانوا يقومون بتمثيل دور أمام هؤلاء الشيوخ المحليين. لكن هذه الصور الفوتوغرافية المأخوذة خلال الثلاثينيات تحكي قصة أخرى أكثر عمقا لأن هؤلاء الرجال يمثلون الوجود الأمريكي الجديد في السعودية. فشارلس كرين، رجل الأعمال ورجل النفط المعروف والمنقب كارل تويتشل ورجل النفط لويد هامبتون وصلوا ضمن الفوج الأمريكي الأول في عام ١٩٣٣ وقبل وقت طويل من

وسجل البعثة الدبلوماسية الرسمية. وكانت البعثة الدبلوماسية في القاهرة هي التي تدير الشؤون الأمريكية في السعودية لمدة عشر سنوات.

وفي الماضي جاء العمل البريطاني إلى المنطقة بعد مجيء الاستعمار أما في حالة أمريكا فإن شركات النفط الأمريكية هي التي حثت وزارة الخارجية الأمريكية على الدخول إلى المنطقة. ونتيجة لذلك ترأس جيمس مور في عام ١٩٤٢ أول بعثة دبلوماسية أمريكية إلى المنطقة (والقريب في الأمر أن الاتحاد السوفيتي كان يعترف بالسعودية منذ عام ١٩٢٦ لكنها كانت علاقة قصيرة إذ قام ابن سعود بطردهم عندما اكتشف عجزهم عن إمداده بالمال). واتباع السياسيون الأمريكيون ورجال الدولة نفس أسلوب من سبقوهم من رجال النفط الذين كانوا يحاولون كسب رضا الزعماء المحلي وهذا هو السبب في أن الرئيس روزفلت لم يدخن في حضور ابن سعود عندما التقى به في عام ١٩٥٤، بينما رفض تشرشل ذلك. فالأمريكيون لم يكن لهم خبرة في التعامل مع الزعماء المحليين من أمثال ابن سعود. وقد كانت الارتباطات التجارية هي التي تحدد سلوكهم. وكان الأمريكيون حتى الخمسينيات لا يهتمون بالأمان لوجود البريطانيين، ويتشككون في نواياهم، كما أنهم كانوا يخشون أن يتحول ميل السعوديين إلى بريطانيا وفرنسا ويمنعونها من التنقيب عن النفط.

أما العلاقة بين الحكومة الأمريكية وشركات النفط الأمريكية فقد كانت جيدة وحيدة خلال الأربعينيات وتحول بعض الدبلوماسيين إلى رجال نفط وكذلك العكس. فشلا كان «تري دبوس» رئيس إرامكو أحد الرسميين في الحكومة الأمريكية. واستقال الوزير الأمريكي ويليام إدي من عمله وأصبح مستشارا لإرامكو. وأحس وزير الحرية هنري ستيمون أن مهنة النفط أهم من أن تترك للقطاع الخاص وحده. وكتب مجلة تايم تقول «أن المستقبل مرتبط بتنظيم هذا الاحتياطي النفطي الضخم، وهو أمر صميم وجوهري بالنسبة للموقف القومي ونتائج لا يمكن التكهّن بها».

زادت الحرب الباردة والمشكلة الفلسطينية من الأهمية الاستراتيجية للسعودية. وقامت الحكومة الأمريكية بناء على إلحاح رجال النفط بتعديل القانون لوضع ابن سعود في برامج القروض. وكانت هذه الشركات لم تنتج نفطا كثيرا بعد وما تزال خائفة من عدم الاستقرار في السعودية ومع ذلك أحست بأهمية أن تكسب ابن سعود إلى صفها، فقامت بإعطائه منحة في الوقت الذي عجزت فيه بريطانيا عن ذلك ودفعت مبلغ عشرة ملايين دولار لبناء قاعدة جوية في الظهران على الرغم من عدم وضوح أهميتها آنذاك.، وألغيت العقود الخاصة باتفاقية الخط الأحمر التي كانت تحكم اقتسام عقود التنقيب بين الشركات العالمية. وبدأ الأمريكيون يتغلغلون شيئا فشيئا في السعودية، ولما أحسوا أن المساعدة الرسمية الأمريكية ليست كافية لإرضاء ابن سعود قامت شركات النفط الأمريكية في عام ١٩٤٢ بمنحه قرضا قدره ٢٩٢ مليون دولار أنفقت منها الأسرة المالكة على الفور ١٩٠ مليوناً، وقام ابن سعود باقتراض المزيد من المال من الأمريكيين مقابل تسهيلات ملكية مستقبلية لشركات النفط. ولم يكن باستطاعة بريطانيا مجاراة الإنفاق الأمريكي في السعودية كما أن اشتراكها في ذلك يضعها في موضع الموافق على التصرفات المستهتره لابن سعود وصرفه المسرف للأموال. وحاولت بريطانيا الاحتجاج والضغط على أمريكا لمطالبة ابن سعود بإجراء إصلاحات في البلد بدلا عن صرف الأموال على نفسه وعائلته لدرجة أن جلوب باشا لام أمريكا على وقوفها موقف المتفرج إزاء تصرفات ابن سعود. وصدرت نفس الشكوى من س. غوردون الوزير لبريطاني في جده الذي انتقد ابن سعود في وجهه لكن أمريكا رفضت احتجاجات البريطانيين واتهمتهم بالفيرة وقامت بتوبيخ غوردون. ولم يكن بإمكان بريطانيا قبول أوامر ابن سعود وقيامه باستلاف أموال ضخمة وبعض التصرفات الصبيانية الأخرى مثل إصراره على أن تقوم أمريكا بالقاء قنبلة على الاتحاد السوفيتي.

فى هذه الفترة طفت بضعة أشياء على الساحة الدولية منها اشتداد الحرب الباردة والاحتياج للنفط لإتعاش أوروبا ما بعد الحرب .سعى الجميع لكسب المال واعتبار النفط السعودى كمصلحة قومية للولايات المتحدة .فى نفس الوقت واصلت أمريكا دعمها لابن سعود وحرصت على إرضائه، وهو أيضا حازل ارضاها لكن دون أن يكون مضطرا لإعلان تأييده لإسرائيل بطريقة صريحة . فهو يريد ارضاء أمريكا دون أن يثير العرب ضده . وفى عام ١٩٤٨ قام الرئيس ترومان بالاعتراف الفورى بإسرائيل لأنه كان يخوض الانتخابات الرئاسية ويحتاج لأصوات اليهود لكن صداقة ابن سعود مع الرئيس ترومان لم تتأثر بذلك، وعندما طالبه وفد الجامعة العربية باستخدام النفط للضغط على أمريكا لتغيير موقفها من إسرائيل رد مندهشا «وما علاقة السياسة بالنفط؟».

واستمرت علاقة الصداقة بين أمريكا وابن سعود وقد اعطته هذه الصداقة موقعا إقليميا متميزا وحرية فى التصرف مع مواطنيه إلى جانب تحكمه فى الثروة، وقد أدت المساندة الدبلوماسية والمادية الأمريكية لابن سعود إلى إيجاد وضع مثالى لاقى قبولا لدى ابن سعود وهو وضعه كصاحب للكنز. وقد ساعده فى ذلك أن النفط لا يحتاج إلى جهد ومشقة لصنعه وإنما هو موجود ويحتاج فقط إلى من يخرججه . وحتى تكاليف الإخراج هو ليس مستولا عنها. وبذلك تمكن ابن سعود من السيطرة التامة على النفط ووجهه لخدمة اغراضه. وأصبح ولاؤه الوحيد موجه للممول وهى أمريكا. أى أن ابن سعود أصبح زعيما للدولة يقوم بتأجيرها للأمريكيين. وما أن فكرة الدولة المؤجرة لم تكن مقبولة لمواطنيه أو للعرب والمسلمين. فقد لجأ إلى التعامل السرى مع أمريكا بينما كان ينتقدها فى العلن، لكن هذا الاسترضاء للعرب والمواطنين السعوديين يسهل فهمه من جانب الإدارة الأمريكية ولكنه ليس مفهوما للكونغرس والصحافة واللىوى اليهودى لذلك لجأ كل من الجانب السعودى والإدارة الأمريكية الى تبنى سياستين علنية وسرية. وأصبح الجانبان يتبعان سياسات متناقضة.

ويقول والترينكاس الصحفي الأمريكي وصاحب الفيلم التسجيلي «الملف السري» أنه توجد اتفاقية سرية بين السعودية والولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٧ (ونفس هذه الاتفاقيات تم عقدها مع الجنرال الأسباني فرانكو). وفي خطوة أخرى أخذت الإدارة الأمريكية تكلف شركات النفط بالقيام ببعض العمليات مع السعودية في محاولة لتطويق الكونغرس والصحافة واللوبي اليهودي. والغريب أن الكونغرس لم يحاول التعمق في علاقة السعودية بالإدارة الأمريكية وإنما اكتفى بلوم شركات النفط على الدور الذي تقوم به، ومن المعروف أن هذه الشركات ليست مسؤولة أمام الكونغرس ولا يحق له رسمياً مساءلتها. وقامت الإدارة الأمريكية في عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨ بالضغط على أرامكو لتوسع القسم الحكومي بها وقامت بتعيين عدد من الدبلوماسيين وعملاء المخابرات المركزية الأمريكية كموظفين بشركة أرامكو ومنهم النذر، اليرت، وباراكس وديوس ودافيس وتونبرج، وفي خريف عام ١٩٥٠ قام مجموعة من الدبلوماسيين ورجال النفط بتطويق الكونغرس وبعث اتفاقية ١٩٦٨ الخاصة بالضرائب واستخدموها لإعفاء المال الذي يدفع لابن سعود من الضرائب الأمريكية. وقد أدى هذا العمل إلى ارتفاع أموال النفط وارتفاع قيمة المبلغ الذي يدفع لابن سعود. وبذلك زيد الثمن الذي يدفع لابن سعود لمواصلة الأمريكان لكي يتماشى مع احتياجاته المالية الباهظة وأصبح بإمكان شركات النفط إعطائه إعانات مباشرة ودون أن تضطر للرجوع للكونغرس. وتوفي ابن سعود وهو يرتع في نعيم الولاء لأمريكا.

كانت فكرة ويليام إدي لإدخال السعادة إلى نفوس السعوديين ذات شقين الأول هو التهديد القوي بإسرائيل والثاني جمع نوادر جعاً. ورغم طرافة الفكرة إلا أنها تلخص سياسة أمريكا ذات الطبيعة المتناقضة التي تضمن تدفق النفط السعودي من ناحية والاحتفاظ بدعم إسرائيل من ناحية أخرى ولكي توفق بين الأمرين فإنها كانت مثلاً تسمح لضباطها بنقد إسرائيل وفي نفس الوقت تظمتنها على دعمها الكامل لها. أما

الوجود الأمريكي في الخمسينيات فقد تنامي عن طريق زيادة انتاج النفط وتوسيع قنصة الظهران الجوية وبناء خط الأنابيب (تاهلاين) الذي يمر عبر الأردن وسوريا حتى ميناء صيدا اللبناني مؤكدا بذلك نفوذ السعودية الاقتصادي، وأصبح السعوديون يملكون ما يكفي من المال للاستخدام الاقليمي ، وتبع الوجود العسكري في الظهران زيادة في أنشطة المخابرات المركزية الأمريكية التي استخدمت شركة التاهلاين وجمعية الأصدقاء الأمريكيين للشرق الأوسط، وهذه الجمعية الأخيرة كانت تتكون من موظفين كبار مثل كيم روزفلت وهاري كيرن اللذان كانا يزوران السعودية باستمرار وينصحان الملك في كل شيء ابتداء من مبيدات الحشرات إلى شركة العلاقات العامة المثلى التي يحتاجها الملك. وكانوا يكسبون رضا الملك ويروضون غروره عن طريق إرسال شخصيات بارزة مثل روبرت اندرسون احد اصدقاء ايزنهاور المقربين، وفي هذا الوقت بدأت أمريكا تمويل الطلاب السعوديين للالتحاق بالجامعات الأمريكية وكانت تظن أنها بذلك تحولهم إلى أناس موالين لأمريكا ونسيت أن مثل هذا التصرف يهدد مصالحها هي في الأساس لأن المتعلمين غالبا ما يميلون إلى الاستقلال بتفكيرهم. وقد اشتهر وزير النفط السعودي الأسبق عبد الله التريكي، بمعارضته لأمريكا على الرغم من أنه درس هناك وتزوج من امرأة أمريكية ، كما أن معظم الذين حاولوا الإطاحة بالحكومة السعودية في الستينات والسبعينات كانوا من الطلاب أو الضباط الذين درسوا في أمريكا، ولم تضع أمريكا في حسابها الطبيعة المتغيرة للشرق الأوسط أو شخصية الملك سعود مما سبب لها مشاكل جمة في الفترة من عام ١٩٥٣ وحتى عام ١٩٥٧.

زاد وجود الأخوين جون فوستر دالاس ووزير الخارجية والي دالاس رئيس المخابرات المركزية من فرص استخدام رجال النفط وعملاء المخابرات كدبلوماسيين متخفين، والمعروف أن رجال النفط وعملاء المخابرات ينطلقون من مبدأين الأول أن السعودية محصنة ضد الحركات الشعبية الإقليمية والثانية أن الملك سعود قادر على الحفاظ على

السعودية شأى عن المشاكل كما كان الحال مع والده. والحقيقة أن سعود كان يميل بفضنه إلى العروبة وكان ينظر إلى عبد الناصر كما لـ كان صلاح الدين الجديد وتصوره بساجدة أنه يمكنه أن يسير تحت راية عبد الناصر دون أن يهدد مكانة البيت السعودي أو مصادر دخله. فسعود كان يدويا قحا يعوزه الدهاء وقد تصور أن انشاء آل سنتو الذى قومه بريطانيا يضم تركيا وإيران وباكستان والعراق الهاشمى مصدر خطر له لأنه يضم بعض اعضاء بيت سعود التقليديين. وفى عام ١٩٥٥ دعا سعود ٢٠٠ عسكريا مصرية لتدريب الجيش السعودى وفى العام التالى كون مع مصر وسوريا حلفا مناونا لحلف «سنتو» ووصل آلاف المدرسين والمهندسين المصريين إلى المملكة. وأصبح للصحف المصرية جماهيرية كبيرة. وأصبح تأييد البلد لعبد الناصر قويا لدرجة أن عبد الناصر استقبل استقبالا كبيرا فى عام ١٩٥٦ عند زيارته للرياض. ولم ينزعج سعود من ذلك لكن أمريكا انزعجت، ودق اصدقاؤه فى المنطقة جرس الإنذار وكان على رأسهم نوري السعيد العراقى وكميل شمعون اللبناى ، وأيدهم المكتب البريطانى للشئون الخارجية، وكان كميل شمعون حادا تجاه سياسات عبد الناصر لدرجة أنه بدأ فى التعامل مع المخابرات المركزية الأمريكية لمواجهة. وكان سبب الخلاف بين بريطانيا والأمريكيين والحكام العرب المعارضين لعبد الناصر هو أن هؤلاء قد لاموا أمريكا على أنها هى التى ساعدت عبد الناصر على الوصول إلى السلطة، ورد بعض رجال المخابرات هذه التهمة ومنهم كيم روزفلت وجيم ايشلبرج ومايلز كويلاند واكدوا على أن عبد الناصر فى الأصل رجلهم وأن تصرفاته الثورية وغزله مع الروس أمور يمكن السيطرة عليها. وحدث خلاف داخل المخابرات المركزية الأمريكية. ووقفت مجموعة أخرى يرأسها ويليام كرين ايفلاند الى جانب نوري السعيد وكميل شمعون والملك حسين ودعت إلى التعاون مع هؤلاء الذين يؤيدون أمريكا بوضوح، بينما كانت المجموعة الأخرى التى ذكرناها ترى أن قائد عربى ذو جماهيرية هو الوحيد القادر على صنع سلام مع إسرائيل. ودخلت

الصحافة إلى مسرح الأحداث وقاد جرن ماكلين مراسل مجلة «تايم» المجموعة المؤيدة لروزفلت وقاد سام بوب مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» مجموعة ابنلاند وكان الاثنان يعارضان جون فوستر دلاس وزير الخارجية الذي اشتهر بمعارضته لروسيا، وقيامه بقراءة نصوص من الإنجيل قبل الالتقاء بوزير الخارجية السوفيتي. والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة الآن هو لماذا قبل الاخوان دالاس الأخذ بآراء مؤيدي عبد الناصر على الرغم من سلوكه المعادي؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي معرفة بعض المعلومات الهامة عن كل من كيم روزفلت وكوبلاند وايشلبرج. فالأول ساعد على بقاء عرش الشاه في إيران (الثاني كان على معرفة وثيقة بعبد الناصر قبل الإطاحة بعرش فاروق والثالث هو جاسوس مشفق رقيق المستوى وله انجازات هامة). والثلاثة كانوا يرون أن عزل عبد الناصر سيؤدي إلى اقترابه من الروس. وهو ما كانوا يخشونه. وفي مطلع عام ١٩٥٦ ينس الأمريكيون من كبح جماح عبد الناصر. ولم تسفر لقاءاته السرية المتعددة مع عملاء المخابرات عن شيء. كما أصبح عداؤه لأمريكا معنًا ونتيجة لذلك كسبت المجموعة المضادة لعبد الناصر تأييد ارامكو والتايلانين، وقد كان العاملون بهذين المرفقين يقفون ضد عبد الناصر وقد عارضوا أيضا سياسة الملك سعود التي كانت ترمي إلى فك احتكار ارامكو لتصدير النفط (انظر الفصل العاشر). إذن غيرت أمريكا اتجاهها في ليلة واحدة وقررت مواجهة عبد الناصر في المكان الوحيد الهام وهو السعودية. وسحبت عرضها بشمول مشروع خزان أسوان، وطلبت من الملك سعود التخلي عن تأييد عبد الناصر.

لكن عبد الناصر رد على موقف أمريكا بتأميم قناة السويس وهو ما أدى في عام ١٩٥٦ إلى الغزو البريطاني الفرنسي الإسرائيلي لمصر أو ما يسمى العدوان الثلاثي.. ووجد الأمريكيون وكذلك الملك سعود أنفسهم في مأزق لم يستعدوا له. وقام سعود بمساعدة عبد الناصر سرا. وقامت أمريكا بإدانة العدوان الثلاثي في الوقت الذي كانت

تخطط فيه لتطويق عبد الناصر والحلول محل بريطانيا وفرنسا وبالفعل جاء إعلان إيزنهاور. وقد سلكت أمريكا هذا المسلك لحماية البلاد الصديقة ضد التهديد الشيوعي وفي هذه الحالة تمثل في عبد الناصر حليف روسيا.

وفي عام ١٩٥٧ ذهب الملك سعود إلى أمريكا والتقى بإيزنهاور وأعلن عن قبوله بإعلان إيزنهاور. وأكدت الأكاديمية التي سفت رحلة سعود إلى أمريكا خلافا بين أمريكا وحلفائها واتضح عدم فاعلية الدبلوماسية السرية. وأن النفط أهم من مهادنة زعيم شعبي كما اتسع الخلاف بين الإدارة الأمريكية والكونغرس وقام بعض المسؤولين الأمريكيين مثل روبرت واجز عمدة نيويورك باتهام الملك سعود بمعاودة الكاثوليكية واليهودية واعترض السيناتورون موريس على مساعدات أمريكا المادية للسعودية واتهم الملك سعود بالتخلف. ورغم ذلك حققت زيارة سعود لواشنطن بعض الانجازات وجدد سعود عقد ايجار الحكومة السعودية لقاعدة الظهران الجوية وعالج مشكلة ناقلات البترول وابتهج بالاهتمام الاعلامي الذي لقيه هو وابنه معشور، ولكن تحت السطح اتضحت مدى ازدواجية الموقف الأمريكي تجاه السعودية واللاس سياستها تجاه الشرق الأوسط، واتضح لايزنهاور عدم كفاة الملك سعود، وعدم تمتعه بصفات الزعامة، ومرة أخرى نجد أن اهتمام أمريكا بحماية مصالحها النفطية هو الذي يحدد خطاها. وفي هذه الفترة كان ولي العهد السعودي الأمير فيصل يراقب الموقف ويرغب في المنصب فقام بكتابة رسالة إلى إيزنهاور ودالاس يقول فيها «أنتى أعلم أن الأمريكيين يظنون أن سعود هو صديقهم الوحيد وهذا بالطبع ليس صحيح» وكانت أهداف أمريكا مقاربة لأهداف فيصل خاصة في الرغبة الشديدة لإقصاء عبد الناصر، لكن الاثنان لم يكن لديهما خطة محددة. ومع أن أفراد البيت السعودي هم الذين قاموا بإقصاء سعود في خطوة خطيرة غير مسبقة إلا أن أمريكا و فيصل كانا أكثر انسجاما وتقاربا في التفكير. وبدأت وزارة الخارجية الأمريكية في الأعوام من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ في

تضخيم الخطر السوفيتي في المنطقة، وبدأ عملاء المخابرات في ارامكو وفي بيروت والقاهرة تأييد المجرعات الإسلامية المناوئة لعبد الناصر. وقد شجروا زعماء هذه المجرعات على إظهار الخلاف الجذري بين الشيوعية والإسلام وتم دعم الإخوان المسلمين وكشفت مجلة المصور القاهرية عن تأييد ارامكو لحلايا إسلامية صغيرة في شرق السعودية (وقد أكد لي جيمس راسل باراكس أحد رجال المخابرات هذا الأمر في عام ١٩٦١ ووصف البرنامج بأنه مكثف دون الإقصاح أكثر من ذلك) وبدأ فيصل في تبني الهوية الإسلامية على حساب الهوية العربية لمواجهة عبد الناصر. أما الأنظمة المدنية العربية مثل الثورة العراقية فلم تستطع فعل شيء برغم معارضتها لعبد الناصر. ويرى المؤرخون أن استخدام الورقة الإسلامية كان حلاً خطراً على المدى الطويل - لكن الأمريكيين وقتها لم يجدوا حلاً غيره.

دعا ابن سعود أحفاده في عام ١٩٤٥ إلى المحافظة على علاقتهم مع أمريكا ومجديد البند التي احتوى عليها اعلان ايزنهاور. وبالفعل فإن أبناءه حتى الآن يحتفظون بالروح الأصلية للإعلان ويقومون بإجراء تعديلات طفيفة في كل مرة لتلائم استراتيجيات المرحلة. وتولى فيصل الحكم بعد سعود وأظهر أنه رجل مؤهل مقتدر مما أعطى الفرصة لأمريكا لتحويل العلاقة بينها وبينه إلى سياسات ثابتة، واستطاعت أن تعتمد عليه كوكيل لها. وقبلت بأسلوبه اللفظ، وساعدته على ضبط ميزانيته في عام ١٩٦٤ وضمتها إليها في محاولاتها لخلق جبهة إسلامية معادية للشيوعية، ونود أن نوضح هنا أن الرئيس الأمريكي كينيدي كان متعاطفاً مع عبد الناصر لانهما كانا متقاربين في العمر وفي التمرد على كل ما هو قديم، وقد قام كينيدي بإجراء محادثات سرية مع عبد الناصر ووعده بإيجاد حل للقضية الفلسطينية، كما أخذ كينيدي ضماناً من عبد الناصر بعدم إثارة مشاكل حدودية مع إسرائيل، وقد شكلت هذه الفترة المحاولة الأمريكية الوحيدة النادرة لإيجاد توازن بين المصالح وبين سياسة ذكية تحاول امتصاص

شعبية عبد الناصر الجارفة. لكن هذه السياسة استمرت لفترة وجيزة وانتهت مع مصرع الرئيس كنيدي، وعادت أمريكا للسياسة التقليدية المعروفة وهي استخدام الملك فيصل وامواله لتقويض شعبية عبد الناصر ، وبالفعل اخلقت أمريكا يد الملك فيصل في الداخل وتجاهلت اساليبه القمعية وتوزيعه للأراضى ، وكانت بصفة عامة راضية عن أدائه واعتبرت أن النفط وإسرائيل في أيدي أمينة.

توجد بعض الحوادث الهامة المتعلقة بحرب اليمن منها أن كنيدي اعترف بالحكومة اليمنية الجديدة التي كان يدعمها عبد الناصر ، وقام في عام ١٩٦٣ بتبنى خطة لحل المشكلة التي تسبب فيها مبعوثه الخاص لليمن السفير السورث بنكر.. ولكنه قام بإرسال عسكريين أمريكيين للسعودية في عام ١٩٦٤ عندما احس بميل عبد الناصر الى التماهى أكثر، وعارض نصيحة مستشاريه الذين طالبه بالابتعاد عن الشؤون الداخلية للمملكة، وأجبر فيصل على إجراء تغييرات داخلية من أجل حماية المصالح الأمريكية على المدى الطويل. وعندما زار فيصل أمريكا في ٥ أكتوبر عام ١٩٦٢ طلب منه كنيدي ثلاثة أشياء رئيسية هي إطلاق سراح العبيد وإنهاء الرق، وإشراك عناصر سعودية من غير الأسرة المالكة في الحكم، ورفع القيود عن اليهود الأمريكيين ليعملوا في السعودية. وبعث إليه بخطاب في ٢٠ أكتوبر يؤكد على حق الناس في الحرية والتقدم مع الحفاظ على مصالح أمريكا الحيوية، وبالفعل قام فيصل في نوفمبر عام ١٩٦٢ بتشكيل حكومة جديدة لها برنامج من عشرة نقاط تدعو إلى إنهاء نظام الرق وإنشاء مجلس استشاري يتكون من شخصيات دينية وشخصيات عامة. ومع الأسف فإن هذه العلاقة التي تتسم بالصدقة المتوترة الخلاقة انتهت بمقتل كنيدي ، وقيام المشكلة الفيتنامية واضطر الرئيس جونسون - الذي كان يجد متعة في السخرية من العرب وملاصهم وسلوكهم - إلى الانشغال بقضايا عالمية هامة وعاجلة. ووجد فيصل نفسه حراً يفعل ما يشاء، وكانت سنوات جونسون هي أزهى سنوات السياسة

الإسلامية السعودية ورتى السكرتير العام لمنظمة المؤتمر الاسلامى محمد الصباح إلى وزير. ودعت السعودية القوات الباكستانية لحماية حقول النفط، وتم تدريب الحرس البرضى السعودى وتزويده بالمعدات لحماية الأسرة المالكة وتم إنشاء تحالف إسلامى مزيد لأمريكا من السعودية وتركيا وإيران وباكستان. وذلك فى عام ١٩٦٨- وكان هنا اخلف من تدبير المستشار الرئاسى والت روستو ، وبعد وفاة كنيدي لم يكن بإمكان فيصل العدول عن قرار انها الرق أو إعادة الأربعة آلاف شخص الذين تم عثقهم لكنه لم يفعل شيئا بخصوص تكوين المجلس الاستشارى . ولم يكن هناك أحد ليوقف سياسات فيصل فى اليمن والتي ساعدت فى نشوب حرب ١٩٦٧ كما أنه لم يكن هناك أحد ليحقق فى خطفه الإسلامية وما سببته من انقسام فى المعسكر العربى.. وعلى الصعيد الداخلى لم يكتفى فيصل بالاستيلاء على الأراضى ودفع أفراد عائلته للاشتغال بالتجارة وإنما قام بتوزيع هدايا فردية لبعض الناس ومن ذلك منح مستشاره لشؤون الأمن كمال أدهم ٢٪ من عقود النفط التى اعطاها لليابانيين للتقريب فى المنطقة المحايدة، وبلغت قيمة هذه الهدية مئات الملايين من الدولارات ولم تسبب مشكلة داخلية كما كانت تفعل هدايا الملك سعود. وقد اكتمل انتصار فيصل بهزيمة عبد الناصر أمام الإسرائيلين فى عام ١٩٦٧. وانتهت تهديدات عبد الناصر بشأن الإطاحة بفيصل. ومع الأسف فإن وجود عبد الناصر كان هو الرادع الوحيد لفيصل من التماهى فى الاستبداد وسوء استقلال السلطة، وأصبح الأمر الآن متروك للمواطنين السعوديين وحدهم، قد شهدت الفترة من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٣ أكبر عدد من محاولات للإطاحة بالنظام السعودى. وقد كان فشل هذه المحاولات نتيجة لتدخل أمريكا وتزويدها للسعودية بأجهزة متطورة وفنيين. ومع أن أمريكا حاولت التقليل من شأن القلاقل الداخلية إلا أن فيصل لم يقتنع بذلك، وهذا ما انعكس على موقف السعودية من حرب أكتوبر وقرارها بالانضمام إلى المصريين والسوريين فى تلك الحرب.

كان السؤال الذي حير أمريكا وأركانها بخصوص حظر البترول عنها في عام ١٩٧٣ هو : كيف يجرؤ صديق لنا على فعل ذلك؟ والإجابة هي أن فيصل كان قد لاحظ أن عدم قيامه بمساعدة عبد الناصر قد سبب له سخطا داخليا وإقليميا لذلك أراد الاشتراك في حرب ١٩٧٣ لكسب رضا مواطنيه والمواطنين العرب. وبالطبع فإن حظر البترول هو أقل التضحيات وفي عام ١٩٧٣ قلل السادات من ارتباطه بالروس وانتهج خطا مؤيدا لأمريكا والسعودية ظانا أنه بذلك يكسب أمريكا ويجعلها تجبر إسرائيل على الخروج من الأراضي التي احتلت في ١٩٦٧ لكن أمريكا لم تفعل شيئا وقامت إسرائيل بتدعيم وجودها في سيناء وبناء مستوطنات فيها. وكان فيصل يريد الحفاظ على موقف مصر الجديد فطالب الولايات المتحدة علنا بالضغط على إسرائيل للتخلي عن الأراضي المحتلة. وفي صيف ١٩٧٣ بعث فيصل برسالة إلى فرانك جتفر رئيس أرامكو مشيرا إلى خطورة تدفق النفط وسط التوتر المصري الإسرائيلي، لكنه لم يتلق إجابة لأن أمريكا كانت مشغولة بغيثنام ووتر جيت. وكان فيصل يرى أن رفضه مساعدة السادات قد يعيد مصر إلى موقفها السابق وبذلك يعرض مركزه الإسلامي للخطر. ويعيد محاولات التآمر ضده. وعندما لم تتحرك أمريكا لفعل شيء قرر الانضمام إلى السادات واستخدام سلاح النفط. وقد جاء هذا القرار نتيجة لسلسلة من الحوادث المؤسفة ولم يكن قرارا سعوديا متعمدا. فحظر نفط كامل كان آخر شيء في ذهن فيصل.. وبدأت الحرب في ٦ أكتوبر وقدم فيصل على الفور مبلغ ٢٠٠ مليون دولار كمساعدة وفي ١٢ أكتوبر قام بتحريك آخر لمنع أمريكا من مساعدة إسرائيل فأعلن هو وعرب آخرون خفض إنتاج النفط بنسبة ٥٪ ورفعت هذه النسبة إلى ١٠٪ بعد ذلك. وهدد بتخفيضها مرة أخرى خلال شهر وكانت السعودية هي الوحيدة التي تتحرك لفعل شيء حتى وإن كان ذلك يفرض التهويش فقط. وفي ٨ أكتوبر بعث فيصل بسفيره عمر السقاف إلى نيكسون يطالبه بإطلاق تصريحات لصالح العرب

لتخفيف حدة المواجهة لكن نيكسون لم يستجب لأنه كان مشغولا بفضيحة ووتر جيت واستقالة نائبه اجنيو، وتم عرضا عن ذلك بتقديم أسلحة تقدر ب ٢ مليار دولار لإسرائيل لكسب جانب اليهود. ورد الشيخ زايد حاكم الإمارات على تصرف نيكسون بالانضمام الى فيصل في حظر البترول عن الغرب. ويرى المراقبون أن فيصل لم يكن جادا في مسألة قطع امدادات البترول وإنما كان يقوم فقط بالضغط على أمريكا وأن تصرف زايد العملى الجاد هو الذى دفعه لأخذ الأمر بجديّة . وبعد أن تم الحظر اخذت السعودية تفكر بسرعة فى وسيلة للتراجع. وقام كسينجر وزير الخارجية الأمريكى بزيارات متعددة إلى السعودية خلال الثلاثة أشهر التالية وأعربت السعودية عن رغبتها فى إيجاد مخرج يحفظ لها ماء وجهها. وفى فبراير ١٩٧٤ وبعد الحرب حاولت أمريكا استرضاء السعودية فقبلت أن تبيعها أسلحة تشمل طائرات ودبابات وحاملات بحرية. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تقوم فيها أمريكا بمثل هذا التصرف، لكنها أوضحت أنها لن تفعل أكثر من ذلك وفى نفس الشهر سافر فيصل لحضور المؤتمر الإسلامى فى باكستان حيث استقبل كالأبطال، وهنا أحس أن سلاح الحظر قد أدى دوره وأنه لا فائدة من الاستمرار فيه وقام برفعه فى ١٩ مارس ١٩٧٤. ولم يحصل فيصل على مكاسب لفلسطين أو لمصر وإنما كسب تضاعف أسعار بيع النفط التى ارتفعت لأربعة أضعاف كما كسب تأييد العرب والمسلمين وحصل على السلاح الأمريكى. والسؤال هو لماذا سلحت أمريكا فيصل اذا كان عدوا لها؟ والمعروف أن قرار حظر البترول خلال الشتاء أعطى للمستهلك الغربى صورة عما يمكن أن يؤول إليه الحال إذا ما سقطت السعودية فى أيدي قوى مناوئة للغرب، وهنا نلفت النظر إلى أن ماحدث كان نتيجة لمواقف نيكسون غير المبالية أكثر من أنه مبادرة من فيصل. وقد صرح كسينجر بأن الموقف كله عولج بطريقة سيئة دون أن يفصح أكثر . وبالطبع فهم نيكسون كثيرا من الأشياء مما جعله يغير نظرتة للسعودية ويقوم بزيارة إليها فى عام ١٩٧٤.

وعندما اغتيل فيصل في عام ١٩٧٥ عزت الدعاية السعودية ذلك إلى اعلاناته المتكررة بالصلاة في القدس وشجاعته في استخدام سلاح النفط. وقام البيت السعودي بتحويله إلى قديس وشهيد، وأعلن بعض العرب أنه ضحية لمؤامرة أمريكية صهيونية، وفي الواقع فإن الوحيدة التي خسرت بمرته كانت أمريكا إذ فقدت حليفا هاما، وتبع ذلك تنصيب خالد الذي جاء في وقت ازدهار اقتصادي لحجم عن ارتفاع أسعار النفط في أعقاب حرب أكتوبر، وحدث نوع من الاستفراغ في السعودية، وتعتبر الأعوام من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩ من أسعد أوقات المملكة وكان خالد يحكم بلدا وصل فيه ارتفاع الدخل القومي إلى ٨٥٪ وتراوح الفائض في عائدات النفط من ٦ إلى ٣٢ مليار دولار. وبدأ استيعاب المحرجين في وظائف رفيعة ومرتبات عالية وازدهر القطاع الخاص، ونضاعت الحاجة إلى الأجانب فازداد عددهم حتى حدث نقص في عربات الشفروليد وغرف الهوتيلات التي عجزت عن مقابلة تدفق رجال الأعمال، وحدث نقص في الأسمنت بسبب تزايد العمران وازدحمت مرانيء جدة والظهران، بالسلع حيث أصبحت قيمة الرشوة لتسهيل استخراج الواردات من الجمرك مساويا لسعر السلعة نفسها.

وفي مجال السياسة الخارجية أصبحت سياسة تأجير الحلول وتأجير الزعماء عادة يسهل الصرف عليها، وأصبحت الحلول الاستثنائية تستخدم لتبقى الغطاء موضوعا على المشاكل المعروفة لأمريكا والغرب. وأصبح ياسر عرفات يتلقى مبالغ طائلة كمساعدات في كل زيارة له للسعودية وطالبت السعودية بالتخلي قليلا عن سياساته الراديكالية وتم استرضاء الرئيس السوري حافظ الأسد بمبالغ طائلة وتم الضغط على إسرائيل فيما يختص بלבnan، وتسلم سياد برى شيكا ببلغ ٢٠٠ مليون دولار لطرده السوفيت من شواطئ باربير ومنع شيكا آخر لاستخدامه الشخصي، واعطى موبوتو مبلغ ٥٠ مليون دولار لمحاربة المتمردين المواليين للسوفيت في المحولا، وتمت استضافة

زعماء التمرد الفلبيني في أجنحة فخمة بهنادق جده وعاشوا حياة مترفة جعلتهم ينسبون سبب مجيئهم للسعودية. وأصبح دفع الريالات يشكل جرهر الدبلوماسية السعودية (كان هذا بداية الغزو السعودي للعالم) حيث أصبحت ثروات السعودية وطريقة التعبير عنها هو الموضوع اليومي للمجالس والصحف. ونفس هذه الفترة شهدت تناؤلا في محاولات الإحاحة بالنظام الملكي السعودي، وتناقص عدد السعوديين الذين يعملون بالنشاط السياسي. ويسر أن النظام السعودي أصبح يؤمن بمقولة «أن البطن المتلثة لاتعرف الثورات». ريملى روبرت كورمر مستشار الأمن القومي الأمريكى قائلا «أن محاولة القيام بشئ الآن سوف تشوش على هذا المشهد الجميل» وحتى اتفاقية مصر وإسرائيل فى عام ١٩٧٨ لم تسبب أى إنزعاج للدولة السعودية أو النعيم الذي ترفل فيه، ومن الطبيعى أن يحدث اختلاف فى الآراء داخل البيت السعودي حول الأمر. فقد أراد ولى العهد فهد مثلا مساندة السادات بينما رأى اخرون ضرورة الانضمام إلى رأى العام العربى الذى عارض الاتفاق بشكل شبه جماعى، كما عارضه المسلمون، ويقول جيسى كارتر في مذكراته «أن الملك خالد وولى العهد أخبراه بتأييدهما للسادات ولكنهما لم يفعلأ أكثر من هذا فى العلن». وكشف التاريخ أن السعودية لم تكن تركض وراء الزعامة العربية والإسلامية إلا إذا حدث ما يعكس صفو البيت السعودي. وقامت السعودية بالتأكد من أن لا أحد يعارض السادات معارضة جادة واستمرت فى التظاهر بأنه لم يحدث شئ، ضخم، حتى أنها قامت برشوة من يتخذون مواقف صارمة ضد السادات. ولكن هذا لم يستمر طويلا إذ وصل الحمينى إلى السلطة فى إيران فى عام ١٩٧٩، وبعدها حدث التمرد الإيراني فى الحج، وفى ديسمبر غزت روسيا افغانستان تأييدا لحكومة بابهك كمال الضعيفة، وكانت الصدمة شديدة على البيت السعودي، وأحس خالد ولى عهده فهد بأنهم يواجهون مخاطر داخلية وخارجية لاتنفع فيها الرشاوى أو دفع المال. وقوبحتوا بمعز أمريكا عن حماية

مرش الشاه وقد تضاعف هذا الإحساس مع عدم استجابة أمريكا لما نعلمه السوفيت، وعجزها عن التصرف حيال أحداث الإيرانيين في مكة، وقد كانت حادثة مكة تدل على انتقال المعارضة من الجانب العربي إلى الجانب الإسلامي، ويبدو أن سنوات الرخاء لم تقضى على المعارضة نهائياً. ورفض البيت السعودي الاعتراف بالحقيقة الساطعة وهي نشل سياسات فيصل الإسلامية. وما زاد الأمور سوءاً أن مجموعة من أبناء فيصل قدموا عريضة من ٣٣ صفحة يطالبون فيها خالد بإصلاحات سياسية في الداخل وفيما يختص بالسياسة الخارجية. وقامت مجموعة إسلامية تسمى الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية بإيعاز من السادات بإرسال بث إذاعي تهاجم فيه السعودية لرفضها اتفاقات كامب ديفيد. وقد حاولت أمريكا طمأنة السعوديين لكن دون فائدة. وفي سبتمبر من عام ١٩٨٠ أعلن متحدث باسم الخارجية الأمريكية التزام الولايات المتحدة بحماية السعودية ضد كل المحاولات الداخلية والخارجية التي تقس باستقرارها وتبع ذلك مناورات أمريكية جوية انطلقت من الظهران ووجهت لتحذير إيران أيضاً. وفي ذلك الوقت قام صدام حسين بالهجوم على إيران. وبما أن العلاقات كانت متوقفة مع مصر لم يجد البيت السعودي أمامه سوى صدام حسين. وقد قبلت به أمريكا وجلعت السعودية العراق خط دفاعها الأول ولكنها هي وأمريكا لم يكن لديهما استراتيجية لمواجهة عواقب الحرب العراقية الإيرانية، فيما عدا إنشاء مجلس التعاون الخليجي ودفع ٢٠٠ مليون دولار للأردن لكي يدعم قواته العسكرية. وبدأت السعودية إصلاح الجسور مع مصر لكن التعايش فيما بعد مع إيران منتصرة أو عراق منتصر لم يشغل بال فهد أو أمريكا وقتها. وفي عام ١٩٨٠ أصبحت أمريكا أكبر مستورد في العالم للنفط السعودي (كانت تستورد ١٠/١ واحد على عشرة) فقط في عام ١٩٧٠ ولم يكن ريجان يهتم بشيء سوى شراء النفط ويعتبر التحالف بين ريجان وفهد أكثر التحالفات تدميراً في هذا القرن (والمعروف أن فهد كان هو الرجل القوي منذ توليه

للعهد إبان حكم خالد). وقد أدت السياسات المشتركة بين فهد وزيجان إلى تأييد
 وقف سلبية سعودية، وبدأ اعتماد أمريكا على السعودية في توفير الدعم لمغامراتها
 الخارجية. وتم وضع فائض مالي قدره مائة مليار دولار في البنوك الأمريكية لدعم
 المغامرات السياسية لأمريكا وذلك مقابل موافقة أمريكا على الحلول محل السعودية
 في مناطق الصراع الإقليمية والإسلامية التي لا تستطيع السعودية الوصول إليها. وما
 أن إيران المسلحة والعراق العربي كانا مشغولين بالأخذ بتلابيب بعضهما فقد خلا الجو
 لأمريكا والسعودية للدخول في نشاطات غير مشروعة في المجول ونبكأراجوا. وقامت
 السعودية بدعم بعض الأقسام داخل الحركة الفلسطينية وانشأت مجلس التعاون
 الخليجي وشت جسور مع السادات واطالت عمر الحرب الأفغانية ودعمت سياسيين
 مستبدين مثل سياد برى وقامت بشحن النفط الى جنوب أفريقيا العنصرية. وبالمقابل
 قامت امريكا بمحاولات غير ناجحة لوقف الغزو الإسرائيلي لبيروت والسيطرة على
 القذافي، ومد العراق بالأسلحة. وتحقيق التوازن بين مصر وإسرائيل ومنع كليهما من
 الحلول محل السعودية في مسألة الوكالة في الشرق الأوسط. وأصبح المال السعودي
 محفوظا في أمريكا والسعودية تقوم بشراء الأسلحة وبذلك تطور تحالف مهني ثنائي
 بين الاثنين ، ويقول انتونى سامبسون أن حجم المال السعودي الموجود في البنوك
 الأمريكية كان ضخما للغاية لدرجة أن هذه البنوك كانت تتسابق لإقراض دول العالم
 الثالث وقد أدى هذا فيما بعد إلى أزمة الديون المعروفة ورفضت بعض البنوك مثل
 ايرفتنج ترست ومورجان ترست لعرض السعودي لإبداء أموال ضخمة، وقامت السعودية
 بشراء طائرات F15 وطائرات نقل C-130 ودهابات M-60 واستأجرت طائرات
 أواكس وجددت عقود الجيش الأمريكي والبعثات العسكرية التدريبية ودخلت السعودية
 بشقلها في مجال الأعمال وقامت AT&T باقتراض مبلغ ٥٦٠ مليون دولار من
 السعودية وكذلك فعلت IBM وشركة بروتكتكر وجامبل، وشركة طيران TWA وشركة

FMC وخطوط طيران يونابيد. وقد احست يونابيد باعتمادها الشديد على أموال السعودية بما جعلها تقارص ضحوطا على الحكومة الأمريكية لبيع سلاح للسعودية، ووصل عشق الأمريكيين للأموال السردية الى درجة بعيدة أوشكت على تغيير الحياة اليومية في أمريكا ، ودفع السرديون أموالا طائلة لحملة رئاسة ريجان الثانية كما دفعوا أموالا لبعض السناتورات ورجالات الكونغرس . وعمل مع السعودية كل من وزير الدفاع كلارك كليغورد وسبيرو اجنيو نائب الرئيس السابق. وريتشارد هلمس الرئيس السابق للمخابرات، ومايلز كويلاند الجاسوس السابق، وعدد من سفراء أمريكا السابقين في السعودية وكذلك سفراؤها السابقون في بلاد عربية أخرى. وكانت أمريكا وبيت سعود يلهمان بالمال بينما كانت إيران والعراق تقتتلان . وأرسل البعض صفارات انذار، ولجندت جيمس اكينز السفير السابق عن الفساد السعودي وكذلك فعل ويليام كواندنت وزير الخارجية السابق، الذي أشار أيضا إلى الخطر العراقي على الكويت.. وقام كارتر بدعوة السعودية إلى تقاسم الثروة مع الجيران الفقراء . لكن شيئا لم يستطع وقف التردى الناجم عن حلف فهد وريجان الجاهل، وتوسعت علاقات السعودية التجارية مع بريطانيا وشملت مجالات أخرى غير تجارة سلاح، وشاركت رئيسية وزراء بريطانيا ووزير دفاعها جونسون ايتكين في تشجيع هذه العلاقات التجارية، ونشأت علاقة صداقة وثيقة بين وزير الدفاع البريطاني والأمير محمد بن فهد.

وفي الفترة من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٨٧. لم تسجل وثائق حقوق الإنسان تجاوزات سعودية، ولم تكتب تقارير عن الأحوال العامة في السعودية، وإن كان الحفل الذي اقامه الأمير بندر سفير السعودية في الولايات المتحدة والذي تكلف ٥٠٠.٠٠٠ دولار قد لقي تغطية إعلامية ضخمة وتفاخرت شركة بوينج بصنعها لطائرة فهد الخاصة التي اسمتها القصر الطائر، وشد رجل الأعمال السعودي غيث فرعون انتباه الصحافة عندما ملا نافورة أحد النوادي الليلية في باريس بالشمبانيا وحضر ٥٢ صحفيا جفل

تتويج المياردير السعودى عدنان خاشقى ملكا وسمى عدنان الأول. وبالطبع فإن مثل هذا الاستخدام للأموال السعودية يعنى الاتطباع بأن كل شىء على ما يرام فى الشرق الأوسط، لكنه لم يكن كذلك والعروب داخل السعودية ودخل العالم العربى والإسلامى كانت كما هى إن لم تكن قد ساحت ونجاوزت تصرفات أفراد الأسرة المالكة كل حد ممكن. ولم يبال أحد لرفضهم دعم الفلسطينيين فى لبنان مع وجود كل هذا المال. ولم يعد فهد يهتم بإرضاء مواطنيه أو العالم العربى فقد أصابت الأموال الجميع بالعصى. وقام ريجان وفهد بتجاهل دوائر السلطة المختلفة وجعلوا السعودية معتمدة على أمريكا بطريقة خطيرة للغاية.

كانت المتاعب هاجمة تحت السطح ويشوبها الهدوء الظاهرى الذى تم توارثه من عهد الرئيس ريجان. وتركت المشاكل التى تسبب فيها فهد وريجان لبوش حلها. وقد لمحت هذه المشاكل عن قصر نظر كل من فهد وريجان وكانت الحرب العراقية الإيرانية قد تركت للعراق قوة عسكرية وموقف اقتصادى سىء، واضطرت إيران الغاضبة المهزومة لمراجعة سياساتها الاسلامية التوسعية. وفشلت سياسة السعودية السلبية فى مواجهة أى موقف ولم تستجب دعوات السعودية المشهورة التى كانت تقول «اقضى يارب على الحمينى دون أن ينتصر صدام حسين» تزامن كل هذا مع تراجع مستمر فى أسعار النفط منذ عام ١٩٨٢ وبدأت خطط السعودية للتفوق من خلال سطوة المال تتراجع، وعانت السعودية من عجز ميزانيتها خلال الأعوام من ١٩٨٢ وحتى ١٩٨٨، وهذا ما جعلها تتوقف عن دعم العراق بالكيفية التى كان يريد بها وكانت مصر التى أعيدت الى المحيط العربى تبحث بىأس عن الزعامة، وكانت سوريا تخشى تزايد شعبية صدام وسط الجماهير العربية، واسرائيل تراقب الترسانة العراقية بعدم ارتياح، والتجهت ايران الى ترتيب البيت من الداخل، وأصبح الخطر يأتى للخليج من العراق وكان العراق مجتمعا غير متماسك بما يكفى لقبوله بفكرة الانتصار كما أنه كان مفلسا (ديون ايران ايضا

بلغت - بمليار دولار) وأحس صدام بأنه ورض نفسه لأنه كان يطلب النصر لأناس يفضلون الفوائد والامتيازات. هناك علامة أخرى على اقتراب المشاكل لمجابهتها كل من السعودية وأمريكا وهي أن صدام ليس كإيران ولن يكون بإمكانه تسريح جيشه الضخم. وقد يرى الشخص العادي أن صدام ليس له قبعة لكن المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين والسعوديين كانوا يعلمون جيدا دوره فى تحقيق التوازنات فى منطقة الشرق الأوسط. وكانت أمريكا قد شجعت على الهجوم على إيران بعد غزل سرى بينهما تبعته اتصالات سرية فى الفترة ما بين ١٩٧٨ وحتى ١٩٨٤ ، وكانت السعودية تبارك كل شئ. وكانت الاتصالات السرية مع العراق تهدف لإبعاده عن التأثير السوفيتى. وبدأت محاولات الدبلوماسية السرية الأمريكية لتحرير العراق من القبضة السوفيتية مقابل السماح له بالحصول على التكنولوجيا العسكرية الغربية. وهذا فتح الباب واسعا أمام معاداة إيران وقد كانت المواد التجسسية التى تجمعها طائرات أو اكس تعطى للعراق (اشتركت أنا شخصا فى اقام هذا التقارب الودى بين أمريكا والعراق وقمت بعقد مفاوضات لصالح العراق لإقناع بنك أمريكى مشهور لفتح فرع ببغداد وذلك إبان الحرب العراقية الإيرانية). كما حملت رسالة أمريكية تخبر العراقيين بأن الاتحاد السوفيتى يزود إيران بصورة مأخوذة من القمر الصناعى) (وقد عرض الأمريكيون بعد ذلك فكرة تدعيم الموقف التكنولوجى للعراق وتزويده بصواريخ متطورة من نوع هارون.

فى عام ١٩٨٦ توترت العلاقات العراقية الأمريكية بسبب فضيحة إيران جيت،وهى الفضيحة التى قامت فيها أمريكا بتزويد إيران بالأسلحة مستخدمة أموالا سعودية وفى عام ١٩٨٧ قامت طائرة حربية عراقية بمهاجمة المدمرة ستارك وقتلت ٣٧ من بحارها الأمريكيين ،وقد تم تطويق هذا الحادث. وفى نهاية عام ١٩٨٧ تم التوصل إلى اتفاقيات اقتصادية وتكنولوجية تضمنت تحويل مليارات الدولارات لشراء قمح

للعراق، لكن أمريكا قامت في عام ١٩٨٨ بالاحتجاج على استخدام العراق للأسلحة الكيميائية ضد الأكراد، وجدت اتهامها للعراق بدعم الإرهاب، ومن ثم أقامت حظرا على بيع المنتجات الزراعية للعراق ومع ذلك استمر جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي في عقد لقاءات ودية مع طارق عزيز وزير خارجية العراق، وهدفت اللقاءات إلى وقف التدهور في العلاقات وقام وفد من الكونغرس برئاسة روبرت دول بزيارة إلى بغداد في عام ١٩٩٠، وبعد شهر قام صدام حسين بزيارة إلى الأردن هاجم فيها سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وطالب بسحب الأسطول الأمريكي من مياه الخليج. وقد كان الأسطول الأمريكي موجودا منذ وقت لحماية النفط خصوصا نفط السعودية، إذن كان صدام يتخذ خطوته الأولى.. وكانت السعودية ترى أنه يتحدى علاقاتها مع أمريكا.

وقد تمت هذه العلاقات الأمريكية العراقية المتذبذبة في إطار اعتبارات استراتيجية اقبلعية لتبعد صدام عن السوفيت، كما أنها نجحت في إيقاف مسيرة الحزيميني الثورية الإسلامية.. لكنها في نفس الوقت تركت صدام ومعه أسلحة متطورة قادرة على تهديد إسرائيل والخليج (أول صور بيانية لاتشاء المؤسسة الحربية العراقية جاءت من مؤسسة بفولدر في رومستر بنيويورك). وكشفت بعض الوثائق أن السعودية هي المسئولة عن تسليم صدام حسين وتحويله إلى خطر إقليمي وتدخلت الكويت في التسلسل الطبيعي للأحداث عندما قامت بضخ كميات من النفط من حقل الرميلة المتنازع على ملكيته بينها وبين العراق ، وقد أدى هذا التصرف المخادع من جانب الكويت إلى انخفاض سعر برميل النفط من ٢٢ إلى ١٦ دولار (وأحبانا أقل) وفرضت العراق بهذا الانخفاض وهي التي تعتمد على عائدات النفط بشكل أساسي لأن انتاج النفط بشكل ٩٠٪ من دخلها، وهي أيضا في حاجة ماسة إلى المال لإعادة بناء البلد بعد الحرب وارضاء الناس وقد تسبب تصرف الكويت في خسارتها لبلغ ٤

مليار دولار، مما هدد بانهيار اقتصادى الى جانب تهديد مركز صدام حسين، والسؤال الآن هو هل كان توقيت الكويت للقيام بهذا الفعل أمر عبثى وليس له تفسير أم أنه أمر متعمد؟ وهل أحجمت السعودية عن لوم الكويت لأنها تريد أخفاء دورها السابق وشل حركة صدام؟ والواضح أن الكويت لم تكن بحاجة الى زيادة انتاجها من النفط فهي بلد يضم مليون نسمة بمن فيهم العمال المفترين وتمتلك احتياطي يبلغ ٩٠ مليار دولار.. والنفط الذى يصلها من حصتها التى قررها الأولك أكثر من كاف لمقاومة احتياجاتها، وبعد هذا الحادث قامت الكويت بمنع الطيران المدنى العراقى من استخدام سماتها. كما أن الكويت كانت قد تلكأت من قبل فى تقديم التهانى للعراق على انتصاره فى الحرب. ورفضت السعودية اقراض العراق مزيدا من المال، وقد أدت كل هذه التصرفات الى إقناع صدام أن هناك مؤامرة تحاك ضده. ولم تتوقف الكويت عند هذا الحد بل طالبت العراق بتسديد قرض قيمته ٨ مليار دولار كانت قد اقترضتها اثنا الحرب الإيرانية العراقية. وقامت بدعوة فيلباتى وزير خارجية إيران الى زيارة الكويت بدأت فى اجراء اتصالات مربية مع المخابرات المركزية الأمريكية (قام وليم ويستر رئيس المخابرات الأمريكية بثلاث زيارات سرية للكويت وقابل أميرها) ورفضت العراق الطلب الكويتى لتسديد ما عليها من دين لسبب بسيط للغاية هو أنها لا تملك مالا. وبدأت الكويت اتصالات مع بنك لويد فى لندن لكى يبيع صكوك القروض العراقية بشمن بخس. وبالطبع فإن اجراء مثل هذا يضيف إلى خسائر العراق ويدمر قدرتها على الاقتراض خاصة وأنها فى أشد الحاجة للمال، وتواصلت المواجهة العراقية الكويتية لمدة ستة عشر شهرا، برغم مؤشرات الخطيرة وعملت كمشكلة محلية ثانوية، وحاولت العراق مناقشة مشاكلها مع الكويت فى كازابلانكا بالمغرب ثم عند زيارة سعدون حمادى وزير خارجية العراق للكويت وأخيرا فى مؤتمر رؤساء الحكومات العربية فى بغداد فى مايو ١٩٩٠ ولكن كل هذه المحاولات لم تجدى، ووصلت جهود العراق إلى

أقصى حد وذلك عندما قام بتوقيع اتفاقية اقليمية لتخفيض انتاج النفط فى ١٧ يولييه ١٩٩٠ بجدة. وبعد ساعة من توقيع هذه المعاهدة اعلن الوفد الكويتى بشكل غير متوقع أنه سيلتزم بالاتفاقية لمدة ثلاثة شهور فقط وقد أدت تصرفات الكويت إلى اهتزاز سعر الدينار العراقى الذى فقد ٥٠٪ من قيمته أى أن الكويت قامت بإشعال حرب اقتصادية ضد العراق. وقد حاولت العراق حل المشكلة فى إطار عربى لأنها لا تثق فى أمريكا. لكن لماذا قبلت أمريكا بالوقوف بعيدا والتفرج على المشكلة بالرغم من أنها كانت تلتقى مع العراقيين بانتظام لمناقشة كثير من المشاكل البارزة بين البلدين ويرغم صدور بعض التهديدات الصريحة من العراق بحجاء سيادة الكويت؟ والأغرب من ذلك إصرار السعودية غير المفهوم على عدم التدخل فى المشكلة العراقية الكويتية فى هذه المرحلة ويذهب بعض المحللين إلى أن السعودية لم ترد التدخل فى خلاف حدودى بين البلدين لأنه يستند إلى زعم تاريخى من جانب العراق بأحققتها فى تلك الأرض، وأن قبولها بالتدخل من حيث المبدأ سيثير تساؤلات تهدد كيان السعودية نفسه، إضافة إلى أن السعودية ملتزمة بالحفاظ على الأسعار المتدنية لأجل خاطر أمريكا. وحتى إن صح هذا فإنه لايرقى إلى درجة إيمان السعودية بضرورة أن يقاسى صدام وأن تقلل قوته، إذن فقد تم وضع العراق فى مأزق حيث وجد أنه غير قادر على الاستعانة بأحد فبدأ فى تهديد الكويت علانية وقد تسببت تهديدات العراق للكويت فى خلق جو «أزمة» وأمريكا عادة لاتتجاهل مثل هذه الأجواء. وقد هادر صدام بطلب مقابلة مع سفيرة الولايات المتحدة فى العراق فى ٢٥ يولييه ١٩٩٠ وقد كانت السفارة تظن أنها ستلتقى بوزير خارجيته طارق عزيز. وقامت السفيرة بإعطاء صدام حسين شيئا لم يكن يتوقعه فقد أخبرته أن أمريكا لاتعترض على رفع سعر النفط إلى سعر ٢٥ دولار للبرميل وأنها تعتبر النزاع الحدودى بين العراق والكويت أمرا عربيا داخليا لاتود أمريكا التدخل فيه وتبع لقاء صدام مع السفارة الأمريكية ابريل جلاس نشاطات عربية

واسعة توجت ببقاء في الرياض في ٣١ مايو ١٩٩٠. وبعد تشجيع جلاس تلقى صدام خطاب ردي من جورج بوش في ٢٧ يوليو ١٩٩٠ وقبل خطاب بوش التقطت العراق رسالة من رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر إلى أمير الكويت تقول فيها بالحرف الواحد: «أرفض مطالب العراق وسوف نساندك».

حاسة صدام في الإحساس بالخطر خائنه هذه المرة وبدأ في تفسير تصرفات الكويت على ضوء رسالة تاتشر، وبدا له أن بريطانيا الاستعمارية هي التي تريد إضعافه وليس أمريكا، وتحرك على هذا الأساس.

اللقاء الذي تم في الرياض في ٣١ يوليو ١٩٩٠ كان هو الأمل الأخير لوقف صدام لكن هناك أربعة مسائل ترتبط بهذا الأمر: الضوء الأخضر الذي أعطاه بوش وجلاسي للعراق، واعتياد العراق على الحرب، وعناد الكويت، وعدم مبالاة فهد، وقد كان العراق قد طالب بعدة مليارات كتعويض عن نفط الرميثة كما طالب بتسوية حدودية دائمة مع الكويت لكن الكويت رفضت الاقتراحين. وفي نفس الوقت كان فهد يتصرف بغرابة فهو أمضى نصف ساعة مع الوفود التي جاءت للقاء في الرياض وانصرف تاركا لولي العهد اتمام الوساطة ولما أخبروه أن مواقف العراق والكويت لا يمكن التوفيق بينها رد قائلا «بالطبع العراق يرفض كل شيء» وقدم للعراق مليار واحد فقط. واستشاطت العراق غضبا واعتبرت أن عرض الملك فهد مهين لها فتركت الاجتماع وخرجت، وأصبحت الحرب على بعد ٣٦ ساعة فقط. وبعد مرور ساعات قليلة على غزو العراق للكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠ اتصل الملك فهد بالملك حسين وهو ثائر مرددا قوله ولماذا لم ينتظر صدام نتيجة الوساطة العربية؟ والمدّش في الأمر أن فهد لم يكن لديه أي اقتراح بناء والتقليد السعودي يدفع الرشوة لحل المشاكل ثم حجبه في هذه المرة مع أنه كان سيحل هذا الموقف. ولم يحاول أحد من الزعماء العرب غير حسين وعرفات التوسط الجاد لحل الإشكال. وكان واضحا أن الكويت سادرة في غيها وأن السعودية-

لسبب ما- لاترغها على تغيير موقفها ، وانقسم البيت العربى ووقفت السعودية وبلاد النفط الثرية ضد صدام ، ورفض الملك حسين وعرفات الغزو لكنهم ، تفهموا تهريرات صدام ، وأيدت اليمن صدام بسبب عدائها التاريخى للسعودية ، ووقف الآخرون ومعهم مصر موقف وسط لكن السعودية بحكم موقعها الجغرافى وثرواتها النفطية وعلاقاتها الخاصة مع أمريكا كانت هي الوحيدة المسكة بزمam الأمور وهى التى تحدد ماسوف يحدث بعد ذلك وطبعا معها صدام وجورج بوش وما بين الغزو فى ٢ اغسطس ومؤتمر الرؤساء العرب فى ١٠ اغسطس قام الملك حسين وباسر عرفات وحسنى مبارك بالاجتماع مع بعضهم البعض وكذلك مع كل من فهد وصدام وقبل صدام ضمانا من الملك حسين لحل المشكلة عربيا ، وقبل بالانسحاب الكامل من الكويت وأمر فى ٦ اغسطس ١٩٩٠ بحب ١٠.٠٠٠ جنديا على أن ينسحب ١٠.٠٠٠ آخرين فى اليوم الذى يليه ، وأخذ عرفات موافقة من كل من فهد وصدام بالالتقاء على الحدود العراقية السعودية ، والالتقاء مرة أخرى فى جده بحضور كل من السعودية ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية ووافق فهد على الاقتراحين ورجع ورفضهما دون إبقاء الأسباب وأصر مبارك على أن يوافق العراق من حيث المبدأ على الانسحاب ثم يتم العمل بعد ذلك على حل المشكلة بناء على هذا الانسحاب. ولكن الذى لم يضعه أحد فى الحسبان هو ما ترتب على اللقاء الذى جرى بين ديك شينى وزير الدفاع الأمريكى والملك فهد فى ٦ اغسطس عام ١٩٩٠. فقد زار شينى السعودية بصحبة الجنرال نورمان شوارزكوف وعضوين من المخابرات المركزية الأمريكية وخبير فى شئون الشرق الأوسط الى جانب الأمير بندر ابن وزير الدفاع السعودى وسفير السعودية فى واشنطن ، وهو أحد أبناء آخ الملك فهد المفضلين ، ومعهم شارلس فريمان سفير أمريكا فى السعودية ، وقد كان بصحبة فهد ولى عرشه الأمير عبد الله والأمير سلطان وزير الدفاع وعدد آخر من أفراد الأسرة المالكة ، ولم يدر بينهم أى حديث حول حل المشكلة الموشكة

على الانجليار، ولم يكن أحد منهم مهتما بنتائج الوساطة العربية، واستعان شينى بخريطة من القمر الصناعي تظهر احتشاد ٢٠٠.٠٠٠ جندي عراقي على حدود السعودية، ولم يطلب شينى انسحابا جزئيا للقوات العراقية من الكويت أو سحب وحدات عراقية من الحدود السعودية، والشئ الوحيد الذى طلبه من فهد هو دعوة القوات الأمريكية الى العربية السعودية، بهدف حماية الاصدقاء، وقد وافق الملك فهد على ذلك بانحناء من رأسه. وقد طلب الأمير عبد الله ولى العهد المزيد من التفاصيل حول توزيع القوات العراقية والكيفية التى سيستفاد بها من القوات الأمريكية والظروف التى سيروحون فيها البلد وقد كانت ردود شينى غامضة، وبدلا من أن يجابوب على الأسئلة الطروحة أخبر الملك فهد بأن غزو العراق للكويت قد يكون جزءا من خطة عراقية مينة تشارك فيها منظمة التحرير الفلسطينية بهدف تحقيق عدم استقرار بالجزيرة العربية، وتقسيمها بعد ذلك إلى دويلات، وأضاف بأنه لا يوجد ما يمنع العراق من دخول الرياض وأضاف أنه ليس واثقا بما إذا كان الملك حسين جزء من هذه الخطة التى ترمى الى التقسيم، وقد أخبرنى بهذه القصة اثنان من سفراء أمريكا السابقين بالملكة وعضو بمجلس الأمن القومى وأكدها مصدر من البيت السعودى لا يدين لهم بالولاء، وحوزتنا الآن وثيقة تؤكد هذا الحادث، وأن كان من الصعب الآن تحديد ما اذا كانت القصة مسجلة بالسجل الأمريكى الرسمى. ولكن الذى لاشك فيه هو أن هذا العرض بأكلمه ينعكس نية أمريكا الميطة لضرب صدام، وحتى إذا افترضنا أن القمر الصناعى لم يصور الانسحاب الجزئى العراقى فإن العراق لم يكن لديه سوى ٨٠.٠٠٠ جندي فى الكويت وقد قام الملك حسين بنقل هذه المعلومة شخصا إلى الرئيس بوش ليقلل من خوفه من هجوم عراقى على السعودية، وإذا وضعنا فى الاعتبار ما تم فى لقاء صدام-جلاسبى ورسالة بوش اليه يتضح لنا أن أمريكا تحاول إثارة زوبعة حول وضع صنعته بنفسها. ويصبح التنازل هو ما اذا كان صدام قد وقع فى فخ نصبه له

الأمريكيون، وأن الحرب كلها خطة لتدمير القوة الوحيدة في الشرق الأوسط القادرة على مواجهة الهيمنة الأمريكية؟. ومن المؤكد أن طلب صدام بانسحاب الأسطول الأمريكي من الخليج كان يمكن أن يكون له رد غير خطاب بوش الودى أو عرض الملك فهد بدفع مليار دولار، وهو ما يلائم حجم التهديدات. إذن الملك فهد دعا القوات الأمريكية دون استشارة ولى عهده أو أخذ آراء بعض الشخصيات الهامة في العائلة وقبل استشارة مجلس العلماء أو أى أحد آخر. واصبحت الاتصالات الجادة التي يجريها حسين وعرفات ليست ذات جدوى، كما أن فهد لم يكن يرغب في الالتقاء بصدام أو الاستماع اليه، وحتى عندما التقى الرؤساء العرب في ١٠ أغسطس ١٩٩٠ عقب الغزو العراقي لم يكن لدى فهد ما يقوله ورفض مقابلة طه ياسين رمضان رئيس الوفد العراقي، ووقف الرئيس المصري مبارك مع استخدام القوة ضد العراق وقد كان هذا غريبا لأنه من المفروض أن يكون الاقتراح سريا وفاز القرار بهامش بسيط. وعندما احتج الملك حسين على ما حدث واتهم مبارك بانتقض ما وعده به من أن يكون الانسحاب سلميا رد مبارك في عبارة غامضة قائلا «أن أحدهم يضع مسدسه على رأسى» ومهما كان نوع السلاح الموجه الى رأس مبارك (وهو في الغالب تهديد بقطع الإعانة السعودية أو الأمريكية أو الاثنين) فإن هذا دفعه إلى التصرف بطريقة غريبة ومريبة للغاية، فقد تمت استضافة الوفد العراقي في بيت ضيافة «الأندلس» وهو فندق صغير متواضع وليس به تليفون مباشر وإنما يعتمد على خدمة «السريتش بورر» مما جعل من الصعب على الوفد العراقي الاتصال ببقية الوفود، وفي قاعة الاجتماعات كان ميكروفون الوفد العراقي معطلا في الوقت الذي كان فيه رئيس الوفد يعلن عن ضمانته بعدم حدوث تمرد على السعودية وموافقته على دخول قوات عربية إلى العراق وبالطبع فإن موقف مبارك يحظى بموافقة فهد. كما أن فهد كان يتصرف بعد لقائه مع شينى وكأنه يعرف ما سيحدث. وتبع ذلك قرارات من الأمم المتحدة ومحاولات وساطة،

مددت الأمم المتحدة مهلة لانسحاب العراق وجاءت صرخات احتجاج على احتجاز لمراق للرهائن الغربيين، وتماثلت أصوات على أن الحظر الاقتصادي ضد العراق لا يكفي، واستمرت وساطة حسين والاتحاد السوفيتي وفرنسا، وبيريز دي كويلار وعشرات الأفراد منهم ادوارد هيث، نسر، وزراء بريطانيا وجون كانالي حاكم تكساس السابق وجيس جاكسون الزعيم الأسود واقتنعت العراق بوجود ثمة مزاورة بين أمريكا والسعودية والرئيس المصري مبارك فرفضت التحرك لعمل شيء وواجهت أمريكا وحلفاؤها بقية مواقف العراق فأخذوا يتصرفون معه بطريقة تأديبية مستخدمين قرارات الأمم المتحدة مما لم يترك لصدام مساحة للمناورة. ولم يفعل فهد شيئا. وأصبحت حرب القصف تلح في الأفق. وقد اعتمدت هذه الحرب على الدعاية والإعلام والاستنزاف النفسي كما لم يحدث منذ الحرب العالمية الأولى، وكان جورج بوش هو المسؤول عن هذا الكارنفال المقتزى والمعروف أنه كان مهندس الصداقة الأمريكية العراقية منذ أن كان نائبا لريجان. أما الرجل الذي جعل الحرب أمرا لامناس منها فهد فهد بن عبد العزيز. وتبع ذلك بدء وصول القوات الأجنبية إلى السعودية، ووافق مجلس العلماء على ذلك على مضض، وتحث الضغوط، وقام فهد بإرسال مفكرات عن القروض كضغط إلى كل من مصر وسوريا، وتركيا والباكستان وبنجلاديش إضافة إلى بريطانيا وفرنسا وأمريكا لحشهم على الانضمام إليه في حربه المقدسة هذه وقد كلفه ذلك ما بين ٥٥ إلى ٦٠ مليار. وهذه المرة قبلت السعودية بفكرة التصدر. والأصوات القليلة التي استمعت إلى كلام مبالغ فيه عن مدى قوة صدام ورأت مدى جنونية الموقف كله لم تستطيع فعل شيء. (وقد توقفت أنا عن الظهور في التلفزيون البريطاني بعد أن نصحني الأصدقاء بأن هذا قد يهدد وجودي في بريطانيا) وفي يناير من عام ١٩٩١ بدأ القصف الجوي المكثف ضد الأهداف العسكرية والمدنية في العراق بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ولاكثر من شهر كانت العراق تدمر وتسحق ولم تستطع قواته الجوية فعل

ش.، واستطاع فقط ضرب إسرائيل وأجزاء من السعودية بصواريخ سكود وقد كان تأثيرها ثانوياً ونفسى أكثر من حقيقياً . ولجأ فهد إلى غرفه المحصنة الواقعة تحت الأرض وهي غرف بها كل التسهيلات ويوجد مثلها عند صدام أيضاً وقد خرج فهد من تحت الأرض في ٢٧ فبراير ١٩٩١ في اليوم الذي وقع فيه صدام اتفاقية هدنة أشبه بالاستسلام . وفي أهل من سنة تغير مصير العراق ومصير الشرق الأوسط بصورة يصعب معها التعرف عليه، وحقت حرب الخليج هدفها الأساسي: وهو حماية مصادر النفط والقضاء على قوة العراق العسكرية، لكن تدمير أكبر قوة مدنية في المنطقة خلق فراغاً أيديولوجياً ولم يعد يوجد سوى أيديولوجية الأصوليين الإسلاميين وما أن الإسلاميين التقليديين الذين كانت تولهم السعودية أصبحوا غير مقبولين فإن المد الإسلامي الأصولي اكتسح المنطقة وكسب الانتخابات الديمقراطية في كل من الجزائر والمغرب والسودان والأردن وهو الآن يهدد مصر، وأصبحت إيران قوة إقليمية هامة من ناحية أنها غير موالية للسعودية والغرب. ويبدو منطقياً لوهلة إعادة صنع صدام لمواجهة التحدي الإسلامي.

وخرجت السعودية مفلسة من الحرب ولم يعد بمقدورها شراء بلاد مثل مصر وسوريا وتركيا، كما لم يعد بإمكانها تجديد عقود الإيجار، وتعرض السعودية لعجز في الميزانية للسنة الثانية عشر (انظر الفصل العاشر) واختفى احتياطياتها وبلغت ديونها ٦٠ مليار دولار. وهذا معناه عدم قدرتها على الاستمرار في السياسات السابقة ولو بطريقة مؤقتة. إذن لم ينتهي العراق وحده وإنما انتهت السعودية أيضاً كقوة إقليمية وزعامة إقليمية. والتزم الجيش الأمريكي والجيوش الغربية الأخرى بوعودهم بمغادرة المنطقة في أعقاب الحرب لكن الآثار التي خلفها وجودهم القصير ذلك ما زالت باقية. فمجلس العلماء المحافظ متضائق من سماح الحكومة السعودية للمجنات الأمريكيات بالظهور بالملابس الإفرنجية القصيرة، والسعوديون مستاءون من اتجاه الحكومة لشراء

سلاح بكثافة بالرغم من صرف أموال باهظة اثناء الحرب. ورفع مجلس العلماء مذكرة
 لتلك فهد «بعدم دعوة قوات أجنبية مرة أخرى إلى أرض اسلامية مقدسة» ومن ناحية
 ثانية فإن عددا كبيرا من الناس العاديين ومعهم الأصوليين الاسلاميين ينظرون بمرارة لما
 حدث للعراق فهي في النهاية بلد إسلامي يستحق تعاطفهم ولا يقبلون له هذا المصير.
 وقد بدأ عدد هؤلاء يتزايد وأخذوا يطالبون بإصلاحات هامة وأساسية في السعودية،
 لكن هذا بالذات هو الذي جعل فهد يتشبث أكثر فأكثر بالحماية الأمريكية وأخذ يحس
 بأنه قريب لأمريكا أكثر من أي وقت مضى. ورغم كل شيء فهو مازال لديه نفط
 ليقدمه لها بأسعار مناسبة، وما أنه من الصعب على الإنسان تغيير الأساليب التي
 اعتاد عليها فإن أمريكا سوف تسارع لنجدته. وهناك حرب أخرى قادمة إلى الشرق
 الأوسط وقد يكون تأثيرها أسوأ بكثير على المسنة من الحروب السابقة.. وفي هذه
 المرة لست واثقين من أن النفط سيكون في مأمن.

الفصل السابع

صفقات ضخمة ومغامرات خطيرة

بالرغم من الوعود المختلفة بالسيطرة على تدفق السلاح في المنطقة الذي أكدّه جورج بوش وميجور وزعماء آخرون من الغرب خلال أزمة الخليج والحرب التي أعقبها فإن أحد نتائج هذه الحرب هو تزايد برنامج التسليح السعودي، ويبدو ظاهرياً أن السعودية تقوم ببناء ترسانة أسلحة لحماية نفسها ضد أخطار المستقبل خاصة بعد غزو صدام للكويت. لكن هذا ليس صحيحاً وشراء السلاح الذي تقوم به السعودية الآن ليس أكثر من امتداد لسياسة قديمة أظهرت عدم فاعليتها وهي إظهار البلد بمظهر المستضعف الذي لا يقدر على مواجهة صدام وحده. وقبل أغسطس ١٩٩٠ كانت السعودية قلقك سلاحاً أكثر بكثير من طاقة جيشها الصغير. كما أن هذا السلاح متطور ومعقد يصعب على الجيش السعودي استخدامه. وهذه الحقيقة يعرفها السعوديون وممولوهم الأمريكيون. وأمريكا لديها بعثات تدريبية عسكرية متخفية داخل البلد لكن لا يراها السعوديون أو جيرانهم.

ويتظاهر البيت السعودي بأن له جيشاً قادراً على استخدام هذا السلاح. والمواطنون السعوديون والأصوليون الإسلاميون يعارضون إقامة علاقات حميمة مع الغرب. ويرى العرب والمسلمون في اعتماد السعودية على أمريكا نوعاً من الاستعمار الجديد يمكن أن يدفعهم إلى إثارة قلقاً للسعودية. وتقاسم أمريكا البيت السعودي مخاوفه. وإضافة لذلك فإن الغرب له مصلحة في بيع السلاح للسعودية برغم علمه أن اقتناء السلاح لا يصنع جيشاً قوياً. كل هذا جعل الغرب يقوم بدور خفي متأمر في لعبة التفات والتظاهر، بل إنه قام بتحويل هذا التظاهر إلى سياسة، ويسند هذا الاتجاه وجود قوة

وساطية تتكون من مجموعة من الأمراء أصحاب النفوذ وتجار السلاح الأقوياء، وسامسة السلاح الذين يحصلون على عمولات بمليارات الدولارات من البرنامج السعودي للتسليح. ونفس هؤلاء الأمراء الوسطاء هم صانعو القرار في السعودية وواضعو السياسات الدفاعية الزائفة. وبيت سعود يستخدم جميع المبررات للتظاهر بأنه يبني جيشاً قوياً وبالطبع فإن التبرير ليس صعباً بعد غزو العراق للكويت. ومن ناحية أخرى فإن الغرب خفض ميزانيات الدفاع والتسلح وقد أثر هذا على صناعة السلاح مما جعل هناك احتياجاً لإيجاد أسواق لبيع السلاح. والسعودية تحتاج (ظاهرياً) للتسليح وهي لديها النفط الذي يساعدها على شراء ما تحتاج. وبالتالي قام الغرب بتسهيل مهمة السعودية ورفع الحظر عن بيع الأسلحة للشرق الأوسط. وظروف السعودية ووضعتها وسط جيرانها تجعل من السهل إيجاد مبررات بضرورة حمايتها فحدودها تمتد لمسافة ٤٤٠٠ ميل، معظمها تقع بالقرب من جيران غير ودودين ولأسباب متنوعة فإن إيران والعراق والسودان واليمن والأردن تقف موقف معاد من السعودية، ويبلغ مجموع سكان هذه البلدان ١٠٠ مليون شخص وعدد أفراد جيوشها مليونين، وهي ترغب في تغيير النظام الحاكم في السعودية وتريد نصيبها في ثروات النفط كما تريد من السعودية أن تعتمد عن أحضان الغرب الذي كان طول عمره معادى لمصالح أبناء المنطقة لخدمة إسرائيل. وإسرائيل لاتؤيد الدعم العسكري للسعودية مما قد يجعلها تتفوق عليها كما أنها غير راضية عن علاقة السعودية بالغرب (تشير مختلف الدراسات الإسرائيلية إلى أن السعودية هي الخطر القادم على إسرائيل وتطالب باعتماد الغرب على قوا إسرائيل العسكرية).

تحولت السعودية إلى أكبر مركز لشراء السلاح في المنطقة وامتثلت بالوسطاء وسامسة السلاح من كل أنحاء العالم. ولم تعد مجرد مستوردة للسلاح وإنما أصبح الأمراء هم الوسطاء في عمليات البيع. باختصار أصبحت السعودية مشغولة بقبول

العمولات من شراء السلاح أكثر من اهتمامها ببناء جيش قوى يحميها. ولم يعد التظاهر يجدى. كان عدد قليل من الصحفيين والمراسلين الأجانب يعلمون بحقيقة الأمور لدى السعودية إلا أن هذا قد انتهى وأصبحت الصحافة الغربية ملعة بلعبة التصنع والتظاهر هذه. وقد أجبرت أزمة الخليج هؤلاء الصحفيين على التعامل مع الموضوع الأساسى وهو قدرة السعودية العسكرية، وأخلوا ببشون عن أجوبة. منها أنه لم يقم أحد بغزو السعودية أو التهديد بغزوها كما توجد بحوزتنا وثائق تؤكد أن غزو السعودية لم يكن فى ذهن صدام حسين، ويزيد هذا رأى بيير سالنجر لى كتابه «وثائق حرب الخليج». فبالنسبة للمواطن السعودى فإن الكويت كانت دائما جارة متفطرة وخليعة ومحبة للمال ومثيرة للمشاكل، ولا يفهم كثير من المواطنين الدافع لحرب الخليج كما أن عددا كبيرا منهم خاصة المتدينين لا يفهمون جلب قوات أجنبية لمحاربة شقيقة عربية مهما كانت اخطاؤها. وآخرون يستفربون من أن مليارات الدولارات التى أنفقت فى الماضى على الجيش وضباطه لم تغلغ فى إنشاء جيش قوى قادر على حماية السعودية ضد جيرانه. كما أن أسلوب السعودية الذى اتبعته خلال الأزمة كان مرفوضا خاصة عندما أعلنت أنها غير قادرة على مواجهة صدام وحدها وأن مساعدة العرب والمسلمين أيضا غير كافية. وهناك عامل آخر يجعلنا نعتقد أن البحث عن أجوبة للمشكلة داخل مخلفات حرب الخليج غير كافى فالعراق كانت أقوى جارات السعودية وقد أنفقت مليارات لتحصل على أسلحة حديثة ومتطورة ولديها مليون جندى كاملى العتاد والعدة لديهم خبرة اكتسبوها من حرب الشمانى سنوات مع إيران، ناهيك عن المساعدات الغربية المباشرة وغير المباشرة. إذن العراق كانت حالة خاصة. وأى تقييم معقول للقدرة السعودية العسكرية يجب أن يعتمد على تحليل لأهداف الدفاع السعودية، وطبيعة برنامجها التسليحي. لكن قبل الانخراط فى فحص الحقائق والأرقام يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن برنامج التسليح السعودى قد يكون هدفه سعوديا وقد لا يكون

كذلك. بمعنى آخر فإنه ربما يتعارض مع سياسات الدفاع المعلنة. ومواجهة المخاطر المحيطة بالسعودية تتضمن تسليحها لحماية ثروتها من الطامعين. وبما أن السعودية والبيت السعودي هما شيء واحد فإن بقاء البلد مساوياً لبقاء البيت السعودي بوصفه الحاكم المطلق والمسيطر على هذه الإقطاعية الخاصة.

ومن ناحية ثانية فإن المواطن السعودي ليس لديه مشكلة مع جيرانه وهو مقتنع بضرورة مشاركتهم-المتوسطة- في الثروة. لكن كما رأينا فإن الجيش السعودي والقوات المسلحة غير مؤهلة لحماية البيت السعودي كما أن ولاها لهذا البيت مشكور فيه. وهنا ينشأ سؤال وهو هل تريد السعودية فعلاً جيشاً قوياً يحميها من جيرانها- وبالتالي يعرض البيت السعودي للخطر؟ والإجابة على هذا السؤال تدفع بعض الخبراء مثل روزي هوليس عضو المعهد الملكي للخدمات المتحدة إلى القول: «إن ما يقوم به هؤلاء الناس ليس لديه علاقة بسياسة دفاعية عاقلة» وهذه العبارة تؤكد ما أراه من أن الإجابة هي: لا وبينما تتظاهر السعودية بشراء السلاح لإقامة جيش قوى فإن البيت السعودي لا يريد جيشاً قوياً ليطيح بحكمه. والاحتفاظ بالحرس الوطني ودعمه وتقويته يؤكد عدم ثقة البيت السعودي في الجيش. والجيش السعودي يتألف من ٤٠.٠٠٠ إلى ٦٠.٠٠٠ فرداً ومعظمهم من قبائل لم يكن البيت السعودي على وفاق معها في يوم من الأيام. لكنه من أين سيجيء بأناس آخرين؟ والحرس الوطني مكون من ٣٢.٠٠٠ أغلبيهم من البدو الوهابيين وهم مستقلون وقد تم شراؤهم في الماضي، إلا أنهم أقل تعرضاً للأفكار القومية والأيدولوجيات الخارجية، ولولاؤهم لبيت سعودي شخصي وقبلي وليس قومياً وهم لا يفهمون فكرة معقدة مثل فكرة الدولة القومية. والجيش السعودي تم وضعه في معسكرات بعيدة عن المدن ويعيد عن مراكز الحكم مما لا يمكنه من القيام بانقلاب، بينما يتركز الحرس الوطني في المدن الرئيسية مثل الرياض والظهران وجدة وهو موثوق فيه وتعتمد عليه الأسرة المالكة في حمايتها. والسياسة السعودية تستخدم

الحرس الوطنى كغطاء ضد الجيش النظامى، وهى تعمل دائماً على ترقية الحرس الوطنى ودعمه بالأسلحة المتطورة والمعدات ليقابل المعدات التى يشتريها الجيش وقد تم تزويده بطائرات هليكوبتر وحاملات ومن المتوقع قيامه بشراء دبابات وارتفع عدده من ٢٢.٠٠٠ فرد فى عام ١٩٧٥ إلى ٣٢.٠٠٠ فى الوقت الحالى. إذن فإن الحرس الوطنى يزداد كماً وكيفاً بينما لا يطور الجيش على الإطلاق. ويوافق عدد من خبراء السلاح على ماتدعيه المعارضة من أن عديدة الجيش المعلن عنها غير صحيحة والشيء الذى يشير خوف الأسرة المالكة هو استقلال القوات الجوية، لذلك تجدها منزوعة السلاح على الرغم من أن ٧٠٪ من الطيارين هم من أفراد الأسرة المالكة واقربائهم وأصهارهم. وعدد كبير من المجندين فيها هم من جواسيس الأمن والخدمات. ولكن هذا لم يضع نهاية للمشاكل، فإبان حرب الخليج أنشئت ستة من الطيارين من غير أفراد الأسرة المالكة حيث طار أربعة منهم إلى الأردن وإثنان إلى السودان.. وطريقة تكوين هذه القوات هى أصدق دليل على عدم رغبة البيت السعودى فى بناء جيش قوى. وفى السعودية لا يوجد نظام تجنيد إلزامى. والاحتياطى الذى يتحدثون عنه لم يجرى له تدريب كما أنه مكون من شباب صغار فى السن أو من رجال طاعتين فى السن، فشيخ الوهابيين فى عسير مشول عن ٤٠٠٠ من هؤلاء الاحتياطى الذين توفى معظمهم منذ وقت طويل.

تعتبر الفترة من عام ١٩٧٥ وحتى عام ١٩٨٢ فترة حرجة إذ شملت اضطرابات ومجذبات مثل الحرب العراقية الإيرانية وحركة المسجد الشريف فى مكة وهى حوادث كان يمكن أن يكون لها نتائج عكسية. وبعد حرب الخليج تطور الخلاف حول عديدة ونوعية القوات المسلحة وذلك عندما أعلن الأمير خالد بن سلطان عن مضاعفة قوة الجيش ودمجه مع الحرس الوطنى دون أخذ رأى الملك. وتقول الشائعات أن هذه الحادثة هى السبب فى استقالة أو فصل الأمير. والتزم الملك فهد بسياسة العائلة فى الإبقاء.

على الجيش صغيرا ومتفصلا وضعيفا وذلك بالطبع ضد رغبة قائد القوات العربية فى حرب الخليج. وهو رجل عسكرى يعترف بأن حدودا طويلة وممتدة كحدود السعودية تحتاج إلى جيش كبير وقوى ومتماسك ، ونورد بالأرقام أن القوات المسلحة السعودية قتل ٠.٧٪ من السكان مقارنة مع ٠.٥٪ فى العراق و٦.٥٪ فى سوريا و٧.٥٪ فى إسرائيل.

إذن فالظاهر فاق كل حد معقول فى هذه المرة.. ووصل إلى حد الخطورة سواء فى التكلفة أو فى نوع التصليح أوفى برنامج جلب السلاح ككل، مما يستدعى وقفة جادة لتحليله بكل أبعاده. وفى مايو ١٩٨٧ زعمت صحيفة واشنطن ستار أن السعوديين قادرين على تشغيل واحدة فقط من طائرات الـ أوكس الخمسة التى أجروها من الولايات المتحدة . والسيناتورات ورجال الكونغرس الذين ناقشوا هذا الموضوع لم ينظروا إلى الأمر بعمق. وفى يولييه من عام ١٩٨٨ كتبت الفاياناشيال تايمز أن السعوديين لا يملكون الكفاءات البشرية الموازية للسلاح الذى يشترونه، ومرة أخرى كتبت الابكونومست فى ١٨ يولييه من عام ١٩٨٨ أن السعودية غير قادرة على استخدام الألف دبابة من طراز أوساريو التى تنوى شراؤها من البرازيل، وتحدث دافيد رود من صحيفة هيرالد انترناشيونال فى نفس الموضوع. وفى عام ١٩٨٩ أصدرت مؤسسة الدراسات الاستراتيجية الدولية ذات الصيت حكمها النهائى حين قالت «إن الجيش السعودى لا يتطور فى حجمه مع المعدات التى يحوذته» كل هذه الحقائق لم تغير شيئا من مواقف بعض الصحف الغربية الموالية للسعودية التى تواصل الحديث عن «احتياجات السعودية الدفاعية المشروعة».

والسعودية متغمسة فى حمى شراء أسلحة تشمل عقودا لشراء طائرات F15 وصواريخ باتريوت وطائرات هيوجز الدفاعية وقنابل الليزر وبارجات حربية كندية وزوارق طوربيد فرنسية وطائرات بريطانية وطائرات هليكوبتر وقوارب حربية من وكالة

القضاء البريطانية وطائرات هليكوبتر من ماركة وستلاند. وفي الستة شهور الأولى من عام ١٩٩٢ فقط وقعت السعودية عقودا لشراء ما قيمته ١٧ مليار دولار من المعدات العسكرية. وعقدا آخر قيمته مليار دولار لشراء ٧٢ مقاتلة من طراز F15. وفي الثمانينات كان الكونغرس يعترض على بيع السلاح لمنطقة الشرق الأوسط لكن الظروف داخل مصانع السلاح أجبرته على تغيير موقفه ولم يعد يوجد الآن رادع عن بيع السلاح. وخططت السعودية في اغسطس من عام ١٩٩٢ لبناء مدن عسكرية كاملة تبلغ مساحتها ٦٠٠ كيلو متر مربع جنوب مدينة الرياض، وتبلغ قيمة هذا العقد، ١٢ مليار دولار وتقع هذه المدينة العسكرية وسط منطقة خالية. وخلال الخمسة عشر عاما الماضية كانت ميزانية الدفاع تتراوح ما بين ١٢ إلى ١٨ مليار إلا أنها ارتفعت كثيرا منذ عام ١٩٩٢. وعلى حسب التقديرات الحكومية فإن عدد العسكريين السعوديين هو ١١٠.٠٠٠ شخص (٥٠.٠٠٠ في الجيش ٣٢.٠٠٠ في الحرس الوطني و١٥.٠٠٠ في القوات الجوية و٤٥٠٠ في البحرية ٦٥٠٠ في حرس الحدود) وهذا يعنى صرف سنوى على العتاد يساوى ما بين ١١٣.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ دولار للجندى الواحد. أما الأرقام غير المسجلة فهى كميات النفط التى تتم المقايضة بها لشراء هذا السلاح. ولم تسجل كميات النفط الضخمة التى دفعت فى صفقة البعامة (١) البريطانية. ونفس هذا الإسلوب اتبع فى دفع عقود البعامة (٢) (مناقش هذا الأمر بالتفصيل لاحقا) وبالرغم من أننا نعتبر أن الأرقام التى وضعت للدفاع فى عام ١٩٨٢ عالية بشكل غير عادى فإن ميزانية وزارة الدفاع السعودية كانت تقع فى الترتيب السادس أو الثامن لأعلى ميزانيات فى العالم وإذا أضفنا إلى ذلك السعر الخفى للنفط الذى تتم المقايضة به يصبح الرقم ١.٥ مليون كحد أدنى لمعدات مقابل الفرد الواحد من القوات المسلحة فى السنوات من ١٩٨٢ إلى ١٩٩٠ والقوات الجوية هى أعلى الأقسام تكلفة. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن أفراد القوات الجوية الأمريكية

يبلغون ٥٤٣.٠٠٠ شخص وطبقنا عليهم ذلك الرقم فإننا سنحصل على ميزانية معدات قدرها ٦٥ إلى ٨٦ مليار دولار. ورغم أن الرقم الأصلي للقوات الجوية الأمريكية متضلل إلا أنه أقل من نصف هذا الرقم . لكن القصة أسوأ بكثير من مجرد تحليل مالي بسيط. فعدد العربات المدرعة التي يمتلكها الجيش السعودي مع استبعاد الكمية التي تحت الطلب التي لم يتم تسلمها بعد) يبلغ ٢٦٠٠ عربة مكونة من عربات AMX الفرنسية والفهد الألماني وM60 الأمريكية وسكوربيون البريطانية ودبابات أوساريو البرازيلية، وحاملات عسكرية من مختلف الأنواع. إضافة إلى ٨٠٠ قطعة من المدفعية ومدافع هاون ومدافع قاذفة. لكن كل هذا لا يجدي إذا لم يتوافر العنصر البشري القادر على استخدامها أو تركيبها. وفي عام ١٩٨٤ تم بناء أكاديمية جوية لتستوعب ٥٠.٠٠٠ طالب حربي وموجهين وموظفين لكنها لم تستوعب أكثر من ٦٠٠٠ شخص وبنيت قاعدة حفر الباطن العسكرية لتستوعب ١٤.٠٠٠ طالب ولم تستوعب سوى ٢.٠٠٠ وكان هناك ١٥ قاعدة جوية فارغة في الطائف ويقال أنها في أحد المرات كانت تأوي ثلاثة أشخاص فقط. ومدينة خالد العسكرية التي تكلفت ٨ مليار دولار خصصت لـ ٨٠.٠٠٠ شخص و٣ لواءات مدرعة لكنها لم تستوعب سوى ٢٠٪ وما بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٥ بنت شركة كيني تام الكورية وشركة سامبو ٧٠٠٠ قرية للحرس الوطني واثنتان تأثيثا كاملا شمل حتى التليفزيونات وأجهزة الفيديو ولكنها ظلت فارغة. فإذا استقرأنا أرقام المعدات العسكرية السعودية وطبقناها على عراق ما قبل حرب الخليج سنجد أن العراق كان يملك ٦١.٠٠٠ دبابة وعربة مدرعة و ١٦.٠٠٠ قطعة مدفعية- وكنا نرى أن ٣٧٠٠ دبابة قليلة جدا. ونفس الشيء ينطبق على القوات الجوية السعودية فهي تقتنى ٤٠٠ طائرة مقاتلة و ٣٢٠ طائرة هليكوبتر و ٢٦٠ طائرة أخرى مقابل ١٥.٠٠٠ شخص وهي بالتأكيد أعلى نسبة معدات مقابل أفراد في العالم. وقد قامت السعودية مؤخرا بتوقيع عقد لشراء ٧٢

طائرة F15 أمريكية وتتفاوض الآن على شراء طائرات تورنادو بريطانية قبل استلام التي اشترتها من قبل،. والوضع في البحرية السعودية أكثر عبثاً، فهي تملك ١٦٠ زورقا منها ٤ بارجات و٤ طرادات و٩ قوارب حراسة طراز بيترسون وهذا يعطينا نسبة ٢١.٦ شخصا للمركب الواحد، وهو حجم مهول بصرف النظر عن حجم المراكب. وفي بعض الأحيان تكون العددية أمرا لا يتصوره العقل مثل شراء مليون بدلة مضادة للأسلحة الكيماوية والنووية والبيولوجية وهذا معناه ١٠ بدل للجندى الواحد ويبلغ سعرها ٤٥٠ دولار (وهذه لم تستعمل على الإطلاق). وفي معظم الأمثلة التي أوردناها فإن تحليل ومقارنة النسب مع الأفراد لم تهتم لنوعية المعدات. لكن هذا لا يهم لأن الأرقام تعطي فكرة جيدة عن الموضوع سواء كانت هذه المعدات متطورة أم عادية كبيرة أم صغيرة. وعندما نأخذ في الاعتبار عدم تأهل القوات المسلحة السعودية فهذا يعني أننا نحتاج إلى المزيد من الناس مقابل كل بند من هذه المعدات أكثر من الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا- وحينذاك يصبح الرقم أسوأ. وقد علق جيمس اكينيس السفير السابق للولايات المتحدة لدى المملكة بقوله «ما يحدث غير مقبول بالمرّة وكان يجب أن لا يأخذوا إلا ما يستطيعون استخدامه». وتوجد كثير من الأمثلة في حرب الخليج عن ضياع كثير من هذه المعدات هباءً» ويقول روبرت فيسك مراسل الاندبندنت أنه قد تم القاء مئات الشاحنات التي نسيها السعوديون في وسط الصحراء» ويقول صحفي عربي يعمل في الـ BBC ضاحكا «أنا متأكد أن الشاحنات أكثر من السواقين ، لقد رأيت ذلك بنفسى» ويقول أحد مراسلى شبكة CBS «إذا نظرنا إلى المعدات نقول أن لديهم جيش لكن إذا نظرنا إلى الرجال نقول أنه ليس لديهم جيش». إذن فإن النقص مزدوج لأنه نقص في عدد الأفراد ونقص في تأهيلهم. ولم يساعد وجود بعثة عسكرية أمريكية في المملكة منذ عام ١٩٥١ على قيام نظام عسكري حقيقى. ففي مجتمع تبلغ فيه نسبة المعلمين ٥٥٪ فقط يصعب التعامل مع صواريخ دينج فو ١٢٠٠ ميل

الآتية من الصين أوالتروس الألكترونية الموجودة فى F15 وأجهزة الرادار المصنوعة فى تكساس. وقد قام السعوديون خلال حرب الخليج بإسقاط طائرتين حربيتين بحرايتين عن طريق الخطأ لأنهم لم يستطيعوا التمييز بينهما وبين طائرات عراقية سوفيتية الصنع. وتم التمسك على الخبر واحتفظ الذين تسببوا فى الحادث بميدالياتهم. والمشكلة ليست مشكلة عجز مواطن عن التعامل مع السلاح المتطور. وإنما مشكلة جلب أسلحة من أقطار متعددة. والتنوع فى السلاح قد يخلق صعوبة حتى على المتمرس على استخدامه، ويقول انتونى كوردسمان خبير التسليح فى الشرق الأوسط «أن الغرب تجاهل موضوع عجز السعودية عن إنشاء قوة عسكرية فعالة وتبع مصالحه الاقتصادية دون حتى أن يحاول تنسيق عمليات بيع السلاح للسعودية أو التنسيق بينها وبين حليفاتها الأخريات من دول الخليج» والطريقة المتبعة فى بيع السلاح تجاهلت فكرة رئيسية معروفة وهى أن هذه الأسلحة صنعت خصيصا لتستخدمها القوات الأمريكية- التى تدرت عليها. كما أن تنوع سلاح ما بين أمريكا وفرنسا والمجلترا مثلا يخلق نوعا من عدم التناسق بين فيلق وآخر. وهناك عامل آخر هام هو أن السعوديين فى القوات المسلحة لا يستطيعون النجاح فى الحياة المدنية وهم فى الأصل أناس جذبهم اغراء الامتيازات الضخمة الموجودة فى الجيش من اقتناء للبيوت الفاخرة والخدم وخدمات التليفون المجانية. ومعظم أفراد هذه الطبقة من الأسرة المالكة وأقاربهم وأصحابهم وأصدقائهم مما يجعل أمر تكوين القوات المسلحة نفسه يستحق إعادة النظر، ونظام إصدار الأوامر يخضع للمحسوبية والمحاباة. والأمير يتجاوز أوامر رئيسه المباشر لصلته بوزير الدفاع. وكل هذه أمور يمكن أن تسبب دمارا بالنسبة لنظام الانضباط فى القوات المسلحة.. ويقول أحد خبراء الكمبيوتر فى واشنطن «أنهم لن يبلفوا مستوى جيرانهم الكبار حتى ولو بعد خمسين سنة».

إذن توجد معدات أكبر وأكثر مما يستطيعون استخدامه ومساكن أكثر من عديدة

الناس المفترض إقامتهم فيها. والموجودون لا يملكون التأهيل لإدارة ما بأيديهم. وعلاوة على ذلك توجد المعاناة. لذلك بقي الجيش السعودي ضعيفا وقليل العدد وغير قادر على حماية البلد من بلاد أخرى في المنطقة قادرة على تشغيل أسلحة ضخمة ومتطورة مثل العراق وإيران، لكن اللعبة مستمرة والملك فهد يطلق التصريحات حول «بناء وتقوية الجيش السعودي» بينما هو يعارض توسعه أو زيادة عدده ووزير الدفاع يتحدث عن أن المستقبل للتكنولوجيا العالية وأن نقل التكنولوجيا الحديثة لا يتم إلا بشراء السلاح. وليس هناك بادرة حول انتهاء حمى شراء الأسلحة. وتقول روزي هوليس «إنهم يجدون دائما ذريعة لما يطلبونه ولما سوف يطلبونه» ويقول أحد أفراد المعارضة السعودية في الخارج «أن الملك فهد وأخيه سلطان يسوقون الحجج لتبرير صرف ١٠٠ مليار دولار ثمنا لأسلحة تم شراؤها بعد حرب الخليج». وهذه المواقف جميعها تخفي المزيد من التخداخ والسعودية لا تستطيع حماية نفسها وتنتظر من القوى الخارجية أن تفعل ذلك. ولا تستطيع بلاد عربية صديقة مثل مصر وسوريا حمايتها كما أنهما لم تكونا صديقتان لها لفترات طويلة من الزمن. ولم تضيع السعودية أي وقت بعد حرب الخليج وإنما طلبت من القوات المصرية والسورية المغادرة فورا. ولا يثق السعوديون في القوات الباكستانية الإسلامية. وكانت السعودية قد طلبت من الباكستان سحب الجنود الشيعة من صفوفها فغضبت الباكستان وسحبت فرقها جميعها. إذن السعودية تخشى القوات العربية وتخاف أن تحدث القوات الإسلامية اضطرابات داخل المملكة لذلك لم يبقى لها سوى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن اعتمادها على أمريكا أصبح واضحا وصرى منذ أزمة الخليج إلا أن السعودية ما تزال تجد صعوبة في الإعلان عنه خوفا من تزايد خطر العرب والإصويين الإسلاميين وأمريكا تستطيع أن تساعد السعودية لكنها لا تستطيع الدخول معها في حلف. ويقول روبرت كورمر مستشار الأمن القومي السابق «جزء من هذه المشكلة هو أن اللوبي الإسرائيلي لن يوافق أبدا

على معاهدة بيننا وبين السعودية، وهذا هو ما يجبر السعودية على القبول بالموقف الحالي، ومن السهل أن تقوم بتطير كل هذه الاحتمالات وتوصل لنظريات حول وجود توازن بين البيت السعودي والغرب، حامى حما، خاصة وأن لكلا الجانبين مصلحة في إخفاء هذا الاعتماد وهو ما يجعل السعودية تشتري المزيد من السلاح لتبرهن على عدم اعتمادها على أحد. ومؤخرا أصبح شراء السلاح من جانب السعودية عنصرا أساسيا وهاما للإقتصاد الأمريكي، خاصة بعد زيادة حجم البطالة في مجال الدفاع في كل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا والبرازيل. مما جعلها تبحث بشدة عن سوق لسلاحها من أجل إنعاش اقتصادها. وأصبح اعتماد هذه الدول على السوق السعودية كبيرا، لدرجة أن صانع السلاح الفرنسي (ميترا) طور صاروخ «شاهين» خصيصا من أجل السعودية. ووقعت البرازيل اتفاقية مدتها خمس سنوات لصنع سلاح للسعودية، ويؤكد وزير الدفاع البريطاني جوناثان إيتكن أن بريطانيا تعتمد على السعودية في تمويل صناعة المقاتلة الجوية الأوروبية الجديدة وهي مقاتلة حديثة يتوقع لها أن تقابل احتياجات أوروبا الدفاعية في القرن القادم.

وفي أمريكا يقوم متعهدو وزارة الدفاع وبعض السناتورات وأعضاء الكونغرس من الولايات التي تضم صناعة المقاتلة F-15 بجمع توقيعات لرفع عريضة للحكومة الأمريكية للسماح لها ببيع المعدات الحربية للسعودية. وكما رأينا من قبل فإن هذا يتم في بلد يعتبر فيه صانع القرار والوسيط هما شخص واحد. وبصفة عامة فإن الوسيط هو الشخص الذي يساعد شركة أجنبية في الحصول على عمل في هذا البلد الغني، لكن مع وجود العمل المناسب ووجود الشركة المؤهلة للقيام به يصبح وجود الوسيط ضروري. وبالنسبة لكثير من المؤسسات الغربية فإن الحصول على عقد هو عمل منظم ومعاملة تجارية قانونية تعود بالفائدة على جميع الأطراف المشتركة لكن في السعودية هي ليست مجرد معاملة عادية وإنما صفقة، أي شأن خاص على أعلى المستويات وغالبا

ما يكون متجاوزاً للقانون. ويصبح كم الربح خاضعاً للهوى الشخصى والطمع أكثر من خضوعه لقواعد تجارية معروفة ولا تتم إلا باكتمال ميكانيكية دفع نصيب الوسيط. والمفاوض أو الوسيط هو الشخص الذى يضيق الفجوة بأن يترجم أسلوب الطرف الأول للطرف الثانى من أجل تحقيق تسوية مؤقتة مقبولة للطرفين.

لكن من هو المفاوض حقيقة؟

أنا هنا أتحدث عن مصطلحات متنوعة مثل وسيط، سمسار، مفاوض منظم صفقات ومتعهد. وفى الواقع فإن أقرب الصفات لما نريد التحدث عنه هما منظم صفقات ومفاوض، لكنها تعابير مزعجة واللفظة الشائعة وسيط هى البديل المناسب. والوسيط فى السعودية يوفق فى العمل بين أساليب الشرق والغرب وهو يقوم بإيجاد شركة تريد أن تؤدى عملاً فى السعودية بامتياز أعلى من امتياز منافسيها وأن يحول هذا الامتياز إلى أعلى ربحية ممكنة. وهو يفعل ذلك بأن يجعل أحد أمراء الأسرة المالكة ينضم إلى مصالح هذه الشركة مقابل عمولة أو رشوة وأصبح الوسطاء مرتبطين بتجارة السلاح لأنها تدفع أعلى عمولة- تجاوزت منصرفات وزارة الدفاع السعودية ٣٠٪ من ميزانية البلد على مدى أعوام وأصبحت عقود الدفاع الشخصية أعلى تكلفة من العقود الأخرى، وفى الوقت الحالى يوجد ٢٢ عقداً منفصلاً تقدر قيمته بـ ٥٠٠ مليون دولار لكل منها. وبعض هذه المنتجات الدفاعية فريدة مما يجعل الوسيط يحصل على مبالغ خيالية. وكل هذه مجرد مقدمة لعملية شراء السلاح السعودية. فالموضوع ساخن للغاية ويشير اهتمام العالم ومرتبطة بفضائح مالية وتعقيدات أخرى ولكى يصبح الشخص وسيطاً يجب عليه أن يتحالف مع أمير سعودى ملم بأماكن العقود ومؤثر بحيث يستطيع منحها. وبعد أن يصبح الوسيط امتداداً للأمير فإنه يذهب ليطابق بين الشركة والعمل الذى يستطيع الأمير القيام به أى أن يضع العقد المناسب للشركة المناسبة بأعلى ربح ممكن ويكون فى نفس الوقت مقبول للشركة وللأمير معاً. وبالطبع يقع كثير من الوسطاء

فى أخطاء متنوعة مثل اختيار البلد الخاطىء أو التعاقد مع جهة قليلة الخبرة أو الأقل تأهيلا. فبعض شركات البناء والسعمر أعطيت عقود لتشييد مستودعات ذخيرة وفازت شركة شاحنات فورود وشيفرولية بأحدى المناقصات مع أنها لاتستطيع مقابلة المتطلبات القاسية للصحراء، وفى بعض الأحيان استخدمت معدات خاطئة فى معامل بعض المدارس وتم شراء معدات تستخدم مقاييس مختلفة عن المستوى المعتاد فى السعودية. وهذه اللعبة التوفيقية تكشف عن مدى مهارة الوسيط أو عدمها، لكن متطلبات قدرته تتجاوز كل حد فهو لابد أن يكون لحوحا لكى يقنع شركة ويحثها على التعاون معه وكل هذا يعتمد على سجله وعلى مدى نفوذ أميره الكافل فمثلا يعتبر عدنان خاشقجي وسيط رفيع المقام لأنه صديق مقرب للملك فهد ولوزير الدفاع، كما أنه رجل خبير بالحياة والناس ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، ويدل سجله على أنه حصل على عقود هامة لشركات غربية كهبرى مثل لوكهيد ورولنزويس وجرومان وغيرها ولايوجد من يائله فى أسلوبه. ولاتوجد شركة ترفض التعامل معه برغم أسلوب حياته المترف وتورطه فى كثير من الفضائح، وقضاؤه بعض الوقت فى السجن(انظر الفصل التاسع). ومع وجود أغلبية تصل إلى ٧٠٠٠ أمير من المنقسمين فى هذا النشاط إلا أنه قد يحدث أن لا يكون نفوذ الأمير كافى لتحقيق مشروع بعينه، فمثلا قام أحد أمراء المنطقة الشرقية وهو أحد أبناء عم الملك وكولونيل فى القوات الجوية بمحاولة التعاقد مع شركة لبناء مستودع ذخيرة ضخمة لكنه وجد أن أميراً آخر أعلى مكانة منه يسعى للحصول على نفس المشروع. وهذا التسابق محصور فقط فى الأسرة المالكة. وهو امتداد للحكم المطلق. وإلى جانب الوسيط يوجد شخص آخر مهم لإيجاز هذه الصفقات وهو الرئيس المباشر للوسيط أو من هو أعلى منه، وهو فى الغالب الأمير القوى النفوذ الذى تلبى طلباته وهو الذى يحدد من يحصل على الصفقة وقد يكون هذا الشخص عضواً فى مجلس الوزراء أو أمير مقاطعة أو رئيس فرع فى القوات

المسلحة أو رئيس لجنة ملكية (مكلف مثلاً بالإشراف على مشروع تنموى معين، مثل بناء مدن فى آخر خط النفط فى جبيل وينبع)، ويعتبر الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع أهم وسيط سلاح على مستوى العالم ويأتى دوره الثانى فى خط الجلوس على العرش وهو من أغنى الرجال الأحياء على وجه الأرض. وإذا ما دمجنا مهام صانع القرار والوسيط نجد أنها تكمل بعضها، فصانع القرار هو الذى يحدد احتياجات البلد ويجب ارضاءه بصرف النظر عن من يكسب العقد. وإذا أخذنا فى الاعتبار قيمة وحجم العمل الذى يتم فى وزارة الدفاع فإنه يمكننا فهم الأمور بطريقة أفضل، وكل شىء يتم على ما يرام ما لم يكن حجم العقد أقل من مكانته ومركزه. فمثلاً جرت المنافسة بين الولايات المتحدة وبريطانيا لتزويد السعودية بطائرات F15 وتورنادو وتمت كلهما تحت سيطرة الأمير سلطان وقد فازت أمريكا بالعقد -وهذا لايعنى أن أصحاب هذه الشركات مثلاً يدفعون له مباشرة وإنما هو قادر على الحصول على نصيبه بطريقة لا تعرض الشركة المعنية للقوانين السعودية. وعندما تكون العمولة مئات الملايين من الدولارات كما هو الحال مع الصفقة أعلاه مثلاً يحصل هو على معظم الأموال بينما يحصل الوسيط الرسمى ورئيسه على نصيب عادى والوسيط الملكى يمثل نصيب عائلة سعود فى كل صفقة تتم فى السعودية، وهنا العمل لا تقتصر مضاره على انتشار الفساد - بسبب المبالغ المالية الكبيرة التى يحققها وإنما له عواقب مدمرة للغاية على طبقة التجار ورجال العمال. وأحياناً يصل الأمير فى مرحلة متأخرة ويقرر أن العقد كبير ويستحق اهتمامه فيوقف العملية لكى يتفاوض من جديد ويحدد نصيبه. ومثال على ذلك فإن أحد المتعاقدين السويديين كسب عطاء قدره ٥٠٠ مليون دولار لبناء مرسى فى مينا. جده واعطى عميله مبلغ ٢٪ وعندما سمع أمير المنطقة بالصفقة طالب بمبلغ ٣٪ لنفسه والا.. وبما أن الشركة لم تكن متأهبة لزيادة قيمة مادفعته اضطر عميلها إلى دفع المبلغ للأمير من جيبه الخاص لكى لا يجلب على نفسه غضب الأمير

وعقابه. وفي مجال الدفاع فإن استيراد مليون بدلة ضد الأسلحة الكيميائية يتم دون تدخل الأمير لأن الطلب الأصلي هو لعدد ٢٠.٠٠٠ قطعة، وعادة لا يتدخل الأمير إلا إذا زادت الطلبية عن المليون. وعندما يكون المنتج استثنائي ويحقق نسبة عمولة عالية فإن العميل يكون باستطاعته دفع نصيب الأمير الوسيط ومع ذلك يحقق ربحا. وما يفعله العميل والوسيط ليس هو الشيء الوحيد الغامض في هذا الموضوع وإنما حجم العمليات وطريقة دفعها أيضا تدخلنا في منطقة أخرى رمادية. وحجم العمليات يوضح لماذا كان صانع القرار هو نفسه الوسيط. وعلى الرغم من أن ميزانية السعودية تنهذب كثيرا بناء على تنهذب أسعار النفط والكمية المصدرة فإن ٧٠٪ من الأعمال التجارية في السعودية عرضه لأخذ عمولة (تصل هذه النسبة أحيانا إلى ٩٠٪). وفي العام الذي تكون فيه الميزانية مثلا ٥٠ مليار دولار تصل العمولة إلى ٣٤ مليار دولار. وحتى إذا كانت نسبة العمولة ١٠٪ فإنها تصل إلى مبلغ ٣٠٤ مليار دولار. وبهذا الشكل تتصاعد العمولة وتتراكم وتتكوم الأموال بعضها فوق بعض في أعلى السلم، ولكن نشرح هنا الأمر أكثر من ذلك نأخذ هذا المثال: - إذا كان بناء قصر الملك يتكلف ٢ مليار دولار تدفع من خزانة الدولة فإن الفائز بالمناقصة يوافق على عمولة قدرها ١٥٪ أي ٣٠٠ مليون دولار. ويقوم المتعاقد الغربي بإجراء أعمال تساوى ٧٢ مليار دولار يدفع منها للمتعاقد الأساسي عمولة قدرها ١٥٪ أي ١٨٠ مليون دولار. وقبل هذا يدفع الذي سيزود القصر بالمعدات والحمامات ١٥٪ للمتعاقد الغربي أي ٧٥ مليون دولار. وهكذا فإن العمولة الإجمالية التي تدفع هي ٥٥٥ مليون دولار وقد تصبح أكثر من ذلك إذا كانت النسبة ٢٥٪ أو أكثر. وإذا طبقنا هذا الكلام على الميزانية العامة للمملكة يكون الرقم الإجمالي هو ٩ مليار دولار في السنة. وهو رقم أكبر من ميزانية بعض الدول النامية مثل الأردن واليمن، وهو يساوي ميزانية المعونة الأمريكية الخارجية. وهذا بالطبع يفسر وجود كثير من المليارديرات وسط العائلة

المالكة. لكن في حالة دفع عمولة مستقيمة فإنها لا تمثل كل المبلغ الذي تم الحصول عليه عند توقيع العقد. والدفع هنا يمكن اقتفاؤه وربما ينتهي بمضيحة مثل ما حدث في لوكهيد. والولايات المتحدة لديها قوانين ضد هذا النوع من الفساد. والتقارير التي احاطت بصفقة التورنادو البريطانية وطائرات F15 الأمريكية توضح أن الصحافة في أمريكا وبريطانيا تقف كرتيب للتأكد من سلامة كل شيء. لذلك اضطر الوسطاء المليون إلى اختراع خطط جديدة تتسم بالمرواغة للتهرب من رقابة المحاسبين المهرة والجهات الحكومية الفاحصة، ولدى هؤلاء الوسطاء والعلماء خبرة كبيرة تمكنهم من اخفاء المبالغ المدفوعة بطرق قانونية. ويتم دفع العمولة غير المباشرة بـ طرق أساسية: الأولى توفير الخدمة للوسيط تحت اسم غير اسمه الحقيقي، ففي أمريكا نجد أن معظم العقود السعودية مع الشركات الأمريكية تتضمن وجود مستشارين دون أن يحقق أحد في ماهية هؤلاء المستشارين ومكاتب هؤلاء المستشارين المزعومين غير موجودة إلا على الورق. وأحياناً تقوم السلطات السعودية بمدة بكل الأوراق اللازمة، وبالطبع فإن مضاعفة التكلفة الحقيقية أو جعلها ثلاثة أضعاف تتم بمعرفة الوسيط التامة، وتوجد أيضاً مساحة لاستخدام خدمات محلية ليس هناك حاجة لها مثل الاستعانة بالمحامين ومكاتب الترجمة الذين يكافأون بمبالغ باهظة واستخدم هذه الطريقة أيضاً أبناء عائلة إبراهيم أصهار الملك فهد وقاموا بعمل كوسطاء لصفقة كانت جاهزة قبل وصولهم وكانت هذه الصفقة مع شركة الكترونيات عسكرية أمريكية يقع مقرها في تكساس وبلغت العمولة في هذه الصفقة مبلغ ٥٠ مليون دولار في العام، ولم تكن العملية بحاجة إلى وسيط لأن ممثل الشركة كان قد أكمل كل شيء.

وعندما طالب أبناء إبراهيم بالعمولة احتجت الشركة بأنها لا تستطيع الدفع مرة ثانية لأنها قد دفعت للتعديل وهددت الشركة بفسخ العقد ولكن أبناء إبراهيم هددوها تهديداً صريحاً. وبعد مناقشات مضنية استسلمت الشركة وعيبتهم كمستشارين ودفعت لهم

الملايين على أساس أن لهم مكتبا يضم عشرات العاملين، والحقيقة أنه ليس هناك مكتب بالرة . ويقول رئيس الشركة الأمريكية وهو حزين لا يوجد أحد في السعودية أو الولايات المتحدة ليحمينا منهم، لقد وجدنا أنفسنا تحت رحمة أناس لا يخلجون من شيء وهم على استعداد للتضحية بأمن البلاد في سبيل مصالحهم ، يستخدمون أساليب لجة متخلفة»

والطريقة الثانية المتبعة في الحصول على العمولة غير المباشرة هو استخدام نظام المقايضة كما حدث عند شراء طائرات البرق البريطانية السريعة في الستينيات، وشراء طائرات بوينج ٧٤٧ في الثمانينات وكذلك إيجار طائرات أو اكس. وفي جميع هذه الحالات لم يكن هناك سوء نية من جانب الشركات التي ساهمت في الصفقة كما أنها لم تحقق أرباحا من وراء ذلك وقد كانت العمولة تدفع بنظام حسابي داخلي. وفي الدفاتر السعودية الرسمية كان السعر الذي يكتب ليس دقيقا. فإذا كانت القيمة عشرة براميل من النفط فإنها تكتب ١١ برميلا. وبعد ذلك يشحن النفط إلى روتردام لبيع في الأسواق الحرة وتأخذ الشركة قيمة عشرة براميل ويدفع الباقي للوسطاء.

عند إجراء صفقة طائرات البرق خاف أحمد زكي يمانى وزير النفط من أن تتضايق منظمة أوبك إذا تم تجاوز كمية النفط المسموح بإنتاجها لتستخدم في المقايضة لهذه الصفقة فحاول بشتى الطرق منع صفقة البوينج لكن دون فائدة (انظر الفاصل التاسع). وبالطبع فإن البلد الذى يزود المملكة بالسلعة لا يستطيع التحكم في هذه الممارسات لأنه لا يستطيع أن يتفحص الدفاتر السعودية، وعلى السطح يبدو كل شيء سليما وقانونيا وعليه توقيع معتمد والوثائق التى يستخدمها أصحاب الملك فهذه مثلا تضم قائمة بالأسماء الكاملة لـ ٤٠ من العاملين، وبامتطاعتهم أن يأتوا بأربعين اسما آخر، كلها وهمية.

أما الطريقة الثالثة لإخفاء العمولة فهي طريقة محلية وقانونية وتتم عن طريق منح

عقودات فرعية. فلكل مجموعة وسطاء متعاقد أو مقاول فرعى يقوم بالهجاز ٣٠٪ من أعمال المشروع الذى يطره صانع القرار ثم يحول بعد ذلك إلى المقاول الفرعى المحلى، وتطالب بمجموعة الوسطاء الشركة أن تدفع للمقاول الفرعى رسوم تضخم تصل إلى حوالى ٤٠٪ تضم بالطبع نسبة الـ ١٠٪ الإضافية لتغطية عمولاتهم . وما على المتعاقد الرئيسى إلا قبول السعر الذى حدده المقاول الفرعى، ثم يتظاهر بعد ذلك بأنه لم يرى شيئاً وهذا هو السبب فى أن أسعار بعض المشاريع تبدو غير معقولة على الإطلاق فى نظر المقاول الغربى مثل ما هو الحال بالنسبة لبناء القصور والشكنات العسكرية.. والمدن الرياضية الضخمة التى شيدتها الأمير فيصل بن فهد فى جدة والرياض والظهران تؤكد نوع هذه المبالغة ، وهذه المدن تكفى لاستيعاب ناس أكثر من الذين يحضرون المناسبات الرياضية فى المملكة . وكذلك مطار الملك خالد فى الرياض الذى نفذته شركة بشتل وتكلف ٣٠٤ مليار دولار، ويعلق أحد المقاولين الأمريكيين بقوله بمثل هذه التكلفة استطاع بناء خمسة مطارات، وقد تضاربت الأرقام حول تكلفة جلب مؤن غذائية للقوات الأمريكية خلال حرب الخليج. فأحد الأرقام يوضح إنفاق ١٣٣ دولار للجندي فى اليوم الواحد بينما تقول إحصائية أخرى أنها ٧٠ دولار. وكلا الرقمين يعتبر عالياً جداً إذا ما قارناه بـ ٣٠ دولار وهى تكلفة طعام الجندي الفرنسى فى اليوم.

أما الطريقة الرابعة- وهى تعتبر مستحدثة نسبياً- فتتم عن طريق تطوير نظام العقود من الداخل أو ما يسمى بالصفقات المتوازنة، وعندما تصمم الحكومة السعودية على أن توضع نسبة من قيمة التعاقد بحوزة شركة سعودية فهذا معناه أنها تشجع على اكتساب نظام جديد. وفى العقود ذات العائد التكنولوجى التى تقع تحت سلطة وزارة الدفاع ، فإن مجموعة الوسطاء تؤسس شركة جديدة للهجاز العمل- لأى عذر مثل أن الشركات الموجودة غير مؤهلة وقد طبق النظام الجديد للدفع غير المباشر لأول

مرة في عام ١٩٨٦ عندما قامت أمريكا ببيع نظام دفاع جوى للسعودية. وقد أنشئت شركة السالم السعودية لتقوم بأعمال الصيانة للسلعة الموجودة في العقد بنسبة ٣٥٪ أى ١.٢ مليار دولار. ورفضت شركة هويج و ITT ووستنجهاموس التعليق على الصفقة والتزموا فقط بتنفيذ الجزء الخاص بهم في العقد. وقد ساهموا بنسبة ٤.٥ مليون دولار في انشاء «السالم» بينما دفع الشركاء السعوديون رقما مائثلا، ودفعت الحكومة السعودية ٢١.٥ مليون دولار من خلال منحة التنمية الصناعية، ودفعت البنوك التجارية مبلغ ١٠.٧٥ مليون دولار. ويعنى آخر فإن الشركات السعودية التي دفعت ٤.٥ مليون دولار فقط هي التي تسيطر على الشركة برأس مالها الذي يبلغ ٤٣ مليون دولار والشركة تنتمى إلى أربعة من أفراد البيت السعودي إضافة إلى أعضاء آخرين من شركة بن لادن للمقاولات وهم معروفون باسم مقاولى الملك الخصوصيين. إذن لا يوجد منافس لشركة «السالم» لأنه توجد شركات محلية تملك المؤهل اللازم، ويرى لارى وورفيلد المندوب الأمريكى للشركة «أن هذه الدرجة من الربحية غير ممكنة الحدوث حتى في الولايات المتحدة نفسها» والمعروف أن وجود منافسين تبقى درجة الربح محفوظة لحد ما. وقد أدت ظروف حرب الخليج إلى ازدياد الحاجة لأعمال الصيانة، وقد تم هذا التعاقد ضمن برنامج درع الصحراء وقد انفقت فيه مليارات الدولارات لكي تم السعودية بالقدرة على حماية نفسها ضد الهجمات الجوية. إذن نحن أمام أسيرة حاكمية تضع هي السياسات لجلب سلع معينة ليتم بيعها من أجل الحصول على عمولات. فهم يعطون أنفسهم عقودا ويستغلون نفوذهم لبيع هذه العقود من أجل الربح.

ولا يوجد من يكبح جماحهم في مسألة العمولات هذه ولا تستطيع الشركات أو الأفراد الامتناع عن الدفع حتى لو كانت كارهة، ويقول رئيس شركة الالكترونيات الأمريكية «أحيانا أرى أن لادخل لنا بالموضوع، فهي في النهاية أموالهم - ولو زادوا

السعر بنسبة ١٠٠٪ فإنهم لا يخدعون المم سام أو شركتنا وإنما يخدعون ويغشون خزينة بلدهم» وهذه الأخلاقيات المربحة هي التي تحكم موقف الحكومات والشركات الغربية وعندما يتم الإعلان عن صفقة سلاح كبرى تبدأ الصحافة والجمهور في التكهن. بمن يأخذ كم، وكيف؟ ومع الأسف فإن الكثير يكتب عن الدفع، والعمولات والرشاوى دون أن يتطرق أحد إلى أهمية الصفقة لأغراض الدفاع الحقيقية- والمسألة كلها تتسم بعلم الأخلاق. والحكومات الغربية والمقاولون لاتهمهم السعودية في شيء وإنما يهمهم قيمة المال المدفوع وزيادة فرص العمالة وهذا ينطبق بالتحديد على صفقة اليامامة ٢، المبرمة بين بريطانيا والسعودية، فقد انشغل الجميع بتقدير حجم الصفقة للتوصل إلى حجم العمولات، وقد قدرت قيمة الصفقة بمبلغ ٦٠ إلى ١٥٠ مليار دولار وهذا يعني أن العمولة تتراوح ما بين ٣٤ إلى ٤٠ مليار (والسعر غير دقيق لأنه يعتمد على أسعار النفط الذي تمّت المقايضة به)، صفقة اليامامة ٢، ليست تجارة سلاح بالمعنى التقليدي وإنما برنامج تسليح كامل يمكن بريطانيا من مقابلة احتياجات السعودية في مجال إنشاء قوات جوية حديثة ونظام دفاعي جوي متطور. وبالطبع فإن الكيفية التي يتم بها تحديد احتياجات السعودية ليست واضحة وإذا ما أضفنا إلى ذلك عدم قدرة السعودية على استخدام الأسلحة الحديثة فإن الأمر يبدو كما لو أن التاجر يبيع للمشتري عربة رولزرويس في الوقت الذي يمكن أن تؤدي فيه عربة شيفروليه الغرض.

وبritانيا تختلف عن أمريكا في أنه ليس بها لوبي صهيوني مؤثر يقف في وجه إكمال صفقة أسلحة للسعودية، وقوانين بريطانيا بالنسبة للعمولة تتسم بالليونة النسبية، إذن فدخل بريطانيا في صفقات لتزويد السعودية بالسلاح المتطور أشبه بمن يعطى جهاز معلومات ضخمة ومعقد لشخص يحتاج فقط لكومبيوتر شخصي منزلي، أما بالنسبة لأمريكا فإنه ليس واضحاً حتى الآن إذا ما كانت سوف تغير اتجاهها وتسمح ببعض الليونة في إدارة الصفقات التجارية في القريب العاجل.

تم توقيع صفقة اليمامة الأصلية أو اليمامة ١٠ في سبتمبر من عام ١٩٨٥ واشتملت على شراء ٧٢ طائرة تورنادو متنوعة، وطائرات تدريب من ماركة هوك إلى جانب القيام بتطوير القواعد العسكرية السعودية وإمدادها بقطع الغيار وأعمال الصيانة وقد بلغت القيمة الإجمالية للصفقة حوالي ١٠ مليار دولار، كما شمل الاتفاق المقايضة بالنفط لحساب وكالة الفضاء البريطانية، ويطلق انتوني سامبسون مؤلف كتاب «سوق السلاح» على صفقة اليمامة صفقة سلاح هذا القرن». وقد حصلت عليها بريطانيا بعد معركة حامية مع فرنسا، فقد قام كل من مايكل هستلتاين وزير الدفاع البريطاني وخلفه جورج يوتغر والمارشال سير بيتر هنتجتون ببذل جهد مع الأمير سلطان وزير الدفاع السعودي حتى تحصل بريطانيا على الصفقة. وقد دعى الأمير سلطان لزيارة بريطانيا لهذا الغرض، وفي نفس الوقت قابل شارلي هنرو وزير الدفاع الفرنسي الملك فهد في جنوب فرنسا وحاول إقناعه بكفاءة طائرات ميراج ٢٠٠ الفرنسية، وقد تدخل تجار السلاح في هذه الصفقة كل لصالح جهة. وقد شوهد عدد من هؤلاء التجار ذوي النفوذ في حفلات تقيمها مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة. وقام الفرنسيون بمنح أحد الأوسمة لتاجر السلاح أكرم عوجي وهو شخص مقرب إلى الأمير سلطان، وقد ألححت الصحف البريطانية والفرنسية إلى الأساليب القذرة التي تتبعها حكوماتهم، وقد بلغت تكاليف اليمامة ٢٠ ١٠ مليار دولار في البداية، وهي يمكن أن تؤخذ كنموذج لهذه النوعية من الصفقات الضخمة. وقد اكتمل التعاقد عليها في يوليو ١٩٨٨ وشمل الاتفاق خمسين طائرة تورنادو عسكرية مقاتلة، وستين طائرة هوك تدريبية وخمسين طائرة هليكوبتر من طراز وستلاند بلاك هوك كانت قد صنعت بترخيص من شركة يوناتيد تكنولوجي الأمريكية. إضافة إلى ٤ كاسحات الغمام، مع بناء قاعدة عسكرية واحدة على الأقل وتعتبر هذه الطلبية جزءا واحدا من برنامج مدته عشرون عاما. والتفاصيل التي سنذكرها بعد هذا تعتمد على الأولويات الدفاعية حسب ما تضعها

السعودية، ويشمل ذلك شراء مقاتلات جوية أوروبية يبلغ سعرها ٥٠ مليون دولار، وقد تمت المقايضة كذلك بالنفط كما حدث في البعثة ١، ولم تؤخذ في الاعتبار قدرة السعودية على استيعاب المعدات. وتستمر المسألة في غموضها ويستمر تساؤل الناس عن من أشتري ماذا؟ ويتم ذلك على الأرجح عن طريق لجنة مشتركة تمثل البائع وصانع القرار والوسيط. وما زال المراقبون يشككون في قدرة السعودية على هضم هذه التكنولوجيا العالية. وتعتبر بريطانيا أن الصفقتين هما انتصار للصناعة البريطانية والمهم هو عدد الوظائف الجديدة التي توفرها هذه الصفقات، ولا تهمهم حقائق مثل إمكانية إصابة هذه المعدات بالقدم أو نوع العدو الموجهة نحوه. ويبقى الشيء الأساسي في هذه الصفقات الممتدة هو قدرتها على تسهيل دفع العملات. وكل ما كان البرنامج مقنعا في الظاهر فإن العمولة ترتفع وتتضاعف، ولا توجد لدى وكالة القضاء البريطانية - وهي المتعاقد الرئيسي في الصفقة مشكلة في استخدام العملاء. وكما شرحنا آنفا فإن المقايضة بالنفط تسهل دفع العملات وتفتح عقودا فرعية ضخمة لشركات سعودية متخصصة في تضخيم التكلفة، والحكومة السعودية أيضا تقوم بإجراء صفقات متكافئة مشكوك فيها. ولا تنكر وكالة القضاء البريطانية، قيامها بدفع العملات، وتوجد لدينا نسخ لعقود محدد استعداد الوكالة لدفع عمولات ضخمة فيما يختص بشراء طائرة جاغوار مقاتلة وقاذفة قتال وبناء قاعدة عسكرية. وتقول صحيفة الأوبزفر أن المراحل الأولية لبرنامج بيماء «٢» حققت عمولات مباشرة وصلت إلى ٣٠٠ مليون دولار. ولم تقم الوكالة البريطانية بنفى هذا الخبر ومن ناحية ثانية تكون العملات غير المباشرة أضخم من ذلك بكثير. وقد خصصت السعودية عدد ٤٠٠.٠٠٠ برميل نفط في اليوم مقابل جزء من تكاليف الصفقة وقد ارتفع الرقم إلى ٥٠٠.٠٠٠ برميل بعد عامين.

وإذا ما قمنا بتقدير قيمة هذا النفط فإن المبلغ يصبح ما بين ٢.٧ مليار دولار إلى

٣.٥ مليار فى العام الواحد - وبالطبع فإن تقديرات الأسعار الحقيقية للنفط غير معروفة. وتلك الوكالة البريطانية دعما تجاريا يمكنها من بيع النفط أو المساعدة فى بيعه. وقد رفضت الوكالة التحدث فى الموضوع وشروط اتفاقية اليامة ٢، التى تشمل عقودا للسكن وإطعام الخبراء البريطانيين ومساعدتهم وبلغ عددهم من ٣٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ مهندس وفنى يقومون بتنفيذ القسم الأرضى من البرنامج وتنص العقود على أن تقوم شركات سعودية بتنفيذ هذه العقود التى تصل تقديراتها إلى ١٧٥.٠٠٠ دولار إلى ٥٠٠.٠٠٠ دولار فى اليوم، والباب مفتوح أمام المتعاقدين السعودى لاستغلال هذه العقود بالطريقة التى تكفل له الربح العريض، ولايرجد سبب يجعل الوكالة البريطانية ترفض هذه المعاملات.

أما الطريقة الأخرى المتبعة فى دفع العمولات غير المباشرة فإنها تتم عن طريق برامج الصفقات المتكافئة.. وتنص عقود برنامج اليامة ٢ على وضع عدد من أعمال الصيانة والعاملين تحت تصرف الشركات السعودية، ومن ضمنها مضاربة لصيانة مباني ومجهيزات لصواريخ أرض- أرض . وتقوم لجنة الاستثمارات المتكافئة السعودية بتمويل هذه المضاربة، ورأسها الأمير فهد بن عبد الله ويقول رئيس الوكالة البريطانية جون كاهل أن البرنامج ككل يمكن أن يصل إلى ٦٥٠ مليار دولار فى عشرين عاما، والتقديرات المتحفظة لقيمة هذه العقود تبلغ ما بين ٥٥ إلى ٧٥ مليار ، ويشمل ذلك الصفقات المتكافئة والمقايضة بالنفط، وعلى الرغم من صعوبة التعامل مع الأرقام الضخمة التى تتضمنها هذه العقود فإننا نستطيع التحدث عن عمولات تبلغ ما بين ١٢- ٢٠ مليار دولار. وسبب هذا الارتفاع ليس لأن اليامة ٢ حدث استثنائى وإنما لأنها تضم معظم مقاولى الدفاع البريطانيين، وهم الوكالة البريطانية وهليكوبتر وستلاند، وGEC وفوسبرز، ولس، ورولزويس، وآخرين. وتتم الصفقة فى خلفية ملمة قايما بعدم قدرة السعودية على استخدام المعدات التى تشتريها، وتتفق عليها كل

هذه المبالغ الخيالية، وبالرغم من معرفة المشتريين بسجل حقوق الإنسان في هذا البلد، وقد تناولت الصحف البريطانية اتفاق اليمامة ٢٠٠٢ بالنقد والتشكيك إلا أن الحكومة البريطانية لم تكتث للأمر، كما أن التحقيقات التي أجرتها الصحف البريطانية لم تركز على مميزات الصفقة أو جدواها وإنما ركزت على حجم العمولات والأشخاص الذين استفادوا منها. وإن كانت بعض الأسئلة قد أثبتت حول تورط المسؤولين البريطانيين، في هذا الأمر إلا أن الرد كان هو أن اشتراك الشخصيات العامة يعطى الضمان للبانعين وللشركات. وقد أصدر مجلس العموم البريطاني أمراً بالتحقيق مع مارك تاتشر ابن رئيسة الوزراء بشأن تورطه في صفقات لها علاقة بالشرق الأوسط. وأشارت الصحف البريطانية إلى دفع مبالغ تقدر بـ ٤٥ مليار دولار في بعض المعاملات مما دعا مكتب فحص الحسابات القومي البريطاني إلى القيام بإجراء بعض التحقيقات. ورغم أن المراجعين قد وضعوا تقريراً ضخماً عن هذا الشأن إلا أن الحكومة البريطانية أصرت على عدم وجود أي شيء غير قانوني. وقامت الحكومة البريطانية بانتهاك سافر للإجراءات الحكومية عندما رفضت وضع نسخة من التقرير في مضابط لجنة البرلمان الحاسبية، في مجلس العموم. واستمر الجدل لفترة بين الحكومة والصحافة البريطانية، وصممت الصحافة على ضرورة معرفة الجمهور لكافة الحقائق واستمرت الحكومة في موقفها على أن ما تم قد جرى بين حكومتين وليس فيه ما يريب. وقام كل من مايكل هسلتاين وجورج يونغر. بالإدلاء بتصريحات متعالية تدّين الصحافة على اهتمامها بقضايا أخلاقية جدلية بدلاً عن الاهتمام بما توفره هذه الصفقات من فرص عمل للمواطن البريطاني. ولكن وكما هي العادة دائماً في الغرب قام أحد العاملين بوزارة الدفاع برفع قضية يتهم فيها كل من الحكومة والشركات البريطانية بتجاوزات خطيرة. وبدأ النظر في القضية في أكتوبر ١٩٩١، وقد تركزت على المبالغ المدفوعة كعمولات في صفقة اليمامة ٢٠٠٢. وقد قدم الشكوى للفتنات كولونيل توماس دولي ضد شركة يوناتيد

للتكنولوجيا، وطالب بتعويض قدره ١٣٠ مليون دولار.. وقد اتهم دولى الشركة بفصله عن طريق الخطأ وتضييع فرصة، واقتحام حرته الشخصية، وذلك بمنعه من الحصول على أسهم، إضافة إلى القذف، ويقول دولى. أن الشركة قامت بتخفيض رتبته لأنه كشف عن وجود مؤامرة تشارك فيها أيضا شركة هليوكبتر وست لاند، وتفاصيل هذه المؤامرة هي أن وستلاند التى تملك ١٥٪ من أسهم شركة «يونتايد تكنولوجى» قامت بصنع طائرات هليوكبتر من طراز بلاك هوك ثم تعاقدت على بيع ٧٨ منها لشركات سعودية وهمية. والشركات الهمية هذه تتبع لفرع شركة سيكورسكى التابعة ل يونتايد تكنولوجى، ويشارك فى عضويتها شخصيات سعودية مقرية من العائلة المالكة بنسب ٤٥ و ٥٥٪ والشركات السعودية هي تيمار للملاحة وتيمار الجزيرة اللتين يرأسهما ابراهيم النملة، وتقف الشركتان كمجرد غطاء. بينما يقوم اخرون بإتمام العمل. ويعنى آخر فإن الشركتين تستخدمان كغطاء وتحصلان على الفرق فى السعر بين التكلفة الحقيقية والسعر المتضخم. وقد أدى كشف «دولى» لهذه المؤامرة إلى تخفيض رتبته وتهديده. وقد بدأ المدعى العام فى تقديم المستندات الخاصة بالقضية. وقد كشفت أوراق «دولى» المقدمة للمحكمة العليا فى واشنطن وجود مجموعات سرية كالمافيا تقوم بنشاطات مستترة لصالح تجار السلاح وشركائهم، وتضم هذه المجموعات أفرادا من العائلة المالكة السعودية، وضباط فيدراليين، ومسؤولين حكوميين وموظفين كبار من بريطانيا والولايات المتحدة. وإلى جانب ذلك كشفت أوراق دولى معلومات أخرى هامة منها أن:

* شركة وستلاند ساعدت على انشاء شركات وهمية سعودية غير مؤهلة لتقوم بإيجاز بعض الأعمال.

* أفراد من الأسرة المالكة السعودية هم شركاء فى هذه النشاطات منهم الأمير بندر سفير السعودية فى الولايات المتحدة وهو شخص مقرب إلى الملك فهد، والرئيس بوش. وكذلك الأمير الجنرال خالد أخ الأمير بندر والقائد السابق للقوات الجوية السعودية،

وقائد القوات العربية إبان حرب الخليج.

* هذه الصفقات تعتبر انتهاكا صارخا للقوانين الأمريكية، بما فيها قانون تصدير السلاح الذى يمنع دفع أو أخذ عمولات علي صفقات السلاح.

* الاتفاق المبرم هذا ينتهك قانون «ريكو» الخاص بالفساد والابتزاز.

* أن النقاش الذى أثير حول تزويد طائرات هلاك هوك بالصواريخ ركز على نسب العمولات بدلا من التركيز على اختيار الصواريخ الصالحة لهذه الطائرات.

ومع هذا فإن شكاوى «دولى» قد أغفلت بعض النقاط الحيوية وتركت بعض الأسئلة دون إجابات والمعروف أن «يوناييتد تكنولوجى» سبق وأن أرسلت ٢٠.٠٠٠ تلفراف إلى أعضاء لتجندهم لمساعدتها فى تمرير صفقة أوكس للسعودية. والسؤال الهام هو ما اذا كانت «يوناييتد تكنولوجى» قد استخدمت ترخيصا خاصا لصنع وبيع طائرات هلاك هورس لكى تطوق القانون الأمريكى الذى يمنع الشركات الأمريكية من دفع رشاوى. ومن ناحية أخرى أشارت بعض الوثائق التى قدمها دولي (وهي الوثيقة رقم ١٨-٢٧ بتاريخ ابريل ١٩٨٩) إلى أن مارك تاتشر مرتبط بالصفقة دون أن تقوم بشرح نوعية دوره. وحتى الان فإن شركة «يوناييتد تكنولوجى» لاتظهر أى ردود فعل إزاء هذه القضية القانونية وتعتبر أن المسألة لاتتجاوز إجراء معاملة تجارية غير استثنائية، وطلبت بشطب القضية على أنها من اختصاص محكمة ولاية أخرى، أوتحويلها من واشنطن إلى ولاية كونتكت التى يقع فيها مقر الشركة. وقد رفض الطلبان ومازالت القضية معلقة فى المحاكم. وصمم دولي على قيام الشركة بدفع رشاوى لأفراد من الأسرة المالكة السعودية. كما أنه أشار إلى دعوة المسز تاتشر لعدد من تجارالسلاح المعروفين الى حفل رسمى فى ١٠ داوننج ستريت (مقر الحكومة) كما أشار الى الصداقة الشهيرة بين بوش والأمير بندر. واشترك الحكومتين البريطانية والأمريكية فى أخذ العمولات. ويبدو من ذلك أن حكومات غربية تشمل بريطانيا وأمريكا وفرنسا

تقرم بدور متواطىء خيس لضمان استمرار صناعاتها الحربية معتمدة على الأموال السعودية، ويعتبر هذا سببا إضافيا يجعل الغرب ينحاز لبيت سعود. وهذه العلاقة السعودية الغربية بدأت على أعلى المستويات وتظاهرت ببناء جيش سعودي قوى وانتهت بالعمليات والحفاظ على استمرارية دعم صناعة السلاح، في الغرب، ونعود مرة أخرى إلى القول أن كل هذا يتم بمعرفة صانع القرار السعودي، ونحن نعلم أن صانع القرار والبائع هما شخص واحد. ومثال على ذلك صفقة شراء ٧٢ طائرة F15 التي تمت أثناء الانتخابات الأمريكية وكان الفرض منها تحسين فرص بوش. وهذا يدل على بدأ السعوديين في التأثير على السياسات الأمريكية، متذرعين بحجة احتياجهم للسلاح. وبالطبع فإن مثل هذه التصرفات يكون لها عواقب تتضاعف في كل مرة. والمعارضة السعودية تتابع باهتمام سيناريو شراء السعودية اللامحدود للسلاح وكذلك الطبقة المتوسطة الجديدة في السعودية والأصوليون المسلمون وقد طالبت آخر عريضة رفعت للملك فهد وعليها توقيع ١٢٤ شخصا من مجلس العلماء بتقليص الصرف على شراء السلاح وتوجيه المال إلى أغراض الصحة والتعليم، وقد اتفقت مع هذا الطلب كل من المعارضة الإسلامية والطبقة الحديثة. ويقول أحد وكلاء السيارات السعوديين «لقد حان الوقت لكي يوقف الغرب هذه الأعمال». والمواطنون السعوديون يعلمون بالاستغلال المتضمن في صفقات شراء السلاح. وكلما ازداد حجم الأسلحة التي يبيعها الغرب لبيت سعود كل ما قل عدد اصدقائه وحلفائه داخل وخارج المملكة.

الفصل الثامن

خط الدفاع الأخير

قام ابن سعود بتعيين الكاتب أمين الريحاني ليكتب له رسائله ، لأنه كان شبه أُمِّي، وقام الملك فيصل بوضع رقابة صارمة على الصحف المحلية وحظر ملكية المجلات والصحف على الأفراد والمجموعات، وكان الملك خالد لا يستطيع قراءة الخطب التي تكتب له، وقام الملك فهد بصرف عشرات الملايين من الدولارات على شراء الصحافة ورشوة الحكومات العربية لتقليل حرية الصحافة.

والآن وبعد تسعين عاما ما يزال بيت سعود يعارض الكلمة المطبوعة ويفرض القوانين لتقييد حرية الصحافة ، وفي الآونة الأخيرة قامت الحكومة السعودية باستخدام نفوذها للتدخل في عمل الصحافة في بلاد كثيرة بما فيها بريطانيا والولايات المتحدة. والصحافة في الجزيرة العربية لها تاريخ طويل وعريق وقد وجدت الصحف منذ عام ١٩٠٨. وكانت صحيفة الحجاز تطبع في مكة وكذلك صحيفة الراكض، وتبعتهما صحيفة القبلة في عام ١٩٠٩.

وفي عام ١٧٨٥ أحضر نابليون معه مطبعة إلى مصر. وفي الستينيات ازدهرت الصحافة في لبنان وأخذت على عاتقها مسئوليات كبيرة، كما أن الصحافة في مصر كانت تقوم بدور هام لدعم دعوة عبد الناصر. ومؤخرا ومع غياب ايدولوجيات عربية تقف في وجه السعودية قامت بالتحرك للسيطرة على صحافتها المحلية والصحافة العربية عامة، والصحافة كما هو معروف تقوم بدور هام في حماية مصالح الجماهير لكن تحرك السعودية لشراء الصحف على مستوى العالم يعد انتهاكا خطيرا لخط الدفاع الأخير ضد الاستبداد السعودي مما يجعلنا نقف وسط قرون مظلمة عربية يقوم بيت

سعود بتحويلها.

كانت صحف الحجاز تقوم بدور تنويرى فى مطلع القرن، وتشجع على الحوار وتحمل آراء الكتاب فى جميع أنحاء الوطن العربى ولكن تم اغلاقها فى عام ١٩٢٥ مع استيلاء ابن سعود على السلطة، وفى البداية طالب ابن سعود المحررين بنشر سياساته الرجعية والترويج لها لكنهم رفضوا ذلك، فقام بإرسال جماعات الأمر بالمعروف للقبض على جميع من يقرأون هذه الصحف، وقام بعد ذلك بمصادرة المطابع، وقضت السعودية العامين من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٧ دون صحافة لأن الوهابيين منعوا قراءة أى مطبوعة سوى القرآن الكريم والتعاليم الوهابية كما صدر قرار بأن يحصل أى شخص على إذن قبل قيامه بكتابة كتاب أو مقالة أو بيت شعر واختفت كل المطبوعات حتى كتب التراث الدينى التى كانت موجودة منذ قرون. وفى عام ١٩٢٧ صدرت صحيفة «أم القرى» الرسمية ولكنها لم تستطع أن تكون بديلة لصحف الحجاز التنويرية. وكان يقوم بتحريرها أناس غير سعوديين لا يمثلون وجهة نظر المواطنين، واقتصرت دورها على التصدى لمنتقدى الوهابية وتلفيق تاريخ جديد للجزيرة العربية، وبدأت فى وصف الأرض التى استولى عليها ابن سعود وأطلقت عليها أم المالك كما أنها قامت بتقديم ابن سعود كمحرر أعظم للجزيرة العربية ، وموحدا للعرب، وكان ابن سعود مهتما بأن يظهر بمظهرها حسنا وهو شىء مازال يشغل ملوك السعودية حتى اليوم- كما أنه قام بالسيطرة على ما ينشر فى الصحيفة سيطرة تامة، وكان كل عدد يشتمل على مقالة فى اطرائه، وذكر محاسنه يقوم بكتابتها أمين الريحانى، وكانت الصحيفة تتحدث عن العقائد الإسلامية ولكن جل تركيزها كان على وصف حكم ابن سعود الرائع. وكان استخدام ابن سعود للريحانى يتماشى مع نهجه فى الاعتماد على مستشارين أجانب، ويدل تركه للمواضيع الإسلامية فى يد الريحانى غير المسلم على مدى خوفه من الكتاب الإسلاميين، وإمكانية رفضهم للتعاليم الوهابية وبالطبع فإن أى كاتب مسلم

ما كان ليمجد الوهابية أو يسىء إلى العقيدة الشيعية. وقام الريحاني بدوره بالاستعانة بأناس غير سعوديين وغير محليين، منهم جورج انطونيوس مؤلف كتاب «صحوة العرب» ويوسف ياسين مؤلف كتاب «ابن سعود»، «مرشد العرب» وعلى الرغم من أن هؤلاء جميعاً كانوا يخدمون ابن سعود من أجل المال إلا أننا نلاحظ أنهم هم الذين طوروا الصحافة العربية فيما بعد وظهر أثرهم عليها. وفى هذا الوقت بدأ ابن سعود محاولاته للسيطرة على الصحافة العربية بطريقة منظمة. وكان الريحاني وياسين يكتبون ما يأمرهم به ابن سعود دون تردد. لكن انطونيوس أخذ المال ثم قام بعد ذلك بنقد تاريخ ابن سعود وسلوكه وسياساته.

بصفة عامة لم يظهر تأثير الصحافة العربية على الملكية إلا فى الخمسينيات عندما أخذ عبد الناصر يستخدمها لنشر آرائه القومية، مما اضطر الملك فيصل إلى محاولة سحب البساط من تحت رجله بأن استأجر الصحف العربية. ودفع لها مبالغ طائلة لتمدح سياساته وفى الستينيات ازدهرت الصحافة الحرة فى بيروت، وكانت توجد مئات من الصحف مما سهل على فيصل عملية شرائها، ويقول سليم اللوزى الصحفى اللبناني المعروف «أن الصحفيين الذين يأخذون أموالاً من السعودية ينقسمون إلى قسمين: قراصنة وشحاذون والمجموعة الأولى تهدد السعودية لكى تدفع لها والثانية تطلب مقابلاً على العمل القذر الذى تقوم به (المعروف أن لوزى نفسه قد حصل على ملايين الدولارات من السعودية)». وقام بعض الصحفيين المارونيين بتأييد موقف فيصل الإسلامى ضد القوميين العرب وقام آخرون بمهاجمة تقارب عبد الناصر مع الاتحاد السوفيتى، وقامت مجموعة ثالثة بالرفع من مكانة فيصل والمجازاته العظيمة وفى نفس الوقت قام فيصل بتنظيم الصحافة فى السعودية وأصدر قانوناً فى عام ١٩٦٣ يرسخ سيطرة الحكومة السعودية على الصحافة، وألغى ملكية المؤسسات والأفراد للصحافة، وحولها إلى شركات عامة بمسؤوليات محددة على أن يتم تجديد

الرخص بطريقة دورية وتصبح خاضعة لموافقة الشخصية فى جميع الأحوال. كما أنه جعل مسألة اختيار العاملين بالصحافة تحت يده وحدد غرامات وأحكام بالسجن على من يتهمون بالتجاوز.

كانت محاولات فيصل للسيطرة على الصحافة فى الستينيات بمثابة رد فعل على تحدى عبدالناصر لذلك قام بشراء الصحفيين اللبنانيين من أجل تحسين موقعه الإسلامى وكسب رأى العام العربى.. وكان فيصل على يقين من أن السيطرة التامة على الصحافة اللبنانية مستحيلة لأن هؤلاء الصحفيون لا يقبلون بالتبعية العمياء، والتدخل اليومى فى أعمالهم، لكنه برغم ذلك قبل بولاتهم الجزئى. وكان هؤلاء الصحفيون ينقسمون إلى معارضين لسياسات عبد الناصر ومؤيدين لحزب البعث، إلا أن عددا منهم كان مؤيدا لفكرة القومية العربية. ومن أهم رؤساء التحرير فى ذلك الوقت كان كامل مروءة رئيس تحرير جريدة الحياة اللبنانية وكان يقف مع فيصل ضد أيديولوجية عبد الناصر. وقد ساعدته أموال فيصل على نشر أفكاره، ويقال أن عبد الناصر قد أوعز بقتله. وقد كان مروءة من الصحفيين النادرين وكان رأيه مؤثرا وموته خلت الساحة من أحد الصحفيين المتأزين، وبعد ذلك فتح الباب لمجموعة من المبتزين الذين كانوا يريدون الحصول على المال بشتى السبل. وكان الواحد منهم يشتد هجومه فى كل مرة على أعدائه بناء على ضخامة المبلغ الذى يتسلمه، وبعد الصحفى اللبناني سليم اللوزى واحدا من هؤلاء الصحفيين، وعندما يدفع له فيصل بهاجم عبد الناصر ويتهمه بأنه جاسوس سوفيتى يقود العرب نحو الدمار لكن إذا لم يدفع له فإنه يغير روايته وقد قام احد الصحفيين بانتقاد عبد الناصر لاصطحابه لزوجه لزيارة يوغسلافيا على الرغم من أن زوجة عبد الناصر عرفت بالاستقامة والمحافظة، وكتب آخر بهاجم حزب البعث لأنه يضم بعض المسيحيين فى صفوفه.

تركزت جهود السعودية للسيطرة على الصحافة العربية فى بيروت لأنها كانت أهم

مركز صحفي إلى جانب، أنها كانت تأوى عددا كبيرا من القوميين العرب، وقد امتدت محاولات السعودية مع الصحفيين إلى سوريا والأردن والمغرب بهدف التأثير على الرأي العام في هذه الأقطار، وكان الأمر في لبنان يختلف نسبة لوجود حرية تعبير بها لكن بالنسبة للبلدان العربية الأخرى فإن الأمر كان يحتاج إلى موافقة الأنظمة الحاكمة ولم تجد السعودية صعوبة في الضغط على هذه البلدان لنيل موافقتها، وإن كانت وجدت صعوبة في اختراق سوريا لأنه كانت تربطها علاقات ودية مع نظام عبد الناصر. أما بلاد أخرى مثل الأردن والمغرب فقد كانت تخشى خطر القومية العربية لذلك تجاوبت مع المحاولات السعودية، وبعد هزيمة ١٩٦٧ تناقص عدد الصحفيين المؤيدين لعبد الناصر وانضمت بقية صحافة بيروت إلى المعسكر السعودي. وبوفاة عبد الناصر في عام ١٩٧٢ حلت الصحافة اللبنانية محل الصحافة المصرية وأصبحت السعودية هي الممولة الرئيسية للصحافة في لبنان والمغرب والأردن وسوريا. وخلال فترة ازدهار النفط في السبعينيات أصبح معظم الصحفيين اللبنانيين والعرب يتلقون الهدايا والهيئات السعودية ماعدا لفترة قصيرة كانت العراق تقوم فيها بدعم الصحافة العربية ضد هيمنة الخط السعودي ورغم تأثير الصحافة المؤيدة للعراق إلا أنها لم تستطع مجاراة الأموال التي تدفعها السعودية وتبقى المعركة بين السعودية والعراق للسيطرة على الصحافة العربية مجرد صراع بين قوتين دكتاتوريتين لاتتمتعان بأى شعبية.

وفي عام ١٩٧٩ أصبح بإمكان السعودية شراء أيا من كان إلا أنها لم تكن سعيدة باضطرارها للاستعانة بالأطراف الخارجية. وفي هذه الفترة بدأت تقارص ضغوطا على مجلس التعاون الخليجي لتبنى سياساتها، وقد كان هناك صعوبة في هذا الأمر لأن بعض اعضاء المجلس لديهم صحافة حرة، وانتقلت إلى تقليد جديد، فقامت بشراء صحيفة الشرق الأوسط السعودية التي كانت تطيع في لندن وكذلك صحيفة الحياة الدولية العريقة، وعددا من الصحف النسائية والرياضية وأخرى خاصة برجال الأعمال،

كما قامت بشراء مجلات سياسية أسبوعية عربية تصدر في لندن وباريس وبيروت، وبالطبع فإن الدعم المالي السعودي لهذه الصحف ساعدها كثيرا وأصبح بإمكانها تحمل تكاليف مكاتبها في الخارج وشراء معدات طباعة متطورة. وأصبحت الصحف العربية في أوروبا أمام خيارين أما الانضمام إلى الخط السعودي أو التلاشى. وبذلك تحولت الصحافة العربية إلى سلعة سعودية. ولم تكتفى السعودية بهذا بل انتقلت إلى الصحافة غير العربية محاولة شراء ولائها. وأصبحت تمارس ضغوطا على المراسلين الأجانب وذلك بحرمانهم من الحصول على تأشيرات دخول للسعودية وعدم دعوتهم لحضور اجتماعات مثل اجتماعات مجلس التعاون الخليجي واضطرت وكالات هامة مثل رويتر واسوشيتدبرس والوكالة الفرنسية الى تغيير سياساتها وعدم التعرض للنظام السعودي. وبدأ صحفيون أمريكيون وبريطانيون قبض مبالغ من المال من السعودية وعقب حرب الخليج ازيعت العراق، ان الطريق أصبحت السعودية هي المهيمنة الرئيسية على الصحافة العربية في لندن وباريس وبيروت ومصر وسوريا، والمغرب، وأصبحت الصحافة العربية إما مملوكة للسعودية أو لمجلس التعاون الخليجي. وقامت السعودية بدفع أموال باهظة للحصول على أحدث التطورات التكنولوجية لتكون في خدمة صحفها، وقامت بشراء محطات إذاعية وتلفزيونية ومن ضمنها شبكة MBC ومؤسسة الشرق الأوسط للإذاعة والتليفزيون العربي في لندن. والإذاعة العربية في واشنطن وراديو أوريونت والمحطة العربية في فرنسا. وفي عام ١٩٨١ قام بعض اصداقاء السعودية بشراء ١٤.٠٩ من أسهم قناة لندن التليفزيونية وقدمت السعودية عرضا بـ ٤ مليون دولار لشراء وكالة أنباء يونايتدبرس واشترت صحفيين معروفين في الصحف البريطانية الكبرى، وتسمى السعودية الآن لشراء دور نشر بريطانية والمعروف أن عددا من دور النشر التي تهتم بالثقافة في الشرق الأوسط تعتمد على أموال السعودية- وقد وجدت صعوبة في نشر بعض مؤلفاتي في لندن لأن أصحاب دور النشر يخشون

السعودية وقام ناشر بدفع مبلغ كبير من المال لشراء أحد كتبي، ولم ينشر الكتاب على الإطلاق وفي عام ١٩٨٢ هددت السعودية مسر بقطع المعونات عنها إذا نشر كتاب «تمرد مسجد مكة» للكاتب أحمد السيد وكذلك كتاب لصفر الحمادي عن حرب الخليج. ويتعرض الناشرون الذين ينشرون كتباً مناوئة للسعودية للعقاب، وقت مصادرة كتاب عن الغزو الإسرائيلي لبيروت بسبب عنوانه وقد ندد كل من محمد حسنين هيكل وغسان تويني وعبد الباري عطوان بسيطرة السعودية على الصحافة العربية وما يمكن أن تؤدي إليه من عراقب وخيمة. لكن لأحد يستطيع مواجهة نفوذ المال السعودي إذ يؤثر الصحفي العربي بعشرة أضعاف مرتبه الأصلي. ويعلق الصحفي والإعلامي اللبناني جان ضياء بقوله «إن الصحافة العربية تمر بأسوأ عصورها منذ (حديقة الأخبار) في عام ١٨٥٨». وقام الصحفي جهاد الخازن رئيس تحرير الحياة بوصف الذين يعارضون شراء السعودية للصحافة العربية بأنهم عملاء للموساد والمخابرات الأمريكية وتعتبر سيطرة السعودية على الصحافة العربية من أهم التطورات التي واجهت العالم العربي في الخمسين عاماً الماضية، وهي المسؤولة عن تعطيل مسيرة الديمقراطية وضرب الحركة القومية وتدمير العراق والقضاء على فرص العرب في التقدم والتغيير. ولكن السعودية ليست المسؤولة الوحيدة وإنما يشاركها صحفيون عرب ولبنانيون وفلسطينيون. وهم أناس باعوا كل شيء من أجل المال. وقد اختطت الصحافة السعودية نهجاً جديداً وأصبحت تلجأ إلى أساليب غير معتادة في الصحافة العالمية، وأصبح الصحفيون السعوديون يتعرضون للفصل والسجن. وقد تم فصل حامد الجفري رئيس تحرير جريدة اليوم. وسجن الصحفي زهير عيسى صفراوي الذي كان يعمل بمجلة «المجلة» وكذلك الصحفي محمد العلي. وتقتل قوانين الصحافة السعودية محاولة سمجه لخنق الحقيقة وإنكارها وتحريفها، وبها مجموعة من المعظورات التي تشل حركة الصحف. ويمنع فيها نقد الشخصيات العامة والشخصيات الملكية ولايسمح بالحدوث عن القوات

المسلحة أم الشؤون الدينية. ولا يسمح بالحديث عن اصدقاء الملك وأفراد الأسرة الذين يقومون بعمليات تجارية مشبوهة تدر ملايين الدولارات، كما أنه لا يسمح بالكتابة عن الأصوليين الإسلاميين في بعض البلاد العربية كالجيزة. ولا يتم التطرق لشؤون المرأة وقضاياها إلا ما يختص بالتدبير المنزلي ولا تقبل شكاوى المواطنين على خدمات المياه أو التلفزيون. وبهذا تصبح الرقابة على الصحف أسوأ من إيران والعراق والصين. وتوجد في السعودية ١٣ صحيفة يومية وسبعة صحف أسبوعية يتحكم فيهما مجلس المعلومات الصحفية الذي يرأسه الأمير نايف وزير الداخلية وشقيق الملك فهد، ويضم في عضولته الأمير سعود الفيصل ووزير الإعلام على الشاعر، واختيار الأمير نايف وهو الرجل الذي بشرق على جماعات الأمر بالمعروف بوضع الكيفية التي ينظر بها بيت سعود للصحافة وهي أنها نوع من النشاط الإجرامى ودعوة إلى الفتنة. ولا يتم منح الترخيص للصحفي إلا بعد التأكد من ولائه للبيت السعودي. وتوجد لدينا قوائم بأسماء ناس عجزوا عن الحصول على تراخيص لأنهم لا يقبلون أخذ الأوامر. كما أن المراسلين يتم فحصهم فحصا دقيقا حتى وإن كانت اسماؤهم معروفة. ويتم فحص هائى الصحف والمجلات ولا يسمح لغير السعودى القيام بهذا العمل. ويطالب الصحفيون بمقابلة الأمير نايف مرة في العام ليتلقوا منه التوجيهات. وهو يتمتع بسلطات واسعة تصل لحد وضع سعر المطبوعة وتحديد كمية ونوعية الإعلانات التي بها. وبعد غزو العراق للكويت أصبح هو الذى يحدد الكلمات والعبارات المستخدمة لوصف صدام حسين وولفائه، ياسر عرفات والملك حسين. وهو يتدخل في اختيار صور الملك وأفراد الأسرة المالكة التي تنلام مع الخبر. وقد تضايق بعض الصحفيين من هذه الممارسات حتى أن محمد العلوى رئيس تحرير مجلة اليمامة طالب بأن «يعطى الصحفي قائمة بالكلمات والعبارات الممنوعة حتى يستطيع التعايش معها». ويقول الصحفي الأمريكى وليام رى إن الصحافة الموالية لهم تقدم صورا مشرقة ومتفائلة للمملكة

ولانتقد الملك أو النظام مهما حدث» وأى تجاوز للمحظورات يعرض الصحفى للسجن أو الغرامة. ويتم سحب رخصة الصحيفة اذا ما أثبتت أى شكوك حولها. وتقارس الحكومة ضغوطها على الصحيفة من خلال الإعانات والإعلانات والاشراكات. وقد أدى ذلك إلى شل حركة الصحافة فى كثير من الأمور الهامة فعند وقوع حادث التمرد الشهير فى مكة عام ١٩٧٩. التزمت الصحافة بالصمت وبقيت فى انتظار إذن من وزارة الإعلام لكيفية تغطية الخبر- وامتد صمتها ٢٤ ساعة كاملة ثم بعد ذلك اخذت تتخبط فاتهمت الخمينى بتدبير الأمر ثم بعد ذلك اتهمت السادات (الذى كان مختلفا معها حول كامب دافيد) ثم أشارت إلى وجود أصابع ليبية واتهمت منظمة التحرير الفلسطينية وأخيرا الموساد. ولم تتطرق الصحف إلى الحديث عن القوات البريطانية والفرنسية والأردنية التى شاركت فى إنهاء التمرد بعد فشل القوات السعودية فى ذلك. وحتى بعد القضاء على الحركة لم تقم الصحف بتحديد هوية المتوردين وإنما اكتفت بالقول أنها مجموعة أجنبية مضللة- بالرغم من أن معظمهم كانوا من السعوديين- كما أنها أغفلت عدد القتلى والجرحى. وعندما ثارت الحركات الشيعية بعد يومين من الحادث ونزلت إلى الشوارع لم تتحدث الصحف السعودية عن هذا على الرغم من مقتل مائتى شخص فى هذا الحادث. أما أفراد الأسرة المالكة فقد أُلغوا مجالسهم وارتدوا البديل الواقية من الرصاص واستعانوا بالحرس المسلح لحمايتهم- وقد اتضح بعد ذلك أن أحد قواد التمرد كان طالبا سابقا فى جامعة المدينة المنورة وأحد تلامذة عبد العزيز بن باز رئيس مجلس العلماء. ولكن الصحف لم تشر إلى هذه الأخطاء. كما أنها لم تحدد عدد المتوردين الذين استسلموا وتم اخفاء كل شىء بعناية. وقد تساءلت صحف وول ستريت جرنال والواشنطن بوست عن مدى صحة الرواية السعودية وأوردت المناقشات العديدة التى تزخر بها الرواية. وقد أدى هذا الحادث إلى إنتشار الشائعات وبلهوء الناس إلى المبالغة فى سرد ما حدث، وكان يمكن تفادى كل ذلك إذا ذكرت الحقيقة.أما

الإذاعة والتليفزيون اللذان بدأ إرسالهما في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٦ على التوالي فإن حظهما ليس أفضل من حظ الصحافة وهما يهتمان بعرض البرامج التي يفضلها أفراد الأسرة المالكة. و ٤٠٪ من هذه البرامج دينية تركز على تفسير الوهابيين للقرآن والسنة وبقية البرامج إخبارية وثقافية ومعظمها يركز على إنجازات الملك والأسرة المالكة. ولا يسمح بظهور النساء بلباس قصيرة، ولا تظهر المشاهد المحتوية على راهبات أو قساوسة وليس هناك ذكر للأمراض الجنسية العصرية الهامة أما بالنسبة للكتب فإن على المؤلف الحصول على تصريح قبل الشروع في كتابة كتاب ما حتى وإن كان هذا الكتاب يتم لصالح أحد دور النشر الأجنبية. وقد اضطر عدد من المؤلفين إلى العيش في المنفى بسبب هذه الإجراءات منهم الروائي المعروف عبد الرحمن منيف. والمؤرخ عثمان عبد الرحمن والكاظم عبد الله القصيم، وتقوم المطابع الحكومية بطباعة كتب مدرسية وثقافية تحتوى على التفسير السعودى للتاريخ فينكرون أن الهاشميين قد حكموا الحجاز في يوم من الأيام، وينفون وجود نظرية داروين للتطور، وليس هناك إشارة إلى الحميتي، ويوصف الشيعة بأنهم ملحدون. وطبعت كتب للتحدث عن دور الجيش السعودى فى حرب الخليج، وهى كتب مشيرة للضحك لأن هذه الحرب بالذات لا تنفع فيها الأكاذيب لأن معظم الناس رأوها على الهواء مباشرة. ومعظم الشعر يقال فى مدح الملك وآل سعود، وصدرت كتب عن حرب اليمن لانتشير إلى علاقة سكان عسير باليمنيين، وتوجد كتب تنكر الرق فى الماضى وتنكر وجود قواعد عسكرية أمريكية فى المملكة ويتم تجاهل إنجازات الملوك السابقين ويتم التركيز على إنجازات الملك الحالي فقط، وتفرض قواعد صارمة على اسفيراد أشرطة الكاسيت والفيديو. وتعطى صلاحيات واسعة لموظفي وضباط الجمارك، إذ يقومون بقص صفحات بأكملها من الصحف والمجلات العربية والأجنبية ، وقد تعرضت صحف مثل الأيكونومست والتايم ونيوزيك إلى مقص الرقابة، وأوقفت صحيفة «ليبراسيون» لأنها أجرت مقابلة

مع بأسر عرفات، ولاتتجو حتى الصحف التي تملكها السعودية من الخطر، وقد أوقفت صحيفة الحياة الدولية مرة لأنها اشتملت على مقال يتعاضف مع منظمة التحرير الفلسطينية. وتعرض الصحفي البريطاني روبرت فيك للمقاطعة لأنه كتب تقريراً عن حادث الحجاج الإيرانيين يتهم فيه السلطات السعودية بهدم الكفاة في التصدي للحدث. وتعتبر جريمة تهريب كتاب إلى داخل السعودية أخطر من تهريب الحشيش أو الكوكايين. وأحياناً لا يستطيع ضابط الجمارك قراءة كتاب المجلزى فيقوم بمنعه. وترفض الكتب الفرنسية في كل الأحوال لأنها تدعو إلى الرذيلة ويحظر جلب الإنجيل أو أى كتب أخرى تحتوى على صلوات مسيحية. وقد يتعرض من يحضرها لعقوبة السجن. لكن كل هذه الإجراءات الصارمة لم تمنع دخول الكتب المحظورة للسعودية فبعضهم يحضر نسختين من الكتاب الممنوع ويرشو ضابط الجمارك بأحدها، والذين لهم صلة بالعائلة المالكة يكلفون أحد مكاتب الأمراء باستيراد ما يريدون من الكتب. وقد قام أحد التجار السعوديين بنقل كتابي «دفع المكافآت» على الفاكس ثم قام بتصويره وتوزيعه. وتباع مجلات «البلاى بوى» و«بنتهاوس» داخل المملكة بـ ١٠٠ دولار للنسخة- ويتم كل هذا فى السر- وقد قام بعض الأفراد بعرض هذه المجلات فى حفلات فخمة أقاموها بمنازلهم. ويتم تهريب أشرطة الكاسيت وأشرطة الفيديو عن طريق الصاق أسماء مغايرة عليها. وليس هناك مجال لفحص كل واحد منها. وتوجد الآن مئات الأشرطة المناوئة لبيت سعود ويتم طبعها وتداولها بسهولة. وقد أصبحت السلطات السعودية تجد مشقة فى السيطرة على الإذاعات والتليفزيون بعد انتشار المحطات الفضائية- وأثناء عملى فى هذا الكتاب قام الأمير سلطان رئيس مجلس العائلة ومسؤول الدعاية بتقديم طلب للحكومة لإيجاد وسيلة لمنع حيازة الطبق الفضائى -الدش- دون إذن السلطات. وقامت جماعات الأمر بالمعروف بتحطيم بعض هذه الأطباق.. ويوجد بالمملكة الآن أربعة ملايين جهاز تليفزيونى، وتتزايد عددية الناس

الذين يرغبون فى اقتناء الأطباق الفضائية. وليس هناك طريقة لمنع الناس من المشاهدة والاستماع والقراءة، وما زالت صحافة «تحت الأرض» تواصل عملها فى السعودية وتوزع عشرات النسخ من مطبوعات مثل «رأى الناس» و«رأى المسجد» ومع تزايد إقبال الناس على المعرفة أخذ الصحفيون يظهرون استيائهم من الحظر والرقابة والقيود المفروضة عليهم وتزايد أعداد المستمعين لإذاعات صوت أمريكا وهبشة الإذاعة البريطانية، وترتفع نسبة مشاهدى القنوات الأجنبية لدرجة الهوس، ويتم تداول الأخبار الواردة فى شبكة CNN العالمية. وتواصل المعارضة دورها فى توزيع المنشورات والمطبوعات التى تلاقى إقبالا كبيرا من المواطنين. وتقوم المساجد بنشر الأخبار المحظورة، والتعبير عن آراء الأصوليين الإسلاميين، ولم يعد القمع يجدى، ولم يعد الصحفيون يخافون الفصل أو السجن وقد تم مؤخرا فصل الصحفى أحمد محمود من صحيفة المدينة المنورة لأنه احتج على الإجراءات الرقابية. وتم فصل الصحفى محمد صلاح الدين لأنه أورد قصة مفادها أن جورج بوش قد خسر انتخابات الرئاسة الأمريكية لأنه تجاهل رغبات المواطنين، وفصل يوسف حسين حننورى رئيس تحرير «النور» لأنه كتب مقالا عن الأصوليين الإسلاميين وفصل المحرر الأدبى لصحيفة «الجزيرة» لأنه تناول بعض الكتب المحظورة. وكذلك فصلت المحررة الاجتماعية لصحيفة «الرياض» فوزية بكر. وتم القبض على الشاعرة فاطمة كمال أحمد يوسف وعذب لأنها كتبت شعرا غير مسموح به. كما تعرض شعراء وكتاب آخرون للاعتقال والتعذيب منهم الشاعر والكااتب عبد الله سرح، ويدر شهادة وعبد الله الشيخ، وعلى الضرورة وعلى إبراهيم حسين وأحمد محمد مطوية- وخلال حرب الخليج تم القبض على عدد من المثقفين منهم عيد كرمى، وسلام مهدى وعلى كمال عودة، وطاهر شيسى وحسن مكى وجعفر مبارك وجواد جاسر وعبد الكريم هوبيل وكذلك بعض رجال الدين لإلقائهم خطبا فى المساجد (ومنهم صفر هوبيل ومحمد مسامين ومنصور تركى).

والمعروف أن جميع المؤسسات الثقافية في السعودية كانت معارضة لحرب الخليج وللدعوة القوات الأجنبية إلى البلاد.

وتقارص السلطات السعودية الإجراءات القمعية مع المواطنين العاديين ويمكن أن يتعرض المواطن للمساواة إذا مشى في الطرقات في أوقات الصلاة أو استمع إلى إذاعة أجنبية أو ذكر اسم صدام حسين، أو ردد اسم الملك دون إضافة القاب وقد تم تعذيب عبد الكريم نعمة وهو شاب في السابعة عشر من عمره حتى الموت لحيازته كتابها ممنوعا. ولكن هذه الحملات القمعية والكذب والتلفيق الذي تلجأ إليه الحكومة لا يؤثر على الناس.

وفي ٦ يناير قام الملك فهد بإعلان أرقام الميزانية وأشار إلى وجود عجز قدره ٨.٥ مليار دولار، لكننا لاحظنا أن هذا الرقم يكون صحيحا إذا ما بيع برميل النفط بسعر ٢١ دولار، والمعروف أن سعر البرميل قد توقف منذ وقت طويل في حدود ١٧ دولار للبرميل. وفي هذه الحالة يكون جلالة قد كذب وزاد دخل البلد بنسبة ٢٠٪ ومثل هذه الأكاذيب التي يلجأ إليها المسؤولون السعوديون على أعلى المستويات تشير التنازل حول حقيقة العجز الموجود في الميزانية، كما تشير الشكوك حول الإنفاق الضخم على الأغراض العسكرية بوصفه السبب المباشر في وجود مثل هذا العجز. ولم تفت الكذبة على أعضاء المعارضة وإنما قاموا بالتعليق على حديث الملك بعد ساعات قليلة وطالبوه بتخفيض الصرف على العائلة المالكة وتخفيض الميزانيات العسكرية.

في عام ١٩٩٢ أوردت صحيفة «الجارديان» قصة حول هيمنة السعودية على صحافة ما وراء البحار، واستغريت من استمرار السعودية في الصرف على صحف خاسرة في لندن وباريس وبيروت، وقام عبد الباري عطوان رئيس تحرير جريدة القدس الصادرة في لندن بكتابة تقرير مفصل مدعم بالوثائق حول وضع الصحف العربية في لندن ومحاولات السعودية المتهورة لشراء كل كاتب وكل مفكر حر في العالم العربي.

والمعروف أن ٤٢ صحيفة من مجموع الـ ٤٨ صحيفة الناطقة بالعربية في لندن تقع تحت سيطرة السعوديين. وهم لا يكتفون بشراء الجميع وإنما يلجأون إلى أساليب قذرة في محاربة الصحفيين الذين يعارضونهم. ويعانى بعضهم مثل سليمان الفيزلي وفريد الحاطب من عدم تمكنهم من الحصول على عمل بالرغم من مكانتهما المحترمة. وقد أوقف المكر الفلسطيني المعروف ادوارد سعيد عن الكتابة في مجلة «المجلة» بسبب تفكيره المستقل. ويعلق رئيس تحرير الشرق الأوسط على الوضع قائلاً «إن هذا العصر هو عصرنا، أنه العصر السعودي» وتعلق عثمان العمير بجهلنا نظرح سؤالا هاما وهو : هل يرغب الجميع فعلا في هذه السيطرة السعودية علي الصحافة؟.

نظر الرئيس اللبناني الأسبق شارل الحلو إلى مجموعة من الصحفيين اللبنانيين في عام ١٩٦٦ وقال لهم باسم «مرحبا بكم في بلدكم الثاني» وكان الرئيس الحلو يشير إلى ولا. هؤلاء الصحفيين للسعودية وتسلمهم لمكافآت ضخمة على هذا العمل.. وفي الستينيات كانت السعودية، لاتقدم مساعدات إلى لبنان أو الأردن إلا بعد وضع شروط تحكم تناول إخبارها في صحف هذه البلاد. وبالرغم من الحرية التي كانت تتمتع بها الصحافة اللبنانية إلا أن رئيس الوزراء ووزير الإعلام قاما بلفت نظر الصحفيين إلى التحفظ في نشر الأخبار الخاصة بالسعودية، وحدثت أزمة في عام ١٩٧١ عندما قام على بلوط رئيس تحرير صحيفة «المتصور» الأسبوعية بنقد الحكومة السعودية، فما كان من رئيس الوزراء صائب سلام إلا أن أمر بحبسهم وتدخل بعض السياسيين اللبنانيين ونقابة الصحفيين لإطلاق سراحه. والمعروف أن بلوط كان مواليا للعراق لكن يبدو أن الحكومة اللبنانية أرادت توضيح موقفها فيما يختص بالتداول على السعودية. واستوعب الصحفيون اللبنانيون الدرس، وفقدت الصحافة اللبنانية حريتها منذ ذلك الوقت. ومع ازدهار تجارة النفط في السبعينيات أصبحت الأموال التي تقدم لشراء الصحفيين باهظة جدا ويصعب على أي أحد رفضها وحاولت صحف مثل «التضامن»

والدستور وكل العرب والوطن الوقوف في وجه المال السعودي دون فائدة. ويقول الصحفي غسان زكريا رئيس تحرير صحيفة «سوراقيا وبدأ الصحفيون العرب الكتابة بالنفط بدل الحبر» ويقول صحفي لبناني آخر «إن الكتاب اللبنانيين في الصحافة الوهابية انحدروا لمستواها بدل النهوض بها». وقد أدى فرض القيود الصارمة على الصحفيين إلى تدنى مستوى الكتابة، وابتعد الصحفيون المحترمون عن الساحة ولجأ بعضهم إلى الكتابة في الصحف الأجنبية الصادرة بالإنجليزية أو الفرنسية. أما البقية فقد جذبتهم الأموال السعودية وأصبحوا يتهافنون على كتابة الأعمدة التي تشيد بآل سعود وإنجازاتهم. وآخرون كانوا يحاولون تبرير تأييدهم للبيت السعودي. لكن أساليب معيشتهم الشرفة تكشف عن تسلمهم لأموال سعودية، ولدينا أسماء لصحفيين كبار يقتنون المنازل الصيفية في جنوب فرنسا وأسبانيا ويقودون عربات فارهة ويلبسون الساعات الذهبية وخواتم من الماس ولديهم خدم في المنازل. وهم مشغولون بالمال لدرجة أنهم فقدوا الاهتمام بأوطانهم وبمهنة الصحافة، وقد كتب أحدهم مقالا عن الفيلم الأمريكي المشهور «قصة حب» لكنه أخطأ في أسماء الممثلين والمخرج وهي أسماء معروفة للمشاهد العادى. وأحدهم قام بنقل قصة عن التسليح الأمريكى من صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» وكتب عليها اسمه واحدهم أورد خمسة صفحات من كتابى «دفع الأرباح» دون إشارة إلى أسمى وهم يقومون أيضا بتأليف الكتب الخاصة بتاريخ الأسرة السعودية المالكة ويعمدون إلى التحريف والكذب دون خجل. ويقوم بعضهم باستنجاز كتاب مترجمين يؤدون أعمالهم نيابة عنهم، ولم يتوقف انحطاط هؤلاء الصحفيين عند الإنجاز بأقلامهم وإنما هم ينغمسون أيضا في أنشطة شخصية مخجلة لإرضاء أسيادهم. وقد قام بعضهم بالتجسس لحساب الأمير فهد بن فيصل رئيس جهاز المخابرات، وقد نقلوا أخبارا عن أصدقائهم وزملائهم، وعمل آخرون كقوادين وقامت زوجات بعضهم بالعمل كمرشدات لزوجات آل سعود. وانتقل نفوذ السعودية إلى أماكن

أخرى مثل مجلس التعاون الخليجي وأصبحت الصحف معرضة للإيقاف برغم حرية الصحافة الموجودة في بعض دول مجلس التعاون الخليجي. وأوقفت صحف مثل «عرب تايمز» عدة مرات لأنها لا تعجب النظام السعودي. وأغلقت مكاتب صحفية «التحية» الكويتية لنفس الغرض وتعرضت القبس وغيرها للإيقاف لعدة مرات. واعتقل إلكاتب الكويتي «خلدون حسن ناخب» بسبب كتابه الرائع عن مجتمع الخليج وأجبرت بعض الصحف ذات التفكير المستقل مثل الدستور على الخضوع للخط السعودي وأجبرت صحيفة صوت العرب المصرية على إغلاق مكاتبها والمعروف أن الصحف التي تعارض السعودية محرم من الإعلانات والاشتراكات حتى يصيبها الكساد وتضطر لأغلاق دورها. وأصبحت الدول التابعة لمجلس التعاون الخليجي تسير في الخط السعودي. وتفرض رقابة على المطبوعات، ومثال على ذلك فإن الصحفي أو الصحيفة التي تحظر في السعودية تحظر كذلك في بقية أقطار مجلس التعاون الخليجي، ونفس الشيء ينطبق على أشرطة الفيديو والكاسيت. وكذلك على المثليين والمثلات العرب وعلى الأفلام السينمائية. وقد تسربت وثيقة من وثائق مجلس التعاون الخليجي تحمل قوائم بأسماء الكتاب والفنانين الذين يحظر التعامل معهم، ومن بينهم الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل والفنان نور الشريف والمثلة نادية لطفي. وهذا النوع من المقاطعة يمكن أن يؤدي إلى إفلاس هؤلاء الناس. ولم يكتفى بيت سعود بكل هذا بل أصبح يلجأ إلى العنف. وقاموا باختطاف الكاتب السعودي ناصر السيد من بيروت قبل ستة أعوام ومولوا عملية لاغتيال محمد مرعي المحرر النقدي لصحيفة «النشوة» في اثينا، وهوجم صحفي سوري- رفض ذكر اسمه في ماريللا وكسرت يده. وفي عام ١٩٩١ تم اختطاف السياسي محمد الفاسي من الأردن. وتعرض صحيفة «سوراقيا» الاسبوعية التي تصدر في لندن إلى الأرباب، لأنها تنشر فضائح الأسرة المالكة. وقامت في عام ١٩٩٢ بنشر سلسلة مقالات عن الأسرة السعودية في سبعة أعداد متتالية. فصدرت

نشرة باللغة العربية تسمى «المسخرة» وقامت بإهانة وتجريح غسان زكريا صاحب «سوراقيا» ووجهت الإهانات إلى زوجته وابنته وعندما اتصل الرجل بالشرطة علم أن هذه النشرة قد تم طبعها في أمريكا. وفي سبتمبر من عام ١٩٩٢ سطا مجهولون على مكاتب مجلة «سوراقيا» وعبثوا بالكمبيوتر الخاص بها. كما ظهرت إعلانات في الصحف تطلب من كل من لديه معلومات عن المجلة الاتصال برقم تليفون معين. وارسلت خطابات مزورة للبنك العربي وبنك ميدلاند تتسائل عن الموقف المالي للصحيفة.. ويبدو أن هذه الإجراءات كانت لتخويف الصحفي وحشه على الإمساك عن نشر أخبار تخص العائلة المالكة السعودية. وبالطبع لم يكن بإمكان غسان زكريا رفع قضية ضد أحد لأن هذا يتطلب أموالا كثيرة، ومازالت الضغوط الاقتصادية تتواصل على المجلة وربما نسمع قريبا عن إفلاسها أو إغلاقها، وقد تعرضت أنا شخصيا للمضايقة عندما بدأت في إجراء المقابلات واللقاءات مع بعض الناس لجمع معلومات لهذا الكتاب. وذكرت بعض الصحف المالية للسعودية أنني قد تزوجت سبع مرات وأنتى عميل للموساد ومحب للإساءة للعرب. وبالرغم من أن سجلى العائلى ومعاماة أسرئى معروفة للجميع إلا أنني لم أسلم من ألسنة الصحفيين الموالين للسعودية . وأنا أتوقع المزيد من المتاعب بسبب هذا الكتاب.

يجرى العمل منذ عهد فيلى على تحسين صورة البيت السعودى وقد استمرت هذه المحاولات حتى الآن إلا أن الفارق هو أن فيلى كان مستشرفا ولديه ولع بالشرق وربما كان مخلصا فى تأييده لابن سعود كما أنه كان رجلا متعلما وكاتباً جيداً لكن الأمر يختلف مع الكتاب الغربيين الآخرين وقد كتب ويليام ادى كتابه أهل النفط فى الخمسينيات يصور فيه تجرية رجل أبيض وسط ناس كرماء وعطاء وكتب كيم روزفلت كتابه العرب والنفط والتاريخ وهو كتاب يحرك فيك الإحساس بأن هذا الكتاب عن مجموعة من الناس الأغبياء. وصدر بعد ذلك كتاب كارل تويتشل وعنوانه «العربية

السعودية» ويتحدث عن هذا المكان الغامض الثاني المليء بالنفط... ومن الكتب الأخرى التي تناولت السعودية كتاب هورس ارسترونج «سيد الجزيرة العربية» وهو يستعرض حياة ابن سعود، ويصلح لتسليمة أطفال في الخامسة من أعمارهم، وفي الستينيات كتب جيرالدي جوري كتابه عن فيصل وهي دراسة تفتت في تأليه الملك فيصل وصورته كرجل كامل لا يخطئ. أهدا، وفي الثمانينيات كتب روبرت ليس كتابه «الملكمة». وبعد ذلك كتب دافيد هولدن وريتشارد جونز كتاب «بيت سعود» وقد قام بإبراز بعض الأشياء غير الهامة وأغفل بعض الأشياء الهامة. وأشار بصفة عامة إلى أوجه القصور. وتم حظر الكتابين الأخيرين في السعودية لأنها لا ترضى بأي نقد يتناول أفراد الأسرة. وصدر خلال الثمانينات أيضا كتاب «نفوذ العرب» وكتاب «بيت سعود الأمريكي» والكتابان ينتقدان العرب ويستخدمان بيت سعود كمرجع لذلك وصدر أيضا كتاب «السعوديون» لـ ساندرا مكى، وكتاب شيوخ النفط لـ ليندا بلاند فورد. وكلا الكتابين مشهورين ويعدان إلى الإثارة، وفيما عدا كتاب دافيد هوارث المسمى «ملك الصحراء» فإن بقية هذه الكتب التي تناولت شؤون السعودية توصلت إلى نقطتين بالفتى التعقيد. الأولي أن بيت سعود أفضل من يحكم العرب لأن أفرادهم أناس جيدين والثانية أن بيت سعود سيء لكن العرب أيضا سيئين ولا يستحقون حكاما أفضل من هؤلاء. وفي الحالتين يتضمن الأمر إساءة للعرب. والصورة الأصلية لبيت سعود صنعها هؤلاء الكتاب منذ أواخر الخمسينيات ورسمتها التقارير التي تناولت شؤون السعودية، وسبب خلاف أمريكا مع العرب بدأ مع محاولات عبد الناصر الحصول على زعامة العالم العربي وتهديده للمصالح الغربية، فانضم الغرب بصورة تلقائية إلى السعودية وبدأ في تغطية أخبارها بصورة إيجابية وبالتالي اضطر إلى غض البصر عن عيوبها ولم يتعرض لسوء الإدارة أو التخلف وأغفل إسرار أعضاء البيت السعودي وتبديدهم للأموال وتنكيلهم بالمحصرم. وأصبحت هذه الحصال السعودية السيئة هي خصال جميع

العرب. وتساءل جوى أليكس مورس فى عام ١٩٥٩ عما إذا كانت تصرفات السعوديين مختلفة عن تصرفات بقية العرب أم لا؟ إذن الصحافة الغربية كانت مختلفة بالسلوك السيئ لآل سعود لكنها اعتبرته سلوكاً عربياً صميماً.

أما فى السبعينات فقد انشغلت الصحافة الغربية بالحديث عن ثروات السعوديين وكيفية إنفاقها. وقامت صحيفة «نيويورك تايمز» المحافظة بكتابة ٢٥ قصة عن عدنان خاشقجى واعتبرت تصرفاته نموذجاً لتصرفات باقى الأثرياء العرب، ولم تهتم بأثار البترول على هذه المجتمعات أو التغيير الاجتماعى الذى تسبب فيه وإنما ركزت على اللهو العربى وحب الملوك للقمار ومطاردتهم للحسنات، وإذا فحصنا ما كتبته الصحافة الغربية عن العرب والشرق الأوسط فى السبعينيات نجد أنهم تحدثوا عن زوجات الملك أكثر من حديثهم عن الأمية، ولم تهتم الصحافة الغربية بالصحة الإسلامية التى كانت واضحة للمراقبين العرب.، وعندما تم قطع النفط العربى عن الغرب لم تكلف الصحافة الغربية نفسها بدراسة أبعاد الموقف وإنما اكتفت بتصوير خطورة ترك سلعة هامة فى يد هؤلاء الناس المتخلفين. وأصبح العرب يصورون على أنهم أناس متخلفون وخطرون. وعندما زادت أسعار النفط لم يلوموا بلاداً مثل فنزويلا ونيجيريا وإيران- وجميعهم أعضاء فى منظمة الأوبك- وإنما انصب اللوم على العرب وخلاصة الأمر أن السعودية، قررت أن تستغل الصحافة الغربية لتحسين صورتها التى دمرتها بنفسها، وبدأت فى اغراء الصحفيين الغربيين بالكتابة لصالحها، وأصبحت تستدعى صحفيين أجانب لإجراء لقاءات صحفية مع الملك وأفراد الأسرة المالكة، وعندما تنتهى المقابلة يعطى الصحفى هدايا فاخرة تتمثل فى الساعات الذهبية والمباخر المصنوعة من الذهب الخالص، وشيشا فضينا استطاع بيت سعود السيطرة على هؤلاء الصحفيين والتحرك لشراء رؤسائهم، وقد اتبعت السعودية هذه المرة سياسة الضغط وإذا اعترضت وكالة أجنبية ما فإن مطبوعاتها تحظر من البيع لى السعودية وجميع أقطار

مجلس التعاون الخليجي وتشكل هذه البلاد أحد منافذ البيع الهامة، وتعرض صحيفة «الأبزرغر» الآن إلى متاعب اقتصادية بسبب نشرها تقارير عن صفقة اليمامة ٢» التي أبرمتها السعودية مع بريطانيا وتعاين «واشنطن بوست» من نفس المصير. وأصبحنا نرى صحفا غربية هامة تصدر ملاحق إعلانية ودعائية لشركات سعودية، وتركز هذه الملاحق على إنجازات الحكومة السعودية، وكثير من شركات المجوهرات والساعات الثمينة تقوم بوضع إعلاناتها على صفحات صحف مثل «تايم» و«نيوزويك» و«ايكونوميست» و«انترناشيونال هيرالد تريبيون» من أجل القارئ السعودي فإذا حظرت هذه الصحف من الدخول إلى السعودية أو مجلس التعاون الخليجي فإن هذه الشركات ستعاني كثيرا لذلك يتوجب على أصحاب هذه الصحف أن يرضوا السعودية بأي شكل.

في أوائل الثمانينات حاولت السعودية شراء القناة الرابعة اللندنية ولكنها لم تنجح وفي عام ١٩٨١ قام رجل الأعمال السعودي وفيق السيد وهو صديق مقرب إلى الملك فهد والأمير سلطان بشراء ٣٥٪ من أسهم صحيفة «صنداي كوريسبوندنت» ورجل الأعمال هذا هو من ضمن الذين كان لهم دور في حصول بريطانيا على صفقة اليمامة ٢» - ويملك سليمان عليان - وهو أحد رجال الأعمال السعوديين ٥٪ من أسهم صحيفة «الانديبندنت» وصحيفة «صنداي انديبندنت». وقام وليد ابراهيم صهر الملك فهد بشراء مؤسسة «يوناييتد برس انترناشيونال». ويبدو أن هذه المحاولات مقصود منها الدعاية أكثر من كونها مجدية من الناحية التجارية. ويحاول خالد بن سلطان الآن شراء صحيفة «الأبزرغر» التي كشفت التجاوزات الخطيرة في صفقة اليمامة ٢» وتوجد لدينا أسماء لستة صحفيين غربيين بارزين يتفاوضون أمولا من السفارة السعودية في لندن. ومجمل القول أن الفساد السعودي بات مقبولا في الصحافة الغربية وفي الحياة الاجتماعية الغربية. وفي أحد المرات دعيت الصحفية ماري كالفن لحضور غداء رسمي

فى بيت السفير السعودى، وعندما لم ترد اتصل بها اثنان من الصحفيين البارزين لتأكيد موعد الدعوة وقد اندثت الصحفية البريطانية من سلوكهم وقالت ساخرة وكنت أعتقد أن هؤلاء الشباب كتاب وصحفيون لكنهم يتصرفون كصبية فى مكتب السفير السعودى». وفى مناسبة أخرى جاء عرض قدره ٥ مليون دولار للصحفى الأمريكى شارلس جلاس لكتابة السيرة الذاتية للأمير خالد بن سلطان، قائد القوات العربية فى حرب الخليج. وقد ظن أن الأمر مزحة وحكى القصة ل الكسندر والكر صاحب أحد الأعمدة الشهيرة وقام الأخير بنشر القصة. فتلقى شارل جلاس رسالة من صحفى غريب مشهور يتهمه بالغباء وعدم التمييز، وعندما اتصل بالرجل لمعرفة سبب غضبه علم أنه يقوم بتأليف كتاب عن القادة العرب لحرب الخليج. وبالرغم من أن السعودية لم تجت فى شراء الصحافة البريطانية فإنها تجد صعوبة فى فعل نفس الشيء مع أمريكا. فالرأى العام الأمريكى لا يستسيغ مثل هذه الأمور. لكن السعوديين لجأوا إلى أساليب غير مباشرة لاختراق الصحافة الأمريكية. وأخذوا يحثون بعض شركات النفط على سحب إعلاناتها من المطبوعات التى تنتقد سياسات السعودية الدفاعية وهناك قائمة بأسماء شخصيات أمريكية يتعامل معها السعوديون منهم جون ماكون، وويليام كولى وريتشارد هلمز وهم مديرون سابقون للمخابرات الأمريكية وكذلك السفراء السابقون اندرو كليجور وباركرهنت وتالكوت سيلى وهارولد كتر بالإضافة إلى سبيرو اجنيو وادموند مسكى وهم نواب رؤساء، والسناثور جيمس ابو رزق وآخرين. وقد كتب معظم هؤلاء لصالح بيت سعود. ووضع مايلز كويلاند خطة للتأخى بين مدينة برمنجهام والاباما وجدة، فتسلم عقودا ضخمة كرشوة.

وإضافة إلى مئات الأشخاص والشركات التى قدح السعودية وترفع من مكانتها تعرضت مراكز البحوث والجامعات أيضا لتأثير المال السعودى، وقبلت جامعات جنوب كاليفورنيا وجامعة ديوك وجامعة جورج تاون ومؤسسة آسبن إعانات ضخمة من

الحكومة السعودية. ويعمل معظم خبراء الشرق الأوسط مع إدارات قولها الحكومة السعودية. وقامت شبكات التليفزيون الرئيسية باستضافة هؤلاء الناس إبان حرب الخليج وقد تحدثوا لصالح السعودية.

ومجمل القول أن السعودية تستخدم كل أنواع الضغط المالى على الصحفيين وعلى المؤسسات الصحفية ليقفوا إلى جانبها. ويؤدى هذا إلى التفاضى عن التصرفات السيئة التى يقوم بها أفراد الأسرة المالكة. وسيأتى يوم قريب نرى فيه النيران مشتعلة فى السعودية وحينئذ سيستغرب الجميع ويستأمل عن كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد دون أن نعلم .

الفصل التاسع

خدم العرش

الطاغية لا يتصرف بمفرده، وإنما يعتمد على أشخاص آخرين لفرض إرادته على الناس، وقد كان المستشرق فيليب بالنسبة لابن سعود مثل جيولز بالنسبة لهتلر، أو طارق عزيز بالنسبة لصدام حسين، وهذه النماذج تمثل الأداة البشرية التي تخدم أغراض الطاغية. وتختلف أهداف هؤلاء الناس الذين يحيطون بالطاغية، فمنهم يقبل بدوره بسبب إيمانه الحقيقي بأيديولوجية ذلك الطاغية، وآخر يحس أنه قادر على توفير حكومة جيدة لبلده، ورغم معرفته لعيوب الوضع إلا أنه يحاول أن يسلك مسلكا هنا داخله، ويحاول تقليل الخسائر ما أمكن. أما النوع الثالث فإنه موجود لأسباب أخرى مثل حب السلطة أو حب المكسب. وتوجد مجموعة رابعة وجدت نفسها في قلب السلطة بالصدفة واكتفت بتنفيذ أوامر الطاغية دون مناقشته في شيء. ودوافع هؤلاء الناس متشابهة ومعقدة وغالبا ما ينتج عنها تنوعات تجعل من الصعب علينا إصدار أحكام. وهذا هو السبب في محاولة العالم إنزال العقوبة بهؤلاء، النفر على أساس أنهم شركاء في ما حدث.

ومها كانت دوافع اتباع الطاغية أو أهدافهم فإن دراسة النائرة الداخلية لهم تكشف لنا الكثير عن أساليب الطاغية وميوله وجنوحه للفساد والطاغية كما معروف يعتمد على نزواته أكثر من اعتماده على استشارة الآخرين، لذلك فإن الحكم على نوعية اتباع الطاغية واستخدامه لهم يخبرنا أكثر مما تخبرنا القوانين التي يسنها. وهذا يفسر ميل معظم الطغاة إلى العمل خلف الأبواب المغلقة، والتسيير وراء هؤلاء الأنبياء. فمثلا لم يترك لنا هتلر أو ستالين سجلا كاملا بأفكارهم ودوافعهم وإنما اعتمد المؤرخون بدرجة

كبيرة على مفكرات تابعيهم من أمثال جويلز، وسبير، وكروشفيف ورخوف للوصول إلى طريقة تفكيرهم وكيفية اتخاذهم للقرار.

وفي السعودية تعتبر كتب هارى سانت جون فيليبى، وحافظ واهب- برغم كذبهما- مصدرًا هامًا لتحليل دكتاتورية ابن سعود البدوية. وهم دون أن يقصدوا أدوا لنا خدمة عظيمة وأخبرونا بالكثير عن طبيعة ابن سعود المخادعة وأساليبه الإجرامية وانشغاله بالجنس لدرجة الهوس. وكل من الرجلين عمل فى البلاط وتحدث باسم قائده ومثله فى المنتديات العالمية، وقام بتأليف كتب عن فهم ابن سعود للتاريخ، إلا أنهم جميعًا لجأوا إلى الحذف المتعمد لبعض الحقائق وإيجاد المبررات لبعضها الآخر. أما بقية الذين خدموا ملوك السعودية فإنهم كانوا من المرتزقة الأجانب الذين يسعون للحصول على الشرة، لذلك تمجدهم يحاولون طول الوقت تملق رؤسائهم وإظهارهم كأناس متفوقين. ومناسبين لإدارة الأمور. وكانت عدة جهات فى ذلك الوقت تنظر إلى ملوك السعودية، بوصفهم البديل الأفضل وترى الحاجة لحمايتهم ضد الطامعين. ومن هنا ترسخ الاعتقاد لدى مستشارى ابن سعود أنهم يتبعون النهج السليم، وطالما أن الغرب يدعم بيت سعود فهذا معناه أنهم الأفضل وعليهم هم أنفسهم تقديم كل ما يمكن لتثبيت جوانب حكمهم. وما يلفت النظر فى هؤلاء المستشارين أو الخدم أنهم على درجة عالية من التحضر والثقافة، والشائع أن الطغاة عادة يستعينون بمن هم فى مستواهم الفكرى والحضارى إلا أن ظروف بيت سعود وضعت هؤلاء الناس فى طريقهم، فالمستشرق فيليبى مثلاً كان موجوداً لتوجيه ابن سعود لكيفية التعامل مع البريطانيين وشركات النفط الأجنبية.. وسواء كان الأمر مصادفة أم غير ذلك إلا أن فيليبى كان نتاجاً الحضارة ويستغنى عن وخريجا من كمبردج ومستشارا بالمكتب البريطانى للشئون الخارجية، وكان ابن سعود يحتاجه ليعرفه على العالم الغربى الفاضل بالنسبة له... وكان يوجد أيضاً فى دائرة ابن سعود الاستشارية السياسى الفلسطينى جمال الحسينى الذى كان ملماً بدهاليز

السياسة العربية والديناميكية التي تعمل من خلالها. ومؤخرا كان احمد زكى يمانى ملما بسوق النفط أكثر من الملك فيصل. وكان عدنان خاشقجى يعرف عن تجارة السلاح أكثر من الملك فهد وهكذا.. وحدثت المنفعة المتبادلة بين الاثنين، واستخدم ملوك السعودية هؤلاء الرجال لتحقيق مختلف الأغراض بما فيها إظهارهم فى صورة ممتازة، ولكن عندما انتفت الحاجة إلى وجودهم قام هؤلاء الملوك بطردهم، وبالرغم من أن هؤلاء الاتباع أو الخدم أكثر موهبة من ملوكهم إلا أن بيت سعود لم يشركهم فى شؤون الحكم قط، واقتصر دورهم على العمل كمتخصصين أو ككيانات منفصلة لا يجمع بينها رابط لكى لا تصبح مجموعة مؤثرة قادرة على تعويق اتخاذ القرار السياسى. وكلما ازداد تأهيل هذه المجموعة وكفاءتها كلما ازدادت الحاجة لإبعادها عن صنع القرار، لأن إشراكهم بصورة تامة سوف يكشف عن عدم كفاءة رؤسائهم، فهدد أبقى عدنان خاشقجى بعيدا عن صنع القرار، وأبقى فيصل احمد زكى يمانى كواجهة انيقة دون أن يشركه فى القرارات النهائية وهكذا، ووجود هؤلاء الاتباع ليس أساسيا لبيت سعود كوجود كولونيلات أمريكا الجنوبية بالنسبة للحاكم الدكتاتور أو كوجود المسلمين السنة بالنسبة لصدام حسين لكى يحققوا له التوازن أو التفوق على الأكراد والشيعية مثلا، وإنما هم أجناب، ينحدرون من جذور مختلفة ولجارب مختلفة وقد وصلوا إلى هذه المراكز بطرق مختلفة. إذن هذه العصابة ضعيفة وغير متماسكة ولا تتحرك فى مجموعات، والشئ الوحيد الذي يجمعها هو ولاؤها للملك. ويمانى وخاشقجى كانا موجودين منذ الستينات لكن ليس لديهم أشياء مشتركة، ويعمل كل منهم على انفراد، والطريقة التي يعملون بها تحركها وظائفهم وشخصياتهم، ولا تختلف العصابة التي تخدم فهد الآن كثيرا عن ذلك، وغالبا ما يؤثر ضعف قدرات الملك على كفاءتهم وأدائهم، كما أن عرضنا لشخصية كل منهم تعكس من غير قصد عيوب ونواقص النظم الديكتاتورية، فالطاغية المطلق ليس لديه ولاه إلا لنفسه، والرجل الكفء الذى يغفل هذه غالبا ما

يتحول إلى كيان لاقيمة له فى نظر الطاغية.

لنأخذ أولاً رجل كفيث فرعون، فهو قصير وسمين وأحمر البشرة بطريقة تختلف عن بقية السعوديين. وهو أصلع وله لحية صغيرة مشذبة ويتحدث العربية بملكنة سورية، وهو متحجر القلب ويدخن بشراة، وهو مطلوب حالياً للوقوف أمام القضاء الأمريكى والبريطانى، وصدر عليه حكم غيابى باختلاس مئات الملايين من الدولارات فى فضيحة بنك الاعتماد والتجارة الخارجية. وهو ليس كسائر السعوديين الذين يعالجون مثل هذه الحوادث بإرجاع المبالغ المختلة وتسوية الموضوع أو تنظيف اسمه فهو فوق القانون. وهو يحتلى من القضاء الغربى بالاختباء تحت حماية البيت السعودى بالرغم من استياء الغرب ممن يأذى مجرماً. وعلى الأرجح أنه قام باختلاس أموال بنك الاعتماد والتجارة بالنهاية عن بيت سعود، وسنتظر ما سيسفر عنه التحقيق فى هذا الأمر.

تلقى نحيث فرعون تعليمه فى كلية بيروت الجامعية ومعهد كلورادو للمعادن، ودرس فى كلية إدارة الأعمال بجامعة ستانفورد وهارفرد ولا يوجد شك فى ذكائه أو تفوقه العلمى. لكن نجاحه لايرتبط بتعليمه أو موهبته فقط وإنما يرتبط بإنجازات ومكتسبات والده الدكتور رشاد فرعون ورشاد فرعون كان أحد مستشارى ابن سعود وأحد أطبائه. وعمل مستشاراً لفيصل وخالد وفهد، وهو صنيعة البلاط السعودى، وأحد الأجانب الذين نجحوا بمؤهلاتهم الشخصية فى نيل ثقة أربعة ملوك، والكفاءة الشخصية هى المحك للنجاح فى المكتب العالى السعودى، وكان رشاد فرعون يعمل أيضاً طبيباً خاصاً لابن سعود وعنده بالوصفات اللازمة لزيادة القدرة الجنسية وكان يسهر على معالجته من الوسواس المرضى. وكان ابن سعود كعادة زعماء المجتمعات البدائية يؤمن بقدرة الطبيب على فعل كل شئ.. وتخرج رشاد فرعون فى جامعة دمشق فى عام ١٩٣٦ وجاء إلى السعودية بحثاً عن الثروة.. ورشاد فرعون رجل مدينة وحضر وقد دفع بأثائه الأربعة إلى الحصول على تعليم عال والاشتغال بالأعمال الحرة، وبعد

تخرجهم نصحهم بانشاء شركتين احدهما باسم غيث ووايل والثانية باسم مازن وحتان- لأن العائلة المالكة سوف تتردد فى اعطاء نسبة كبيرة من العمل لشركة واحدة- ونصحهم أيضا بعدم التعامل مع أمير واحد. وقام بتشجيع العلاقات بينهم وبين الشخصيات المالكة المرشحة لاعتلاء العرش، مثل فهد ووزير الدفاع سلطان ونائب وزير الدفاع ووزير الدفاع السابق تركى والأمير نايف ووزير الداخلية. نشأ غيث فرعون كمواطن غير سعودى يتمتع بامتيازات والده، وعندما التقيت به فى كلية بيروت العالمية فى أوائل الخمسينات كان يصف نفسه بأنه «دمشقى بجواز سفر سعودى» وكان غيث فرعون ضمن مجموعة تضم أبناء الاصدقاء الحميين لابن سعود ومنهم ابنا عائلة السديري والقصبى والمحتسب وسام ولم يقبل غيث فرعون أبدا كمواطن سعودى. وكان السعوديون يرمقوه بعدم ارتياح خصوصا عندما يفخر بمركز والده أو يتحدث عن هويته أو يستخدم عبارات غير سعودية، وفى الواقع لم يكن غيث فرعون نفسه يحس أنه سعوديا ولم يعانى من مشكلة النزعة السياسية أو الحساسية تجاه الأوضاع الاجتماعية كما كان يحدث للمواطنين السعوديين، وهو لا ينظر الى السعودية كوطن وإنما كمكان لصنع المال، ويؤكد هذا تصميمه على الاحتفاظ بلكنته السعودية رغم أنه ولد وترعرع فى السعودية ولم يعيش أبدا كسعودى. وهو يتعامل مع أفراد الأسرة المالكة داخل السعودية لأنه يعمل معهم أما بخلاف لك فهو يعيش فى مناخ تستخدم فيه العبارات الفرنسية ويشتري اغراضه من أوروبا ويأكل أكل أهل الشام. ومعظم الذين يعملون فى شركته- وهى الشركة السعودية للبحوث والتنمية- هم من الأجانب ومعظمهم سوريون وهو يتعاطف معهم. وهم ينظرون الى السعودى على أنهم أقل مكانة منهم ولا يتزوجون منهم أبدا وإنما يتزوجون من سوريا ولبنان وبلاد أخرى.

كان الدكتور رشاد فرعون يستغل بدابة وعدم محضر ابن سعود ليتفوق عليه وبالتالى يبهره ويكسب من ورائه، وقد فعل ابنه غيث نفس الشيء فى الستينات والسبعينيات

وقد ساعدته معرفته لثلاث لغات على لعب دور الوسيط بين السعودية المتخلفة وبقية العالم المتحضر الذى يفهمه هو ويتحدث بلفته . وبمعنى آخر وظف مواهبه للحصول على الثروة على حساب الجهل السعودى. وتزامن ظهوره فى مجال الأعمال مع فترة ازدهار النفط والفرص التجارية التى ظهرت معها. وركز على تجاوز المنافسة المحلية وطرق نوعيات جديدة من الأعمال وبدأ فى استيراد أطعمة حديثة شهية وفاخرة ليقابل احتياجات الوجبة الحديثة وقام بفتح الفنادق لأراحة رجال الأعمال الذين بدأوا يتوافدون على المملكة، وقدم خدمات التأمين لتقابل الحاجة المتزايدة لها. ودخل فى مغامرات تجارية مع شركات أجنبية لإنشاء شبكات تصريف المياه فى جدة والرياض وكانت الشركات الأجنبية معجبة به فهو يتحدث معهم بلغة الأعمال الحديثة ويلم بهاليز السلطة فى هذا البلد الثرى. وقد ساعده هذا على اقتحام اسواق الغرب واسواق العمل المحلية وقد سنحت له الفرصة للتعامل مع جميع أفراد الأسرة المالكة بمن فيهم الملك فهد والأمير سلطان، وقد تم ذلك مباشرة وبسهولة وبطريقة أرضته تماما وريح لهم بعض المال مما جعله يكسب ثقتهم خاصة وأنهم كانوا فى حاجة لأموال خارجية خلال فترة الستينيات وكانوا ينظرون الى غيث فرعون كأنه حلال المشاكل مما جعلهم يشاركونه فى كثير من الأعمال، وسمحوا له بالدخول فى أعمال التأمينات، وخصصوا إعانات ضخمة لشركة الأسمنت التى كان يساهم فيها، وأعطوه إعانات أكثر بكثير مما يعطى لمشاريع مماثلة. وفى مقابل ذلك كان غيث فرعون يشرح لهم احتياجات التنمية فى المملكة ويدخلهم كشركاء صامتين فى أعماله بما فى ذلك أعماله الفندقية (وهو يملك عددا من فنادق حياة المشهورة).

وفى السبعينيات وجه فرعون شركة البحوث والتنمية الخاصة به إلى مجالات البناء والتشييد.. وقد فضله السعوديون على منافسيه وأعطوه عقودا تقدر بثبات الملايين من الدولارات لإنشاء بنىات أساسية - كسب غيث فرعون عقدا قدره خمسمائة مليون

دولار بالاشتراك مع شركة بارسون الأمريكية- وعمل ايضا فى بناء إحدى أكبر المدن العسكرية فى المملكة وحقق أرباحا مالية ضخمة ويعتقد أنه كان فى إحدى الفترات يوفر دخلا رئيسيا لبعض الأمراء. وتدفقت عليه الأموال حتى أنه أصبح الشرى السعودى الأول فى مجال الأعمال على مستوى العالم.. وقام بشراء أسهم ضخمة فى بنك جورجيا الوطنى و٧٪ من أسهم سلسلة فنادق حياة ولم يكن بإمكان شركته العاملة داخل السعودية تحقيق كل هذه الأرباح. واشتغل بالأعمال على مستوى عالمى إذ كان يستثمر فى هذه الشركات.. وقد استخدم جون كوناى حاكم تكساس السابق وبيتر لانس مدير الميزانية الأمريكى السابق لكى يفتحوا له مجالات للعمل فى الولايات المتحدة. وسيطر على بنك كومونولث فى ديترويت الأمريكية وبنوك أخرى ، واشترك فى إحدى المعاملات مع شركة الخطوط البحرية النرويجية «كونكرديا» وقام بشراء اخشاب من شركة جرفيس دانون الفرنسية، وأنشأ شركة خاصة لتأمين النفط المصدر إلى باكستان واستثمر فى عمليات زيت النخيل فى ماليزيا وفى نفس الوقت بدأت مقامراته التجارية تؤثر على سلوكه الشخصى، وأحاط نفسه بشخصيات دولية، ووضع ثقته فى بعض لتجار الأمريكيين المشبهين وبدأ فى إقامة حفلات تتكلف عشرات الألوف من الدولارات واشترى شقة فى «كان» ب١٥ مليون دولار واشترى إحدى شركات هنرى فورد فى جورجيا.. وخصص لنفسه طائرة نفائة، ودفع ١٥٠ الف دولار لحملة انتخاب عمدة اطلاتطا اندرو يونج، وامضى بعض الوقت فى ضيافة الرئيس كارتر وأسرته- كان بنك جورجيا الوطنى الذى يساهم فيه غيث فرعون هو المقرض الأول لأعمال عائلة كارتر) وزار موبوتو رئيس وزراء زائير وأقنعه باستخدام الشركة السعودية للبحوث والتنمية كواجهة استثمارية فى زائير. وقد غت اسطورة فرعون وكبرت للدرجة أن الحكومة الايطالية كانت تسعى لكسب وده، وقامت بمنحه إحدى الميداليات. وساعدت أعماله داخل السعودية على مده بالمال اللازم لدفع فاتورة الفوائد

الضخمة المستحقة على ديون الاستثمار.. لكن انخفاض أسعار النفط ما بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٤ قلل حجم العمل الذي تقوم به شركته داخل السعودية، كما أن موقفه المالي والتجاري اهتز فجأة أثر مشادة بينه وبين الملك فهد، ووجد نفسه غير قادر على تغطية بعض التزامات الديون، ولجأ إلى عمليات بيع وشراء سريعة لحصص ليتفادى الرقابة المالية في أمريكا، لكن ذلك لم يجدى لأن قيمة بعض استثماراته قد انخفضت ونشرت تقارير تشير إلى انخفاض قيمة صافي أرباحه، وهنا لاح له بنك الاعتماد والتجارة الخارجية كمخرج، وهو البنك الوحيد الذي كان يستطيع اتقاؤه بسبب صلاته مع أسرة سعود، وقام البنك بإقراضه مبلغ ٣٠٠ مليون دولار بضممان بعض ممتلكاته السعودية التي لا قيمة لها. وكان بنك الاعتماد والتجارة يحاول التقرب إلى بيت سعود وقد اقام علاقات بالفعل مع كمال أدهم وخالد بن محفوظ. وقد قاموا بالاتراض منه قابل أرصدة مزيفة وأسهم غير حقيقية، وعندما انهيار البنك فيما بعد كان فرعون مازال مدينًا له بمبلغ ٢٨٥ مليون دولار.

لكن ما بهما هنا ليس غيث فرعون رجل الأعمال العالمي وإنما غيث فرعون صنعية البيت السعودي واحد افراد عصبته. ونحاول هنا الإجابة على بعض الأسئلة وهي: ماذا كان يمثل بالنسبة لهم؟ وهل هو رجل فاسد بالقطرة أم أن فساد امتداد لفسادهم؟ وإلى أي مدى يمثل بيت سعود في عالم المال؟ ولكي نفهم حقيقة علاقته مع الأسرة المالكة وكيفية استغلاله لهذه العلاقة نكتفي بمرور هذه القصة التي حدثت بينه وبين الملك فهد في أواخر السبعينات.

كان فهد يقضى اجازة في ماربلا بأسبانيا عندما كان وليا للعهد، وكان الطقس ممتازا. وقد وفر له الأسبان كل وسائل الراحة والمتعة، مما جعله يحس بالخصوصية والارتياح في ذلك المكان.. وقد أشرف الملك خوان كارلوس شخصيا على الترتيبات المعدة لضمان راحة وحماية ولي العهد، وتأكد من الهبوط الآمن لطائرته وذبح الحراف

له على الطريقة الإسلامية. الخ.. مما أدى إلى قيام علاقة ود متبادل بين الاثنين، وفي عام ١٩٨٠ وعندما ارتفعت أسعار النفط إلى مناهها فكر مدير شركة النفط الأسبانية الحكومية (هيسبان أويل) الاستفادة من العلاقة الوطيدة بين ملكه وولي العهد السعودي لتوفير مبلغ من المال على الحكومة الأسبانية فطلب من رئيس الوزراء الأسباني «سواريز» أن يبحث إمكانية توسط الأمير فهد لبيع النفط مباشرة إلى أسبانيا بدلا عن وساطة شركات البترول الأسبانية وكانت هذه الطريقة توفر على الحكومة الأسبانية ما بين ٥-٧ دولارات في البرميل الواحد.

وإذا جمعنا الحسبة يصبح ما توفره الحكومة الأسبانية حوالي ٨٠٠.٠٠٠ دولار في اليوم الواحد وبالفعل قام الملك خوان كارلوس بعرض الموضوع أمام الملك فهد واستغرقت المناقشات ستة أشهر وتوصلت لاتفاق- في هذه الأثناء كان غيث فرعون موجود أيضا في اسبانيا وحضر ثلاثة اجتماعات بين خوان كارلوس وفهد بخصوص هذا الأمر. وبعد ذلك تم التوصل لاتفاق على أعلى مستوى بين هيسبان اويل وشركة بترو مين السعوديين وتمكنت اسبانيا من شراء النفط بنفس السعر الذي تدفعه إكسون وشل وموبيل وفرح كارلوس ورئيس وزرائه للاتفاق وكذلك مدير هيسبان أويل. لكن هذا النصر الدبلوماسي الأسباني لم يدم فبعد مرور اسبوع واحد من توقيع الاتفاق جاء فرعون إلى مدير هيسبان ازيل وطالب بمعمولة قدرها ٢ دولار على البرميل أي ٣٦٠.٠٠٠ دولار في اليوم أو ١٢٠ مليون دولار في السنة. وصدم مدير الشركة وطلب من فرعون سحب العرض على أساس أن أسبانيا محدثت إلى ولي العهد شخصا ولم تستعين بوسطاء. ولكن فرعون لم يتراجع وإنما بدأ في كتابة الرسائل وإرسال الاستعجالات الى الحكومة الأسبانية لتقوم بالدفع. ووجد الأسبان أنفسهم في مأزق وخشوا أن يكون فهد هو الذي أرسل فرعون. ومن ناحية أخرى كانت العمولة عالية والاستجابة لها تضيع المكسب الذي حققته الحكومة الاسبانية. وقام رئيس الشركة

بإبلاغ رئيس وزرائه، الذى قام برفع الأمر الى الملك كارلوس .، وأحس كارلوس بالإهانة فاتفق بفهد شخصيا وأبلغه الأمر، فطمأنه فهد وطلب منه نسخا من مراسلات فرعون وسجل لزيارته الى أسبانيا وبالفعل تم إرسال هذه المعلومات إلى جدة فوراً.

طلب فهد مشول فرعون أمامه واستفسر حول طلبه لعمولة من «هيبان اويل» وانكر فرعون الأمر فما كان من فهد إلا أن رمى بالملف الذى يحتوى على المراسلات فى وجهه. لكن فرعون ادعى أنه أراد المال ليشرك به فى أعمال خيرية سعودية، فقام فهد من مجلسه واتجه نحو فرعون وصفعه مرتين على وجهه وصق عليه. وطلب من الأجهزة الحكومية وقف المنحة التى تعطى لشركة البحوث والتنمية التى يرأسها فرعون، وأن تؤجل الدفع لمشروعاته القائمة. ولم يجرؤ أحد من العائلة على التشفع من أجل فرعون وإنما اعتبروا تصرفه إساءة للعائلة المالكة كلها. ووضع فرعون على الرف. لمدة عام ولم تجدى محاولاته لنيل عفو الأمير، وعانت شركاته خسائر مادية ضخمة فى وقت كان فيه فى أشد الحاجة الى المال، حتى قرر فهد العفو عنه فى عام ١٩٨٢- وطبعاً بعد أن جثا على ركبته وقبل يده.

والخطأ القاتل الذى وقع فيه فرعون هو أنه ارتكب الجريمة التى لا تغتفر وذلك بأن خلط بين مركزه ومركز أعلى سلطة فى البلد، أى أنه مارس نوعاً من التناول على أسباده. وغضب فهد على فرعون لاعتلاقه له بالمسائل الأخلاقية وإنما بسبب تدخل فرعون فى سلطة الأمير. وفهد مسؤول أيضاً عن ماحدث لأنه من الذين صنعوا الظروف التى يعمل فيها فرعون وأشأله، إذن فإن أتباع البيت السعودى غير مسموح لهم بالتصرف لوحدهم، وكان فهد على استعداد لحماية غيث فرعون من القانون البريطانى أو الأمريكى (كما حدث فى فضيحة بنك الاعتماد والتجارة) (لكنه لا يستطيع السكوت على تناول فرعون على اختصاصاته، وفي فضيحة بنك الاعتماد والتجارة تمت حماية فرعون لأن التحقيق معه ربما يكشف عن تورط بيت سعود فى تلك

الفضيحة.

وننتقل الآن للحديث عن شخصية أخرى من الشخصيات التي تقوم بخدمة اهداف بيت سعود، وهو احمد زكى يمانى وزير البترول والمعادن السابق.. وقد ترك العمل أو أقيل فى عام ١٩٨٦- ويعتبر من الشخصيات العالمية البارزة وهو معروف بأناقته ولحيته المشذبة وشعره الكثيف المجعد، ونظراته الواثقة الثابتة وكان يمانى فى أيام مجده وعزه طفلاً مدللاً للاعلام الغربى، ويقال أن شهرته وذبوع صيته هما السبب فى سقوطه، لأن ذلك اصطدم مع شخصية الملك فهد المعتر بنفسه، وجعله يحس أن شهرة يمانى تهدد صورته، اذ لا يجب أن يسرق احد الأضواء من رئيسه- والملك فهد مرتاح الآن لوجود هشام ناظر وزير النفط الحالى، وهو رجل بلا طعم أو لون، ولا يتذكره احد- وبالنسبة للعرب فإن اسم يمانى يدل على أنه من أصول يمنية، وهو لا ينتمى إلى القبائل السعودية المعروفة وكان والده قاضياً من أهل الحضر، وله إنجازات هامة لكنه كان يفضل العيش فى الظل بعيداً عن عالم السياسة أما يمانى فهو رجل أضواء بالفطرة، وربما كان عدم انتماؤه السياسى هو العامل المباشر فى صعوده إلى القمة، ويمانى ينتمى الى طبقة التكنوقراط غير المؤثرين، وقد استعان به آل سعود، ليبرهنوا على أنهم يشركون العامة أيضاً فى الحكم. ولكن أكثر ما يحبب مثل هؤلاء الأشخاص الى أسيادهم هو تأهيلهم غير المنتمى وتجاهلهم للأحوال العامة فى البلد وميل آل سعود إلى حكم الأسرة المطلق بجعلهم ينجذبون الى مثل هؤلاء الناس ويحسون بالأمان معهم، ومن هذا النوع كما ذكرنا هشام ناظر وهو ينحدر من أصل تركى أو تركمانى وليس له وزن سياسى أو نسب متميز، وهو حتى الآن لا يهتم بأى شىء سوى متطلبات عمله وما يمليه عليه الملك، وقبل يمانى كان عبد الله التريكى هو الذي يشغل منصب وزير النفط، وهو أحد مهندسى «أوك» وقد وصل الى السلطة فى عهد سعود وهو رجل قوى وواسع الخيال وله شخصية صلبة ويرفض أن يتدخل احد فى عمله، وقد قام الملك فيصل

بنته عام ١٩٦٢ ومنذ ذلك الحين أصبحت وزارة النفط هي الوزارة الهامة الوحيدة التي يخصص لها أناس من خارج الأسرة المالكة، وغالبا ما يشترط فيهم القبول بالمنصب دون السلطات المرتبطة به، والنفوذ السياسى المتوقع أن يحظى به وزير النفط على الصعيد العلى أو العالمى ليس موجودا فى هذا الوضع وإذا نظرنا الى وضع يمانى أو ناظر يتضح لنا أن وزير النفط الفعلى وصانع القرار هو الملك نفسه. ويعتبر يمانى وناظر أمثلة جيدة لبيروقراطية عصابة آل سعود التى تتكون من حفنة من الوزراء والسفراء ومديرى الإدارات الذين يعطون لبيت سعود مظهرا حضاريا وهم مجرد واجهة أمام الأجانب فقط لأن بقية المواطنين السعوديين يعرفون كل شىء.

إذن فإن تصنيف يمانى ليس صعبا وإن كان فهمه يحتاج الى جهد، وما يفعله أعضاء هذه العصابة يفعلونه كخدم مطيعين، وحتى اليوم نحن لانعلم كيف يفكر يمانى أو فى ماذا يفكر، فهو لا يخوض فى المسائل الجوهرية. وإجاباته متخصصة لحد ما، وهو يجيد فن تغيير الموضوع وتحويل اهتمام السائل عن الموضوع الأصلى مما يجعله شخصا ملاما ومؤلما. وهو يميل الى طرق الموضوعات الآمنة ويستطرد فيها بشكل يثير الضيق، وقد كان هشام ناظر وغازى القصيبى - وهم من الوزراء التكنوقراط السابقين - يفعلون نفس الشىء، ومع ذلك اعتبروا من المحاورين الجيدين. وتحليل شخصية يمانى ويقائه فى هذا المنصب لمدة ٢٥ عاما. يخبرنا بالكثير عن كيفية ممارسة السلطة فى هذا البلد، والأهم من ذلك أنه يخبرنا عن طريقة اتخاذ القرارات النفطية وكى نفهم يمانى فيجب أن نفهم وجوهه الثلاثة : شخصه، وعمله السياسى، وعمله التجارى. ويمانى كما ذكرنا شخص لامع وحسن المظهر ورشيق ويتميز بالنشاط - وهو يحس بالارتياح التام فى مواجهة الأضواء والكاميرات كأنه نجم سينمائى. وحتى بعد اجتماعات أولئك الطويلة المغلقة يخرج باسمه وكل شعرة من شعر رأسه فى مكانها الأصلى، وإذا كان جورج بوش وجون ميجور بيدوان مشدودين ومنفعلين أمام كاميرات

التليفزيون فإن يمانى غير ذلك وتبدو أناقته طبيعية تماما ومتماشية مع كل شىء. وفى أثناء العطلات يستبدل ملابس «سافيل راو» بملابس البلاج ويسير بتمهل وبطء - لأن الإسراع لا يدل على الكبرياء. وهو يحافظ على هذه الصورة «الغندورة» دائما، وكل المصورين والصحفيين الذين تحدثوا معه يجمعون على مراعاته لمشاعر الآخرين، وكثيرا ما يوجه اسئلة للصحفيين تجعل لقاءاته معهم أكثر حميمية ويسألهم عن أسرهم ويناديهم بألقابهم وبالاسم الأول، ونحن لانعرف جذور «غندرة» يمانى هذه، لكن ربما كان لنشأته فى المدينة والتحاقه بجامعات الغرب علاقة بهذا الأمر. وتنتزج فيه صفات الغرب مع رقة الشرق وكل هذا صقلته وجوه الحياة الراقية الى تعرض لها. فهو قد التقى بشخصيات عالمية كبرى خلال فترة عمله الطويلة وتحدث مع رؤساء شركات كبرى ووزراء نفط وعقد صداقات مع رؤساء دول مثل ريتشارد نيكسون وادوارد هيث وجيسكار داستن وآخرين. لكن الأمر ليس مجرد «غندرة» له اصدا، فى مراكز عالية، وإنما هو أيضا مبال للاستعراض ولديه منازل فى بيروت وجدة والرياض والطائف ولندن وسردينيا وجنيف ويبلغ طول يخته الخاص ٢٠٠ قدم - وهو يحب التباهى بما يملك، ومع ذلك لديه رغبة متميزة فى التعالى على الناس، فهو عندما يذهب إلى المسجد صلى فى غرفة خاصة، ويلعب القمار فى غرفة خاصة فى نادى بلاى بوى وإن كان لعبه للقمار فى السر أمر مفهوم فإن صلاته فى غرفة خاصة أمر غير مفهوم، خاصة وأن روح الإسلام تدعو إلى الصلاة مع الجماعة، وفى واقع الأمر فإن عدم انتحانه لجلود سعودية صلبة تشير ضده كثيرا من السعوديين، وقد كرس هذا الأمر ميله المتزايد للتعامل بأسلوب غربى . وهو لا يختلط بالعامية على عكس افراد بيت سعود الذين يستخدمون المجلس ليظهروا انهم بدو ومتساوون مع الناس. وفى مكتبه يفضل مقابلة الصحفيين الأجانب على الصحفيين العرب، ويتعامل مع الصحافة الغربية أكثر من الصحافة العربية، ويروى الصحفيان البارزان فريد الكاتب وعبد البارى عطوان أنه

تجاهلها مرة عندما كانا في مكتبه وفضل مقابلة بعض الكتاب الأجانب الذين لا ينتمون إلى صف هامة. وهو يبدو مع الأجانب وكأنه يبيع شيئا، وهو لا يسوق فقط بل يسوق يمانى الرجل المتحضر على الطريقة الغربية. وغالبا ما يقدم زوجته وأطفاله في المحاورات التي تجرى معه ويتحدث عنهم بحرية وفخر («وهي عادة غير منتشرة في الوسط العربي» وقد سألت أحد الصحفيين الغربيين مرة إذا ما كنت قد قابلت «تمام» وهو اسم زوجة يمانى الثانية) وعندما أجيبته بالتفى أخبرنى بأننى قد اضعت نصف حياتى. وكان هذا الصحفي يتحدث عن زوجة يمانى وأولاده وكأنهم جزء متمم «لظاهرة يمانى» ويورد بعضهم أن يمانى غازل زوجته أمامهم، وهو يحاول بمقدر الأماكن الابتعاد عن جذوره الإسلامية (ويقال أنه لا يحتفظ بزوجه الأولى لأنه تصرف غير حضارى) وقد طفى حب يمانى للحياة العصرية على كل شيء، لكن يمانى خير من يعلم أنه لى يكون الشخص متحضرا في نظر الغرب فلا يكفى أن تكون له زوجة جميلة، انيقة وذكية ومن أسرة كريمة وتتحدث لغات وإنما يحتاج إلى أشياء أخرى تدعمه، أشياء يتذكره بها الناس ويتحدثون عنها ولما كان التميز في معرفة أنواع ونكهات النبيل عادة غير إسلامية فإنه اختار منطقة أخرى يظهر فيها خبرة وحنكة وهي أنواع المأكولات والحكم عليها وتذوقها، وفي مجال الهواية هو من رواد الأوبرا ويعشق واجزر. وكثيرا ما يجده يتلو قوائم الطعام في المطاعم الكبرى.. ويقوم بتحليلها وانتقادها بمعرفة ودقة.. وهو لا يبارى في حبه للفستق ومعرفة خباياه وأسراره وهو يقتنى حقائب مليئة بالفستق ويحتفظ بها معه في الهوتيل، حتى أصبحت موضوعا للنميمة وفي مقابلاته الرسمية غالبا ما يخرج عن موضوع الحوار الرئيسى وهو النفط-و- ويسأل محدثه إن كان قد رأى آخر عمل في الأوبرا، وقد تخلف في السبعينات عن أحد اجتماعات «أوليك» في غيبنا لأنه كان يشاهد حفل «كونشرتو» وبالطبع فإن هذا لا يفوت على الصحافة الغربية، وكل ممارسات يمانى موجهة لإبهار المتفرج الأوروبى.

وفى أحد مفاوضات أولئك مع شركات نفط عالمية كان مصمما على مناداة المدير التنفيذي للشركة باسمه الأول، وهو أسلوب غير معتاد عند العرب. وقد منحت جامعة ويلز كرسي الاستاذية فى قسم دراسات الطاقة بعد تبرعه لها بمبلغ ٢٥٠.٠٠٠ جنيه استرلينى- فى وقت كان فيه بعض الطلاب العرب والمؤسسات التعليمية العربية فى أشد الحاجة لمثل هذا المبلغ. ويقول جيفرى روينسون الذى يكتب سيرته الذاتية أنه هو وأفراد أسرته كانوا يذهبون للتسوق فى محلات هارودز المشهورة فى لندن بعد اغلاقها وغالبا ما كانت الصحافة تعلم بمثل هذه الأمور. وليس هالك ثمة تناقض بين يمانى رجل الأعمال ويمانى الشخص. وكان نموذجاً جيداً للبطولة المادية ورأسمالى ناجح يحب السلوك الساحر الفاتن، وقد كان هو الذى فتح أول مكتب محاماة منظم فى جدة، وكان له عادة أن يذكر الجميع فى كل لحظة بمؤهلاته الرفيعة وشهاداته التى نالها من القاهرة ونيويورك وهارفرد وكان كل تصرف له مدروس وشديد الدقة لدرجة الوسوسة، وكان يحب أن يعطى للاضطجاع أنه بارد ومتعالى. وكان متميزاً كمحامى مما جعله ينتقى موكله بعناية ومع ذلك يتعامل معهم وكأنه يتنازل ويقدم لهم معروفاً ولم يكن هناك محامون من هارفرد فى السعودية فى أواخر الخمسينيات كما أن وسائل التجارة الحديثة كانت قد دخلت للتو. فزادت شهرته بسرعة وبدأ يقوم ببعض الأعمال الحكومية . وبدأ يلفت نظر رئيس الوزراء حينذاك الأمير فيصل وسرعان ما أصبح مستشاراً ثم وزير دولة فوزير للنفط فى عام ١٩٦٢ ودعاه فيصل لى يحل محل عبد الله التريكى. وكان تريكى قد انتهج سياسة تعتمد على المواجهة وبدأ يشير الأسئلة حول كيفية توزيع ارامكو لعقود النفط والتى كانت تعطى لشركات تقوم برشوة أفراد العائلة المالكة وأقاربهم. وأصبحت شهرة تريكى وجرأته وشعبيته مشكلة لفيصل لذلك كان يبحث عن شخص مختلف عنه ليتولى وزارة النفط وكان يريد شخصاً يلبى الأوامر وفى نفس الوقت يكون مقبولا لدى شركات النفط الأجنبية. وقد وجد ضالته فى يمانى . تلك

كانت بداية يمانى الرجل الأثيق الذى يشير إعجاب الغرب وضيق مواطنيه وقد حوله فيصل من شخص غنى إلى رجل بالغ الشراء. وذلك عندما منحه قطعة أرض ضخمة بالقرب من جده. ولمعرفة يمانى بسوق النفط فإنه كان ينتظر حتى ترتفع أسعار الأراضى ثم يقوم ببيع اجزاء منها، وتقول الاحصائيات أن قطعة الأرض التى اهداها اياها فيصل باعها بمبلغ يتراوح ما بين ٣٠٠ مليون الى ٥٠٠ مليون دولار، وعندما انهارت أسعار الأراضى فى عام ١٩٧٦ كان قد تخلص من كل الأراضى التى يمتلكها بينما أصيب آخرون بالانتهيار والخراب. وهذه الحادثة معروفة جيدا فى السعودية. ولم يعصمه النمط الغربى الذى يتبعه من الانغماس فى معاملات تجارية من الباطن. وقد اكتسب يمانى ثروته الطائلة فى العصر الذهبى للنفط عندما كان نظام العرض والطلب يميل لصالح المنتج وليس المستهلك. وفى الفترة من أوائل السبعينات وحتى أوائل الثمانينات لم تمر صحيفة اسبوعية- هذا غير الصحف اليومية- الا وحملت صورة ليمانى وحديث معه عن ازمت النفط، واصبح العالم معتادا على صورة هذا الرجل الواحد المرتبط بصراعات أوليك مع الغرب دون أن يعلم أحد بأنه لايمك أى سلطة أو نفوذ، وإن كان الغرب يفاجأ أحيانا ببعض التصرفات الغامضة أو المتناقضة ويستغرب لجوء رجل موثوق به كيمانى الى مثل هذه التصرفات ، وحتى عندما لايعجب القرار المنسوب الى يمانى شركات النفط الغربية فإنها كانت ترى أنه شخص جذاب ومتحدث لبق. فهو لايلجأ الى الوعيد أو الضغوط وإنما يميل الى تنفيذ الأسباب. وبهذه الطريقة يخفف المخاطر المترتبة على سيطرة عدد من الأقطار الصغيرة على سلعة هامة لايتطيع العالم العيش بدونها، وتحت ضغوط المقابلات الصحفية فإنه يتفادى الاسئلة الصعبة باهتسامة فائتة ويخرج من الأمر وهو محتفظ بصورته كخشن معتدل ملتزم بتقريب وجهات النظر بين المنتج والمستهلك واذا لجأنا الى حالة الإدراك المتأخر للحالة فإنه يساعدنا فى تكوين فكرة جيدة عما كان يفعله يمانى ولماذا فعله وسياسات يمانى النفطية المعلنة- لو

كانت سياساته هو- تتكون من عنصرين: الأول: أن أسعار النفط لا ترتفع بالقدر الذى يؤدى الاقتصاد الغربى. والثانى: أنها لا ترتفع لحد يؤدى الى البحث عن مصدر طاقة بديلة، ومن ناحي اخرى فهو ملتزم ايضا بأن تبقى أوبك هى المسيطرة على تزويد العالم بالنفط على المدى الطويل وهذه السياسية معروفة داخل دوائر السلطة المعنية وهى الحكومة السعودية وأوبك والغرب.

أما داخل السعودية فقد كان يمانى يتعامل مع فيصل وحده، وربما كان قرينه من فيصل هو الذى جعله يتجاهل الأمير فهد عندما عين رئيسا للمجلس الأعلى للبترول،- وهو التصرف الذى دفع يمانى ثمنه فى مابعد- وكان فيصل مقتدرا وهو الذى يتخذ كل القرارات الخاصة بالنفط. وواصل السياسة التقليدية المعروفة وهى زيادة انتاج النفط السعودى لإبقاء الأسعار منخفضة من أجل تخفيف العبء على اقتصاديات الدول الصناعية، وقد ناصر يمانى رئيسه فى هذا الاتجاه، وكان فيصل مصمما على سياسته هذه إلا أنه كان قلقا بعض الشيء من ردة فعل المواطنين السعوديين تجاه ابقاء اسعار النفط متدنية وبالتالي ابقاء الدخل القومى منخفضا. وكانت سياسة فيصل كما يلى:

الموازنة بين الأسعار المرتفعة واعتبارات السياسة الداخلية والاقليمية.

ايد يمانى فكرة اتفاق عائدات الدخل الضخمة- من اجل إعادة دورة المال واراد أن يتفادى عدم التوازن فى السوق المالية العالمية الذى يسببه ازدياد الاعتادات المالية فى صناديق منتج النفط. وكان فيصل يخشى التمزق الاجتماعى الذى يمكن أن يسببه اتفاق مبالغ كبيرة من المال بسرعة شديدة، وتم التوصل الى قرار وسط فى صالح فيصل مما احدث تراكما للفائض يقدر بمبلغ ١٤ مليار دولار- قام البيت السعودى فيما بعد بتبديد هذا المبلغ- أما بالنسبة لسياسة استخدام النفط كم سلاح سياسى فإن يمانى لم يؤيدها فى يوم من الأيام وكان يقف مع فكرة فصل النفط عن السياسة إلا أن فيصل كان يحس أن النفط والسياسة متقاربين لحد كبير- لذلك قرر أن يتبنى سياسة قادرة

على تقبيل حجم الخسائر التي يمكن أن تحدث من استخدام النفط كأداة سياسية- وكان فيصل قد اتخذ قرارا بحظر شحن النفط الى الغرب في حرب ١٩٧٣ دون موافقة يمانى- وإن كان يمانى هو الذى قام بالتنفيذ- وقد تراجع فيصل عن القرار بمجرد أن أصبح ذلك ملاما. وحتى عندما انقلب بعض افراد الأسرة المالكة فيما بعد على يمانى وشوهوا سمعته إلا أنه لم يكن يجد صعوبة فى التحدث لصالح فيصل فى هذه النقاط (انظر الفصل العاشر). إذن فإن يمانى كان ملتزما فى فترة ازدهار النفط بتلميع نفسه، وتجاهل مشاعر المواطنين السعوديين وعدم التعاون مع البلاد العربية وتجاهل آراء اعضاء الأوبك الآخرين، وكان سعيدا بدوره كرجل علاقات عامة- وهو الدور الذى جلب له اعجاب الغرب ورضاء فيصل واهدى كثير من المواطنين الذى اجرينا معهم مقابلات عن ضيقهم منه، وعدم ثقتهم به وذلك بسبب تعاليه وحرصه على إرضاء الغرب. وهذا يؤيد رأى فيصل فى وجود جماهير سعودية يحسب حمايتها. ولذلك يوضع يمانى فى خانة واحدة مع بعض الزعماء العرب الذين يظنون أن إرضاء الغرب هو اللعبة الوحيدة المجدية.. وبعد مقتل فيصل فى عام ١٩٧٦ اختلف الوضع بالنسبة ليمانى اذ ترك الملك خالد الأمور فى يد فهد وهو شخص مختلف عن فيصل، فقد كان فيصل رجلا مكارما ويحس بالأمان واستطاع استخدام مواهب يمانى بطريقة ذكية، بينما كان فهد رجلا ضيق الأتقى، يعوزه الذكاء الى جانب أنه متغطرس ويهوى الاضواء، وقد أحس فهد بالحاجة للانتقام من يمانى بسبب تجاهله السابق له واراد أن يذكره بمكانه الحقيقى كخادم للعرش يمكن الاستغناء عنه، واستمر يمانى فى منصبه لمدة أربعة أعوام بعد أن أصبح فهد ملكا، وكان فهد لا يقابله- وتصادف فى هذه الفترة هبوط فى أسعار النفط وماتت الكفة لصالح المستهلك بدلا من المنتج. وزاد من سوء الموقف قيام افراد العائلة المالكة بضخ كميات إضافية من النفط مما أثر على السعر الذى وضعتهُ الأوبك.. كما أن عدم رغبة فهد فى دراسة الوثائق اضعفت من دور يمانى - وكان

يماني يعيش على مد رؤسائه بالوثائق التي تساعدهم على اتخاذ القرار. وأخيرا أصدر فهد أمرا -مستجيلا- ليماني وطالبه بأن يعالج التدهور في عائدات النفط - وهو أمر كان يحتاج إلى ساهر وليس إلى تكنوقراط. وعندما عجز يمانى عن تحقيق ما طلبه فهد قام الأخير بفصله بأسلوب مهين (سمع وزير النفط بخبر عزله من التلفزيون) وأوردت الصحافة المحلية الخبر دون تعليق.

وبرغم أن يمانى قبل الاستمرار في خدمة فهد إلا أنه كان قد أدخل جميع أوراقه من مكتبه قبل فترة. وقد حزن عليه الغرب كثيرا، لكن حصل ارتياح في الأوساط السعودية والعربية وعلى مستوى الأوك، ويمكن القول أن هذا القرار قد منح فهد شعبية مؤقتة ومنع يمانى من مغادرة البلد لفترة طويلة، وابتعد عنه كثير من الاصدقاء خوفا من بطش فهد وهو الآن يدور في العالم باحسا عن دور له. وقام بشراء بيت فوشيون كونستانتين للساعات السويسرية، وأنشأ «انفسكورب» لتدير استشاراته كما أنشأ مركزا لدراسات الطاقة الدولية، ومنح مواقع في مجالس إدارات كثير من الشركات التي يمثلها اصداؤه ومنهم ادوار هيث وقاليري جيسكار ديستى وبالرغم من أنه لا يتحدث في سياسات النفط السعودية إلا أن البعض يعتقد أنه ينتظر الفرصة ليعود الى عمله السابق عندما يصبح الأمير عبد الله ملكا، وهو أمر مستبعد لأن عبد الله يميل الى إرضاء مواطنيه.

وفي المحصلة النهائية فإن يمانى شخص درامى مشير للسخرية فهو قد صعد الى السلطة تحت حكم رجل لم يكن ينصت اليه وفارقها بسبب رجل مستاء من صيته ومن سلوكه. وفي اثناء ذلك لم يعط الفرصة لإظهار مواهبه لأن الرجلين لم يكونا يرغبان في وزير نفط حقيقى، وتقديره هو لدوره الفارغ يظل سرا، وغيباه لم يشكل فرقا في سياسة بلده النفطية. المرة الوحيدة التي اتخذ فيها موقفا مشرفا كانت عندما رفض استخدام النفط في المقايضة - وحتى هذا أمر مشكوك فيه بعد ما اتضح أن ابنه انتهك القوانين

المقيدة لتجارة النفط (انظر الفصل العاشر). والآن فإننا مالم نجد أحدا مغرما بالفستق وسبهات الصلاة والساعات السويسرية أو الاحتفاء بالتعبئة للقرب فإنه لم يبق ما يقال عن احمد زكى يمانى. فهو مجرد تكنوقراط يمكن استبداله وخدماته تجبى وتروح على حسب المتغيرات فى بيت آل سعود. وهو - بعكس عبد الله التريكى لم يفترقه احد. ويبقى نتاجا لماديسون افينيرو وليس للسعودية. وهو شخصية تراجيدية فى مجال الروعة المبتذلة.

وننتقل بعد هذا إلى شخصية اخرى من خدم التاج هو المليادير عدنان خاشقجى. ورغم من أن عدة كتب وسير ذاتية قد تناولته إلا أنه يبقى دائما غامضا ومراوغا، وهو يستحق تحليلا أعمق من مجرد القصص التى تحكى عنه. وكتاب هارولد روبنس بعنوانه «القرصان» يعطى فكرة ما، وقد ساهم هو فيه بقدر كبير وخاشقجى يختلف عن بقية خدم التاج فى أنه يجد متعة فى المساهمة فيما يكتب عنه، وإن كنا نرى نوعا من الهزيمة فى مثل هذا الأسلوب، والمستر «خاء» كما يطلق عليه اتباعه هو انعكاس صادق للروية وأساليب اسباده. وهو ينحدر من أصل تركمانى - أى أنه تابع آخر غير سعودى - وهو أشهر تاجر سلاح فى العالم، والحفلات التى يقيمها تصرف فيها الملايين - ويحرص على جلب كل انواع الشقراوات، وله سجل اجرامى فى سويسرا وامريكا، وعليه احكام بالسجن فى هذين البلدين وهو صديق حميم لرؤساء سابقين أمثال نيكسون وريجان وساهم فى الحملات الرئاسية لانتخابهما (يقال أنه دفع مليونين من الجنيهات لحملة نيكسون فى عام ١٩٧٢) وعملك أحد أكثر البخوت أهبة فى العالم وابنته تيلة فتاة متحررة وتعيش مع صديقها، وليس هناك شىء مشترك بينها وبين النساء السعوديات. - وهو رجل كريم ومخلص لاصدقائه، كثير من اصدقائه ومن بينهم الماس تافهون اصبحوا مليونيرات بفضلهم. أما الشىء المثير بخصوصه فهو قدرته على المحافظة على مكانته فى الدائرة الداخلية لبيت سعود. وهو لا يفعل أى شىء.

يسىء اليهم، ولا يتحدث عن مشاركتهم له فى بعض الأعمال التجارية، ولكن كل سلوكه وتصرفاته تعتبر انتهاكا لكل ما يؤمنون به (على الأصح ما يدعون أنهم يؤمنون به) وكل ما يفعله يناقض الصورة التى يحاولون الظهور بها. لكن اذا وضعنا تظاههم ونفاقهم جانبا فإن كل ما يفعله إنما هو انعكاس حقيقى لسلوكياتهم السرية والمخبأة، وانعكاس لأسلوب الحياة الشخصية لعدد من الشخصيات الهامة والرئيسية فى بيت سعود وحفلات خاشقجى وسهراته فى النوادى الليلية لاقت للإسلام بصلة وأفراد عائلة سعود- على أعلى مستوياتهم - يقيمون حفلات راقصة صاخبة فى السر وكثير منهم بمن فيهم الملك فهد يترددون على نوادى ليلية بصحبة خاشقجى. وخاشقجى لا ينكر أنه تاجر سلاح. ويقاخر بأنه تاجر سلاح صنع ثروة كبيرة من ممارسة الأعمال التجارية، ويعترف بأنه ساهم فى بيع وأسلحة لإيران، فى الحادث الشهير المرتبط بفضيحة إيران - كونسرا، وأنه تعامل مع سياسيين اسرائيليين وعملاء فى الموساد وقد فعل خاشقجى كل هذا بمعرفة وموافقة بيت سعود، الذى يتظاهر بأنه يقف فى جانب العرب، وهو موقف متناقض تماما. ويتباهى خاشقجى بإخلاصه لاصدقائه ومساعدته إياهم على تكوين ثروات، وقد ساعده البيت السعودى كثيرا وأكثر بكثير مما هو معلن، بحيث أنه كدس الثروات على حساب المواطنين السعوديين أما نساء أسرة خاشقجى فأنهن يلقين بالمال وكأنما تنتهى موضته ويتحدثن علنا عن مغامراتهن الغرامية بينما نجد نساء عائلة سعود يفعلن نفس الشئ. لكن دون التحدث عنه، كما أن البيت السعودى لا يستطيع أن فعل ما يفعله عدنان خاشقجى علنا. وكان الملك فهد يشعر بالغيرة من غراميات خاشقجى ومغامراته وقد قال مرة أن هذا الرجل يقيم عدة علاقات فى وقت واحد ويمارس خاشقجى أسلوب حياة لا يستطيع آل سعود ممارسته وإن كانوا يتمنون ذلك ومن الواضح أنهم معجبون بسلوكه الشخصى الجرىء، لكن كل ما ذكرناه لا يفسر لنا سر وثوقهم به فى مجال الأعمال. وقد رأينا من قبل لماذا كان قبلى فى

جانب ابن سعود، ولماذا كان فيصل يرتاح ليماني وفهمنا حيلة غيث فرعون بآل سعود. والسؤال الذي نطرحه الآن: لماذا هو بالذات وما الذي يؤهل هذا الشخص ليكون موضع ثقة هؤلاء الناس؟ والمعروف أن خلفية خاشقجي مختلفة عن خلفية كل من يمانى وغيث فرعون، فقد كان طالبا بكلية شيكو فى كاليفورنيا وهى لاتعطى تأهيلا عاليا، إلا أن والده محمد خاشقجي كان أحد أطباء ابن سعود، ولم يتحول أبدا إلى مستشار له. كما أن الصلة بين عدنان وبين شباب آل سعود لم تصل إلى درجة الصداقة أبدا. وكل ما نستطيع قوله أن عدنان خاشقجي كان ينحدر من أصل غير سعودى وإن مصدر أهميته الوحيد هو صفاته الشخصية التى تلاقى قبولا عند بيت سعود لكن يوجد العديد من الناس لديهم نفس هذا المؤهل ومع ذلك لم ينجحوا فى التقرب من آل سعود. وهنا يجعلنا نحزم بأنه يملك صفة فريدة هى التى أهلتة لهذا الدور. ونجاح خاشقجي الأصلى فى عالم المال لم يكن بسبب الأسرة السعودية فهو قد بدأ العمل بالتجارة منذ الخمسينيات عندما كان طالبا فى كلية شيكو، وكان يقوم بعمليات بيع وشراء وإعادة بيع بعض السلع وقد ظهرت موهبته عند قيامه بإعادة بيع خمسين شاحنة من ماركه «كينورث» لمجموعة شركات بن لادن السعودية، ويكشف هنا عن موهبة فى الاحساس باحتياجات البلد، ولكنه لايدل على براعة. وتبع هذه الصفقة صفقات أخرى أكبر، وقد دعاه ولده بالتجارة الى ترك الكلية وانشاء شركة «الناصر» التى غير اسمها فيما بعد إلى «طرايد» ولم يكن هناك جديد فى نوعية أعمال هذه الشركة غير عين صاحبها الفاحصة وحسه التجارى وبحسه المستمر عن فرص جديدة، وقد جاءت الفرصة الكبرى فى الستينات مع حرب اليمن اذ أحس باحتياج السعودية الى السلاح... وكانت شركات امريكية كبرى مثل لوكهيد وريثيون وجرومان لبس لديها مندوب فى السعودية وكانت تعتمد على وكلاء فى أماكن أخرى من الشرق الأوسط لتصرف اعمالها، وهنا برز خاشقجي ليصبح الوسيط بين هذه الشركات والملك فيصل. وبذلك اصبح حللا لعقد

الجبائين وتقرب الى الملك فيصل وكان يعرض أمامه بلهاقة محاسن القطعة المطلوبة وأثرها في رفع كفاءة من يستخدمها ، وفي نفس الوقت يشرح للشركة صاحبة السلعة أهمية وحجم السوق السعودي. وقد استطاع كسب ثقة هذه الشركات بالرغم من أنها لم تعتمد الاستعانة بشخصيات محلية لمثل هذا العمل واصبحت تحت عملائها ايضا على التعاون مع خاشقجي.

كانت حرب اليمن أضخم مما يتصور الناس، وكانت السعودية في حاجة إلى كثير من السلاح لاستخدامه فيها مما أدى إلى ازدهار اعمال خاشقجي. لكنه لم يكتفى بمكسبه من تجارة السلاح وإنما قام بنشر شبكته لتصيد فرص أخرى، وبدأ في توطيد علاقاته مع شخصيات في بيت سعود. وكان مراعيًا لهم ولا يترك شيئًا يسهم حتى أنه ويغ مرة أحد مسؤولي لوكهيد لأنه انتقد أحد الأمراء ورفض مرة الإقامة مع الأمير طلال في نفس الفندق في بوسطن حتى لا يضايقه كما أمر زوجته أن تقلل من زينتها وحليها حتى لا تنطفي على زوجة الأمير، ونفس أسلوب المراعاة هذا كان يستخدمه مع الشركات الأمريكية لذلك أنشأ شركات صغيرة في سويسرا و«لايشتنتين» لكي يسهل على هذه الشركات دفع العمولات الخاصة به وكانت هذه الشركات الصغيرة الخاصة به تظهر وتختفي مع نهاية كل عملية، وقام بتحرك آخر لكسب ود سياسيين ومسؤولين أمريكيين كبار. ولجج في التقرب من جيمس كريتشفيلد خبير شئون الشرق الأوسط في المخابرات المركزية الأمريكية وكذلك كيم روزفلت وبيبي ريزوزو احد اصدقاء نيكسون وقد افادته هذه الصداقات كثيرا وكان كريتشفيلد ينقل إليه موقف المخابرات المركزية من بعض المسائل بينما كان روزفلت يرتب له بعض الأعمال مثل دفع رشاوى الى هاشم هاشم قائد القوات الجوية السعودية، وكان ريزوزو يحمل رسائله من وإلى نيكسون واصبح خاشقجي احد اهم تجار السلاح في العالم، في وقت قياسي، وقد اكد لجاحه مدى خبرته بمراكز القوى التي يتعامل معها ومن خلالها، وهذه الحماسية تجاه ما يحيط به هي

التي جعلته يركز على صداقة آل السديري - الملك فهد واخوته الستة الاشقاء - وأحسن بأهبيتهم وإمكانية وصولهم الى السلطة قبل الآخرين وراهن عليهم كمفتاح لمستقبله. وليس هناك ما يشير الى صداقته مع الأمراء محمد وبندر وناصر برغم أن دورهم في قائمة الصعود للعرش كان قبل فهد وبالفعل سار كل شيء على الطريقة السديرية. وفي الستينيات كان كل أبناء السديري يشغلون مراكز مرموقة ، فكان فهد وزيرا للداخلية وسليمان وزيرا للدفاع وباقي الاشقاء في مراكز رفيعة. وتعامل خاشقجي مع كل منهم حسب طباعه وشروطه، وكان يصحب فهد الى ملهى «ريجين» بجنوب فرنسا لكنه كان يحرسه ويحرص على راحته، ويقول الأمير سلطان «أنه يقوم بأبحاث لوزارة الدفاع» وهذا معناه أنه يشير عليهم في ما يشترونه، وهو الذي زود الأمير نايف بمعدات الكترونية فرنسية لوزارة الداخلية. وهو هادي وغير مدعى أو متفطر وهذا ما يحبه فيه الأمير سلمان ويحتفظ بعلاقات طيبة مع الأمير تركي نائب وزير الدفاع دون أن يؤذي مشاعر وزير الدفاع سلطان. ، وعلى الصعيد الشخصي كان خاشقجي نافذة ابتلاء السديري الى العالم الخارجي وعند تحركهم نحو السلطة تزايد اعتمادهم عليه، ولم يخذلهم ابدا. ومع أن خاشقجي رجل مشغول للغاية- ويمكن أن ينتظر الشخص أيام حتى يستطيع مقابلته إلا أنه لا يتأخر أبدا عن موعد أمير، ويكون دائما جاهزا لاستقبال أحدهم وهو لا يرفع صوته أمامهم وينسحب بهدوء ويعكف على تنفيذ أوامره بسرعة واتقان وهو يتحدث عن كل شيء تحت الشمس إلا عنهم، وحتى الآن لا توجد أدلة مكتوبة عن تعاملاتهم معه أو استلامهم لمعاملات من ناحيته. ومع أن خاشقجي أصبح مشهورا جدا إلا أنه لا يحاول انتحال أي صفة ملكية كما كان يفعل يمانى- كما أنه لا يحاول منافسة أفراد العائلة المالكة على الأضواء برغم ولعه بها. ولا يفعل أي شيء من ورائهم كما يفعل غيث فرعون ولا يجعل نفوذه وسلطته سوى امتداد لسلطانهم. ، وكان خاشقجي قد لمع في الساحة الدولية في منتصف السبعينات

كأعظم من يعقد صفقة في العالم وأفضل من يقيم الحفلات وذلك بسبب الأموال الخرافية التي كانت بحوزته- وكل ذلك في أقل من عشر سنوات وقد أعطته شركة «نودوروب» مرة عمولة قدرها ١٠٠ مليون دولار، كما أعطته لوكهيد ١٠٦ مليون دولار، وزود السعودية بـ ٨٠٪ من نسبة الأعمال والتجارة الخارجية. ويعتبر ما يحصل عليه نوعا من الهبات السخية التي لم يرى العالم مثيلا لها. وأصبح هذا الرجل القصير السمين ذو الذقن المزدوجة والشعر المتراجع والابتسامة المحجولة- رمزا لثروات النفط الهائلة. ويقول المقربون إليه أنه كان يحلم منذ زمن طويل بتحويل شركة «طرياد» التي تخصه الى واحدة من أكبر الشركات في العالم. وقام بإنشاء شركات للبناء والتعمير واماكن للترفيه، وصمم المباني وشارك في أعمال التنمية وملا شركاته بخريجين شقر البشرة يحملون مؤهلات من أرقى الجامعات الأمريكية، وهو يستعين بمحامين من جامعة هارفرد ومعماريين من جامعة برنستون ورجال أعمال من خريجي ستانفورد، وحلالين للمشاكل من جامعة ييل ويستأجر أناس مثل دافيد سيربي السكرتير المساعد السابق في وزارة الخارجية ويستعين بالمستشار المعروف ماكينساي لتنظيم نشاطاته التجارية ويستخدم برايس ووتر هاوس المرموقة لفحص حساباته، لكن كل هذا لم يجدي لأن طرياد كانت شركة رجل واحد، وكما أن قيامه بتنظيم قسم شؤون الأفراد جاء متأرجحا وشل حركتها، وكان قد فتح للشركة فروعاً في ٣٥ دولة، وهو بارع في التعامل مع الناس بكافة المستويات ويستطيع التعامل مع البواب مثل ما يتعامل مع ملك. والتجاذبات التي حققها ترجع إلى شخصيته الساحرة لكنه فشل في رسم حدود واعية لامبراطوريته التجارية التي تحتاج لأشياء أكثر من علاقات عامة ساحرة.

بعد الستينيات تزامن صعود نجم خاشقجي مع صعود ابناء سعود الى السلطة، لذلك احتاج للتوسع ليقابل احتياجاتهم المتزايدة.. واصبح واجهة لهم، وهو يمكن أن يذهب لحدود بعيدة في سبيل حمايتهم وان اضطره ذلك الى اللجوء لأساليب معوجة

ومن ناحية أخرى توطدت صلاته مع نيكسون عندما التقاه في ملهى راسبوتين. وتوطدت صلاته ايضا مع رينيه أمير موناكو وتعرف بالأمير الهولندي برنارد وتقرب من الملك خوان كارلوس وتعامل مع زعماء في العالم الثالث، خاصة الذين يمكن أن تشكل بلادهم -فرصا للاستثمار مثل جعفر النميري السوداني وجومو كينيي الكيني وسير جيس مانشام في سيشيل. لكنه مثل ايضا بعض الوجوه القذرة لعالم المال حيث تعامل مع مدام ميريل جريفون- التي تعيش في جنوب فرنسا وتقوم بجلب الحسنات للزوار العرب. وظهر مع نجوم مشاهير مثل جوان كوليتز وشون كورنى وجورج هاملتون واليزابيث تيلر واعتمد على بيثرام ميدوز في نادى ٢١ اللندنى، وقد بدأت ثروة تترك أثرها على تصرفات خاشقجى، فترك تحفظه وأصبح ميالا للدعاية وقام بشراء مصمم الازياء اليابانى الشهير كينزو، وبدأ الناس يروون الأساطير عن بخته«نبيله» الذى تكلف ديكوره فقط ٢٠ مليون دولار، أصبحت خناقاته مع زوجته الجميلة ثريا علنية. وفي اثناء ذلك واصل جهوده لتوسيع اعماله وطرق مجالات جديدة في العمل لكن الحظ بدأ يفارقه وفشلت الخطة الضخمة التى صرفت فيها السعودية عشرات الملايين من الدولارات لتحويل السودان لسلة غداء في المنطقة لأن طرياد لم تكن مؤهلة للقيام بالعمل. ولم تنجح استثماراته في هونج كونج وفشلت محاولة تحويل شركة الشحن الهولندية الى شركة سعودية، وعانت بنوكه وشركات السياحة الخاصة به واعمال الاثاث الخاصة به من الإهمال بسبب تشتت جهوده، فهذا الشخص الواحد كان مشغولا بأمر عديدة الى جانب العمل الوحيد الذى يجيده وهو تجارة السلاح، وبدأت مشاريعه في التدهور بسبب عجزه عن توفير المحتوى الإدارى والتنظيمى لها. ويبدو أن رؤاه قد تجاوزت قدراته كثيرا، ومثال على ذلك قيامه في السبعينيات بالاستثمار في مشروع ضخمة في مدينة هيوستن الأمريكية وكذلك اقامة حديقة صناعية ضخمة في مدينة سالت ليك سيتى، كانت تحتاج اموال تنمية ضخمة- تتجاوز كل الأموال التى يحصل

عليها من صفقات السلاح. وبالرغم من أنه استطاع جذب كثير من المستثمرين لمشروع هستون إلا أنه لم ينجح في دفع المشروع الى الأمام بطريقة منظمة، وفي النهاية تخلى عنه، وكان مشروع «سالت ليك سيتي» يحتاج إلى ٦٠٠ مليون دولار فشل في توفيرها، اذن كان فشل خاشقجي بكيفيتين: فقد كان مشروع سالت ليك سيتي مكلفا للغاية ولما لم يتسقط توفير المال له أعلنت شركة طرباد التي تخصه إفلاسها في أمريكا تحت البند ١١ من قانون الولايات المتحدة، والحصلة القاتلة التي يتميز بها خاشقجي هي عدم القدرة على التنظيم وقد انعكس هذا حتى على علاقاته الخاصة. فقد فشل مرة في تعطيته بطاقته الائتمانية وأمريكان اكسبريس» وعجز عن دفع مبلغ ٥٠٠.٠٠٠ دولار مما اضطر البنك الى سحبها.

وفي الثمانينيات بدأت الحكايات تروى عن إفلاسه، وقد روج هذه القصص اثنان من العاملين لديه كان قد وعدهم وعودا براقه. وبدأت بعض أعماله تغلق لكنه استمر في الإعلان عن أن منصرفاته الشخصية تبلغ ١٠٠ مليون دولار في العام، وهذا صحيح بدرجة ما لأنه برغم مشاكل السيولة كان لديه ارصدة مجمدة، كم أنه مازال يحتفظ بعلاقاته الطيبة مع آل سعود ولما بتجارة السلاح..

لم تكن صفقة ايران-كونترا ضربة حظ لخاشقجي ولكنها كانت عملية معقدة شارك فيها رؤساء حكومات وتحتوى على بنود قانونية واخرى سرية فحكومة الولايات المتحدة كانت تمد ايران سرا بالسلاح من خلال اسرائيل بتمويل سعودي، ينتج عنه ربح استخدمه البيت الأبيض بطريقة غير قانونية ليمول به أنشطة متمردي الكونترا في نيكاراغوا. والناحية غير القانونية هي تزويد ايران بالسلاح برغم الالتزام بالحياد تجاه الحرب العراقية الإيرانية، واستخدام هذه الورقة في النهاية لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في حادث السفارة المشهور. كما أن تعاون السعودية وقتها مع اسرائيل كان يعد خيانة للعالم العربي، وبدأت الخطة في عام ١٩٨٣ وكان خاشقجي هو الراعى لها وكان تاجر

السلاح الإيراني مانوسور جورينفار قد تقدم بطلب لخاشقجي ليساعده فى الحصول على صواريخ لإيران مقابل التوسط للإقراج عن بعض الرهائن الأمريكيين- وفى اثناء تنظيم خاشقجي للعملية التقى بمسؤولين فى البيت الأبيض والتقى برئيس الوزراء اسحاق رابين وبالمملك فهد وآخرين وعند اتمام الصفقة تسلمت ايران أكثر من ٢٠٠٠ صاروخ ماركة تاو وعدد كبير معروف من صواريخ هوك ودفعت ٤ دول عملولات لخاشقجي بلغت ملايين الدولارات. وقد كشفت صحيفة الشراع اللبنانية الموالية لسوريا عن الصفقة- لأن سوريا لم تترج للعلاقة الودية بين ايران وأمريكا- وحبس العالم أنفاسه عند انكشاف الفضيحة. وحاول روبرت مكفرلاند مهندس الجزء الأمريكى من الاتفاق الانتحار، ومثل اوليفرنورث عضو مجلس الأمن القومى الأمريكى أمام لجنة تحقيق منبقة من الكونجرس، ودافع عن حق البيت الابيض فى القيام بعملیات سرية من أجل تحقيق هدف نبيل مثل اطلاق سراح الرهائن، ودار الحديث حول إمكانية توجيه اتهام رسمى للرئيس ريجان بانتهاك القانون، وخاض الجميع فى الفضيحة. وتحدث خاشقجي أخيرا ونحس الموضوع فى بساطة فكل المتورطين فى الأمر هم من اصدقائه، اصدقاؤه الإيرانيون فى حاجة ماسة للسلاح، واصدقاؤه السعوديون يريدون مساعدة اصدقائهم الأمريكيين ورايين صديق جديد قام بتسهيل الأمور، لذلك أحب العملية فهى تعطيه الفرصة لاستعراض مواهبه الرئيسية الثلاثة وهى: قدرته على جلب المال وإخلاصه لاصدقائه وحبه للأضواء، وكانت الدعاية هذه المرة أكبر واضخم من كل المرات السابقة، وكان هناك لقاءات تليفزيونية.. الخ ولكن برغم فضيحة ايران جيت فهو مازال فى حاجة إلى المال، وقد أثارت الفضيحة غضب صدام حسين لأنه تعرض للخيانة من جانب أمريكا والسعودية لكنه كان فى غمار الحرب العراقية الإيرانية ولايستطيع معاقبة أى من الاثنين وفكرالعراقيون فى معاقبة المجرم الرئيسى عدنان خاشقجي . وما أن السعودية كانت تعلم بالطبيعة العدوانية للنظام العراقى فإنها ووجهت بخيارين الأول

هو أن نحصى خاشقجي من العراق بأن تزعم بأن الصفة تخصها، والثاني: إن تتخلى عنه وتدعى أن لادخل لها بالأمر- الملاحظ هنا أنه في اللحظة التي تهددت فيها صداقة آل سعود مع العراق أصبح خاشقجي شخصا غير ضروري ويمكن الاستغناء عنه واليكم ما يحدث:

أرسل الملك فهد مبعوثا الى صدام حسين ينفي تورط السعودية في العملية وألقى اللوم بأكمله على خاشقجي، أكد لصدام أن السعودية لا يمكن أن تشترك في عمل يضم إسرائيل . وأن من يتعامل مع العدو الإسرائيلي يجب أن يعاقب، وكما هو معروف فإن السعودية ليست بارعة في تصفية الآخرين لذلك تركت حرية التصرف لصدام. وبعد أسابيع من رسالة السعودية الشفهية لصدام أخبرني جهاد الحازن رئيس تحرير جريدة الحياة التي تملكها السعودية أن العراق قد أصدر أمرا بالقبض على خاشقجي وقمت بإعطاء القصة الى «صنداي ميل» التي قامت بنشرها. ولأدري حتى الآن إن كان الحازن يعلم أنه قد استغل وأن المعلومة محاولة من السعودية للنأي عن الأمر وتنظيف صورتها أمام العالم العربي بعد انكشاف أمرها وهذا بالطبع يظهر حرص السعودية على حراسة مصالحها على حساب اصدقائها كما يوضح أن افراد الزمرة يمكن الاستغناء عنهم- ولو بالموت- اذا انتفت الحاجة إليهم، والمهم أن تظهر هي بمظهر طيب. ولجأ خاشقجي بإعجوبة من صدام، لأن الأمور تزامنت مع فترة كانت العراق تحاول فيها تحسين صورتها أمام العالم، فلم تشأ التورط في أعمال عنف. وفي عام ١٩٨٥ قام بإقامة حفل كبير للاحتفال بعيد ميلاده الخمسين ونصب نفسه ملكا.. الملك عدنان الأول وسافر المدعوون الى أسبانيا على نفقة خاشقجي، وكان من بين المدعوين برون شيلدرز وشيزلي باس وشون كوترى وجورج هاملتون، وآخرون من قمة المجتمع الراقي الأوروبي. واستمر الحفل لمدة أربعة أيام وضم ٤٠٠ مدعو وانفقت الملايين. وكان زوجته الثانية «لمياء» ترتدي فستانا من شانيل تكلف ١٠٠.٠٠٠ دولار وخاتما من الماس يزن

٢١ قبرط، ولم يتضح لماذا عين عدنان ملكاً أعلى ماذا، وهل هو ملك الحفلات أم الصفقات أم ماذا؟. وهذا الأمر كله كنوع من الابتذال والدعاية لم يسبق لها مثيل في العالم.

وفي أكتوبر ١٩٨٨ ألقى القبض على الملك عدنان خاشقجي في سويسرا وسجن لمدة تسعين يوماً، وكانت التهمة الموجهة إليه هي إخفاء مبالغ حصل عليها من بيع مجوهرات ولوحات تخص رئيس القبلين السابق ماركوس، التي تطالب بها الحكومة الأمريكية الفدرالية. وحول إلى السجن في الولايات المتحدة وأطلق سراحه بكفالة ثم حوكم وبرت ساحته.

وفي عام ١٩٩٢ تحسن وضع خاشقجي المالي ومنذ هذا الحين حدث تغير في مجال العمل السعودي ولم تعد السعودية في حاجة إلى وسطاء وإنما أصبح أمراء البيت السعودي أنفسهم يقومون بأعمال الوساطة في صفقات السلاح ويأخذون العمولات لأنفسهم، وقد كشفت صفقة اليمامة ٢٠٠٢ الضخمة عن اشتراك الأمراء بندر وخالد والأمير الشاب عبد العزيز فيها وذلك تم الاستغناء التام عن خدمات خاشقجي. وحدث تطور جديد في أساليب بيت سعود كما ذكرنا وأصبحوا يتصدون بأنفسهم لأعمال التجارة الدولية. ويتضح أنه ليس هناك كبرياء في العمل مع هؤلاء الناس فهم يستغلون أيًا من كان لخدمتهم ثم يلفظونه بعد ذلك. وتكون النتيجة أن عددا من الرجال المنفوخين الفارغين يعملون عند أناس أغبياء غير ناعين. وإذا سارت الأمور كما نعتقد فإن أشخاصا مثل يمانى وفرعون وخاشقجي سيجدون أنفسهم يوما ما يقفون للمساملة أمام محاكم شعبية في السعودية محاكمهم على أعمالهم السابقة.

الفصل العاشر النفط والأوبك... والمراقبون

هذا الكتاب يدور حول النفط الموجود بكميات ضخمة وبأسعار زهيدة. وهذا الفعل يمنع الاستفادة القصوي من هذه السلعة. وفي الوقت الحالي تستخرج السعودية نفطاً من ١٥ حقلاً فقط من الحقول التي يبلغ عددها ٦٠ حقلاً ولو كانت إمكانات الإنتاج تأخذ حجمها الطبيعي لأصبح بإمكان السعودية إنتاج مزيد من النفط ربما يصل إلى أكثر من ٢٠ مليون برميل في اليوم- يتم الآن استخراج ٩ ملايين برميل في اليوم- وفي عام ١٩٩٣ تم اكتشاف حقل جديد يقع على بعد ١٥٠ ميلاً شمال مدينة ينبع ويبعد حوالي ١١٠٠ ميل من منطقة الظهران التي تقع فيها معظم آبار النفط ويؤكد الجيولوجيون أن هذا الكشف يؤكد وجود احتياطي آخر هام في الجزء الغربي من البلاد، وهذا معناه استمرار زيادة الاحتياطي في المستقبل المنظور، والمعروف أن جميع محاولات الغرب حتى الآن قد أخفقت في إيجاد طاقة بديلة للنفط، ولا يوجد سوى الغاز الطبيعي الذي توجد كميات كبيرة منه في الشرق الأوسط وحتى إذا تم اكتشاف بديل غير متوقع فإنه سيحتاج إلى ثلاثين عاماً على الأقل ليحل محل النفط. إذن فالنفط السعودي لاغنى عنه. وإن كان قد حدث تطوران أوقفنا الاعتماد عليه وهما التقدم الذي حدث في مجال الصيانة وظهور الغاز الطبيعي كمصدر من مصادر الطاقة البديلة. وهذان العاملان تسببا في تغيير ما ، فقد أصبحت الطائرات والعربات الحديثة، ومحطات الكهرباء تستخدم مقداراً من النفط يقل ٤٠٪ عن ذي قبل وكذلك مقادير أقل لتدفئة المباني وتشغيل الشلاجات وكل المعدات الكهربائية الأخرى. والغاز الطبيعي انظف في الاستعمال وهو موجود بكميات هائلة وسهل الاستعمال وهو إن كان يشق

طريقه ببطء إلا أنه بديل جاد فى كافة مجالات الاستخدام مما يحدث توازنا فى موقف العرض والطلب ويرجع الكفة بالتالى لصالح المستهلك (تناقص الطلب ما بين عامى ١٩٧٩ الى ١٩٨٢ بنسبة ٤٪ فى العام) كما أن التكهّن بارتفاع برميل النفط الى ١٠٠ دولار فى أواخر السبعينات لم يحدث. والسعودية تملك أيضا الغاز الطبيعى ولكن ليس بكثرة مثل ما هو موجود فى قطر وإيران والعراق، وإن كان الموجود فيها يمكنها من المحافظة على دورها كمصدر هام للطاقة. ويزداد الاهتمام بالغاز الطبيعى يوما بعد يوم، وإن كان يحتاج تكلفة عالية لتطوير منشآته وتجهيزها للاستخدام التجارى. ويقف عاملا الوقت وضرورات البيئة لصالح الاستخدام المستقبلي للغاز الطبيعى لكن حتي يحدث هذا فإن النفط هو الملك، ولهذا يركز هذا الفصل من الكتاب على تاريخ شركات نفط وسوء استغلالها للأقطار المنتجة منذ بدء ظهور النفط. وسنشرح دور هذه الشركات فى إدخال الفساد إلى السعودية ، إلى جانب التعرض لتدخل أفراد الأسرة المالكة فى تسويق هذه السلعة الهامة. فالبيت السعودى اخضع سياسات النفط للنزوات والهوى الشخصى والطمع وسياسات أوليك السعودية التى بدأت كتعبير صادق عن التحكم فى هذه السلعة تحولت الى سياسات فاسدة مبهترة هدفها مصلحة آل سعود وارضاء الغرب فقط. وبدأت أعمال التلاعب فى بيع النفط وتطورت ووصلت إلى نوع من القرصنة الفاجرة التى تمارس فى وضع النهار

توجد سبعة شركات نفط أساسية على مستوى العالم هى: إكسون وموبيل وشيفرون وتكساكو وجلف وشّل وبتروليام، وتسمى الأخوات السبعة. ومنذ البداية اكتسبت هذه الشركات سمعة سيئة فى المحيط المحلى والعالمى، وأصبح الشخص العادى يربط بينها وبين الفساد والاحتكار والممارسات اللااخلاقية. والأخوات السبعة متهمات بممارسة سبع خطايا رئيسية، وهم منذ البداية وضعوا الربح كهدف واحد وقد شاركتهم حكوماتهم -مع الأسف- فى هذا الهدف وانتزعوا لأنفسهم حقوقا ظالمة على طول

منطقة الشرق الأوسط ومن بينها: تحديد مكان الإنتاج، وسعر بيع النفط، وكيفية تقسيم الحصص، وتحويل النفط، واختيار الزعماء الذين يتم التعامل معهم، وإذا علمنا أن النفط هو المصدر الوحيد للرزق في البلاد المنتجة له يتبين لنا مدى النفوذ والاستغلال والهيمنة والغش الذي مارسه هذه الشركات ومدى تحكمها في مصائر هؤلاء الناس واللعب بأقدارهم، وهو نوع من الاستغلال لم يشهد العالم له مثيل. وقد سيطرت هذه الشركات سيطرة تامة خلال الأربعينات والخمسينات على كل من العراق وإيران والسعودية وفنزويلا والكويت ونيجيريا واندونيسيا أى أنه كان لديها امبراطورية للنفط. وبدأ الأمر بحصول شركات بريطانية على حق التنقيب في إيران وبعدها البحرين والعراق، وكانت العراق قد ورثت الهيمنة البريطانية من الأتراك في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكانت اتفاقية سان رمو في عام ١٩٢٠ قد اعترفت بأهمية النفط كمعصر استراتيجي وتعاملت معه على هذا الأساس وحاولت بريطانيا وفرنسا اقتسام نفط الشرق الأوسط بينهما وإبعاد أمريكا. وقد عملت شركات النفط بانسجام مع حكوماتها لتحقيق أهدافها لكن الولايات المتحدة رفضت انفراد بريطانيا وفرنسا باحتكار السلعة وادخلت شركة «ستاندرد» للنفط الى الساحة. وتبع ذلك توقيع اتفاقية الخط الأحمر في عام ١٩٢٨ التي قامت بتقسيم النفط داخل خط جغرافي يضم معظم بلدان الشرق الأوسط وسمحت لأمريكا بالحصول على نسبة ٢٣.٥ أى نفس نصيب فرنسا. وفي هذه الفترة لم تكن شركات النفط تجرى أى مشاورات مع حكومات البلدان المنتجة للنفط ولا حتى مع حكومة إيران المستقلة. وكانت الشركات تقوم بإصدار قرارات مشتركة بمساندة حكوماتها. أى أن هذه الشركات كونت لها مجموعة خاصة. لكن الحكومة الأمريكية في عهد ويلسون بدأت تنتقد الاتفاقية وتتهمها بظلم أمريكا، وكانت اتفاقيات النفط تتم بالاتفاق مع زعماء تعيينهم شركات النفط نفسها، كما أن الشركات هي التي تحدد كيفية انفاق الأموال القليلة التي تأخذها هذه البلدان كشن لبيع

النفط. وعندما ظهرت السعودية كممنطة للتنقيب عن النفط فى الثلاثينيات كانت العلاقة بين شركات النفط والحكومات المحلية كما هى، وكان إهمال بريطانيا الذى أدى الى حصول أمريكا على حقوق التنقيب عن النفط فى السعودية هو بمثابة نهاية لاتفاقية الخط الأحمر وبداية النفوذ الأمريكى فى المنطقة. وقد وقعت الاتفاقية النهائية لبيع النفط بين ابن سعود- الذى كان مفلسا- وبين لويد هاملتون رئيس ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا، وقد سحت الفرصة لأمريكا لتؤكد بأنها ليست قوة استعمارية مثل بريطانيا وفرنسا وأنها لن تلجأ إلى النهب والسلب. لكنها لم تحسن استغلال الفرصة. وإذا استخدمت نفس الأساليب الاستعمارية الفاسدة. ووقعت اتفاقات ظالمة مع السعودية يساعدها فى ذلك أن ابن سعود كان محتاجا للمال وكان يقبل بأى فئات تعطيه له- ويقال أن ابن سعود اخبر فيلبى أنه مستعد لاعطاء حق التنقيب عن النفط فى البلد كله لمن يدفع له مليون جنيه. كما أنه اتفق مع كارل تويتشل على اعطائه ١٠٪ مقابل كل عقد يساعده فى نيته، وكان ابن سعود وعبد الله سليمان يوقعان على الاتفاقيات مع أمريكا دون أن يعلموا شيئا عن نظام العقود العالمى، كما أنهم لم يكونوا مطلعين على الأهمية المتزايدة والآتية للنفط على مستوى العالم، وقاموا بتوقيع عقد مع شركة ارامكو لمدة ستين عاما دون أن يطالبوا بوجود سعودي واحد فى مجلس الإدارة. والسرعوا بتوقيع مختلف الاتفاقات دون املاء أى شروط مما أدى إلى تنازلهم عن جزء من سيادتهم القومية دون أن يعلموا، وكانت فقرات الاتفاق تدعو إلى وجود مرجع فى حالة حدوث نزاع بين الجانبين لكن السعوديين لم يلتفتوا لشيء من ذلك، ولم تتضمن هذه الاتفاقات أى إشارة إلى القوانين السعودية. وفى النهاية حصل كل طرف على ما يريد واستخدم ابن سعود المال للمصرف على متعه وطلب قرضا من ارامكو والحكومة الأمريكية ولكنه تنازل لأمريكا عن أضخم احتياطي نفطى فى تاريخ العالم. وكان ابن سعود يرسل وزير ماليته الى ارامكو كل ما أراد ثريات. ولم يكن يهमे اذا

كان هذا المال المدفوع هو منحة أم قرض. ولم يحس بالحاجة الى إعادة النظر في الاتفاق أو تغييره، وكان يرى أن العقد مع ارامكو عقد شخصي، وبالنسبة لم يكن المواطنون السعوديون في ذهنه، ولم يحس بالالتزام نحوهم. وانتظر حتى عام ١٩٥٠ لينشئ إدارة للبترول، وعندما تدهور دخلهم من النفط وهبط من ٢٣.٦ سنت للبرميل في عام ١٩٤٠ الى ١٧.٣ سنت للبرميل في عام ١٩٤٦ فإنهم لم يعلقوا على الأمر واستمرت علاقاتهم مع ارامكو كما هي وفي عام ١٩٣٨ اعترفت «ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا» بضخامة حقول النفط السعودية ودعت شركات أخرى للتعاون معها لأنها لا تستطيع تغطية احتياجات التنقيب وحدها فجاءت تكساكو وموبيل وستاندرد اويل اوف نيويورك لمساعدتها، وانشى الاتحاد المالى لأرامكو وضم الشركات الأربعة واقترح منافذ أكثر للتسويق واصبح لديه نفوذ في وزارة الخارجية الأمريكية . وكل التغييرات التي حدثت في المعسكر الأمريكي لم تفتح عيني ابن سعود على أى شيء وإنما اكتفى بالقول «أن قدوم مزيد من الشركات يعنى وجود المزيد من الأموال». وكان العالم ينظر إلى النفط للسعودي بوصفه الاكتشاف الرئيسى لما بعد الحرب. وفجأة وجدت أمريكا أنها محتاجة للنفط من أجل قواتها الموجودة في أوروبا والاساطيل التي تحرس تلك القوات وكذلك لبناء الصناعة الأوروبية، وأصبح احتياج امريكا للنفط السعودى في أغراض محلية استهلاكية ملموسا، وتدعم موقف امريكا بسيطرتها على الاحتياطي النفطي الضخم.

واعتبرت بفضل القوة الاقتصادية الأولى في العالم. وبالرغم من أن هذه الحقائق أثارت جدلا واسعا في المعسكر الغربى إلا أن ابن سعود لم يسمع بها. وفي عام ١٩٤٣ طالب وزير الحربية الأمريكى وليم هوليت وكذلك سكرتير الشؤون الداخلية هارولد ايكنز بحصول الولايات المتحدة على معظم أسهم ارامكو المالية.. ورفضت ارامكو عرض الحكومة - وكان صافى ربحها السنوى قد بلغ ٢٠٠٪ وتطور

الجدل حتى تم الوصول إلى حل وسط، وافقت الحكومة الأمريكية وشركات النفط على تنسيق انشطتهما. ووافقت الحكومة على توفير الحماية للشركة بوصفها المنتج الرئيسى للنفط السعودى، واتخذت الشركة خطوات عاجلة لزيادة انتاج النفط ليقابل الاحتياجات الاستراتيجية لأمريكا. وبدأت ارامكو تنصرف كأنها دولة داخل دولة. وبدأت تنصح السعودية بهيوع الجنسية التى يتم الاستعانة بها. ونوع الملابس التى تستخدم للعمل. والأماكن المحددة لحفر آبار المياه. وأصبح يوجد فى مدينة الظهران كثير من الخمر والنساء. واشتت إذاعة أمريكية ونوادى للجولف واخذت ارامكو تشحن كميات ضخمة من النفط إلى شركة الاحتياطى البترولى وتقرر بناء خط الأنابيب «تاهلاين» وبدأت مصالح أمريكا تتنوع وأصبح دور الدبلوماسيين وعملاء المخابرات ومديرى الشركة قابل للتبادل. إلا أن زيادة انتاج النفط وأرباح ارامكو المذهلة سبب للشركة مشاكل لم تكن تضعها فى حسابها وطالبت إيران بزيادة حصتها. وكانت ارامكو مازال تدفع للسعودية سدس ثمن بيع البرميل. وفى هذه الأثناء تقدمت شركات أخرى مثل جيتى وكونوكو وENI الإيطالية بعروض أعلى للبلاد المنتجة للنفط. واحست الحكومة الأمريكية بالحرج من ضخامة أرباح ارامكو ولم تكن تريد أن يحدث شيء يهز مكانة الشركة لمقامه بالتحرك. وفى هذه الأثناء احس جورج ماكجوى وزير شؤون الشرق الأدنى بقترب الضغوط على ارامكو لتدفع أموالا أكثر للسعوديين وقام بتحذير مسئولى الشركة واحست ارامكو أن لامناص من زيادة نصيب السعودية. وقامت فى عام ١٩٤٩ بتقديم عرض للسعودية باعطاءها ٥٠٪ من سعر البرميل بعد خصم تكلفة الإنتاج وأسعار التسويق، وكان العرض يبدو سخيا على السطح لكنه كان لا يساوى شيئا مقارنة مع كمية النفط وأرباح ارامكو التى ارتفعت إلى ٢٠٠٪ فى الأعوام من ١٩٤٤ إلى ١٩٥١. ويرغم أن الاتفاق الجديد كان مرضيا للسعودية، إلا أن بعض الحوادث التى حدثت فى المنطقة فى هذه الفترة أثارت نوعا من القلق. إذ قام رئيس

الوزراء الإيراني محمد مصدق في عام ١٩٥٣ بتأميم شركة البترول الإيرانية البريطانية وبعد ثلاث سنوات استولى عبد الناصر على السلطة في مصر وبدأ يتحدث عن أن النفط ملك لكل العرب وليس فقط للأقطار التي تنتجه. وكان تصرف مصدق مفاجئاً لشركات النفط الأجنبية ونظرت إليه كأداة ثورة ضد الاستعمار أو انقلاب خطير. وتمت الإطاحة بمصدق في عام ١٩٥٣ أثر خطة محكمة شاركت فيها المخابرات المركزية الأمريكية وسميت العملية عملية أجاك وكان مهندسها هو كيم روزفلت. وقد أوضحت هذه الحادثة قوة الشركات المنتجة للنفط وبعثت برسالة هامة إلى البلدان المنتجة للنفط أما تصريحات عبد الناصر فقد فتحت عيون السعوديين على إمكانية المطالبة بحصص أكبر من عائدات النفط لاقتسامها مع الإخوة العرب، وبدأ حكام البلاد المنتجة للنفط التفكير في الحصول على المزيد من أموال النفط- وقد كان تهانو ابن سعود في السابق هو المسؤول عن الظلم الواقع بسبب إنتاج وتسويق النفط السعودي، ومن ناحية أخرى كان أصحاب ناقلات النفط يراقبون الموقف وينتظرون فرصة لكسر احتكار الشركات الأجنبية لعمليات الشحن. وفي عام ١٩٥٤ قامت شركة ارسطوطاليس أوناسيس بإرسال مبعوثين سرين للتفاوض مع الملك سعود للدخول معها في شركة تقوم بترحيل النفط السعودي إلى الأسواق العالمية ، وتم إنشاء شركة ماريتايم السعودية لأجل هذا الغرض، ولم تسمع ارامكو أو جهاز المخابرات بهذه الشراكة إلا بعد إعلانها - وقد اعتبر هذا اخفاقاً لجهاز المخابرات- وحدثت شبه أزمة وتدخلت الحكومة الأمريكية في الموضوع وهددت السعودية مما اضطر الملك سعود إلى التراجع وفض شركة النقل. ورغم فشل هذه المحاولة لكسر احتكار ارامكو والشركات الأخرى إلا أن هذا المناخ هو الذي ساعد فيما بعد على بزوغ أوبك.

بدأت الخطوة الأولى نحو إنشاء أوبك في عام ١٩٥٩ في القاهرة. وذلك عندما اجتمع كونفرس عرس للنفط لمناقشة علاقة الشركات الأجنبية بالبلدان العربية المنتجة

للنفط، وكان عبد الله التريكي. وزير النفط السعودي الذي عينه سعود يقف وراء هذه الفكرة. وكان الاجتماع طبيعياً تماماً لأن القوانين كانت تعطى المنتج الحق في مراجعة العقود والمشاركة في وضع أسعار الانتاج، لكنها وقتها ظهرت كأنها إجراءات ثورية لأن أحداً لم يجرؤ من قبل على مناقشة الشركات الأجنبية، وشارك في اجتماع القاهرة بيريز الفونسو وزير النفط الفنزويلي كمراقب.. وعندما تم اللقاء بين الفونسو وتريكي تفاهما وقررا التنسيق بينهما لمواجهة الشركات الأجنبية ووقف استغلالها للبلاد المنتجة، وكانت الكويت وقتها مازال تحت الحكم البريطاني- نالت استقلالها في عام ١٩٦١ لكنها قامت بدور المنسق مع الشركات الأجنبية. وكان تريكي يقف بمفرده لأن سعود وقيصل كانا مشغولين بصراع شخصي.. وكان الوضع يحتاج إلى مواجهة درامية ساخنة مع الشركات المنتجة واتهامها بانتهاك حقوق الأقطار المنتجة. ولكن الأمور سارت بهدوء وسمحت شركات النفط بالانعقاد مؤتمر القاهرة. وفي أعقاب مؤتمر القاهرة قامت شركة إسو دون التشاور مع الدول المنتجة برفع أسعار النفط بنسبة ٧٪ إلى ٩٪ وذلك في أغسطس من عام ١٩٦٠ فاستفز القرار منتجي النفط وعقدوا اجتماعاً في سبتمبر من عام ١٩٦١ في بغداد حيث اختمرت فكرة انشاء تنظيم واقترح الفونسو اسم أوبك كاختصار لاسم المنظمة الانجليزية، وكانت المنظمة تتكون من فنزويلا والعراق وايران والسعودية والكويت وقطر كمراقبة، واصدرت أوبك قرارها القاضي بمنع شركات النفط الأجنبية من حق تحديد أسعار النفط وانتقلت الى انشاء إدارات متخصصة لتتابع تنفيذ أوامرها، ووعدت بوضع معايير لحماية الأقطار المنتجة للنفط- وتعاطف جميع الأعضاء مع قرارات الأوبك حتى الكويت التي كان يتوقع أن تثقل وجهة نظر الشركات الأجنبية. وتحركت الشركات الأجنبية لمحاربة أوبك وعمدت الى أساليب بالية لتحقيق ذلك. فنشرت صحيفة نيويورك تايمز في عام ١٩٦١ عدداً من القصص تدين المنظمة وتنبأ لها بالوقوع في صراعات ونزاعات داخلية تقصر عمرها، وقامت ارامكو

والمخابرات المركزية الأمريكية بدفع مبالغ مالية للصحف لنشر حكايات تشهير العداءات القديمة بين أعضاء المنظمة. وحاولوا بث الفتنة بين الاعضاء واغراء بعضهم لعقد اتفاقات جانبية تزيد من حصصهم على حساب الاعضاء الاخرين مثل محاولة زيادة حصة الكويت على حساب العراق، ذات الكثافة السكانية، وقد باءت هذه المحاولات بالفشل وقام الوزير الفنزويلي بيريز الفونسو بدور هام في تعريف اعضاء الأوبك بالأهمية المستقبلية لهذه المنظمة ودورها الفعال على المدى الطويل. كما أن وجود تريكي قد طمأن الاعضاء لوجود هذا البلد المحافظ معهم، وساهم وجود عبد الناصر على خلق مناخ شعبي وجماهيري داخل البلاد العربية وزاد من ثقة اعضاء منظمة الأوبك وقد اعتبر المراقبون والمحللون العرب قيام أوبك بثابة خطوة سياسة هامة ودعوة للتحرر من الاستعمار، وبالرغم من أن ملك السعودية حاول التلصق في الانضمام الى أوبك إلا أن حماس الجماهير لم يترك له فرصة للتراجع وعندما أصبح فيصل ملكا في عام ١٩٦٢ كان كل همه هو تأكيد سيادة بيت سعود على مصدر الثروة الرئيسي، وقام بفصل تريكي لأنه لم يرتح لاستقلاليتته، وقد ادى عزله الى تحسن العلاقات بين السعودية وارامكو. لكن أوبك كانت قد أصبحت حقيقة ملموسة يجب على السعودية العيش معها، واضطرت الشركات الأجنبية الى الاعتراف بها بعد ثلاث سنين من انشائها، وتميزت الفترة من عام ١٩٦٢ إلى ١٩٦٧ بالتضامن بين الاعضاء وعقدت عدة اجتماعات لدراسة النواحي المالية وبرامج الانتاج. ولم تكن اوبك قد اكتسبت خبرة في التعامل مع الشركات الأجنبية إلا أن الصراع بين الاثنين لم يتحول إلي حرب ويقول فؤاد طعيم أن أوبك لم تكن قد أصبحت فعالة بعد كما أن صناعة النفط لم تظهر أي ميل للمرونة وسعة الخيال..

تسببت حرب ١٩٦٧ في إشعال المشاعر القومية وحدثت بعض الاحداث مثل الإطاحة بالملك في ليبيا وصعود القذافي الى السلطة في عام ١٩٦٩ وتزايد ضغط

العرب لاستخدام النفط كسلاح كما أن الطلب العالمى على النفط تزايد بدرجة كبيرة مما كان له الأثر على وضع أوبك التى بدأت تطالب بدخل أكبر وتنسيق أكثر بين الاعضاء. لكن السعودية لم تغير موقفها الاساسى من ناحية توفير النفط للغرب بأسعار زهيدة، وهذا يثبت أن العلاقة بينها وبين أمريكا وثيقة للغاية ولا تؤثر عليها كافة التغييرات الإقليمية، وتقول دانييل بيرجن فى دراستها الممتازة بعنوان «الشمع» أنه «يرجى تلاتى عام فى التفكير بين واشنطن والرياض» ويقول انتون ساركيس وهو أحد معاونى تريكى «أن السعودية تقوم بدور دون كيشوت لكى تحمى مصالح الولايات المتحدة حتى ولو كان ذلك يتطلب التضحية بمصالحها الخاصة ومصالح بقية أعضاء أوبك»، ويعلق بيير تيريزيان على قرار السعودية بحظر البترول عن الغرب ف يعام ١٩٧٣ بأنه «فرض على السعودية مما أجبر الآخرين على اتباعه وهو فعل رائع» ويجمع كل خبراء النفط على الشئ نفسه، ومنذ عزل تريكى لم تفعل السعودية شيئاً سوى محاولة السيطرة على اتحاد المنتجين فى أوبك لكى ترضى رغبات البيت السعودى والامريكيين لذلك نلاحظ أن أى اجتماع هام لاوبك تسبقه اتصالات سعودية امريكية على أعلى مستوى أو رحلة لوزير النفط السعودى الى واشنطن. وعندما طالبت الدول المنتجة للنفط بتأميم شركات النفط فى عام ١٩٦٨ كانت السعودية آخر المؤيدين. وقامت السعودية بشراء أسهم فى رامكو فى عام ١٩٧٤ بعد وقت طويل من قيام الأقطار الأخرى بالحصول على أسهم فى الشركات الأجنبية. وفى مطلع عام ١٩٧٠ كانت السعودية تباع النفط بسعر ١٤,٤٥ دولار للبرميل لتحافظ على انخفاض الأسعار بينما بلغ سعره ٣٥ دولار فى السوق الحرة. وفى عام ١٩٧٩ خسرت السعودية مبلغ ٢٣ مليار دولار لإصرارها على خفض السعر. والموضوع هنا ليس موضوع المطالبة بتوسطيه فى السعر فحسباً أؤيد بشدة الحوار بين المنتج والمستهلك للتوصل الى وسيلة لتثبيت الأسعار وبالتالي المحافظة على توازن اقتصادى للطرفين- وإنما المشكلة الحقيقية هي فى تجاهل

السعودية لرغبة مواطنيها وتجاهل مصالحهم ومصالح أريك. ويصبح سائق التاكسي السعودي محققا عندما اشتكى من عدم استفادته من عائدات النفط. وتصبح مطالبة المواطن العربي بحصته من النفط مقبولة وتصبح أريك محقة في مناداتها بزيادة الأسعار لمقاومة احتياجات التنمية. ويواصل البيت السعودي تجاهله لرغبات الجميع.

الخطأ الرئيسى الذى يقع فيه الكتّاب الذين يزعمون أنهم يكتبون حكاية السعودية هى أنهم لا يخصصون مساحات كافية للحديث عن تأثير أرامكو مثلاً على الحياة فى السعودية. وتعتبر ارامكو إحدى مكونات صناعة النفط. وقد استمرت تؤثر لمدة أربعة عقود على التطورات الاجتماعية والسياسية فى المملكة. وهى التى قدمت السعودية للعالم. بالطبع فإن ارامكو أصبحت شركة سعودية منذ عام ١٩٨٠ كجزء من العلاقة المتغيرة بين البلد المنتج للنفط والشركة الأجنبية التى تستخرجه، وقد تغير دور ارامكو النفطى بعد تحولها إلى شركة سعودية. لكن مرت أوقات لم يكن الفرد فيها يستطيع التمييز بين النقطة التى يتوقف فيها تأثير ارامكو وبين النقطة التى تبدأ فيها سلطة الحكومة السعودية. ورأينا من قبل كيف سيطرت شركات النفط الأجنبية على حكومة الولايات المتحدة وأرغمتها على إنقاذ ابن سعود من أزماته المادية وكيف عهدت الولايات المتحدة إلى أرامكو بالعلاقات الأمريكية- وترك علاقة هامة تحت يد شركة تحركها المصالح التجارية كان أمراً خطيراً للغاية- وكما رأينا فقد قامت ارامكو بصنع خلايا للإسلاميين لمواجهة عبد الناصر. وكيف أنها أرسلت طلابا سعوديين إلى الكليات الأمريكية ليصبحوا موالين لها، دون التفكير فى احتمال استجابتهم لمطالب التعليم الطبيعية والتمرد على سيطرتها. ونتيجة لكل هذا الاستخفاف أثرت ارامكو على سياسة الحكومة السعودية وسلوك أفراد آل سعود وحياة المواطن العادى. وفى خلال الأربعينات والخمسينات كانت ارامكو- وليست الحكومة الأمريكية هى التى استخدمت نفوذها لتبقى بريطانيا وشركات النفط غير الأمريكية خارج السعودية

وأصبحت هي الوجود الأمريكي الوحيد في السعودية، وارانكو هي التي وافقت ابن سعود عندما اعتبر دخل البلد هو دخله الشخصي، وفي كل الأحوال عجزت الحكومة الأمريكية عن فصل نفسها عن سياسات ارامكو العمياء. وارانكو مسؤولة ايضا عن إدخال ممارسات مريبة وقاسدة إلى صناعة النفط السعودي مما أدى إلى الأوضاع الحالية المتردية في السعودية وقد كانت أفعال ارامكو تنم عن نقص التجربة لدى الأمريكيين في التعامل مع البلاد النامية كما أن خوفها من بريطانيا هو الذي تسبب في كثير من سلوكياتها وكانت أمريكا تتصرف في بلاد النفط كحديثة نعمتولم تكن تحس بالأمان وكانت تظن أن البريطانيين يتآمرون ضدها لسيطروا على نفط السعودية، وعندما خرجت بريطانيا من المنطقة فشلت أمريكا وارانكو في ملء الفراغ. وفشلنا في أن تصنعنا لنفسيهما صورة جذابة في الشرق الأوسط. ودخلت أمريكا في تنافس مع البريطانيين بشروطهم مما جعلها تعارض أي تحرك بريطاني دون التعمق فيه. وهذه المعارضة العمياء لبعض الأساليب البريطانية جعلها تلجأ إلى نوع من الاستعمار الجديد أسوأ من كل ما شهدته المنطقة، وشوهت العلاقات البريطانية الأمريكية وأضعفت موقف الغرب في المنطقة وما زاد من سوء الصورة الأمريكية في المنطقة هو معارضتهم في الستينات لتحرير العبيد وإبطال الرق لإرضاء ابن سعود. وقد أدت هذه التصرفات السلبية لارانكو إلى خلق أثر مدمر على سياسة السعودية الإقليمية والخارجية. وفي عام ١٩٥٤ منعت ارامكو السعودية من الانضمام إلى حلف (نتو) الذي كانت تقوده بريطانيا وتشارك فيه كل من العراق وتركيا وإيران. ونظرت خاطئة إلى التحالف كأنه تهديد لمصالحها في المنطقة- وحينذاك لم يكن يوجد تحرك سوفيتي- وفي الخمسينات قتادت ارامكو أكثر وحرضت السعودية على المطالبة بوحدة البريمي الغنية بالنفط والمتنازع عليها بين السعودية والإمارات وعمان. وأنفقت ملايين الدولارات لشراء النفط السعودية بالوثائق اللازمة للمعركة. وقامت بإرسال هذه الوثائق

المرجعة إلى صحافة بيروت لتزديد الأزمة اشتعالا وتثير غضب بريطانيا التي كانت تشرف على الإمارات وعُمان. وقد أدى هذا التحرك بالطبع إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين الجانبين وبالتالي تقوية موقف ارامكو.

هذه الأخطاء الفادحة في النواحي السياسية تثقل فقط الجزء الظاهر من سياسة ارامكو تجاه المملكة لكن هناك جانب آخر أكثر خطورة وهو تأثير ارامكو على السلوك الشخصي لأفراد بيت سعود والمواطنين السعوديين كافة وكل هذه الممارسات تعكس السناجة الأمريكية وعملها غير المتقن.

قامت ارامكو في إحدى تحركاتها بوضع خطط لإنشاء مزارع تجريبية حول مدينة خرج. وكان هدف هذه المزارع هو توفير منتجات طازجة لموائد الأسرة المالكة ورغم من أن الماء كان شحيحا في تلك المنطقة إلا أنه لم يثنى ارامكو، ومجاهلت الاحتياج إلى ذلك الماء للأغراض الصحية وأغراض النظافة وقامت باستخدامه لرى الفواكه والخضروات مما أدى إلى نفاذ ذلك المصدر الهام للمياه. في الوقت الذي كان فيه استيراد هذه المنتجات الزراعية يكلف أقل. وقامت في فرصة أخرى بإقراض أفراد الأسرة المالكة مبالغ ضخمة لبناء قصور مما تسبب في وجود عجز مالي عندما اشتدت الحاجة لبناء المدارس وقام الملك سعود ببناء ٤٠ قصرا من أموال ارامكو، وكان بمقدور أي أمير اقتراض أي مبالغ من المال من ارامكو لأغراض الترفيه. وaramكو هي التي علمت الأمراء الشبان على طلب اللهو واللذات في أوروبا. وكانت تقوم بتوفير الحسناوات لمصاحبة هؤلاء الأمراء، مما تسبب في الإساءة لسمعة العرب. وكان معظم الأمريكيين الذين جاؤا للعمل في مجال النفط خلال الأربعينيات والخمسينيات من ولايات تكساس وكاليفورنيا واولكلاهوما. وكانوا يحصلون على مرتبات تعادل ثلاثة أضعاف مرتباتهم في أمريكا. وكانت حياتهم مرفهة فهم يعيشون في منازل مكيفة الهواء ويقيمون حفلات شواء فخمة. وحافظوا على أسلوب حياة أمريكي مرفه لأنفسهم

وكان معظم هؤلاء من الجامعيين والفنيين.. ولكنهم لسبب ما كانوا يحملون احتقارا وكراهية للسكان المحليين. وكان العمال المحليون يسكنون فى خيام وأكواخ ويعيش رؤسائهم فى عتابر من الأسمنت ليس بها أجهزة لمقاومة حرارة النهار وبرودة الليل فى ذلك المناخ الصحراوى أى أن الوافدين الأمريكيين ادخلوا معهم التفرقة العنصرية إلى حقول النفط وأصبحوا ينظرون إلى السكان المحليين كما ينظرون إلى السود فى أمريكا. وكان مربع المواطنين المخصص للسكان الوطنيين تعوزه كثير من الضروريات ولا يصلح لسكنى الأمريكيين. والسعوديون الذين يؤدون نفس الأعمال التى يؤديها الأمريكيون يحصلون على مرتبات تعادل ٣/١ (ثلث) مرتب الموظف الأمريكى. وكان مستوى الخدمات المقدمة للسعودى أقل من تلك المخصصة للأمريكى. ولا يسمع للسعودى بالاقتراب من مجمعات سكن الأمريكيين. وبينما كانت أرامكو تشجّب الاستعمار البريطانى كانت تؤسس وضعا فى السعودية أسوأ بكثير مما هو موجود فى الهند أو أى مستعمرات بريطانية أخرى. ويبدو أن الأمريكيين كانوا مستجدين فى التعامل مع الشعوب الأقل تحضرا لذلك اساءوا معاملة هؤلاء الناس وأصبحوا يتعاملون معهم بتعالى وغطرسة غير مراعين لظروف العصر، أو للأساسيات التى تراعيها أى بعثة استعمارية متحضرة. واعتبروا السكان المحليين بشرا أقل شأنا عنهم وبدلا من تبني سياسات لتعليم هؤلاء أو رفع مستوياتهم الثقافية قاموا باضطهادهم.

وكان عبد الله التريكى وزير النفط السعودى من أوائل الناس الذين عانوا من التمييز العنصرى الأمريكى فى السعودية. وقد عمل التريكى فى أرامكو فى أواخر الأربعينات بعد حصوله على شهادة الماجستير. فى البترول من جامعة تكساس. وكان التريكى متزوجا من فتاة أمريكية. وعندما أراد السكن طلب منه الذهاب إلى مربع الوطنيين حيث أقام فى غير مقفر به سرير صلب ولا يحترى على ثلاثة وقد تسبب هذا فى حدوث توتر فى علاقته بزوجته التى صدمت من تصرف الأمريكيين تجاهها ونجاء

زوجها وأخذت ابنها وعادت إلى بلدها. وقد أحس تريكي بالإهانة، وساء أن يضطهد داخل وطنه. لكن تريكي وجد الفرصة فيما بعد لرد الإهانة إلى مسئولى أريك. وذلك عندما عينه الملك سعود وزيرا للتلف في عام ١٩٥٩ حيث انتقل من العيش في مربع الوطنيين البائس إلى مبنى فخم وجاء مجموعة من مديري أريك لزيارته فجعلهم ينتظرون لمدة ٤٥ دقيقة وبعد ذلك طلب مقابلتهم في مكتبه القديم. وحاول بعضهم الاعتذار. ومعاملة الأمريكيين للتريكي ليس فيها غرابة وتعكس موقفهم من الوطنيين السعوديين- وكثيرا ما اتهموهم بالصوصية وضحكوا على ثيابهم وسخروا من جهم للتمر. وكان الدم الذي ينقلونه للموظفين الأمريكيين يفحص بعناية أكثر مما يفحص الدم الذي ينقل لوطنى. وكان للأمريكيين في ارامكو كافتيريا منفصلة وسينما خاصة وملاعب خاصة لا يقترب منها السعوديون وكانت رؤية امرأة أمريكية تتحدث إلى سعودى تشير فضيحة. وكل هذه التصرفات بالطبع أدت إلى استياء عميق تجاه الأمريكيين وكانت هذه الممارسات تظهر في أبشع صورها عند اختيار العاملين للتدريب. وقد كان ذلك يتم بطريقة عنصرية فجأة تخضع لعناصر عدائية أخرى فالشخص الذي يواظب على اداء فروض الصلاة لا يقع عليه الاختيار وكذلك الذى يتعاطف مع عبد الناصر وكانوا يفضلون الشخص المطيع الخانع على الشخص الموهوب المستقل برأيه. وينادون الرسول الكريم بلفظة مختصرة غير لائقة. وكان الذى يرتدى الجينز والملابس الغربية الأخرى له فرص أفضل من الآخر الذى يرتدى الملابس الوطنية وكذلك الذى يخلق لحبته وشاربه. وأصبح الشخص يلقى القبول منهم كل مازاد تشبهه بالغربيين. ومثال لذلك أعجبهم العامل فرحان القحطاني فبعثوه إلى المدرسة لتعلم اللغة الانجليزية مع أنه أمى فى العربية. وأخيرا ترك الشركة وعمل مقاولا معهم. وأصبح يستطيع قراءة الطلبات والوثائق المكتوبة بالانجليزية. دون أن يتمكن من ترجمتها للعربية وهو يشكل نموذجا نادرا لثقافة ارامكو- وأصبح يستخدم تقارير امريكية وقد

حقق ثروة من عمله فى المقاولات وخسرهما وحقق ثروة مرة أخرى وهم متعاطفون معه. ويهيئون لنجدته فى كل مرة. ومثل هذا الرجل غير راضى عن سلوك السعوديين وفى نفس الوقت هو عاجز عن مجاراة الأمريكيين حتى النهاية مما جعله غير منتميا إلى الجانبين. وقد أفرزت سياسات ارامكو أثارا اجتماعية خطيرة وسط العاملين العرب. وتزايدت المشاكل النفسية وأصبح هؤلاء العاملون يعانون من الوحدة والشعور بالاكتماب، وأدمنوا الكحول والمخدرات وارتفعت نسب الانتحار وسطهم وأصبح بعضهم غير متلائم مع جذوره العربية. وبدأ انسلخ بعضهم عن جلودهم وأصبحوا يؤمنون بالعائلة النووية أكثر من إيمانهم بالروابط القبلية- وتنكر بعضهم لالتزاماتهم الأسرية ورفض بعضهم الاتفاق على والديه. وقد أدى هذا الدمار النفسى والاجتماعى إلى ردود فعل متنوعة وحدثت اضطرابات عديدة فى الفترة من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٦ ولكن ارامكو لجأت إلى فرض العقوبات بدلا من دراسة جذور المشكلة . وعندما قام عدد من العمال بتقديم عريضة لتحسين الأحوال المعيشية تم سجنهم وتعذيبهم وتشريدهم وقد اختفى بعضهم من وقتها. وكانت تهمة إثارة الشغب تنطبق على من يتمسك بأداء فروض الصلاة. وإذا تحدث أحد عن زيادة الضرائب أو طالب بترقية فإنه يختفى فى ظروف غامضة أو يسجن دون توجيه اتهام له ومن الصعب أن تعترف العائلة المالكة بهذه الممارسات. ولم يكن من الممكن أن يلجأ البريطانيون إلى مثل هذه الممارسات أو يلجأوا إلى أمير سفاح ليعاقب لهم العاملين. والأسلوب البريطانى سواء كان عن خطأ أو صواب يقوم بضمان انفصال ثقافى للناس والعمل على تحسين ظروفهم داخل محيطهم الثقافى. لكن ارامكو تبنت الأساليب الاستعمارية بطريقة مزيفة، وتحججها أشياء بسيطة وهامة تعتمد عليها السياسات طويلة الأمد. ولو كان البريطانيون فى محل الأمريكيين لكانوا أوقفوا أساليب بن جلاوى الدموية وفرضوا عقوبات مناسبة على العاملين الذين يقومون بالتظاهر أو الاحتجاج بدلا من تصفيتهم، وأسلوب ارامكو

الأمريكي هو الذي جعل بيت سعود ينظر إلى دخل البلد كدخل شخصي لهم. وساعد على تفشى الفساد فى المجتمع السعودى. وكانت ارامكو تقوم برشوة وزير الخزانة السعودى فى كل مرة محتاج فيها إلى شىء. وخصصت المنح الدراسية لأبناء الزعماء والعائلات الكبيرة ولم ترفع مستوى التعليم كما فعلت بريطانيا فى إيران والعراق وقد أمضى أحد أبناء وزير البريد والتلغراف عشرة سنوات، فى بعثة دراسية وعاد بشهادة جامعية فقط. ولم تكن ارامكو تهتم لنوع التخصصات التى تحتاجها البلد وإنما هى تقوم بإرسال الطالب إلى الجامعات ذات الموقع الحسن وذات الطقس الجميل. وتختار لهم أسهل التخصصات، وبينما ساهمت شركات النفط البريطانية فى تخريج أطباء ومهندسين كانت ارامكو تهتم بأن يتعلم الطلاب السعوديون الرقص والسهر فى النوادى الليلية وإذا عدنا إلى موضوع التدريب نجد أن الاستثناءات وسوء القصد قد حوله إلى مجرد دعاية رخيصة خالية من المضمون. وعانت الجهود لرفع مستوى التجارة بين أمريكا والسعودية من نفس المصير. وكانت الوفود التجارية تقوم بالتجهيز لاجازات الأمراء وتختار لهم الحسناوات وتنظم لهم صالات القمار فى الكازينوهات، وتلبى جميع شهواتهم بما فيها شرب الشبانيا من الشبشب. وكان أحد وكلاء ارامكو يملك مطعمًا فى نيويورك تخصص فى مجال الشقراوات. ويمكن تلخيص دور ارامكو فى أداء خدمات لبيت سعود وتشويه سمعة اعدائه سواء كانوا حقيقيين أم خياليين، وإبعاد نفسها عن المواطن السعودى واحتياجاته. وقامت بتزييف التاريخ بطريقة متعمدة لتوجد صلة بين آل سعود وبيت النبوة، وكلفت مكتبها فى بيروت ومكتب التاهلاين بشراء الصحافة اللبنانية وجعلها تخلق القصص التى تعزز من مكانة البيت السعودى وتشتمل هذه القصص على حكايات ملفقة عن كرم الأمراء السعوديين. وإسهامهم فى أعمال الخير وقيامهم بفتح مدارس ومستشفيات على نفقاتهم الخاصة. وحتى محمد أبو شرين وجد المدح وقدم كرأس ديمقراطى فى مجلس العائلة. وعند إنشاء منظمة أريك

قامت ارامكو بحملات تتعرض للحياة الشخصية للأعضاء ومحاولات الإساءة لهم وفي الخمسينات قام صحفي لبناني بتنظيم حفل مترف لوفد مصري ليغترط في الشرب ويسيء التصرف كنوع من الإساءة لعبد الناصر. وعندما فشلت كل خطط ارامكو لجأت إلى أساليب الابتزاز والرشوة. وكانت ترشو عمال الفنادق وصغار الموظفين ليقوموا بسرقة الوثائق الخاصة بأعضاء منظمة الأوك. ونورد هنا حادثة أخرى تكشف ماوصلت إليه ارامكو في سبيل الإساءة للمعارضين للبيت السعودي. فبعد أن قام الملك فيصل بعزل عبد الله التركي في عام ١٩٦٢ اتجه الرجل إلى الصحافة وكان يقوم بكتابة مقالات تتناول ممارسات ارامكو والتجاوزات التي حدثت في اتفاقيات النفط وكانت مقالاته تشر في صحافة بيروت. فتضايقت ارامكو منه وحاولت رشوته. وكان والذي أبو سعيد يعمل بمجلة تايم الأمريكية وكانت تربطه صداقة مع تريكي ومع جو إندر- أحد مسؤولي ارامكو البارزين- فتقدم إندر إلى والذي وطلب منه معرفة ما إذا كان تريكي سيقبل مبلغ مليون دولار كشنم لوقف حملاته على ارامكو ورفض تريكي العرض. وفي الفترة التالية كان يتخذ اجراءات أمنية لحماية نفسه وبغير من أماكن نومه خوفا من انتقام ارامكو. لكن ما الذي جعل ارامكو تدفع مثل هذا المبلغ الضخم لتريكي التسكته؟ وماهى المعلومات التي كانت تخشى أن يفضحها تريكي؟. وكيف تقدم رشوة لرجل تعتبره شيوعيا وتسميه الشيخ الأحمر؟ وليست ارامكو وحدها التي تقوم بهذه التصرفات غير اللاتقة وإنما نجد كذلك شركة موبيل أويل تقوم بمجهودات ضخمة قريبا بعد لوقف عرض فيلم (موت أميرة). وقد اعترفت بعض شركات النفط العالمية أمام مجلس دولى بأنها دفعت مبلغ ٥ مليون دولار لكسب التأييد فى تلك القضية، وهذا يشير أسئلة كثيرة حول قيام هذه الشركات بدفع مبالغ ضخمة للجامعات الأمريكية الكبرى واقسام دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الأجنبية لتزييف التاريخ وإعادة كتابته لصالح بيت سعود.. وهذه الجامعات تنسى أنها بهذه الأفعال

تسعى إلى مكانتها ومصداقيتها العلمية. وفي الخمسينات كانت ارامكو تدعو إلى سياسة متوازنة بين العرب وإسرائيل. وبدأت فيما بعد تؤيد تفسير فيصل للإسلام. وعلى الرغم من أنني أحد المؤيدين لسياسة أمريكية متوازنة في الشرق الأوسط إلا أنني ومعنى آخرين كنا دوماً نتشكك في أهداف شركة ارامكو الحقيقية والموقف السعودي المريب تجاه القضية الفلسطينية.. وكما ذكرنا من قبل فإن ممارسات ارامكو جلبت لها عداوة الناس في الشرق الأوسط وداخل السعودية. وكان الهدف الوحيد لهذه السياسات والممارسات هو جنى المال بحيث أصبح كل شيء آخر يخضع لذلك وكانت ميزانية البيت السعودي في الستينات تعلن بالأرقام- ووصلت إلى أعلى معدل لها تحت حكم الملك سعود وذلك عندما بلغت ٣٠٪ من مجمل الدخل القومي. وفي معظم السنوات لم تتجاوز نسبة ١٥ إلى ١٧٪ إلى أن جاء فيصل وغير كل هذا واتفق مع ارامكو على وسائل لاخفاء صرف آل سعود، ولجأ إلى تلبكهم الأراضي في محاولة لزيادة دخولهم بطريقة غير مباشرة. وعندما حاولنا اجراء استبيان مع شخصيات سعودية هامة حول ميزانية البيت السعودي فإن كثيراً من هؤلاء الناس فضلوا عدم الخوض في هذا الأمر، وبعضهم اشترط أن لاينشر اسمه، وقد توصلنا إلى أن هناك عمليات سرقة منظمة لثروات البلد لدرجة أن الموضوع يتخذ شكلاً إجرامياً ولايحس الكثيرون بالرغبة في تناوله. وبعد اجراءنا لبعض المقارنات وقيامنا بمراجعة أرقام الميزانية المعلنة والاستعانة بالخبراء في هذه الأمور توصلنا إلى نتيجة ما وهي أن ميزانية البيت السعودي تتراوح ما بين ٤ إلى ٧ مليار في العام مع استبعاد أموال الرشاوى وعمولات صفقات الأسلحة. ويعتبر هذا ١٥٪ من مجمل الدخل القومي. وهو في الواقع ليس ميزانية وإنما عملية نهب واحتيال. وفيصل هو المسؤول عن جعل الميزانية خاضعة لدخل النفط وهو الذي فرض ضريبة ملكية تبلغ عدة سنتات لبرميل النفط الواحد، تحصل عليها العائلة في كل الظروف والأحوال. لكن هذا النظام ألغى أبضاً وأصبحت العائلة

تحدد احتياجاتها أولاً ثم تضع الميزانية المناسبة لتغطية هذه الاحتياجات. ويدفع الجزء الأكبر من الميزانية - ٣-٥ مليار دولار للملك فهد من دخل النفط قبل تدوينه كعائد قومي. ويقوم وزير النفط باستقطاع مبلغ من المال من دخل النفط وتحويله إلى حساب الملك الشخصي ويعلن الباقي كعائد قومي. ويقوم فهد بتقسيم المال الذي يتسلمه بين أعضاء الأسرة بطريقة عشوائية والمال الذي يحول لحسابه الشخصي لا يخضع لقانون وإنما يقوم بإخبار وزير النفط بما يحتاجه ويقوم الوزير بالتنفيذ. وتخصص كميات من النفط لأفراد معينهم في العائلة المالكة وتقوم بترومين بتسهيل هذا الأمر - ويترومين هي الأداة المنفذة لأوامرهم وهي مملوكة للحكومة، وكما ذكرنا فإن بترومين تقوم بتحديد حصص من النفط كهدايا لبعض أفراد الأسرة وتسلمها لهم لبيعها في السوق الحرة وأخذ ثمنها، أو تخصص لهم كميات من النفط يقومون ببيعها وأخذ عمولات عليها، حيث يبيعونها بمعدلات تضمن لهم ربحية عالية. وفي هذه الحالة يقوم المستفيد بتحويل المال إلى بترومين بعد خصم عمولته ويستعين أفراد العائلة المالكة بوسطاء أجاناب لإتمام هذه العمليات وهم يحتفظون لأنفسهم بأكثر من نصف الثمن كعمولات. وترتفع العمولات مع ارتفاع الطلب على النفط. وهذا النوع من الابتزاز الرخيص لشروة البلد يجعل آل سعود من الملكيات التي تتقاضى رواتب كبيرة. لكن بيت سعود ليس هو المسؤول الوحيد عن تدهور الأحوال داخل السعودية أو تدهور الدخل القومي.

وأبنا من قبل كيف أن الملك حريص على إظهار نفسه وعائلته بصورة طيبة وفي سبيل ذلك يقوم ببعض الأعمال الدعائية مثل تمويل عشرات الألوف من الحاج الأجاناب لأداء فريضة الحج. وبتزايد هذا النشاط عندما تجدد السعودية نفسها في منافسة مع إيران وبعض البلاد الإسلامية الأخرى المسلحة وكذلك لكسب رضا المسلمين في سائر الأنحاء. وتلجأ مرة أخرى إلى ادعاء زعامة العالم العربي والإسلامي فتمنح مساعدات لمسلمي البوسنة وجمهوريات الاتحاد السوفيتي الإسلامية والباكستان وتتدخل في

شؤون أفغانستان الداخلية. وتقوم برشوة سوريا للانضمام إلى مسيرة السلام في الشرق الأوسط. وتقوم في بعض الأحيان وتحت ظروف طارئة بشحن نفط مجاني إلى بنغلاديش أو الصومال - بالطبع بعد أن تعد هذه البلاد باتباع الخط السعودي- وفي أحيان أخرى تقوم بتخفيض السعر لبلاد غير إسلامية مرابحة للسعودية مثل اليونان وألبانيا. وسواء كان النفط المرسل إلى المحتاجين هدايا أو بسعر مخفض فإنه يتم بشروط ولا يعطى لأسباب إنسانية. ولا يمكن أن يعطى لبلد كالسودان حتى ولو جاع حتى الموت. لأن السعودية لاتوافق على تفسيره للإسلام. واستخدام النفط داخل السعودية نفسها في مشروعات مكلفة للغاية دون النظر إلى أثر هذا على الميزانية القومية. وغالبا ما تكون هذه المشروعات الضخمة تحت إشراف أمير (مثل قيام الأمير فيصل بن فهد ببناء مدينة رياضية بحجم أولمبي) وبين عامي ١٩٩١ و ١٩٩٣ قامت السعودية بإنتاج حوالي ٣٠٠ ألف برميل في اليوم لتغطية مصاريف مشروع ضخ لبناء مخازن تحت الأرض لحفظ النفط، وشراء ناقلات نفط من كوريا الجنوبية. وجميعها ليست ذات جدوى اقتصادية وتكون العمولة هي المحرك في كثير من الأحيان لمثل هذه الصفقات، وغالبا ما يتم الصرف على المشروع المعنى بنظام المقايضة التي لا يتم تسجيلها في كثير من الأحيان مما يؤدي إلى فوضى وتحريف في أرقام الميزانية المعلنة. وهناك تصرفات أخرى تؤكد تجاوزات عائلة سعود تجاه ثروة البلد الطبيعية. وذلك عند قيامهم بتسويق النفط بأنفسهم متجاهلين الشركات المتخصصة في هذا العمل، ويطلق على الزيت المخصص لأفراد العائلة المالكة اسم الحصص الأميرية وقد ترتفع هذه الحصص إلى مليون برميل في اليوم. وسوف نرى الكيفية التي يتعامل بها هؤلاء الأمراء مع حصصهم. ومن منهم يخصص له نفط لبيعه ولماذا؟ وكميته الحقيقية وطريقة تسويقه.

كان محمد أبو شرين هو زعيم البيت السعودي في السبعينات والثمانينات وكان هو

المشرف على توزيع النفط لأفراد الأسرة وبيعه في السوق الحرة. وكان يطالب بعدد ٣٠٠ ألف برميل في اليوم لنفسه كهدية. وكان موقعه القيادي في الأسرة كرجل من رجال الدولة. يجعل أوامره دائما مستجابة. كما أن كبر سنه أعطاه مكانة عالية. بالطبع إلى جانب عنفه وحدة طبيعه- لذلك كانت بترومين تضع طلباته في المقدمة. وكان يستعين ببعض اصدقائه القساء الأجلات مثله. وهو لا يكتفى ببيع حصته في السوق الحرة ويقبض ثمنها فقط وإنما يقوم بدور الوساطة في بيع النفط ويحدد عمولته بنفسه ويعول باقي المبلغ إلى «بترومين» وقد تقدم إلى مرة أحد بائعي النفط بطلب من محمد أبو شرين وكان هذا الرجل يحمل ورقة قذرة عليها إمضاء الأمير محمد وختمه وقد اندهشت لرؤية الورقة والمظهر غير المتحضر لحاملها- واستغربت على ترك سلعة أساسية وحرة في أيدي مثل هؤلاء الأوباش لكي يتصرفوا فيها كما يريدون- وكان دخل محمد أبو شرين من هذه العمليات يتراوح ما بين ٢ إلى ٤ مليار دولار في اليوم. ولانعرف ما فعله بهذه المبالغ لكن أحفاده يعتبرون من المليارديرات ويعتبر أتباعه من المليونيرات.

كانت الأميرة حياة شقيقة الملك فهد تحتاج إلى بعض المال وذلك في خلال الثمانينات وطلبت من شقيقها بعض المال لكنه لم يكن يملك مالا كافيا تحت يده فكتب ورقة لشركة بترومين لإعطاء الأميرة مليون برميل لتبيعها في السوق الحرة وتستفيد بثمنها. وقد تم تسجيل المبلغ في دفاتر بترومين لأن فهد يرى أن حصول أخته على مثل هذا المبلغ لا يستحق الإخفاء. وعندما حاولنا معرفة كيفية صرفها للمبلغ علمنا أنها كانت تحتاج مبلغ ٣٠ مليون دولار لشراء ملابس من أسرة لبنانية اعتادت جلب ما تحتاجه العائلة المالكة من باريس وميلان وتقوم ببيعه لها بعشرة أضعاف السعر. وكانت الأميرة تقوم مثلا بشراء خمسين فستانا من هذه العائلة وتبعث بها كهدايا لأصدقاء ومعارف. وكانت الأميرة مودي بنت عبد العزيز مسرفة أيضا وقد اعتادت أخذ كميات

كبيرة من النفط من بترومين وبيعها. وقد حصلت مرة على حصة تبلغ مليون برميل وفي مناسبة أخرى حصلت على نصف مليون برميل. وقد عهدت إلى رجل لبناني اسمه منصور شفيق دحدوب ببيع النفط الذي يخصها وقد حصل على مبالغ كبيرة أكثر بكثير مما يستحق. مما أدى إلى إثارة قضية بخصوص الموضوع. ومن الصعب فهم احتياج امرأة تعيش في عزلة وتلبس الحجاب إلى مثل هذه المبالغ الضخمة. وربما كانت هؤلاء النساء تصرفن الأموال في السفر أو على الأتباع. لكن هناك أفراد في الأسرة لا يكتفون بالحصول على مبالغ محددة وإنما يدفعهم الطمع والشره ووجود هذا المال السائب إلى محاولة مضاعفة ثرواتهم بدرجة مذهلة. فيلجأون إلى أساليب ملتوية ومعقدة في سبيل ذلك. ومثال على ذلك حصول محمد ابن فهد على موافقة من أبيه في عام ١٩٨١ لبيع جزء من نفط «بترومين» لشركة يابانية «بتروموند»، وتبدو العملية في الظاهر كإحدى الصفقات الروتينية لكن بعض التحقيقات التي أجرتها صحيفة «وول ستريت جرنال» كشفت عن أن بتروموند هي جزء من المؤسسة المعروفة باسم (البلاد) التي يمتلكها الأمير محمد نفسه. أي أن سموه لم يكتفى بالعمولة وإنما أراد كسب المزيد من المال ويقال أن حجم هذه الصفقة قد بلغ ١١ مليون دولار في العام. والمعروف أن محمد بن فهد هو أحد المليارديرات العائلة وهو حاكم المنطقة الشرقية والمرشح لخلافة والده أي أنه في غنى عن مثل هذه الصفقة. ويتم بيع الحصص الأميرية في كثير من الأحيان دون مكاتبات أو إيصالات وفي حادثة أخرى حصل مجموعة من الأشخاص في مراكز هامة على موافقة ملكية للحصول على بعض أسهم شركة بترومين ويقال أن أحد أبناء أحمد زكي يمانى مشارك في هذا الأمر ومعه عبد الهادي طاهر المدير العام لبترومين. وفي عام ١٩٨٣ تعاقدت بترومين مع شركة بتروليا لإنشاء مصفاة ورغيب ووافقت على دفع أثمان العقد التي بلغت مليارات الدولارات- ويبدو الأمر ظاهرياً كإجراء مقايضة- لكن الصفقة كانت معقدة بعض الشيء وكان

المشرف عليها هو جون لاستيس الاغريقى أحد أصدقاء الملك المقربين وصاحب شركة بتروليا، وفى العادة يتم تحديد سعر النفط الذى يراد المقايضة به على أساس السعر الصافى- أى سعر النفط بعد تصفيته ناقصا تكاليف الترحيل والتكرير والتسويق- لكن النفط لم يشحن مباشرة إلى «بتروليا» وإنما بيع فى السوق الحر وذهبت الأموال إلى بعض السعوديين المرموقين الذين قاموا ببيع «بتروليا» بعد استلام العمولات. وتظهر بعض الوثائق التى نشرتها «سوراقيا» أن فهد شخصيا هو الذى وافق على الصفقة وكذلك كان يعلم بدور السعوديين الذين ذكرناهم، وقد أدت هذه العملية المعقدة إلى نزاعات قضائية ووصلت إلى المحاكم فى باريس وسويسرا وأماكن أخرى. وكان سبب المشكلة أن مجموعة إستثمارات كونينثال التى قامت ببيع النفط لحساب السعوديين تركت دون دفع نصيبها الذى يبلغ ١٣ مليون دولار. وقد قبضت نصيبها فيما بعد نتيجة لإجراء تسوية وكان نصيب المساهمين فى هذه الصفقة ٣٠٪ من سعر النفط الذى تمت المقايضة به.

وحاول عبدالهادى طاهر فى عام ١٩٧٩ بيع نفط لشركة البترول الإيطالية ENT واستخدم وسطاء أوروبيين لذلك- وتم حصوله على ١٠٠ ألف برميل فى اليوم لمدة تسعين يوما. وقدر سعر البرميل ب ١٩ دولار وهو نصف السعر الذى يتم الحصول عليه من الأسواق الحرة ومعنى آخر أن الشركة الإيطالية اشترت البرميل بنصف سعره. وتم التوقيع على العقد فى الرياض تحت اسم شركة بنسمية (من بناما) هى «سوفيلار». ولم يتم تسلم هذا النفط مطلقا. وحصلت الصحافة البريطانية على القصة. ولم يستطع طاهر تفسير بيعه للنفط بذلك السعر المنخفض. وتسلم طاهر مبلغ ١٧ مليون دولار كعمولة ولم تستطع الشركة الإيطالية ENT فعل شىء. ولم تحدث أى ردة فعل فى السعودية لأن طاهر فعل ما يفعله آل سعود يوميا. وكان لديه الموافقة الملكية المطلوبة. لكن تبقى أكثر القضايا درامية وإثارة هى التى اشترك فيها الأمير سلطان

وزير الدفاع وكمال أدهم صهر الملك فيصل ورئيس المخابرات السعودية السابق. وكانت المقايضة هذه المرة لشراء ١٠ طائرات بوينج ٧٤٧ للخطوط الجوية السعودية. وما يجعل هذه الصفقة فريدة هو حجم المبالغ التي دفعت فيها. وكان النفط المستختم لهذه المقايضة يبلغ ٣٤.٥ مليون برميل. والمعروف أن الأمير سلطان هو وزير الدفاع والطيران المدني أى أنه هو واضع القرار لاحتياجات الخطوط الجوية السعودية وهي أيضا الخطوط الداخلية الوحيدة المصرح بها. وفي عام ١٩٨٤ أعلنت الخطوط السعودية حاجتها إلى مضاعفة أسطولها وشراء ١٠ طائرات بوينج أخرى لتدعيمه. ولم يكن أحد يعلم السر وراء هذا القرار غير الأمير سلطان. وفوجيء خبراء الخطوط السعودية وصرحوا أن الأسطول لا يحتاج إلي المزيد من الطائرات لأن أعمالها تعاني من الهبوط بسبب انخفاض سرق النفط. كما أن السرعة التي إجريت بها الصفقة كانت مفاجئة لهم- وقد جاء القرار في أعقاب مغامرات تجارية فاشلة قام بها سلطان وكلفته بعض الخسائر. ويقال أنه خسر هذه الأموال لمشاركته في مشروع خاشقجي الضخم في مدينة «سالت ليلك سيتي» كما أنه خسر بعض استثماراته الأخرى في فرنسا- أى أن هؤلاء الناس يدخلون في مغامرات فاشلة ويجعلون الخزينة السعودية تدفع ثمن أخطائهم.

كان الأمر الآخر المزعج بخصوص زيادة أسطول البوينج هو عدم وجود ميزانية مخصصة له لذلك قرر سلطان المقايضة بالنفط ليدفع لبوينج ورولز روس -روزلورويس هي مصممة ماكينات بوينج- وبالطبع لاتهم الشركاتان بكيفية الدفع أو الأسلوب الذي لجأ إليه سلطان وإنما يهمها استلام حقها.

ودخل يمانى إلى الصفقة، ورفض دفع النفط المخصص للمقايضة لأن ذلك يسبب له حرجا مع أوليك كما أنه يعتبر انتهاكا لحصة السعودية التي حددتها أوليك مما يمكن أن يفتح الباب لآخرين ليفعلوا نفس الشيء. لكن محاولات يمانى لم تجدى ، ولم تنفع

شكراء للملك فهد. وأكملت العملية وقاض السوق بالنفط وانهار سعره. وقامت بلاد كثيرة برفع قضايا مما أدى إلى تخفيض أكبر للسعر وأضعاف لبنية الأسعار على مستوى العالم

أما صفقة كمال أدهم فقد حدثت في أوائل الستينات وذلك عندما حصلت شركة يابانية على حق التنقيب عن النفط في المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت. وكان أدهم يمثل الجانب السعودي في المفاوضات- وكان فيصل يرسله في كثير من المهام الخاصة التي لا يريد أن يعهد بها إلى أجنبي. ومكافأة لدوره في هذه الصفقة اعطاه فيصل نسبة ٢٪ من سعر النفط الذي تستخرجه هذه الشركة الجديدة. ولم يكن أحد يعرف قيمة هذه الهدية سوى تريكي وزير النفط السابق الذي قدرها بمليارات الدولارات. وقد اعترض تريكي على الأمر وأثاره في مجلس الوزراء. وقد فصل بعد شهور قليلة من هذا الحادث واستمر أدهم يحصل على نسبة الـ ٢٪ لمدة تجاوزت الخمسة وعشرين عاما حتى قام اليابانيون بإنهاء العقد. وقد كان لأدهم دورا أيضا في فضيحة بنك الاعتماد والتجارة وقام بإرجاع مبلغ ١١٥ مليون دولار للبنك ونرى أنه من العدل أن نشير إلى أن ولي العهد الأمير عبد الله ووزير الخارجية سعود الفيصل وقفا ضد هذه الأعمال ولم يشتركا فيها بالمرّة. وكان ليمانى وهشام ناظر شرف الاعتراض على صفقة البولنج. ويقول أحد سائقي التاكسي السعوديين «أن هؤلاء الناس يعتقدون أن هذا النفط يخصهم وحدهم لكنه يخصني أنا أيضا ولكنني لا أحصل على برميل واحد منه» وهذا الرأي يعبر عن إحساس معظم السعوديين. وفي أوائل الثمانينات كان النفط مزدهرا وقد قام معظم أفراد بيت سعود ببيعه في الأسواق الحرة واستفادوا من الفارق بين السعر الرسمي والسعر الذي يتم البيع به لنهب مليارات الدولارات- التي كانت من حق الخزينة السعودية لكن عام ١٩٨٤ شهد انخفاضا في الأسعار تبعه انخفاض في عائدات النفط مما أدى إلى هبوط بسيط في قيمة الريال السعودي. والذي يتأثر بهبوط

الأسعار هذا هم سائقو التاكسي وبقية المواطنين الغلابة. ويصبح السؤال هو: هل كان الريال سينهار لو أن الأموال ذهبت للخرينة العامة بدلا من جيوب الأمراء؟ والآن وفي عام ١٩٩٣ نجد بنوكا سعودية يدين لها فهد بيلايين الدولارات- وتقول بعض الروايات أن البنك الوطني يريد منه مبلغ ١.٥ مليار. وفي هذه الحالة ماذا سيفعل فهد وبقية آل سعود بخصوص هذه الديون؟ هل سيأخذون ملايين الهراميل من النفط وبييعونها لتسديد الديون؟ وبالتالي يفرقون السوق بالنفط ويخلقون وضعا يؤدي إلى هبوط آخر لسعر الريال؟.

الفصل الحادي عشر بعد فوات الآوان

بدأ البيت السعودي في التحلل كالجثة المتعفنة. ولم يعد أهله قادرون على وقف التلف الذي تسببوا فيه. ولأول مرة في تاريخه تتجمع عوامل فشله المحلية والإقليمية والعالمية لتقوضه. والشئ المختلف الآن هو صعوبة الغاء الخطر الداخلي المتزايد لأن السعوديين بدأوا يحسون بالحاجة لتجميع الصفوف والتصدي للممارسات العجيبة لآل سعود، وأصبحوا يطالبون علنا بالتغيير رغم أنواع القهر والتعسف الموجهة نحوهم. وفشل البيت السعودي كذلك في الاستجابة للتحدي الإسلامي، ولم يعد الغرب قادرا على حمايته أمام التيارات الجديدة.

ومالم تتخذ خطوات جادة لإنهاء التدهور في الأوضاع الداخلية فإن وصول الأصوليين الإسلاميين إلى السلطة في السعودية يصبح أمرا لا مفر منه. ويمكن لأي حدث طارئ الان الإسراع بزيادة الخطر الإسلامي القادم. فمثلا موت الملك المفاجيء يمكن أن يقلب الأمور ويزيد فرص الإسلاميين في الصعود للسلطة. ولا توجد طريقة أخرى لتقييم المستقبل الذي ينتظر آل سعود سوى تأمل المستقبل المنظور ويمكن أن تتم هذه التغييرات أو هذا الانقلاب في عام ١٩٩٧. لأن الديون السعودية سترتفع في ذلك العام من ٦٠ مليار إلى ١٠٠ مليار وسيواجه البلد أزمة سياسية نتيجة لذلك. ولعقود طويلة استطاعت الأموال السعودية امتصاص غضب المواطنين السعوديين لكن إلى متى؟ خاصة وأن الناس أصبحوا يطالبون الآن بمزيد من الحريات. والأزمة المالية القادمة لن تؤثر على آل سعود لأن لديهم أموال مكسدة تكفيهم لسنتين طويلة وإنما ستؤثر على المواطن العادي. وسرعان ما سيجد آل سعود أنفسهم في مواجهة المواطنين العاديين

الذين هضمت حقوقهم على مدى سبعة عقود. وهى مواجهة تقليدية بين الذى يملك والذى لا يملك. والفجوة متسعة بالفعل بين الإثنين أكثر مما فى أى مكان فى العالم. وتشمل أرقام الميزانية لعام ١٩٩٣ عجزاً قدره ٩ مليارات دولار. لكن العجز الفعلى أكثر من ذلك بكثير. والحكومة قدرت هذا المبلغ على أساس أن سعر برميل النفط ٢١ دولار كما أنها لم تضيف القروض التى تأخذها شركات حكومية كبرى مثل ارامكو وسابيك وشركات الكهرباء والتليفون. وإذا ما أضفنا قيمة هذه القروض ووضعنا رقماً واقعياً لسعر برميل النفط مثل ١٧ دولار للبرميل فإن العجز يصبح ١٥ إلى ٢٠ مليار أى بنسبة ٣٠ إلى ٣٥٪ من مجمل عائدات الحكومة. ويقول أحد الضباط بصندوق النقد الدولى أن الأرقام التى يضعها هؤلاء الناس لا يمكن التأكد منها. وتنعكس توقعات الميزانية للأعوام ١٩٩٤ و ١٩٩٥ نفس الشيء. لأن السعورية ملتزمة بسياسات إنفاقية يمكن أن تبقى العجز فى معدل ١٥-٢٠ مليار دولار سنوياً أو تزيده لمدة ثلاثة أعوام على الأقل. والديون تبلغ ١٠٠ مليار دولار أو ما يساوى عائد النفط لمدة عامين (على أساس السعر الحالى وهو ٤٥-٥٠ مليار دولار فى العام). وقدرة البلد على الاقتراض من السوق المحلية أو العالمية مشكوك فيها. وربما تصبح أكثر محدودة أو تنتهى كلية. كما أن تزايد قيمة خدمة هذا الدين يمكن أن تبطل أى محاولة لتقليله. وسيعقب ذلك انخفاض فى ميزانيات الوزارات (ماعداً بالطبع وزارة الدفاع وإدارة البيت الملكى) وتشارك الالتزامات الدفاعية والعقود العسكرية فى صعوبة إجراء تخفيضات ذات معنى. وتحاصر ممارسات العائلة المالكة الموقف بأسره - برغم عدم وجود مسوغ لها. وسيؤثر تقليص الصرف العام على أوجه الأعمال والحياة الفردية للناس. وسينخفض مستوى المعيشة أكثر من ذى قبل وهو قد انخفض أصلاً بنسبة ٥٠٪ من أعلى معدل له فى عام ١٩٨٢. وسوف تصاب الحكومة بالعجز ويصبح بيت سعود أقل شعبية من ذى قبل. وستتبع ذلك أزمة سياسية واضطرابات وفوضى. ولن

يكون بإمكان الغرب المساعدة لأن مواطني أمريكا وأوروبا غير مستعدين لحماية العرش السعودي الذي يعيث بشروات مواطنيه وينفق بهذا الشكل الخرافى- خاصة وأن الغرب قد تلجأ من قبل فى تحدة الاتحاد السوفيتى ومصر.

ومن المتوقع أن يرتفع انفاق السعودية على الأغراض العسكرية إلى أعلى معدل له فى عام ١٩٩٧ (يشكل هذا الإنفاق الآن ٣٥٪ من الدخل القومى)، لأن البلد قد وقع بالفعل عقودا تبلغ قيمتها مليارات الدولارات مع كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وكندا والبرازيل لشراء طائرات F15 وتورنادو وطائرات هليكوبتر ودبابات وحاملات مدرعة وسفن حربية وزوارق طوربيدو وأجهزة رادار الى جانب عشرات العقود لشراء معدات صغيرة وتبلغ تكلفة هذه الأشياء من ٢٩ إلى ٣٣ مليار دولار. كما أن تخفيض الرواتب الضخمة والامتيازات الشخصية لأفراد القوات المسلحة غير ممكن الآن مع ازدياد الضغوط التى قارسها الجماعات الإسلامية. ومن ناحية ثانية لايفكر البيت السعودي مطلقا فى تقليل إنفاقه، كما أن الملك لا يظهر ما يدل على فهمه لحقيقة الموقف. وعددية أفراد بيت سعود فى تزايد. ويريد صغار السن الوصول إلى سن البلوغ للإلتزام لزمرة المليارديرات. والمعروف أن الملك وأفراد بيت سعود هم الذين تسببوا فى وجود هذه الديون الضخمة، ولكنهم لاينوون تسديدها لمنع انهيار النظام البنكى.

والمنطقة الثالثة التى ستتأثر بالنقص هى الدعم الحكومى الكبير للمواد الغذائية، والبترين والتليفون والكهرباء، ومجالات الخدمات الأخرى، لكن الوضع السياسى يمنع التعرض لهذه الخدمات الحساسة.. وقد جرت محاولة فى عام ١٩٩٢ لتخفيض الدعم الحكومى على بعض الخدمات لكنه فشل بسبب احتجاجات المواطنين مما اضطر الملك فهد لزيادة الدعم بدلا من خفضه ومن ناحية أخرى فإن الإبقاء على السياسات الحالية دون تعديلها لمقابلة التضخم يعنى ضرورة زيادة الدعم الحكومى.

أما المنطقة الرابعة التى يمكن أن يحدث فيها تخفيض فهى المساعدات المادية للبلاد

العربية، لكن تزايد خطر الجماعات الإسلامية في بعض الدول مثل مصر وسوريا يمنع قطع المساعدات عن هذه الدول لأن السعودية تحتاج مساعدتها لمواجهة إيران المسلحة ومواجهة المجموعات الإسلامية في السودان وبلاد أخرى مجاورة، وحتى ولو قامت السعودية بوقف المساعدات العربية فإنها ستوفر ٣ مليارات دولار فقط وهي لا تساعد كثيراً. وفي نفس الوقت ما تزال الضغوط تتزايد على السعودية للحفاظ على مركزها العربي والإسلامي. كما أن سياسات البيت السعودي لمواجهة الحركات الراديكالية سيوجد حوجة إلى تقديم مساعدات مالية لبلاد مثل البوسنة وجمهورية الاتحاد السوفيتي الإسلامية. ويبقى الحل الوحيد للمشكلة هو زيادة إنتاج النفط أو زيادة أسعاره، وكلا الحلين فيه تعقيدات. والسعودية تنتج الآن ٨.٥ مليون برميل نفط في اليوم ولا تستطيع زيادة ذلك إلا بالتنسيق مع أعضاء أوبك. ويمكن لأوبك أن توافق على زيادة محددة لأسعار النفط ولكن هذا التصرف سوف يغضب أمريكا. وهي الشيء الوحيد الباقي للسعودية. وبالتالي يصبح أمر زيادة الإنتاج أو الأسعار غير مناسب خاصة وأن هناك إمكانية تعاظم دور العراق كقوة نفط رئيسية.

والأزمة المادية في السعودية غير واضحة الآن - وإن كانت بعض الجهات في أمريكا تعلم بالوضع. وسوف تصل الأزمة المادية إلى قمتها في عام ١٩٩٧ - وسوف يساعد الأصوليون الإسلاميون في تصعيد الموقف. ولا يكثر أفراد بيت سعود الآن لكل هذه الأمور وهم مشغولون بطموحاتهم الشخصية ولهوهم.

وتقول تقارير البنك الدولي أن دخل الفرد في السعودية قد هبط من ١٤.٣٠٠ دولار في ١٩٨٢ إلى ٧.٠٠٠ في عام ١٩٩٢. ويوجه اللوم إلى بيت سعود لقيامه بتبديد الاحتياطي المالي للبلد الذي انخفض من ١٤٠ مليار دولار في عام ١٩٨٢ إلى ٦٠ مليار دولار في التسعينات. وعلى الصعيد العربي فإن الثلاثة سنوات القادمة ستشهد تدهوراً في العلاقات السعودية - العربية. ويعمل أعضاء مجلس التعاون

الخليجي على إشراك مواطنيهم في الحكم لكسب رضاهم ومنع المشاكل وهنا مالا تريده السعودية . وتواجه مصر وسوريا ضغوطا داخلية مما يمكن أن يؤثر على تأييدها للغرب كما أن السعودية لا تخدم بما يكفي للمحافظة على ولايتهم وهم قلقون من عدم استجابتها للتغيرات الإقليمية والداخلية. وعلاقات السعودية سيئة مع العراق والأردن وفلسطين واليمن وليبيا والسودان، وفاترة مع الجزائر والمغرب وتونس، ولا تستطيع الآن دفع كثير من المال لإرضاء هذه البلاد. والمواطنون السعوديون قلقون من عزلة السعودية العربية.

أما على الصعيد الإسلامي فموقف السعودية ليس أحسن حالا. فهي تواجه غضب الجماعات الإسلامية الأصولية. والعالم الإسلامي مستاء من ممارسات الغرب في البوسنة وعلم قيام السعودية بإجراء ضغوط لمساعدة هؤلاء الناس. والأصوليون الإسلاميون في إيران والسودان والباكستان وأفغانستان وماليزيا يعارضون سياسات بيت سعود المؤيدة للغرب. وقد تزايد إعجاب المواطنين السعوديين بهذه الحركات . وبهذا يصبح موقف بيت سعود ضعيفا ويتزايد اعداؤه وهو الآن ليس له صديق غير الغرب والمحروف عن الغرب أنه لا يتحرك لنجدة أصدقائه إلا بعد فوات الأوان . وإن كان الغرب قد أيد بيت سعود وسانده في الماضي إلا أن كثير من الأشياء قد تغيرت الآن خاصة بعد الفشل الواضح لسياسات بيت سعود الداخلية والعربية والإسلامية. ويصبح الوقت في غير صالح بيت سعود. ولكي نفهم ماسيحدث فإننا يجب أن نفحص بعض الأمور المرتبطة بالنفط. فكما هو معلوم فإن الغرب يعتمد كثيرا على نفط السعودية وهو يشكل ٢٥٪ من وارداتها. والبيت السعودي حريص دائما على تدفق كميات كبيرة من النفط إلى الغرب ويستخدم احتياطييه المهرول للضغط على الجميع لينفذ ما يرغب فيه- وفي نفس الوقت ليس للسعودية خيار سوى بيع النفط للبلدان الصناعية وحتى إذا ما تغير الحكم السعودي وصعد الإسلاميون إلى السلطة في السعودية فإنهم لا يستطيعون إيقاف إمدادات النفط إلى الغرب. والذي يجب أن يشغل

تفكيرنا هو القطع المفاجيء للنفط وآثار تغيير الحكم فى السعودية وأثر ذلك على أسعار النفط وتدل كل المؤشرات على أن تغيير السلطة فى السعودية لا يمكن أن يتم بطريقة هادئة ومسالمة. وإنما سيزج بالبلد فى موقف إسلامى عسكرى. وقيام نظام إسلامى فى السعودية لن يحتاج إلى دعم من الغرب ليستمر. لذلك فإن ما يحتاجه الغرب هو بيت سعودى بسياسات جديدة مرنة. وبالطبع يمكن أن يوجد خوف من أن قيام أيديولوجية جديدة فى السعودية ربما يزدى إلى فوضى واضطرابات تتسبب فى تقسيم البلد إلى ولايات صغيرة مشاكسة وربما كان الغرب يرى أن بيت سعود يحافظ على وجود تأثير معتدل فى المنطقة وأن المساس به سيعرض الاستقرار الإقليمى للخطر، مما يجعلهم يوازنون بين اختفاء بيت سعود وانتشار حركات راديكالية معادية للغرب فى المنطقة. وهناك اعتبار آخر وهو أن قيام نظام راديكالى إسلامى فى السعودية يمكن أن يستخدم مكة والمدينة كمراكز لتحقيق الزعامة الإسلامية التى فشلت فيها السعودية- بصرف النظر عن نتائج مثل هذا الأمر، ويمكن أن يتسبب غياب السعودية فى تأجيج القضية الفلسطينية والإعداد لمعركة مع إسرائيل تقودها الحركات الإسلامية. وكل هذه الاعتبارات ما تزال موجودة وممكنة ومانريد أن نصل إليه هو أن تأييد بقاء السعودية أصبح غير مشعر وتجاوز الزمن. وقد تسببت الضغوط الداخلية فى القاء بعض الممارسات التاريخية لبيت سعود مثل تجاهله لحقوق المواطنين وإخضاع سياساته النفطية لرغبة أفراد الأسرة ويبقى الخيار أمام البيت السعودى هو إما إحداث تغيير بخصوص هذين الأمرين أو أن ينتظر نهايته. ولم يعد للبيت السعودى قدرة للتأثير على السياسات العربية والإسلامية كما أنه لم يعد له تأثير على بعض القضايا المصيرية مثل القضية الفلسطينية.

والمواطنون السعوديون مصممون على المشاركة فى السلطة ويريدون كسر احتكار بيت سعود لها. ويريدون إيقاف تبديد الثروة وإصلاح النظام التشريعى وتعديل

السياسات الخارجية. ولا يريدون استخدام نفطهم أو مالههم في رشوة الغرب لما لانهاية.. وإنما يريدون علاقات طبيعية وعادية بين المنتج والمستهلك لاتعرقها المصالح الذاتية. ويجمع كل المواطنين السعوديين على أن سياسات النفط الحالية تعتمد على رغبات أنانية ضيقة تتجاهل الفرد السعودي. ويرون أن خلاصهم يكمن في الإدارة الصحيحة لثروة البلد النفطية. وقد تواصلت الضغوط على بيت سعود لكي يغير هذه السياسات أو يواجه بانقفاضة شعبية. وبذلك تصبح رغبة الغرب في أبقاء السلطة داخل بيت سعود مجرد أمنية. كما أنه لا يستطيع احتلال السعودية لأن ذلك سيخلق مشاكل أكبر. وسوف تلتف الأزمة الاقتصادية القادمة انتباه الناس إلى كل هذه الأمور وستوحدهم وستخلق لديهم الرغبة في معاقبة الحكام الذين تسببوا فيها. ولن يفقد السعودية دورها في الماضي في توحيد البلد بشئ. وفي الواقع فإن تصرفات كثير من أعضاء بيت سعود تعمل على تقسيم البلد وليس توحيد. وفوق كل ذلك لن يستطيع الغرب إسكات الأصوات المطالبة بالتغيير داخل السعودية. وحتى البلاد العربية التي مازالت تدين بالولاء لبيت سعود فإن السعودية لن تكون قادرة على دفع ثمن ولائها. كما أن هذه البلاد تعاني من المشاكل الداخلية. مما يجعلها تستجيب لرغبة مواطنيها الذين يريدونها أن تبتعد عن بيت سعود وسلوكياته المشيرة للشك. ونفس الشيء ينطبق على العالم الإسلامي. ومالم يحدث تغيير ما في القريب العاجل فإن الجماعات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي ستكسب وضعا يمكنها من الإطاحة ببيت سعود والسعودية لم يعد لها تأثير على القضية الفلسطينية بعد أن قبل الفلسطينيون مبدأ التسوية السلمية. لذلك يتوجب على الغرب أن يعمل بجدية لإيجاد حل لهذا الموقف كله لإنهاء الفرقة العربية الغربية، والإسلامية الغربية والوقت مناسب لزعماء الغرب لكي يحققوا ما أرادوه دائما وهو تحقيق موازنة ما بين الحفاظ على حقوق الإنسان والحفاظ على المصالح السياسية لأن الاستمرار في السياسات الخاطئة يمكن أن يؤدي

إلى نهاية مفاجئة. وماعدا في عهد الرئيس كنيدي فإنه لا يوجد زعيم غربي أحس بالدمار الذي يمكن أن يسببه الاعتماد التام على البيت السعودي على المدى الطويل. وقد استطاع كنيدي أن يفرض على البيت السعودي سياسات معتدلة تجعله حليفاً مناسباً وحارساً جيداً للمصالح الغربية. ومن الواضح أن الأسباب الداعية لتأييد البيت السعودي قد دمرت نفسها، وحين الوقت كى يبدأ الغرب باتخاذ إجراءات دراسية وجنرية ومباشرة. وهذا هو أمل الغرب الرجيد لوقف استيلاء الجماعات الإسلامية على السلطة في السعودية. وعليها القيام بانقلاب سياسى كامل فى السعودية. ومع أن تغيير السلطة السعودية يمكن أن يسبب عدم ارتياح اقتصادى مؤقت إلا أنه بديل يستحق المراهنة عليه. ذلك أن تغيير حكم آل سعود يعطى الغرب الفرصة لبناء جسور مع الحركة الإسلامية، وتطويق غضبها لأنه قد فات الأوان لمواجهتها.

وهناك عناصر داخل الحركة الإسلامية الفاضية تؤيد الحوار مع الغرب وتقبل بإيجاد أرضية مشتركة معه بدل معاداته، وهو أمر أفضل من التدمير الذاتى الذى يحدث الآن فى السعودية ويجب على الغرب فرض خطوات عملية لوقف الفوضى الاقتصادية التى تحتاج السعودية الآن ويشمل ذلك التبريد الهائل للثروة على أغراض الدفاع المزيفة والسماح للسعودية برفع أسعار النفط بفرض إرضاء المواطنين. واستخدام الأموال الناتجة عن رفع أسعار النفط فى تحسين خدمات الصحة والتعليم والأغراض الاجتماعية. ويجب على الغرب إرغام الملك فهد على إنشاء مجلس شورى مستقل وحقيقى أو أى جسد برلمانى له قوة التشريع، ووقف التفرقة الدينية ضد بعض الجماعات مثل الشيعة وكذلك انها، احتكار آل سعود للحكم ووقف احتكارهم للتجارة والأعمال. ويجب قبول الأصوليين الإسلاميين كحركة سياسية لكسر درجة عدائهم للغرب بوصفه المسؤول عن ممارسات وتجاوزات آل سعود. ويجب تنظيم تولى العرش السعودى وإخضاعه لضرورة الإصلاح الملحة. فالأميران اللذان يقفان فى طابور تولى

العرش وهما عبد الله وسلطان غير ملاتين لهذا، وعليهما بالتنازل، ويمكن أن تعين بعض الشخصيات النظيفه مثل سعود الفيصل أو الأمير سلمان لتولى العرش، ويجب أن تسود مفاهيمها المتحضرة بدلا عن مفاهيم فهد وأن ينشأ جهاز يعتمد على المهبة والكفاءة لإدارة شؤون الحكم. والتدخل فى الشؤون الداخلية ليس جديدا على الغرب فهو قد أخطر صدام بالكيفية التى يتعامل بها مع الشيعة والأكراد وأخير مصر بكيفية إدارة شؤونها المالية ويمكنه إخبار السعوديه بما يريد. وكل شيء ممكن التحقيق لأن البيت السعودى اعتاد عدم التصرف دون مشورة الغرب وهو لا يستطيع معاداة الغرب كما أنه لا توجد قوة أخرى يلجأ إليها وهو أيضا غير قادر على معاقبة الغرب ووقف النفط عنه. أما عدم الاستجابة لهذه الأفكار بسرعة فإنه يفتح الباب أمام الأزمة الاقتصادية وسرع بوضع نهاية لبيت سعود .

وأخيرا فإن المغامرة بإحداث برنامج إصلاحى يعتبر فى هذا الموقف سياسة دفاعية طويلة الأمد، تضمن استمرار تدفق النفط أكثر من السياسات الحالية، كما أنها تمنع وقوع حرب بين الغرب والمسلمين من أجله. وإدخال بعض هذه الأفكار وليس جميعها سيحسن الموقف داخل العربية السعودية وسيحسن من صورة الغرب أمام العرب وداخل السعودية ووسط المسلمين. وبالتالي يوقف المسيرة نحو مواجهة غير ضرورية مع الجماعات الإسلامية فى كل مكان. وحتى إذا ما قامت حركة مفاجئة الآن وفتحت أبواب المحيم أمام الغرب فإن موقفه سيكون أفضل لأنه حاول ، وسيجد أنه ليس من الصعب العيش مع البدائل التى طرحناها. ولكن إذا لم نتحرك فإننا سنواجه بثورة إن لم يكن فى عام ١٩٩٧ فبعده. ودون وقف للانهيار القادم للبنية المالية فإننا لن نستطيع تطبيق ما سوف يحدث. كما أن احتواء الموقف دون تحقيق إصلاحات سيؤدى إلى فراغ هائل يتجاهل الرغبة الملحة للفرد السعودى فى الحصول على حريته وحقوقه وكرامته.











